التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٧)

المواقف الأخلاقية

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جدة

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شـارع منشـا - محـرم بك - الإسـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضـراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص . ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . .

وبعد : فأحمد الله تعالى على أن يسر لي إتمام هذه السلسلة التاريخية، التي اشتملت على السيرة النبوية، وعهد الخلفاء الراشدين، وعهد الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة .

وهاأنذا أقدم المجموعة الأخيرة من هذه السلسلة ،وهي تشتمل على أربعة كتب: **الكتاب الأول في المواقف الأخلاقية**،وهو ماتضمنه الجزء السابع عشر، **والثاني في المواقف العلمية** ،وهو ماتضمنه الجزء الثامن عشر، **والثالث في المواقف السلوكية** ،وهو ماتضمنه الجزء التاسع عشر، **والرابع في المواقف التربوية**، وهو ماتضمنه الجزء العشرون.

هذا وقد اعتمدت في إعداد هذه المجموعة على كتب مهمة في التاريخ والتراجم، أبرزها « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ومختصره « صفة الصفوة» للحافظ أبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي، و « الطبقات الكبرى» للمؤرخ محمد بن سعد بن منيع الزهري، و« تاريخ بغداد» للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، و« سير أعلام النبلاء» للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، و« البداية والنهاية» للحافظ أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، و«طبقات الحنابلة » للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى وذيله للحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد « ابن رجب»

و«تاريخ دمشق » للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن « ابن عساكر» .

وهؤلاء الأعلام كلهم من الحفـاظ والعلماء الكبار في علم الرواية الذي تقوم عليه مادة هذه المجموعة .

وهذه النصوص المخـتارة في مجـالات الأخلاق والعلم والسلوك والتربيـة هي مما لم يسبق له ذكر في الموضوعـات التاريخية السـابقة، فالأعلام الذين لـم تذكر لهم أخبار في هذه المجالات يـكون قد سبق لهم أخبار - في الغالب - في الموضوعات التاريخية .

ولقـد كان أصل هذه السلسلة برنامـجا إذاعـيًّا بعنوان « مـواقف إسلامـية » وقد تمت إذاعـته من إذاعـة القرآن الكريم بالمملكة العـربية السعـودية، ثم وسعته كـثيرًا بما يلائم كتـابًا كبيرا قُـصد منه استيـعاب ماأمكن من مواقف المسلمين عَبْرَ تاريخهم المديد .

ولما كانت البرامج تُعرض على مراقبين لإقـرار صلاحيتها أو عدم ذلك فإن أحد المراقبين وهو سعادة الأستاذ هاشم محمد سعيد دفتردار المدني قـد نور الله تعالى بصـيرته فـقارن بين مـضمـون تلك المواقف وواقع المسلمين المرّ فأرسل إليّ خطاب تأييـد وتشجيع وذلك في السنة الأولى لإذاعة ذلـك البرنامج في عـام ١٤٠٨هـ وإنني إذ أثبت خطابه في هذه المقدمة بـنصه لاعتزازي به فإنني أشكره عـلى ماقدم من ذلك وأدعو الله تعالى له بالتوفيق والسداد وجزيل الثواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم رسل الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سعادة الأستاذ الجليل الدكتور عبد العزيز الحميدي، الأستاذ في كلية الدعوة بمكة المكرمة حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،،،

فإني أُراقب الكلمات التي تذاع في المملكة كأبي تُراب وكعَلَم الدين وسواهم، وبما أنه تُعرض عليَّ كلماتكم الرائعة ذات الأُسلوب السهل الممتنع والفن الدقيق والتنسيق الرائع، والقدرة على اختيار الموضوعات ذات القيمة الأدبية والروحية والإنسانية والسلمية .

هذا الاختيار راعني وَيْمُ الله، وكم أعدت الكلمات وبكيت كثيراً لأني أُحسُّ بعظمة الإسلام حين أسمعها، وبعظيم التضحيات من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم الذين قَدَّمُوا لهذا الدين السماوي العظيم المنزل من رب العالمين، والذي هو خاتم الأديان السماويَّة. قدموا له كل مايملكون في أنفسهم من فكرٍ وعلمٍ وعاطفةٍ وإيمان واستقامةٍ وتقوى، وكل مايملكون في أيديهم من ثراء، لأنَّهم عرفوا أنَّ العزة هيَ عزة الله، وأنَّ العلم هو علم الوحي والحق، وقد ألهمكم الله أن تختاروا أعظم حوادث التاريخ التي أُقيمت لها دعوة الإسلام

في كل البلاد ولاريب أنَّكم مـادمتم تواصلون الجهاد والسُّهـد والسَّهر والنصب في بسط هذه الموضوعات القيِّمة في كتاباتكم فأنتم ستصلون إلى حكم قضاة الإسـلام العادل ومسئولية الدم التي أباحـها أعداء الله في هذا الزمان .

أجل يا أُستاذ إنِّي أسمع كلماتكم بإصغاء وأَود من صميم قلبي أن يسمعها كل شاب مسلم بل كل شاب إنساني، لذلك لاأقول يجب أن تجـمع في كتـاب باللغـة العربيـة فقط، بـل تُجمع وتتـرجم إلى كل اللُّغات، وقد أشرت إلى المشرفـين على الإذاعة بهذا الموضوع وذكرت لهم تأثيـر أمثال هذه الكلمـات حين تُتلى في الجامـعات على الشـبان بلغاتهم وفي النوادي .

لذلك أُقَدِّر جـهادكم ونضالكم ، وأضـرع إلى الله تعالى أن يُديم عليكم ذلك،وأن ينفع به المسلمين وغير المسلمين في كل البلاد، لأني رأيت في أسفاري إلى أُستراليا وأُوروبا كثـيراً من الشبان غير المسلمين حزانى لما يرون من هذه العُدد الجهنمية ومن هذه الأحقاد التي تُذاع في كل مكان، وهذا الاستـهتار بحيـاة الجماعات والأفـراد مما لم يسبق له مثيل في الأرض. ناهيك يا أُستاذ وقـد مَرَّت الأُمم بنكبات وبأحقاد ، وهي بعيدةعن وحي الله وعن هداه ولكن لم تمر في عصر من العصور على هذا الذي نُشـاهـده من الدَّمـار ومن الخـراب في الأوطان وهذه الأحقاد التي تُذاع وتُدس في كل مكان .

وكان الأجـدر بهم وهم في عـصر العلم، ولاشيءَ في الوجـود يوحِّـد القُلوب وينسِّق الأَعـمـال ويُطَهِّـر النيَّات ويـبيـد لوثة الغـرائز

الوحشية وظلماتها من الأنفس مثل العلم، وأقصد بالعلم العلم المشتمل على الإنسانية وروح الإيمان والخير والبركة والصعود الحضاري الذي يكشف أسرار عوالم الوجود وعظمة الله سبحانه وتعالى، ولاأقصد بالعلم الذي ينضح بالإلحاد والفجور والنزوات الصاخبة والبلايا والأحقاد .

لذلك أُحب أمثال موضوعاتكم ، لو تهتم بها الكَتَبَة لدينا، وفي أُوروبا وفي العالم الإسلامي لعلَّ الله ينقذ الإنسانية من بلايا عُدَدِهَا التي بلغت المدى ولايعلم إلاَّ الله ماتكون النهاية . . .

والنهاية لاتكون بخير إلى خير إلاَّ بالإيمان بالله جلَّ جلاله وبخاتم الوحي الآلهي وبأمثال كلمات الإسلام العليا التي يستنبطها أمثالكم من تاريخ الإسلام في أدواره الذهبيَّة وعلى كل حال فالمجال طويل، ولكن أقول هذه الأبيات وإنْ شاءَ الله ستصدق عليكم . . .

رأَيْتُكَ أمسِ خير بني لُؤَيٍّ   وأَنت اليوم خير منك أَمس

وأَنت غداً تزيد الخير ضِعْفًا   كذاك تزيد سادة عبد شمس

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

هاشم محمد سعيد دفتردار المدني

مواقف وعبر

في

الحلم والعفو

مثل من حلم رسول الله ﷺ وعفوه :

سبق ذكر أمثلة مما كان يتصف به رسول الله ﷺ من الحلم والعفو، وأضيف في هذا الفصل مثالا من حلمه وعفوه كان سببا في دخول أحد أحبار اليهود في الإسلام، وذلك فيما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني بإسناده من خبر محمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : إن الله عز وجل لما أراد هُدَى زيد بن سعنة[1] قال زيد بن سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لأَنْ أخالطه فأعرف حلمه وجهله .

قال : فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يارسول الله إن قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، فكنت حدثتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا، وقد أصابتهم سَنة وشدة وقحوط من الغيث، وإني أخشى يارسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعا، فإن رأيتَ أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به .

قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه أُراه عليّا فقال:

---

(١) هو أحد علماء اليهود ، واختلف في اسم أبيه فقيل سعنة بالنون وقيل سعية بالياء والأول أشهر .

مابقى منه شيء يارسول الله[1]، قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه فقلت: يامحمد هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا ، فقال : لايايهودي ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا ولا أسمي حائط بني فلان [2]، قال: فقلت : نعم فبايعني، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا ، فأعطى الرجل، وقال: أعجل عليهم و أغثهم بها.

قال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة وخرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس عليه أتيته فأخذت بجوامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : ألا تقضيني يامحمد حقي فو الله ماعلمتكم يابني عبد المطلب إلا لَمُطْل[3]، ولقد كان لي بمخالطتكم علم .

قال : فنظر إليّ عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني بطرفه وقال: ياعدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ماأسمع وتفعل به ماأرى ! فوالذي بعثه بالحق لولا ماأحاذر فَوْتَه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ، وتبسَّمَ ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر،

---

(١) يعني فهم علي أن رسول الله ﷺ يسأله عن مال معين .

(٢) يعني لأنه قد لايثمر الحائط المذكور فلا يمكن الوفاء منه .

(٣) يعني لاتؤدون الحقوق .

أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة [(١)] ، اذهب ياعمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان مارُعْتَه .

قال زيد : فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعا من تمر ، فقلت : ماهذه الزيادة ؟ فقال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان مارُعْتُك ، فقلت : أتعرفني ياعمر ؟ قال: لا، فقلت: أنا زيد بن سعنة ، قال : الحَبْر ؟ قلت : الحبر ، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ماقلت وتفعل مافعلت ؟! قال : ياعمر ، كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولايزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فقد خبرتهما، فأُشهدك ياعمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالا - صدقةٌ على أمة محمد ﷺ ،فقال عمر:أو على بعضهم فإنك لاتسعُهم كلَّهم ، فقال : أو على بعضهم .

قال : فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمن به وتابعه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة [(٢)] .

وأخرج هذا الخبر من هذا الطريق الإمام الطبراني وابن حبان والحاكم وأبو الشيخ ، كما ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني وذكر أن رجال الإسناد موثقون [(٣)] .

---

(١) أي طلب الحق .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٢٣ - ٢٤ .

(٣) الإصابة ٥٤٨/١ ، رقم ٢٩٠٤ .

فهذا الخبر يدل على اتصاف النبي ﷺ بالكمال في صفتي الحلم والعفو، فإنه قد واجه الإهانة القولية والفعلية من ذلك الرجل، فتحمل ولم يغضب، وإنما واجه هذا الموقف بالسكون والطمأنينة، وأنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ماقام به من مخاطبة ذلك الرجل بالشدة و الإرهاب، ووجَّهه إلى مايتطلبه الموقف فيما لو تكرر ذلك المشهد، وهو أن يكون له جُهْد في امتصاص غضب أصحاب القضية، وذلك بتذكير كل طرف بواجبه، وهذا من تواضع النبي ﷺ، لأن ذلك الرجل قد جاء يتقاضى حقه قبل موعد حلول الدين، فليس النبي ﷺ بحاجة إلى أن يُذكَّر بحسن القضاء، ولكنه ﷺ أتحف أمته بهذا التوجيه الحكيم لمن حضر مثل هذا المشهد حتى يمكن القضاء على الخلاف قبل أن يتحول إلى عداء وخصام.

هذا وينبغي الإشادة بموقف عمر رضي الله عنه الذي جعل من نفسه حاميا لرسول الله ﷺ يَرُدُّ عنه صولة السفهاء والجاهلين، فهيأ بذلك جوّاً من الهيبة يجعل الأعداء يحسبون حسابا كبيرا قبل أن يقدموا على مخاطبة النبي ﷺ.

ولقد أثمر توجيه النبي ﷺ في سلوك الصحابة رضي الله عنهم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبدو حليما عفوّاً عن من جهل عليه، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عُيَينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانا،

فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخـي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قـال ابن عباس : فـاستأذن الحـر بن قيس لعيـينة ، فأذن له عمـر، فلما دخل عليه قـال: هيْ يا ابن الخطاب [1] فو الله مـاتعطينا الجزل ولاتحكم بيننا بالعدل ،فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: ياأمير المؤمنين إن الله تعالى قال ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، قال: والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالى [2] .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من مـواقف أبي بكر وعمـر رضي الله عنهمـا في الحلم والعـفو ماذكره السـيوطي ونسبه إلى عبـد بن حميد وابن أبي حـاتم من خبر ميـمون بن مهـران : أن أعرابيا أتى أبا بكر فـقال: قتلت صـيدا وأنا محرم فما ترى عليَّ من الجـزاء ؟ فقال أبو بكر لأبيّ بن كعب - وهو جالس عنده - : ماترى فـيها ؟ فقال الأعرابي : أتيـتك وأنت خليفة رسـول الله ﷺ أسـألك فـإذا أنت تسـأل غـيـرك ، قـال أبو بكر : فماتنكر؟ يقـول الله تعالى ﴿ **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة: ٩٥] فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به [3] .

فهذا مـثال لما كان يتصف بـه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من الحلم والعفو حيث لم يؤاخذ ذلك الأعرابي الذي أنكر عليه بشيء من الجفاء .

---

(١) هي صيغة تنبيه أي تنبَّه .

(٢) صحيح البخاري ، التفسير ، حديث رقم ٤٦٤٢ (٨/ ٣٠٤) .

(٣) الدر المنثور ٢/ ٣٢٩ .

وفي هذا المعنى أخرج ابن جرير الطبري من خبر قبيصة بن جابر قال: خرجنا حجاجا ، فكنا إذا صلينا الغداة [1] اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث، قال: فبينا نحن ذات غداة إذا سنح لنا ظبي أو برح[2] فرماه رجل منا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه [3]، فركب ردعه ميتا[4] قال: فعظَّمنا عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر ، فقصَّ عليه القصة ، قال : وإذا إلى جانبه رجل كأن وجهه قُلْبُ فضة[5] - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت إلى صاحبه فكلمه، قال: ثم أقبل على الرجل قال : أعمداً قتلته أم خطأ ؟ قال الرجل : لقد تعمدت رميه وماأردت قتله ، فقال عمر : ماأراك إلا أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها، وأَسْقِ إهابها[6] .

قال : فقمنا من عنده فقلت : أيها الرجل عَظِّم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين مايفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعلِ ذاك [7] ، قال قبيصة : ولاأذكر الآية من سورة المائدة ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٥] .

---

(١) يعني صلاة الفجر .

(٢) سرح أتى من اليسار وبرح أتى من اليمين .

(٣) الخشاء هو العظم الدقيق العاري من الشعر الناتئ خلف الأذن .

(٤) أي خر لوجهه ميتا على دمه .

(٥) القلب بضم القاف وسكون اللام السوار ، أراد وصف وجهه بالبياض .

(٦) أي أعط جلدها من يدبغه ويتخذه سقاء .

(٧) يعني يجزئ عنك .

قال : فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرة [1] قال: فعلا صاحبي ضربا بالدرة ، وجعل يقول : أقتلت في الحرم وسفهت الحكم ! قال : ثم أقبل علي فقلت : ياأمير المؤمنين لاأحل لك اليوم ما يحرم عليك مني !

قال : ياقبيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر[2] بيِّن اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب ! [3]

وهكذا أدركت الخشية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لما ذكَّره قبيصة بالحلال والحرام فأمسك عن ضربه وعفا عنه، وقد أعجب قبيصةُ عمرَ بما رأى من قوة بدنه وشجاعته وفصاحته فوعظه بهذه الموعظة التربوية التي فيها الثناء على قبيصة بما فيه من فضائل وحثه على اجتناب سقطات الشباب .

من مواقف عثمان رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه ابن شبة النميري من خبر عمران بن عبد الله ابن طلحة: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة

---

(١) أي العصا .

(٢) أي واسع الصدر وذلك من دلائل القوة .

(٣) تفسير الطبري بتحقيق محمود محمد شاكر ١١/٢٤ ، والتعليقات مستفادة منه، وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣٢٩ ونسبه أيضا لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وذكر أن الحاكم صححه ، وذكر الحافظ ابن حجر أن سعيد بن منصور وصله بسند صحيح - فتح الباري - ١٢ / ١٣٥ - .

فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فزحمه الباب فقال: انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف، فقال له عثمان رضي الله عنه: ماهذا؟ قال: أردت أن أقتلك، قال: سبحان الله، ويحك عَلامَ تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليّ فإن لم أنصفك -أو أُعديك- على عاملي أردتَ ذلك مني؟ فقال لمن حوله: ماتقولون؟ فقالوا: ياأمير المؤمنين، عدوٌّ أمكنك الله منه، فقال: عبدٌ همَّ بذنب فكفَّه الله عني، ائتني بمن يكفل بك: لاتدخل المدينة ماوليتُ أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به، فخلّى عنه[1].

فهذا تسامح كبير من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال في الرجال، وهو دليل على التجرد من حظِّ النفس، وتقلص الأنانية، وبروز خلق الإيثار، وضعف الارتباط بالدنيا، وقوة الارتباط بالآخرة.

وهذا الخلق إضافة إلى أنه عمل صالح يرفع من درجات صاحبه في الآخرة فإنه سياسة حكيمة في الدنيا، إذ أن هذا الرجل الذي أراد الاعتداء لو أنه قُتِل أو عوقب عقوبة بليغة لربما أحدث فتنة بإيغار صدور أفراد قبيلته واستعدادهم للانتقام إذا سنحت لهم الفرصة، لكن العفو عنه يجعل أفراد قبيلته وأبناء بلده يعذلونه ويعنفونه على ماحاول الإقدام عليه، وبذلك تنطفئ الفتنة قبل تصاعدها، ويكسب صاحب العفو قلوب الناس وولاءهم.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ١٠٢٧ - ١٠٢٨.

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام أحمد بإسناده: أن أبا هريرة رضي الله عنه كانت لهم زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع عليها يوما السوط ثم قال : لولا القصاص يوم القيامة لأغشينَّك به، ولكن سأبيعك ممن يوفيني ثمنك أحوج ماأكون إليه، اذهبي فأنت حرة لله عز وجل [1] .

وهكذا يوازن أبو هريرة رضي الله عنه بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله سبحانه وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو ، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلا من إساءتها بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة . . خشية الله تعالى، والعفوعن المسيء ، والإحسان إليه ، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه .

من مواقف معاوية رضي الله عنه :

وقال الحافظ ابن كثير : وقال العتبي : رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاما له فقال له : اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك !! أتضرب من لايستطيع أن يمتنع منك ؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإِحَن ، وإن أحسن من عفا لَمَنْ قدر [2] .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١١٢ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٢٢٧ .

فهـذا توجيه سديد مـن أمير المؤمنين معـاوية رضي الله عنه لابنه يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم .. العفو عند المقدرة ، هذا الخلق الذي يعتبر من أهم عناصر السيادة وسـياسة الأمة ، ولقد ذكَّره بقدرة الله جل وعلا عليـه ليحطَّ من تعاظمـه بنفسه وليـخشى الله سبـحانه فيمن هم تحت يده .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير فـي بيان ماكان يتصف به أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من الحلم، حيث قال: وقال بعضهم : أسمع رجل معاوية كـلاما سيئًا شديدًا ، فقيل له: لو سطوت عليه ! فـقال : إني لأسـتحيي من الله أن يضـيق حلمي عن ذنب أحـد من رعـيتي ، وفي رواية قـال له رجل : ياأمـيـر المؤمنين ماأحلـمك !! فقال : إنـي لاستحـيي أن يكون جرم أحـد أعظم من حلمي.

وقال الأصـمعي عن الثوري قال: قـال معاوية: إني لأستـحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهـل أكبر من حلمي، أو تكون عورة لاأواريها بستري .

قال وقال : مايسرني بِذُلٍّ الحلم عِزُّ النصر .

قال : وقال بعضهم : قال معاوية يابني أمية فارقوا قريشا بالحلم، فو الله لقـد كنت ألقى الرجل في الجاهليـة فيوسعنـي شتما وأوسـعه حلمـا، فأرجع وهو لي صـديق ، إن استـنجدته أنجـدني ، وأثور به فيثور معي ، وماوضع الحلـم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرما ، وقال : آفة الحلم الذل .

وقـال : لايبلغ الرجل مـبلغ الرأي حتى يغلـب حلمه جـهله ، وصبره شهوته ، ولايبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم .

قال: وقال رجل لمعاوية: من أسود الناس ؟ فـقال : أسخاهم نفسا حين يسأل ، وأحسنهم في المجالس خلقا ، وأحلمهم حين يستجهل.

قال : وقال أبو عبـيدة معمر بن المثنى : كان معـاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيراً :

فما قـتَل السفاهة مثل حلم يعود به على الجهل الحليمُ

فـلا تسْفَهْ وإن ملِّئتَ غيظا على أحد فإن الفحش لُوْمُ

ولاتقطع أخًا لك عند ذنب فـإن الذنب يغفره الكريم

وقال : كتب معاوية إلى نائبه زياد : إنه لاينبغي أن يُساسَ الناس سيـاسة واحـدة باللين فيـمرحـوا ، ولا بالشدة فـيُحْـمَلَ الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشـدة والفظاظة والغلظة ، وأنا للين والألفة والرحمة ، حتى إذا خاف خائف وجد بابا يدخل منه [1] .

فهذه الأقوال المروية عن أمـير المؤمنين معاوية رضي الله عنه تبين لنا شيئًا مما اشتـهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعـاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعـيته، أو يصارحونه - بقوة - بما يرونه حقا وهو يخالفهم في ذلك .

وكان لتخـلقه بخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثـر في نجاحه في تثبيت أركان دولته ، وذلك بمقدرته الفـائقة على امتصاص غضب

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٥ - ١٣٦ .

المخالفين ، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته ، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة .

وقد أبان في هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شيء من الذل، كما أن النصر يخالطه شيء من العز، ولكنه أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار.

وفي كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التي تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن ، ولكنها في الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة .

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة خلق الحلم ، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوما وذكر معاوية فقال ـ : مارأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه .

وقال قبيصة بن جابر : مارأيت أحد أعظم حلما، ولاأكثر سؤددا، ولاأبعد أناة ، ولاألين مخرجا، ولاأرحب بالمعروف من معاوية .

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا لنُفْرقه[1] وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه وما ابن ليلةٍ من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا

(١) أي لنخيفه .

مُتِّعنا به مادام في هذا الجبل حجر - وأشار إلى أبي قبيس - [1] .

وفي قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جريء شجاع، ولكنه يظهر الخوف عمدا ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدي لديهم، وهو أدهى أهل الأرض في زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو في ذلك كله يخدم هدفا ساميا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية .

ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده ، ولقد قال ذلك مع أنه من الطموحين للخلافة لأنه نظر إلى مصلحة الأمة التي تتحقق ببقاء معاوية خليفة على المسلمين.

ويصف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سياسة معاوية بكلام موجز ، لكنه يعني خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع ، وإذا وقع طاروا[2] .

وهذا يعني أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفْسح لها حتى تمر ، ثم يحتوي الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد ، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها ،رضي الله عنه وعن الصحابة جميعا .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٣٦ .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير فـي بيان ماكان يتصف به أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه من مكارم الأخلاق قـال: وقال الشعبي والأصمـعي عن أبيه قـالا : جرى بين رجل يقال لـه أبو الجهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو الجهم بكلام فيـه غَمْزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فـقال : ياأبا الجـهم إياك والسلطان فإنه يغـضب غضب الصبيان ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبي الجهم بمال ، فقال أبو الجهم في ذلك يمدح معاوية :

نميل على جوانبه كأنـا نميل إذا نميل عـلى أبينا
نُـقـلِّبه لنخـبر حـالتـيه فنخبر منهما كرما ولينا[1]

وهكذا كان لحلم مـعاوية رضي الله عنه وحـسن خلقه ومبـادلته الإساءة بالإحسـان الأثر الكبير في نفس أبي الجهم فقـال هذين البيتين في شكر معاوية وبيان اتصافه بالكرم والسماحة .

ولقد كـان سلوك أميـر المؤمنين معـاوية تطبيـقا لقول اللـه تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] .

وقال الحافظ ابن كثير : وقال عمر بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال : دخـل معاوية على عمـر وعليه حلة خضراء، فنظر إلـيها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب علـيه بالدِّرة فجعل يضربه بها،

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٥ .

وجعـل معاويـة يقول: ياأمـير المؤمنين اللهَ اللهَ فيَّ، فـرجع عمـر إلى مجلسه فقـال له القوم :لِمَ ضربته ياأمير المؤمنين ومـافي قومك مثله؟ فقال : والله مارأيت إلا خيرا، ومابلغني إلا خير، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غـير مارأيتم ،ولكن رأيتـه–وأشار بيده – فأحـببت أن أضع منه ما شمخ (١) .

ففي هذا الخبـر موقفان : الأول صرامة أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه في حـمل أمرائه على حـياة التواضع والزهـد ، ولقد لاحظ شيـئًا من الترفع في مـعاوية في ذلك اللباس الذي لبـسه ، فكان منه ذلك التـأديب الـتـربوي الذي أراد منه الحـدَّ من ذلـك السلوك الذي لاحظه على معاوية رضي الله عنه .

وحينـما عذله في ذلـك مَنْ حوله ، وذكـروا فضل معـاوية على قومه أبان لهم أنه لم يغضب عليه لنقص في سياسته وإدارته، وأنه لو كان منه شيء من ذلك لكان له معه تصرف آخر ، ويقصد بذلك عزله عن الولاية ، وفي ذلك دلالة على ظهـور تفـوق معـاوية في أعمـال الولاية في السلم والحرب .

والثاني : موقف لمعاوية في الحلم والصبر ، حيث لم يبد منه أيُّ تُسخُّط مما حدث ، بل كان يستعطف أمـير المؤمنين ليخفف من غضبه عليه، مع أن في ضربه أمام الناس إهانة كـبيرة له، لكنه يدرك أن أمير المؤمنين يقصـد من ذلك صيانـةَ أخلاق الإسلام التي يجب أن تتـمثل أولا في الولاة ليقتدي بهم عامة الناس .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٢٥ .

ونظرًا لحلم معاوية الكبير مع ما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أثنى عليه بقوله : دعوا فتى قريش وابن سيدها ، إنه لَمَنْ يضحك في الغضب ولايُنال منه إلا على الرضا، ومَنْ لايؤخذ مافوق رأسه إلا من تحت قدميه (١) .

فهذا قول دقيق من عمر في وصف معاوية ، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم ، والعزة التي تجعله منيعا لاينال ماعنده على قهر منه، وهذه الصفة هي التي جعلته يبقيه أميرا على الشام لخطورة ذلك الثغر .

من مواقف الأحنف بن قيس رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال : ومن كلامه وقد سئل عن الحلم ماهو ؟ فقال : الذل مع الصبر ، وكان إذا تعجب الناس من حلمه يقول : والله إني لأجد مايجدون ولكني صبور، وقال: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال .

قال : وأغلظ له رجل في الكلام وقال: والله ياأحنف لئن قلت لي واحدة لتسمعنَّ بدلها عشرا، فقال له : إنك إن قلت لي عشرا لاتسمع مني واحدة (٢) .

ففي هذين الخبرين يفسر الأحنف بن قيس التميمي الحلم بأنه الذل مع الصبر ، وهذا يعني أن الحلم يبدأ بالتهوين من شأن النفس وإذلالها ثم الصبر على الأذى ، وذلك بأن يُصدر العقل السليم أمرا

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٣٢٧ .

للنفس بكبح جماحها عن سلوك سبيل الانتصار إلى الإيثار ، والصبر على مايقـرع المسامع من الأذى ، فالحلم يحـتاج إلى قوة عظيـمة في العقل لتحجـيم النفس عن الاستسلام لعواطفها الجيـاشة والظهور أمام من صدر منـه الأذى بعدم التأثر واحـتواء الموقف ، فـالحلم على هذا إهانة للنفس ، لكنـه يورث عواقب حـميـدة من سـمو العـقل وعلو المنزلة، والسلامة من الآثار السيئة للاستجابة للغضب .

ويبين الأحنف للناس أنه يجد مايجدون من التـأثر بسماع مايؤلم النفس لكنه يكبح جماح نفسه بالصبر .

ويبين أنه كـسب بالحلم أنصـاراً ممن يعادونه ، وأن الذي كـسب نصرتهم بإعجابهم بحلمه أكثـر من الذين كسب نصرتهم بمحبتهم إياه بالأسباب الأخرى .

وفي الخبر الأخير مـثل من حلمه مع الرجل الذي أغلظ له، فقد كان ذلك الرجل متوترا ، وقد غاب عنه عـقله السليم وحضرت نفسه الأمارة بالسوء ، أما الأحنف فإنه قد أمات نفسه الأمارة بالسوء وأحيى عـقله السلـيم ، فكان جـوابه لذلك الرجل اسـتـجـابـة لنداء عـقله لاخضوعا لعواطف نفسه .

وقد اشتـهر الأحنف بالحلم حتى أصبح يضرب بحلمـه المثل كما قال الشاعر أبو تمام في مدح الخليفة المعتصم العباسي :

إقدام عمرو في سماحة حاتم　　في حلم أحنف في ذكاء إياس

والمراد بعمرو في هذا البيت عمـرو بن معد يكرب الزبيدي وكان مشـهوراً بالشجـاعة ، والمراد بحاتم أبـو عدي حاتم الطائي المشـهور

بالسماحة والكرم ، والمراد بإياس القاضي إياس بن معاوية وكان مشهوراً بالذكاء .

ومن أخبار الأحنف بن قيس في الحلم والأناة ماذكره المؤرخ أبو العباس أحمد بن محمد ابن خلكان في ترجمته قال : ثم إن عبيد الله [يعني ابن زياد أمير العراق] جمع أعيان العراق وفيهم الأحنف وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية ، فلما وصلوا دخل عبيدالله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال : أدخلهم عليَّ أوَّلاً فأوَّل على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية ، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية -وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليَّ ياأبا بحر ، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته ، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه ، وأعرض عن بقية الجماعة .

قال : ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر من عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : لم لاتتكلم ياأبا بحر ؟ فقال : إن تكلمت خالفتهم ، فقال لهم معاوية : اشهدوا علي أنني قد عزلت عبيد الله عنكم ، قوموا انظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام .

قال : فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم ، وفيهم من عيَّن غيره ، وسعوا في السِّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك ، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية ، والأحنف معهم ، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس

الأول، وأخذ الأحنف إلـيه كمـا فعل أوّلاً وحـادثه ساعـة،ثم قال: مافعلتم فـيما انفصلتم عليـه ؟ فجعل كل واحد يذكر شـخصا وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى مـنازعة وجدال،والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء ،فقال له معاوية:لِم لا تتكلم ياأبا بحر ؟ فقال الأحنف:إن ولّيت أحدًا من أهل بيتك لم تجد من يعدل عـبيد الله ولايسد مـسدّه،وإن وليت من غيـرهم فذلك إلى رأيك،ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا سِأل عوده إليهم.

قال : فلما سمع مـعاوية مقالة الأحنف قال للجمـاعة : اشهدوا علي أني قد أعـدت عبيد الله إلى ولايتـه ، فكل منهم ندم على عدم تعيينه ، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي .

قال : فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له:كيف ضيعت مثل هذا الرجل- يعني الأحنف - فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت ، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولاعرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عونًا وذخرا .

قال : فلما عـادوا إلى العراق أقبل عليه عبيـد الله وجعله بطانته وصاحب سره (١) .

في هذا الخبر موقفان :

الأول لمعـاوية رضي الله عنه حينمـا علم قدر الأحنف بن قـيس

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٥٠٣ - ٥٠٤ .

رحمه الله وأدرك رفعة منزلته ، فرفعه وأدناه منه وأظهر له كثيراً من الاهتمام والاحترام ، وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة في احتواء أهل القوة والتأثير على الناس .

والثاني في بيان ماكان يتصف به الأحنف من الحلم والأناة وبُعْد النظر ، فهو لم يُظهر أيَّ شيء من الغضب حينما أبعده عبيد الله بن زياد وقرَّب من أهل العراق من هم أقل شأنًا منه ، ومع أن عبيد الله قد تجاهله فإنه قد رشح عبيد الله لإمرة العراق لما يرى فيه من السداد، وأنه الرجل الذي يمكن أن ترضى به الطوائف المتعددة ، وفي هذا تقديم للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

وكان الأحنف قد ساد قومه بمكارم الأخلاق ، ومما روي في ذلك ماذكره المؤرخ ابن خلكان في ترجمته من خبر معاوية بن هشام أنه قال لخالد بن صفوان: بِمَ بلغ فيكم الأحنف بن قيس مابلغ ؟ قال: إن شئت حدثتك ألفًا، وإن شئت حذفت الحديث لك حذفا، قال: احذفه لي حذفا ،قال: وإن شئت فثلاثا ،وإن شئت فاثنتين وإن شئت فواحدة ، قال : ما الثلاث ؟ قال : كان لايشره ولايحسد ولايمنع حقا ، قال : فما الثنتان ؟ قال : كان موفقا للخير معصوما عن الشر ، قال : فما الواحدة ؟ قال : كان أشد الناس على نفسه سلطانا [1] .

وهذه أخلاق كلها تؤهل للسيادة ، وخاصة ماذكر من امتلاكه نفسه، وإن من أهم ماينزل من قدر الرجال فلتات ألسنتهم والهفوات في سلوكهم .

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٠ .

من مواقف أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله :

ومن أخبار الولاة المتصفين بالحلم والأناة ماذكره الحافظ ابن كثير عن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، حيث قال فيه : وكان فيه حلم وأناة ، شتَم مرة رجلا من الأشراف فقال أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحيى وقال : اقتص مني بدلها - أو قال مثلها - فقال: إذاً أكون سفيهًا مثلك ، قال : فخذ عوضا ، قال : لاأفعل، قال : فاتركها لله ، قال : هي لله ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : والله لاأعود إلى مثلها (١) .

فهذا مثل في الحلم والوقار ، وإذا كان هشام بن عبد الملك قد زل لسانه بقول مالايحمد فإنه قد أنصف من نفسه بالاعتذار من الخطأ ، وهذا دليل على تواضعه وعلو تفكيره حيث قدم رعاية مكارم الأخلاق على النظر إلى حظ نفسه ومجده الدنيوي .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله :

من أخبار الحلم والعفو ماذكر عن محمد بن رباح الجوهري قال: ذُكر لأبي جعفر تدبير هشام بن عبد الملك في حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان معه ينزل الرصافة - رصافة هشام - يسأله عن ذلك الحرب، فقدم عليه ، فقال: أنت صاحب هشام ؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين، قال: فأخبرني كيف فعل في حرب دبَّرها في سنة كذا وكذا ؟ قال: إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا ، ثم أتبع بأن قال : فعل كذا رضي الله عنه، فأحفظ ذلك المنصور فقال: قم عليك غضب الله ! تَطَأُ

---

(١) البداية والنهاية ٣٦٦/٩ .

بساطي وتترحم على عدوي !فقـام الشيخ وهو يقول:إن لعدوك قلادةً في عنقي ومنَّةً في رقبتي لاينزعها عني إلا غاسلي.

فأمـر المنصور بردِّه وقال : اقـعد ، هيه كـيف قلت : فقلت إنه كفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا أعجمي منذ رأيته ، أفلا يجب علي أن أذكره بخير وأُتبعه بثنائي! فقـال : بلى ، لله أمٌّ نهضت عنـك وليلةٌ أدَّتْك ، أشهد أنـك نَهيضُ حرَّة وغراس كريم .

ثم استـمع منه ، وأمر له ببـرّ ، فقال : ياأمـير المؤمنين مـاآخذه لحاجة وماهو إلا أني أتشرف بحـبائك وأتبجَّح بصلتك ، فأخذ الصلة وخرج، فقال المنصور : عند مثل هذا تحسن الصنيعة ويوضع المعروف ويُجَاد بالمصون ، وأين في عسكرنا مثله ! [١] .

ففي هذا الخبر موقفـان : الأول موقف صاحب هشام الذي حفظ المعروف ولم ينس الجـميل ، فأثنى على صـاحبه في بلاط حـاكم قد عادى صـاحبـه وأزال دولتـه وكونه صـرح بذلك الثناء وهو في ذلك المكان دليل على اتصافه بخلق الوفاء وخلق الشجاعة .

والموقف الثاني : مـوقف أمير المؤمـنين أبي جعفـر المنصور الذي بهرته أخلاق ذلك الرجل فأثنى علـيه ذلك الثناء العاطر ، ولـم تأخذه العزة بـالإثم فيلجـأ إلى قوته وهيـمنته وينتـقمَ من ذلك الرجل ، بل غلَّب عقله الرشـيد على عاطفته وازْدَان بخلق الحلـم والإنصاف فأثنى على ذلك الرجل ووصله .

---

(١) تاريخ الطبري ٧٨/٨ - ٧٩ .

ومن مكارم الأخلاق في مجال الحلم والعفو عند المقدرة ماذكره أبو جعفر الطبري من خبر داود بن رشيد عن أبيه أن المنصور خطب فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . . فاعترضه معترض عن يمينه ، فقال: أيها الإنسان أُذكِّرك من ذكَّرت به . . فقطع الخطبة ثم قال: سمعًا سمعًا لمن حفظ عن الله وذكَّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جبارًا عنيدًا ، وأن تأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين، وأنت أيها القائل فو الله ماأردتَ بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر ، وأَهْوِنْ بها ويلك لو هممت ، فاهْتَبْلها إذ غفَرْت ، وإياك وإياكم معشر الناس أختَها، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده ، وتصدروه مصادره ، ثم عاد في خطبته فكأنه يقرؤها من كفه، فقال : وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله (١) .

فهذا الخبر يشتمل على مجموعة من الأخلاق تخلَّق بها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور،حينما سمع كلام ذلك الرجل المعترض عليه في خطبته . .من الصبر على الأذى والحلم والعفو عند المقدرة، إلى جانب اتِّصافه بالفصاحة والمقدرة البيانية،وهذه من دلائل عظمته ونبوغه،ولقد كانت هذه الأخلاق والصفات وغيرها من فضائله أثرًا ظاهرًا للتربية العلمية الدينية التي تلقَّاها على يد شيوخ العلم الربانيين المربين،فقد جالس العلماء طويلا حتى أصبح معدودا منهم لولا اشتغاله بسياسة أمور الأمة .

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٩٠ .

ومن مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور في الحلم والعفو ماذكره الإمام محمد بن جرير الطبري عن الفضل بن الربيع عن أبيه أنه قال: بينا أنا قائم بين يدي المنصور أو على رأسه إذا أُتِيَ بخارجيّ قد هزم له جيوشا، فأقامه ليضرب عنقه، ثم اقتحمته عينه فسب أمه وقال: مثلك يهزم الجيوش! فقال له الخارجي: ويلك وسوءة لك! بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب، وماكان يؤمِّنك أن أرد عليك وقد يئستُ من الحياة فلا تستقيلها أبدا! قال: فاستحيى منه المنصور وأطلقه، فما رأى له وجهًا حولا[1].

فهذا رجل قد أعلن الحرب على دولة أبي جعفر المنصور، وهذا يعني أنه يريد قتله وقتل رجال دولته وإزالة ملكه، وكان جزاؤه أن قدمه المنصور للقتل لما ظفر به، ولكنَّ فلتةً من لسان المنصور أنقذت ذلك الرجل، فالرجل محارب ولايعترض على الانتقام منه بالقتل، لأنه لم يخرج إلا وقد وطن نفسه لذلك، ولكنه لم يحتمل قذف وسب أمه، لأن أمه لا علاقة لها بما حدث، فسبها وقذفها من اتهام الأبرياء، وقد ذكَّر هذا الرجل الخارجي المنصور بأنه باستطاعته أن يرد عليه بسباب يعلق بأذهان الناس، فيتمنى المنصور أنه سلم من إثارة ذلك الرجل، ولن يفعل المنصور به أكثر من القتل، ولن يمنعه من ذلك رجاء الحياة لأنه قد يئس منها، وقد استحيى المنصور من ذلك الجواب الذي يدل على أدب رفيع من ذلك الخارجي، حيث لم يأبه بالقتل وغضب من سماع قذف أمه، وهذا يدل على نبل المنصور وحلمه، حيث قدر هذا التفكير العالي من ذلك الرجل فعفا عنه وأطلقه.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٦٨.

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله :

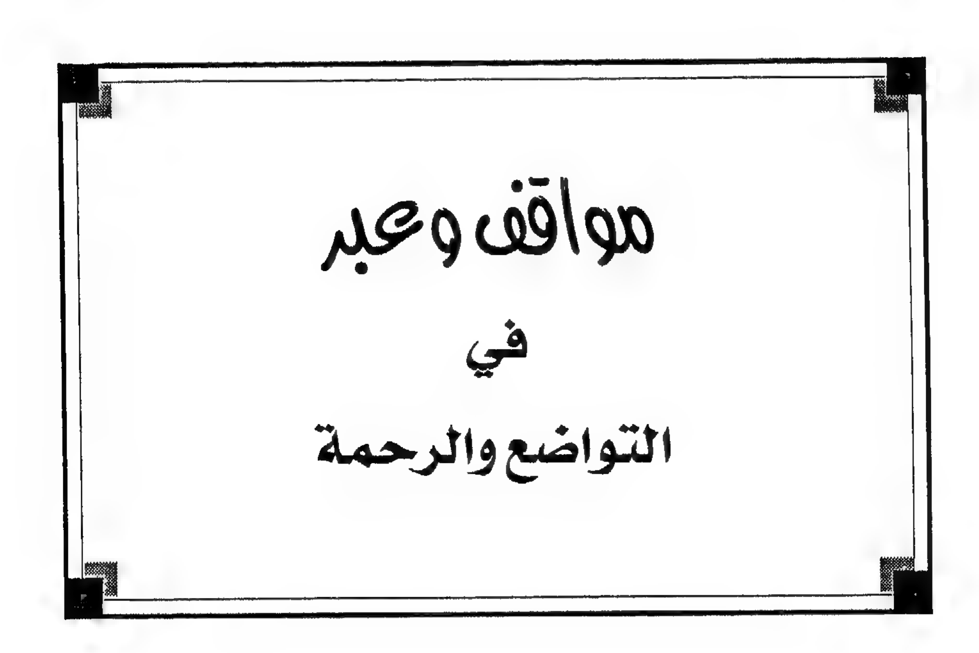
من الأخلاق العاليـة التي كان يتحلى بها الوزير أبو المـظفر يحيى ابن محـمد بن هبـيرة في الحلم والعفـو عند المقدرة مـارواه الإمام أبو الفرج عـبد الرحمن بن شهـاب الدين البغدادي نقـلا عن ابن الجوزي قال : كنا نجلس إلى الوزير ابن هبـيرة فيملي علينا كتـابه « الإفصاح» فبينا نحن كذلك إذ قدم رجل ومـعه رجل ادَّعى أنه قتل أخاه فقال له عون الدين : – يعني ابن هبـيرة – أقتلته ؟ قـال : نعم ، جرى بيني وبينه كلام فـقتلته ، فـقال الخصم : سلِّمه إلينـا حتى نقتله فقـد أقرَّ بالقتل، فقال عون الدين : أطلقوه ولاتقتلوه ، قالوا : كيف ذلك وقد قتل أخانا ؟ قـال : فتبيـعونه ؟ فاشتـراه منهم بست مائة دينار وسلم الذهب إليـهم وذهبوا ، فقـال للقاتل : اقـعد عندنا لاتبـرح ، قال: فـجلس عندهم وأعطاه الوزير خـمسين دينارا ، فـقلنا للوزير : لقـد أحسنت إلـى هذا وعملت معـه أمرًا عظيـما ، وبالغت في الإحـسان إليه، فقال الوزير : منكم أحد يعلم أن عيني اليمنى لاأبصر بها شيئًا؟ فقلنا : معاذ الله ، فـقال : بلى والله ، أتدرون ماسبب ذلك ؟ قلنا: لا ، قال : هذا الذي خلصته من القتل جاء إليَّ وأنا في الدُّور ومعي كتاب من الفقه أقرأ فيه ومـعه سلَّة فاكهة ، فقال: احمل هذه السلة، قلت له : ما هذا شغلي فاطلب غيري ، فشاكلني ولكمني فقلع عيني ومضى ولم أره بعد ذلك إلى يومي هذا ، فذكرت ماصنع بي، فأردت أن أقابل إساءته إليَّ بالإحسان مع القدرة (١) .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٥٧ .

فهذا مثل جليل في مكارم الأخلاق ، وذلك في العفو عند المقدرة ومبادلة الإساءة بالإحسان ، فلقد كان الوزير عون الدين ابن هبيرة قادرًا على أن يعاقب ذلك الرجل بأن يقتصَّ منه كما اعتدى عليه ثم يقيم عليه حد القتل الذي أقرَّ به ، أو على الأقل أن يقيم عليه هذا الحد وهو يتشفَّى منه ، ولكنه لما رأى مجالا من مجالات الأخلاق العالية بادر إلى العفو عند المقدرة والإحسان إلى من أساء إليه، وهكذا تسمو النفوس الطموحة إلى معالي الأمور ، وذلك بتحجيم هوى النفس والتخلص من رواسب حب الذات ، وذلك بشراء المعاني السامية والمُثُل العليا بعَرَض الدنيا الزائل .

* * *



مواقف وعبر في التواضع والرحمة

أمثلة من تواضع النبي ﷺ ورحمته :

مما روي عن رسول الله ﷺ في خلق التواضع - إضافة إلى مامر معنا من ذلك في استعراض سيرته الشريفة - ماأخرجه الإمام الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لاينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع ، ولايصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُرَ مقدِّما ركبته بين يدي جليس له » (١) .

وهذه آداب إسلامية رفيعة مبعثها التواضع ، ويشملها خلق الإيثار، فهي تقوم على اعتبار تقديم الغير على النفس في أمور الحياة، سواء في ذلك الأمور المعنوية، التي تقتضي إعزاز الآخرين والرفع من مكانتهم كما في هذا الحديث ، أو في الأمور المادية التي تقوم على التنازل عن الحقوق المالية لمصلحة الآخرين .

ومن الأمثلة التربوية العالية المبنية على الرحمة والتواضع ماأخرجه أحمد من حديث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي الظهر أو العصر وهو حامل الحسن أو الحسين ، فتقدم ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة ، فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها ، فقال : إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس : يارسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة قد أطَلْتها فظننا أنه

(١) سنن الترمذي رقم ٢٤٩٠ ، القيامة ب ٤٦ (٤/ ٦٥٤) .

قد حدث أمر أو أنه قد يُوحَى إليك ، قال : فكل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته » [(١)] .

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص [(٢)] على عاتقه ، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها [(٣)] .

وهذا منهج تربوي في غاية الرفعة والكمال، فهو يعطي الصغار حقوقهم الكاملة في العناية والرعاية فينشئون بنفوس كبيرة وشخصيات قوية تستطيع بعد تهذيب التربية الدينية أن تتحمل المسئوليات الكبيرة، ولكن هذه التربية العالية لايقوى عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة الذين يتواضعون ويبذلون من وقتهم لإنشاء جيل يتحمل المسئولية في تبليغ هذا الدين وتطبيقه .

وهذا الخلق العالي يكون مبنيا على الرحمة ، وإنما يتصف بذلك من قويَ إيمانهم وهذب الإسلام نفوسهم، ولقد كان لرسول الله ﷺ من ذلك النصيب الأكمل ، فجاءت معاملته للصغار في غاية الكمال التربوي .

وإذا كانت هذه معاملته للأطفال وهو في صلاته وقد انشغل قلبه بما هو أعظم من ذلك ، فكيف تكون معاملته إياهم خارج الصلاة ؟!

ومن ذلك ماأخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٩٤ .

(٢) يعني بنت زينب بنت النبي ﷺ .

(٣) صحيح البخاري ، رقم ٥٩٩٦ ، الأدب (١٠/ ٤٢٦) .

قال : قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدا ، فنظر إليه النبي ﷺ ثم قال : من لايَرحم لايُرحم .

وأخرجا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبِّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا : لكنا والله ما نقبِّل ، فقال رسول الله ﷺ : وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ [1] .

وأخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مارأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ، قال: كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخَّن - وكان ظئره قينا[2] - فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع[3] .

فهذه أمثلة من رحمة النبي ﷺ بالصغار ، والأطفال بحاجة ماسة إلى رحمة الكبار لأنهم في حال ضعف ، وفي مرحلة الطفولة تتشكَّل بداية الأخلاق التي سيكون عليها الأطفال إذا كبروا ، فإذا كانوا يعاملون في صغرهم بالمودة والرحمة واللطف فإنهم ينشؤون على هذه الأخلاق الكريمة ،فيتعاملون بها إذا كبروا،ويعاملون بها صغارهم،وهكذا ينشأ شباب الأجيال في حال رشدهم على مانشؤوا

---

(١) صحيح البخاري رقم ٥٩٩٧ و ٥٩٩٨ ، الأدب (٤٢٦/١٠) ، صحيح مسلم رقم ٢٣١٨ و ٢٣١٧ ، الفضائل (ص ١٨٠٨) .

(٢) أي كان زوج مرضعة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ صانعًا فكان في البيت دخان من النار التي يوقد بها على الحديد .

(٣) صحيح مسلم رقم ٢٣١٦ ، الفضائل (ص ١٨٠٨) .

عليه في حال طفولتهم، وتتم بذلك حلقات من التربية الإسلامية على مكارم الأخلاق.

ونجده ﷺ يتواضع لمن يستخدمهم ويعاملهم بالعناية والرعاية كما يعامل أبناءه كما جاء فيما أخرجه الإمام أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لاأذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، قال: فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا النبي ﷺ قابض بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: ياأنيس اذهب حيث أمرتك؟ قلت: نعم أنا أذهب يارسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين - أو تسع سنين - ماعلمت قال لشيء صنعت لِمَ فعلت كذا وكذا؟ ولا لشيء تركت هلا فعلت كذا وكذا » [1].

وهل نجد مثلا أعلى من هذا في معاملة الخدم ؟!

إن هذه المعاملة الكريمة تُشعر الإنسان المستخدم بكرامته وإنسانيته ولاتلغي وجوده في المجتمع كإنسان يسهم في بناء المجتمع، والترقي به نحو الكمال، وهو حينما يخدم أهل النبل والفضل فإنما هو تلميذ في مدرسة تربوية أخلاقية، ومن المفترض أن يتخرج من هذه المدرسة وهو أعلى مايكون في سمو الفكر ونبل الأخلاق.

ومن أمثلة تواضعه ﷺ ماأخرجه البخاري من حديث مجاهد بن جبر أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول « آلله الذي لا إله إلا هو،

---

(١) سنن أبي داوود رقم ٤٧٧٣، الأدب باب ١ (٥/ ١٣٢).

إن كنتُ لأعتمدُ بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجرَ على بطني من الجوع. ولقد قعدْت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، ماسألته إلا ليُشبعني ، فمر ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله، ماسألته إلا ليشبعني ، فمرَّ فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف مافي نفسي ومافي وجهي، ثم قال يأبا هِرّ ، قلتُ : لبيك رسول الله، قال: الحَقْ، ومضى ، فتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا : أهداهُ لك فلان- أو فلانة - قال: أبا هِرّ، قلت لبيك يارسول الله ، قال: الحق إلى أهل الصُّفة فادْعُهم لي. قال: وأهلُ الصفة أضياف الإسلام، لايأوُون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتتهُ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وماهذا اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شَربةً أتقوَّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وماعسى أن يَبْلُغَني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدّ، فأتيتهم فدَعَوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: ياأبا هرّ ، قلت: لبيك يارسول الله، قال: خذ فأعطهم، فأخذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجل فيشربُ حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح فأعطيه الرجل فيشربُ حتى يروى ، ثم يرد عليَّ القدح، فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح ، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليَّ فتبسم

فقال: أبا هر ، قلت لبيك يارسول الله، قال: بقيتُ أنا وأنت: قلتُ صدقت يارسول الله ، قال: اقعد فاشرب، فقعدتُ فشربت، فقال: اشرب ، فشربت، فمازال يقول: اشرب ، حتى قلتُ : لا والذي بعثك بالحق، ماأجدُ له مَسلكا. قال: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة » (١) .

فهذا مثل بليغ على تواضع رسول الله ﷺ حيث شرب آخر القوم، وأهل الصفة كانوا كلهم من الفقراء، وإن التواضع يكون جليلا إذا صدر من الرجل الكبير لضعفاء الناس ومساكينهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ عظيم التواضع لجميع الناس على مختلف طبقاتهم.

ولقد امتد تواضعه ﷺ ليشمل البادية كما شمل الحاضرة ، ومن ذلك ماأخرجه الإمامان البزار والطبراني من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أشجع يقال له زاهر بن حرام رجل بدوي، وكان لايزال يأتي النبي ﷺ بطُرفة أو هدية، فرآه النبي ﷺ في سوق المدينة يبيع سلعة، ولم يكن أتاه في ذلك الوقت، فاحتضنه من وراء كتفه، فالتفت فأبصر النبي ﷺ فقبَّل كفه ، فقال : من يشتري العبد؟ فقال: إذًا تجدني يارسول الله كاسدا ، قال : لكنك عند الله ربيح، فقال ﷺ : لكل حاضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر بن حرام » (٢) .

وهذا مثل عال للمزح التربوي ، الذي يهدف إلى رفع الكلفة، وتوثيق الصلة، فإن الإنسان إذا منَّ الله عليه بالسمعة العالية، والمكانة

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٤٥٢ ، الرقاق (١١/ ٢٨١) .

(٢) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢/ ٥٦٥ - ٥٦٦ ، رقم ٨٩٤٨ .

الرفيعة، تكون له في النفوس هيبة قد تمنع من الاستفادة منه فيما إذا كان مسئولاً إداريًا، أو عالمًا مربيًا، وقد تمنعه من الاستفادة من الناس في فهم واقع المجتمع الذي تنبني عليه بعض الفتاوى والأحكام، فإذا جرى من المسئول أو العالم المربي نوع من هذا المزح الهادف فإنه يفتح مغاليق النفوس ويزيل الحرج من الصدور .

وهذا المزح التربوي إنما يكون مبنيا على الرغبة الصادقة في إصلاح المجتمع وتقويمه مع التخلق بخلق التواضع .

ونجد رسول الله ﷺ يجعل من نفسه مثلا عاليا في التواضع لرعيته الذين ولاه الله أمرهم حيث يقول له عمه العباس رضي الله عنه : إني رأيتهم قد آذوك وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشًا تكلمهم منه، فقال : لاأزال بين أظهرهم يطؤون عقبي وينازعوني ردائي حتى يكون الله هو الذي يريحني منهم » أخرجه الإمام الدارمي [(١)] .

وهي سنة يسنها رسول الله ﷺ للولاة والمربين من بعده حيث تواضع لأفراد أمته ، فعاش معهم كواحد منهم ولم يرض أن يتميز عليهم بشيء .

وإن التواضع لله أولاً ثم للمخلوقين دليل على سمو الفكر وكمال العقل، ولذلك جاءت توجيهات النبي ﷺ بالتخلق بهذا الخلق الرفيع، وذلك لأن الشريعة الإسلامية جاءت من عند الله تعالى لترفع من مستوى العقل البشري ولتميز أصحاب الأفكار السوية وتوجههم نحو الإصلاح والقيادة التربوية .

---

(١) سنن الدارمي رقم ٧٥ ، المقدمة باب ١٤ .

وتذكر عـائشة رضي الله عنها وصفـًا جامعًا لما يتـصف به رسول الله ﷺ من السماحة والتواضع والإيثار حيث تقول : « ماخُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم ﷺ لنفســه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم [١] .

وهذا مثل رفـيع من أمثلة التواضع والسـماحة والتـجرد من حظ النفس، فإن النفـوس مجبـولة على الغيـرة لحرماتهـا، والعمل لجلب حظوظها ، ولكن كلما قوي الإيمان بالله تعالى تضاءلت الأنانية وقوي خلق الإيثار، حتى إذا بلغ الإيمان كماله لم يَعُد في تفكير الإنسان نظر لحظ النفس وأصبح يعيش لإخـوانه ومجتمعـه الإسلامي ، ولقد بلغ رســول الله ﷺ أعلى درجات الإيمان، فلـيس غريبـا أن يكون أعلى نموذج في هذه الأرض لتمثيل مكارم الأخلاق .

ولم تقتـصر رحمة النبي ﷺ على الإنسـان بل تجاوزت ذلك إلى الحيوان ، فمن ذلك ماأخرجـه الإمام أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مـع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته ، فـرأينا حُمَّرةً معها فرخـان فأخذنا فرخيها، فـجاءت الحمرة فجعلت تُعَرِّش [٢] ، فجـاء النبي ﷺ فقال: من فـجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٥٦٠ ، المناقب (٦/٥٦٦) ، صحيح مسلم رقم ٢٣٢٧، الفضائل (ص ١٨١٣) .

(٢) يعني ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها .

قال : ورأى قرية نمل قد حرقناها ، فقال : من حرق هذه؟ قلنا: نحن ، قال : إنه لاينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار [(١)] .

وأخرج أبو داود أيضًا من حديث عامر الرام أخي الخضر رضي الله عنه قال : إني لببلادنا إذ رُفعت لنا رايات وألوية، فقلت: ماهذا؟ قالوا : هذا لواء رسول الله ﷺ فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسط له رداء وهو جالس عليه وقد اجتمع إليه أصحابه . . ثم ذكر خبرا إلى أن قال : فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال: يارسول الله إني لما رأيتك أقبلت فمررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن، فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، فقال: ضعهن عنك، فوضعهن وأبَتْ أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : أتعجبون لِرَحْم أم الفراخ فراخها ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، قال : فو الذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن، فرجع بهن [(٢)] .

وأخرج أبو داود أيضا من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدا من الناس ، وكان أحبَّ ما استتر به رسول الله ﷺ

---

(١) سنن أبي داود رقم ٥٢٦٨ ، كتاب الأدب (٤١٩/٥) .

(٢) سنن أبي داود رقم ٢٩٦٣ ، أول كتاب الجنائز (٢٧٣٤) .

لحاجته هدفًا أو حائش نخل ، قال: فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْراه [1] فسكت ، فقال : من ربُّ هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتًى من الأنصار فقال: لي يارسول الله ، قال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها ؟ فإنه شكَى إلي أنك تجيعه وتُدْئبه [2] [3] .

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه [4] .

وفي هذه الأخبار وغيرها تعليم من رسول الله ﷺ لأمته بوجوب الرفق بالحيوان وعدم إيذائه، ولزوم التيسير عليه في العمل وتوفير الغذاء الكافي له ، فليعلم الذين يظنون أن الدول الغربية هي أول من أنشأ جمعيات الرفق بالحيوان بأن الإسلام قد سبقهم بتوجيه جميع أفراد الأمة الإسلامية إلى الإحسان إلى جميع الأحياء ، وتوفير الحياة الملائمة لكل حي بلا ظلم ولاتقصير .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها . . وذكرت خبر غزوة الأحزاب وبني قريظة وخبر استشهاد سعد ابن معاذ رضي الله عنه من أثر الجرح الذي أصابه . . إلى أن قالت:

---

(١) أي مؤخر رأسه .

(٢) يعني تتعبه في العمل .

(٣) سنن أبي داود رقم ٢٤٣٩ ، كتاب الجهاد (٣/ ٣٨٦) .

(٤) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/ ١٧٥٥ رقم ١٧٥٤ .

فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، قالت : فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل ﴿ **رحماء بينهم** ﴾[1] .

إننا لنجد في هذا الخبر صورة من تآلف الأرواح بين الصحابة رضي الله عنهم ، وبروز مظاهر الرحمة والعطف في مجتمعهم .

وهو مظهر من مظاهر الحب في الله تعالى والإخاء الإيماني فإن سعد بن معاذ الأنصاري ليس بينه وبين أبي بكر وعمر قرابة ولانسب إلا نسب الإيمان الذي جمع بين القلوب المختلفة وكوَّن منها مجتمعا قويا متماسكا ، رضي الله عن الصحابة أجمعين .

وهو أيضا مظهر من مظاهر الاعتراف بفضل ذلكم المؤمن المجاهد حيث تتسلسل أحداث جهاده على شريط الذاكرة فتنعكس صورتها في تأثر ضاغط تَشِفُّ له النفوس وتتحدر له الدموع .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

ومن مواقف الرحمة والتواضع مارواه أبو عبيد بن سلام بإسناده قال: بينا عمر نِصْفَ النهار قائل في ظل شجرة ، وإذا أعرابية فتوسمت الناس، فجاءته فقالت : إني امرأة مسكينة ولي بنون، وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعيا[2] فلم يعطنا، فلعلك - يرحمك الله - أن تشفع لنا إليه !

---

(١) مسند أحمد ٦/ ١٤٢ .

(٢) الساعي هو الذي يجبي الصدقة ويقسمها بين مستحقيها .

قال : فصاح بيرفأ [١]: أن ادْعُ لي محمد بن مسلمة، فقالت : إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه ، فقال : إنه سيفعل إن شاء الله ، فجاءه يرفأ فقال : أجب ، فجاء فقال : السلام عليكم ياأمير المؤمنين، فاستحيت المرأة ، فقال عمر : والله ما آلو [٢] أن أختار خياركم ، كيف أنت قائل إذا سألك الله عز وجل عن هذه ؟! فدمعت عينا محمد ، ثم قال عمر : إن الله قد بعث إلينا نبيه ﷺ فصدقناه واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين حتى قبضه الله على ذلك ، ثم استخلف الله أبابكر فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آلُ أن أختار خياركم، إنْ بعثتك فأدِّ إليها صدقة العام وعام أول ، ومأدري لعلي لا أبعثك، ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقا وزيتا ، وقال : خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر فإنا نريدها، فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال: خذي هذا فإن فيه بلاغا حتى يأتيكم محمد بن مسلمة ، فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول [٣] .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وعطفه على الضعفاء ، حيث اهتم بأمر تلك المرأة المسكينة وعاتب من أجلها محمد بن مسلمة رضي الله عنه ، مع أنه لم يتعمد تركها ، ومَثَلٌ من خشية الله تعالى يقدمه محمد بن مسلمة حينما ذكَّره أمير المؤمنين بالله تعالى فبكى من خشيته .

---

(١) يعني غلام عمر .

(٢) أي ما أقصر .

(٣) الأموال / ٥٩٩ .

فما أعظم ذلك المجتمع الذي يتأثر فيه أعلى مسئول فيه وأحد كبار رجال دولته من أجل أمرأة مسكينة !!

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من حديث الإمام الطبراني بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : خرجت جارية لسعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يقال لها : زبراء ، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح ، فشد عليها عمر بالدرة ، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة ، فذهب سعد يدعو على عمر ، فناوله الدرة وقال : اقتص مني فعفا عن عمر (١) .

فهذان مثلان من مكارم الأخلاق يطبقهما عظيمان من عظماء الصحابة رضي الله عنهم ، فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تناول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعصا في ساعة غضب بسبب تلك الجارية التي لم تلتزم بالاحتشام ، وسعد أقدم على الدعاء على عمر في ساعة غضب مما حدث ، لكن أمير المؤمنين ندم على ماكان منه نحوه فأعطاه العصا ليقتص منه ، حتى يخرج من دنياه ولم يحمل حقا لمسلم ، فهل يفعل سعد ذلك ؟!

إنه لايمكن أن يقدم على ضرب أمير المؤمنين ، ويكفيه نبلا وتواضعا من أمير المؤمنين أنه أعطاه العصا ليقتص منه ، فكان العفو من سعد، واطمأنت نفس عمر حينما عفا أخوه سعد رضي الله عنهما.

ومن ذلك ماأخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر زيد بن

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٧٦ .

أسلم عن أبيه : أن عمر رضي الله عنه استعمل مولًى له يُدعَى هُنَيًّا على الحِمَى ، وقال له : اضمم جناحك عن الناس، واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابة ، وأدخل ربَّ الصُّرَيمة والغُنَيمة[١] ، وإياي ونَعَم ابن عوف، وإياي ونعم ابن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع ، وإن رب الغنيمة ورب الصريمة إن تهلك ماشيته جاءني ببَنِيه فقال : ياأمير المؤمنين ، أفتاركهم تا لله لا أبالك[٢]، فالماء والكلأ أهون علي من الذهب والوَرِق[٣]، وايْم الله إنهم لَيَرون أني قد ظلمتهم ، وإنها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام ، ووالذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا[٤].

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالفقراء الذين ليس لهم إلا مورد واحد في الرزق ، فإذا قُطع هذا المورد هلكوا، وفي مقارنة عمر بين هؤلاء الضعفاء والأغنياء دلالة على اهتمامه بشأن الضعفاء وأنه يقدمهم على الأغنياء ، وإن كان هؤلاء من كبار أهل الحل والعقد كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما .

وهذه النظرة العادلة من أسباب استقامة المجتمع وسلامته من الاضطراب والخلل ، لأن الفقراء ومتوسطي الحال هم القِطاع الكبير

---

(١) الصريمة بالتصغير القطعة من الإبل ، والغنيمة بالتصغير القطعة من الغنم .

(٢) كلمة مدح معناها لاكافي لك إلا نفسك .

(٣) يعني الفضة .

(٤) تاريخ المدينة المنورة / ٨٣٩ - ٨٤٠ .

في المجتمعات ، فإذا كان الوالي يهتم بشأنهم فإنه يضمن شمول حياة الأمن والرخاء في المجتمع ، أما الأغنياء فإنهم يستطيعون أن يُسَيِّروا أمورهم بأموالهم التي تتعدد - عادة - مصادرها .

وهذه النظرة التربوية تعتبر امتدادًا لمفعول الجهاد الدعوي، حينما قضى المسلمون على الطبقية السائدة في العالم آنذاك، حيث كان الضعفاء حاشية للأغنياء يُسَخِّرونهم لما يريدون ، وفي ذلك شلل للفكر الإنساني وقضاء على حياة الإبداع والنبوغ ، لأن فكر المجموعة من الناس يكون مرتبطًا بفكر رجل واحد ، والذي عمَّق تلك الطبقية وحوَّلها إلى نظام اجتماعي هو اهتمام المسئولين بالأقوياء وإهمالهم الضعفاء .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر فضيل ابن زيد الرقاشي قال : سَرَتْ سريَّة على عهد عمر رضي الله عنه على أرجلهم، فأعيا رجل فأراد أن يقيموا عليه، [فرفض أمير السرية] فنادى : ياعُمَراه ، فمضوا وتركوه ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فكتب إلى أبي موسى [يعني الأشعري] رضي الله عنه : أن ابعث إليَّ بالرجل ، فبعث به إليه فأخذ قناةً فجعل يضربه بها ويقول: يالبَّيكاه، ويقول : يامُهلِك ، يقول لك الرجل انتظرني فتذهب وتتركه فينادي : ياعمراه ؟ فجعل يعتذر إليه، فقال : والله لَصلاح رجل من المسلمين أحب إلي من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك، وكتب إلى أبي موسى رضي الله عنه : انظر مُهلِكًا فلا تستعمله ماكنتَ لنا على عمل (1) .

(1) تاريخ المدينة المنورة / ٨١٢ .

فهذا مثل من رحمة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالمسلمين وشفقته عليهم ، وهذا الخبر وأمثاله يدلنا على أن ما اشتهر عنه من الشدة والقوة ليس صفة ملازمة له في كل أحواله ، بل كان شديدًا في محل الشدة وليِّنا في محل اللين .

وقول عمر « لَصلاح رجل من المسلمين أحب إليّ من هلاك كذا وكذا من أهل الشرك » مثال لعزة المسلم ومقدار قيمته في هذه الحياة. . فأين الذين لايبالون بأرواح المسلمين ولايطالبون بدمائهم من هذا المثل الأعلى ؟!

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر زيد بن وهب قال: خرج جيش في زمن عمر رضي الله عنه نحو الجبل، فانتهوا إلى نهر ليس عليه جسر، فقال أمير ذلك الجيش لرجل من أصحابه: انزل فابغنا مخاضة نجوز فيها، وذلك في يوم بارد شديد البرد، فقال الرجل: إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت ، فأكرهه، فقال: ياعُمَراه ياعمراه، ثم لم يلبث أن هلك، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه وهو في سوق المدينة فقال: يالبيكاه يالبيكاه، وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه، وقال له: لولا أن تكون سنة لأَقَدْت منك، لاتعمل لي على عمل أبدا [١] .

وهكذا تأثر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لموت ذلك الرجل ، حتى همَّ بقتل ذلك الأمير به تعزيرًا لولا أنه خشي أن يقتدي الولاة به في ذلك ، فاكتفى بعزل ذلك الأمير عن أي عمل في الدولة ، وهذا

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨١٢ .

مثل آخر يدل على اتصاف أمير المؤمنين عمر بالرحمة والشفقة بالأمة.

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبيد الله بن عمر ابن حفص: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل قربة على عنقه، فقال له أصحابه: ياأمير المؤمنين ماحملك على هذا؟ قال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها [1].

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر أيضا من خبر عمر المخزومي قال: نادى عمر بن الخطاب بالصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس وكبروا صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه -عليه الصلاة والسلام- ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب، فأظل يومي، وأي يوم، ثم نزل، فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: ياأمير المؤمنين مازدت على أن قميت نفسك - يعني عبت، فقال: ويحك ياابن عوف، إني خلوت فحدثتني نفسي قالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها[2].

فهذا السلوك قد جرى أيضا من صحابة آخرين، وهذا شاهد على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحاسبون أنفسهم حتى على الخطرات، وأنهم يحافظون على مستوى إيمانهم، فيسعون إلى زيادته بالطاعات، ويحذون من نقصه بالمخالفات، حتى لو كان ذلك من هواجس النفس التي لم يترتب عليها عمل.

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٨.

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٤ - ٣١٥.

إنهم أطباء القلوب الماهرون في علاج أمراضها ، ولما كان الإعجاب بالنفس من الأمراض الخطيرة فإن علاجه عندهم هو محاولة إذلال النفس أمام الناس ليكون المؤمن بريئا حتى من الهواجس وإيحاءات الضمير .

فلله دَرُّهُم ماأدق ملاحظاتهم !!

وماأقدرهم على كبح جماح نفوسهم !!

وفي هذا المعنى أخرج الحافظ ابن عساكر أيضا من خبر سعيد بن المسيب قال: حج عمر فلما كان بَضَجَنان قال: لا إله إلا الله العلي العظيم المعطي ماشاء لمن شاء، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف، وكان فظّا، يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصّرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد ، ثم تمثل :

[لاشيء مما ترى تبقى بشاشته]	يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه	والخلد قدحاولت عاد فماخلدوا
ولاسليمان إذا تجري الرياح له	والأنس والجن فيما بينهم بُرُدُ
أين الملوك التي كانت نواهلها	من كل أوب إليها راكب يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب	لابد من ورده يومًا كما وردوا[1]

فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وشكره لله تعالى، حيث ذكر ماضيه يوم أن كان راعي إبل ثم أصبح راعي أعظم أمة على وجه الأرض، وقد تمثل بهذه الأبيات الشعرية التي تذكر بعدم

---

(١) تاريخ دمشق ٣١٦/٤٤ .

الخلود لشيء في هذه الحياة الدنيا مهما بلغ من الرفعة والقوة، وإن في ذلك لعبرة وذكرى لصاحب العقل السليم، حتى لايغتر بما لديه من جاه وقوة ، فإن مصير ذلك إلى الزوال .

ومن ذلك ماأخرجه المؤرخ عمر بن شبَّة النميري من خبر نُعيم بن هزَّال رضي الله عنه قال قال عمر رضي الله عنه : تَجدُ الرجل يلبس الصوف لو ظُلِم ما انتصر وإنَّ قلبه في ذلك لمملوء كبرًا وإعجابًا، وإنك لتجد الرجل يتجمل في ثيابه وفي كثير من أمره وإن في قلبه الخشوع والتواضع، وذلك أملك التواضع بالعبد [١].

ففي هذا الخبر بيان أهمية التواضع، وأن الحكم على الناس ينبغي أن يكون منطلقا من أخلاقهم وأعمالهم، لا من مجرد مظاهر النسك والعبادة فيهم، فالعبادة إذا أثمرت التخلق بالغرور والإعجابَ بالنفس والتكبر على الخلق ولم تثمر التخلق بالتواضع والاستقامة في السلوك فإنها عبادة ينقصها الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى .

إن من أهم فوائد الشعائر التعبدية أنها تربي المسلم في الدنيا على استقامة السلوك والتخلق بمكارم الأخلاق، وتوصل في الآخرة إلى رضوان الله جل وعلا ورفعة الدرجات في الجنة، فإذا كانت تؤدي إلى مساوئ الأخلاق، من الغرور والكبر والإعجاب بالنفس فإن صاحبها قد خسر خسرانًا مبينا وظلم نفسه ظلما كبيراً .

ومن أمثلة تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكره لنعمة الله تعالى ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر قتادة

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة / ٨٥٦ .

السدوسي قال : كان عمر بن الخطاب يلبس وهو أمير المؤمنين جبة صوف مرقوعة، بعضها بأدم[1]، ويطوف الأسواق على عاتقه الدرة[2] يؤدب الناس بها ، ويمر بالنكت [3]والنوى فيلتقطه، ويلقيه في منازل الناس لينتفعوا بذلك [4] .

من مواقف عثمان رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله الرومي قال : كان عثمان بن عفان يأخذ وضوءه لنفسه إذا قام من الليل ، فقيل له : لو أمرت الخادم فكفتك ! قال : لا ، الليل لهم يستريحون فيه [5] .

فهذا مثل من اتصاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالرحمة، فهو مع كبر سنه وعلو منزلته الاجتماعية يخدم نفسه في الليل ولايوقظ الخدم ، وإن وجود الخدم من تسخير الله تعالى للمخدومين، وإن مما ينبغي للمسلم الذي سخر الله تعالى له من يخدمه أن يتذكر أن الخادم إنسان مثله له طاقة محدودة في العمل ، وله مشاعر وأحاسيس فينبغي له أن يراعي مشاعره ، وأن ييسر له الراحة الكاملة في النوم، وأن لا يشق عليه بعمل .

من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك ماذكر الحافظ ابن كثير من خبر صالح بن أبي الأسود

(١) أي مرقوعة بجلد .

(٢) بكسر الدال العصا .

(٣) بكسر النون الغزل المنقوض .

(٤) تاريخ دمشق ٤٤ / ٣٠٣ .

(٥) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٦ .

عمن حدثه أنه رأى عليا قد ركب حمارًا ودلّى رجليه إلى موضع واحد، ثم قال : أنا الذي أهنت الدنيا [1] .

وهكذا يشعر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفرح لانتصاره على نفسه ، وظهوره بمظهر التواضع أمام الناس وهو خليفة المسلمين .

إن مناصب الدنيا خداعة غرارة ، وإن فتنة الجاه بها أعظم من فتنة المال ، فلطالما رأى الناس مسئولين كانوا متواضعين قبل أن يلوا ، فلما تولوا مناصب كبيرة بدأ التعاظم في نفوسهم شيئا فشيئا ، حتى يكون من الصعب في آخر الأمر مخاطبتهم واللقاء معهم ، لكن أولياء الله المتقين كلما ازدادوا رفعة في المناصب الدنيوية زادوا تواضعا للناس، وشعروا بالسرور وهم يقومون بمظاهر التواضع التي تنفي عنهم صفة التجبر والكبرياء .

ومن أخبار تواضعه رضي الله عنه ماروُي عنه أنه اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفة ، فقالوا : نحمل عنك ياأمير المؤمنين ، قال: لا ، أبو العيال أحق أن يحمل [2] .

فهذا مثل من تواضعه حيث حمل متاعه بنفسه مع كونه أمير المؤمنين ومع كبر سنه ، فلم يَرَ في ذلك مسوِّغًا لقبول خدمة الناس له، وهو بهذا يجعل من نفسه قدوة حسنة للمسلمين في التواضع ، فلو نازعتْ أحدَ الكبراء نفسهُ في تصور العيب من حمل المتاع فإنه

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٥ .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ١٣٣ .

بتذكُّره لموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يزول مافي نفسه من ذلك، ولو اعترض على أحد المتواضعين معترض فإن له من الاقتداء بأكبر أمير على وجه الأرض مايرد هذا الاعتراض .

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر ثعلبة ابن أبي مالك أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال : أوسع الطريق للأمير ياابن أبي مالك ، قال فقلت : أصلحك الله تُلقي هذا ، فقال : أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه [1] .

فهذا مثل مما كان يقوم به الصحابة رضي الله عنهم من مظاهر التواضع، إما للتهوين من شأن النفس إذا أرادت أن تطمح لشيء من الجاه والمنزلة في الدنيا، أو من باب التعليم والقدوة الحسنة ليثبتوا للناس أن المناصب لاتغريهم، ولاتحملهم على شيء من العجب والكبرياء .

وقد تكرر هذا المشهد من علي بن أبي طالب وسلمان وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم وكلهم كانوا - آنذاك - أمراء ، ولقد أثبتوا لمن عاصرهم من التابعين ولمن جاء بعدهم أنهم أعلى تفكيراً وأبعد طموحا من أن تؤثر عليهم مناصب الدنيا ، لأنهم إنما أرادوا الآخرة ، ومن أراد الآخرة أهان من أجلها الدنيا .

من مواقف عبد الله بن سلام رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد بن من خبر عبد الله بن حنظلة أن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه مرَّ فيّ السوق وعليه حزمة من حطب،

---
(١) البداية والنهاية ٨/ ١١٤ .

فقيل: أليس الله أعفاك من هذا ؟ قال : بلى ، ولكن أردت أن أدفع به الكبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » [1] .

وهكذا يقوم عبد الله بن سلام رضي الله عنه بتطهير قلبه من مرض من أكبر أمراض القلوب ، حيث يقوم بإذلال نفسه بذلك السلوك الذي قام به حتى لايتطرق إلى قلبه مثقال حبة خردل من كبر، وكم هو شعور الفرح لديه وهو يمارس ذلك العمل الذي يحس معه بأنه قد نجح في كبح جماح النفس عن الشرف والجاه الرفيع !!

من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم : أَلَكُم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع [2].

فهذا مثل على تواضع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتعليله المذكور فيه نوع من الفقة الدقيق لمداخل الضعف في النفوس، وتغليب لجانب حفظ الدين وحمايته، فكم من مخدوع بتبعيَّة الناس له ووطئهم عقبيه أضر بآخرته ولم يخرج من الدنيا إلا بمقت الناس واحتقارهم ، وعلى فرض محبة الناس للمتبوع فإن ذلك تربية لهم على الذلة والخنوع .

---

(١) الزهد / ١٨٢ .

(٢) صفوة الصفوة ٤٠٦/١ .

من مواقف المقداد بن عمرو رضي الله عنه :

من ذلك ماأخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من حديث عبد الرحمن بن نُفَير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود [(١)] يوما فمرَّ به رجل فقال : طوبَى لهاتين العينين اللَّتين رأتا رسول الله ﷺ ، والله لوددنا أنا رأينا مارأيت وشهدنا ماشهدت ، فاستمعتُ فجعلتُ أعجب ماقال إلا خيرا ، ثم أقبل عليه فقال: مايحمل أحدكم على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عز وجل عنه، لايدري لو شهده كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أوَلاَ تحمدون الله إذ أخرجكم الله عز وجل لاتعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم عليه الصلاة والسلام وقد كفيتم البلاء بغيركم ؟ والله لقد بُعِث النبيﷺ على أشد حال بُعِث عليه نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في فترة وجاهلية ، مايرون دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق به بين الوالد وولده، حتى إن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان ليَعْلَم أنه قد هلك من دخل النار فلا تَقَرُّ عينه وهو يعلم أن حميمه في النار ، وإنها لَلَّتي قال الله عز وجل ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٤] [(٢)] .

---

(١) هو المقداد بن عمرو القضاعي ، ولكن غلب عليه الانتساب للأسود لأنه كان قد حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي فتبنّاه - المستدرك ٣/ ٣٤٨ - .

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٧٥ - ١٧٦ ، وانظر صفة الصفوة ١/ ٤٢٤ .

فهذا مثل من أمثلة التواضع وعدم الغرور بالفضيلة التي لايوصل إليها ، فقد أشاد ذلك الرجل بالمقداد لكونه رأى النبي ﷺ ، فلم يفتخر المقداد بدرجة الصحبة التي لايستطيع التابعون ولاغيرهم أن يصلوا إليها ، وأنكر على ذلك التابعي تمنِّيه لقاء النبي ﷺ لأن ذلك ليس في إمكانه ، ووجَّهه ومن حوله من التابعين إلى أن يحمدوا الله تعالى على أنهم نشئوا في الإسلام ولم يتعرضوا للبلاء الذي تعرض له الصحابة ، وإن مقتضى حمد الله جل وعلا على الهداية أن يستقيم المسلم على تكاليف هذا الدين وأن يكثر من الأعمال الصالحة .

وإذا كان غير الصحابة لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ في الدنيا فإن لصالحي أمته موعداً معه للِّقاء يوم القيامة ، فليفكر المسلم بذلك اللقاء المحقق وليُعِدَّ له عدَّته .

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم تربويين يدفعون الناس إلى العمل الذي ينفعهم في حياتهم الدنيا والأخرى ، ولايتركونهم لأحلامهم التي لاشيء وراءها .

من مواقف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن ابن سيرين رحمه الله قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أميراً كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلانا وأمرته بكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا ، فلما بعث حذيفة رضي الله عنه إلى المدائن كتب إليهم : إني قد بعثت إليكم فلانا فأطيعوه، فقالوا : هذا رجل له شأن ، فركبوا ليتلقوه ، فلقوه على بغل تحته إكاف وهو معترض عليه ، رجلاه من جانب واحد فلم يعرفوه فأجازوه - يعني

مَرُّوا به وخلَّفوه - فلقيهم الناس فقالوا : أين الأمير ؟ قالوا: هو الذي لقيتم ، قال : فركضوا في أثره فأدركوه وفي يده رغيف وفي الأخرى عَرْق - يعني قطعة لحم-وهو يأكل، فسلموا عليه، فنظر إلى عظيم منهم فناوله العَرْق والرغيف، قال: فلما غفل ألقاه أو قال: أعطاه خادمه.

وفي رواية أخرى عن ابن سيرين : أن حذيفة كان راكبا على حمار له إكاف، وبيده رغيف وعرْق من لحم، فقالوا : سلنا ماشئت، فقال : أسألكم طعاما آكله وعلفا لحماري هذا مادمت فيكم.

فأقام ماشاء الله ، ثم كتب إليه عمر : أن اقْدم، فقدم فلما بلغ عمرَ قدومُه كَمَنَ له في الطريق في مكان لايراه، فلما رآه على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال: أنت أخي وأنا أخوك[1].

وهكذا رأينا في هذه القصة المليئة بالعبر كيف أن وجوه أهل العراق قد خرجوا لاستقبال الأمير الذي توقعوا على الأقل أن يكون معه مرافقون وأن تكون له هيئة تميزه ولو بعض الشيء ، ولكنهم فوجئوا بمرور الأمير حذيفة وهو وحده راكبا حمارا بشكل متواضع فلم يعرفوه .

إنه تلميذ من تلاميذ المدرسة النبوية التي تربِّي أفرادها على السمو عن مظاهر الدنيا وزخارفها وإظهار عزة الإسلام أمام ضغوط مظاهر الجاهلية .

إن هذا المظهر المتواضع الذي ظهر به هذا الأمير أمام من يهتمون بالمظاهر الدنيوية يعتبر درسا بليغا لهم ولغيرهم .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٦١٢ .

وإنه لموقف كبير أن يقف هذا الصحابي الجليل وأمثاله لوضع معوقات قوية توقف انحدار الناس نحو المظاهر الدنيوية لأنه إذا كان الأمير يظهر بهذا المظهر البسيط فإن من تميل نفسه إلى المظاهر ممن هم أقل منه منزلة اجتماعية سيجد حرجا في الاستمرار في هذه المظاهر .

وحين قالوا له : « سلنا ماشئت » كان أمامه فرصة ذهبية للتكثُّر من الدنيا والتمتع بطيباتها لو كان من أهلها ، ولكنه لم يطلب إلا طعاما له وعلفا لحماره ، وإن أقل أجير يكون عند صاحب عمل لايرضى بأن يعمل بطعام بطنه فقط ، ولكنها النفوس العلية تأبى إلا السمو دائما نحو المكارم ، وتعمل جاهدة على رفع رصيدها الأخروي وإن أضرت بأجسامها في دار الفناء .

هذا وإن موقف عمر حين كَمَنَ لأخيه حذيفة رضي الله عنهما ليراه على الحال التي يصل عليها دليل على اهتمامه بالحفاظ على الرصيد الأخلاقي للأمة ، لأنه إذا استطاع أن يحافظ على تماسك هذا الرصيد عند الولاة فإن الأمة تبع لهم في ذلك .

وفي التزامه إياه وإعلان الأخوة بينهما مظهر خلاب من مظاهر الفرحة القلبية ، وسعادة الروح ، حينما يرى الأخ أخاه في الله على الوضع الديني الذي يُرضي الله تعالى .

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

لقد كان لسلمان الفارسي رضي الله عنه مواقف عالية في التواضع ، فلقد كان متواضعا لله تعالى ولعباده المؤمنين، ومن أمثلة تواضعه واهتمامه أنه لمَّا كان واليا على المدائن كان إذا سجدَتْ له

العجم طأطأ رأسه وقال : خشعت لله خشعت لله [1] .

وفي هذا تقرير للتوحيد بالقول والعمل وتعليم لأولئك الجاهلين بأمر الله تعالى ومايجب له من إفراده بالسجود .

ومن أمثلة تواضعه رضي الله عنه مايرويه ثابت البناني قال: كان سلمان أميرًا على المدائن ، فجاء رجل من أهل الشام ومعه حمل تِبْن وعلى سلمان « أنْدَرا وِرْد» [2] وعباءة ، فقال لسلمان : تعال احمل، وهو لايعرف سلمان ، فحمل سلمان ، فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير ، فقال : لم أعرفك ، فقال له سلمان : لاحتى أبلغ منزلك ، وفي رواية أخرى : إني قد نويت فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك [3] .

في هذا الخبر نوع نادر المثال من التواضع من سلمان رضي الله عنه، فهو أولا وهو أمير على المدائن عاصمة مملكة الفرس يلبس لباس الفقراء حتى ظنه ذلك الرجل ممن يحملون الأمتعة للناس فحمَّله مامعه من التبن ، ثم بعد أن عرف ذلك الرجل أنه الأمير واعتذر منه أبى إلا أن يستمر حتى يوصله منزله لأنه نوى في ذلك عملا صالحا لله تعالى فكره أن يقطع ذلك العمل .

وما أبلغه من عمل يسهم فيه فاعله في تثبيت خلق التواضع في المجتمع !

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٦ .

(٢) يعني نوعا من اللباس يغطي الركبة .

(٣) صفة الصفوة ١/٥٤٢ .

وهكذا يصنع العظماء في إهانة أنفسهم من أجل إشاعة الأخلاق السامية وتربية المسلمين على الخشونة والزهد .

وإنه لايقدر على هذا العمل إلا من عظمت الآخرة في عينه إلى الحد الذي أصبح لاينظر معه إلى الجاه الدنيوي ولا إلى انتقاد الناس مادام واثقا من أنه يمثل الأخلاق العالية في أسمى صورها .

ويذكر الحسن البصري رحمه الله تواضع سلمان وهو أمير على المدائن فيقول : كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان على ثلاثين ألفا من الناس يخطب في عباءة يفرش نصفها ويلبس نصفها، وكان إذا خرج عطاؤه أمضاه - يعني تصدق به - ويأكل من سفيف يده رضي الله عنه .

ويقول النعمان بن حميد : دخلت مع خالي على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوص ، فسمعته يقول : أشتري خوصا بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأعيد درهما فيه ، وأنفق درهما على عيالي، وأتصدق بدرهم ، ولو أن عمر نهاني عنه ما انتهيت (١) .

يعني لو أن عمر رضي الله عنه أمره بترك هذا العمل اليدوي والإنفاق على عياله من العطاء لما فعل .

وإن هذا لنموذج فريد من العناصر الزكية التي خلصها الإسلام من جميع أنواع الغش فعادت جوهرًا نقيا صافيا من الكدر .

وإن المتأمل ليقف مندهشا من هذه القوة الجبارة التي تحمل سلمان

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٧ .

وأمثاله على إنفاق عطائهم من بيت المال بالكامل ، والأكل من بعض عمل أيديهم وإنفاق بعضه الآخر .

إنهم لايعملون حسابا للإصابة بالأمراض أو كساد الأسواق ونحو ذلك لأنهم قد اكتفوا باليسير من المعيشة وعودوا أنفسهم على ذلك وهذا النوع من المعيشة يمكن بتوفيق الله تأمينه بسهولة عند الاضطرار بخلاف من يتوسعون في النفقات ويألفون حياة الترف، فمن الصعب عليهم النزول إلى العيش الضروري لأن نفوسهم تحتاج إلى فترة من الزمن حتى تألف على ذلك .

ومن مواقفه في الزهد والتواضع مارواه أبو ظبيان عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: نزلت بالصِّفاح في يومٍ شديد الحر، فإذا رجل نائم في حر الشمس يستظل بشجرة، معه شيء من الطعام ومزوده تحت رأسه ملتف بعباءة، فأمرت أن يُظلَّل عليه، ونزلنا فانتبه فإذا هو سلمان فقلت له: ظلَّلنا عليك وماعرفناك، قال: ياجرير تواضعْ في الدنيا فإنه من تواضع يرفعه الله يوم القيامة، ومن يتعظَّم في الدنيا يضعهْ الله يوم القيامة، لو حَرَصت على أن تجد عودًا يابسا في الجنة لم تجده ، قلت: وكيف ؟ قال: أصول الشجر ذهب وفضة، وأعلاها الثمار، ياجرير تدري ماظلمة النار ؟ قلت: لا ، قال ظلم الناس(1).

وفي عمل جرير مع سلمان دليل على ماكان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من حب فعل الخير والإحسان إلى الناس عرفوهم أو لم يعرفوهم، لأنهم إنما يطلبون ثوابهم من الله تعالى ، حيث قام

---

(1) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٨ .

جـرير بالتظليل على ذلك الرجل الـنائم من الشمـس وهو لايعرفـه، فأتحفه سلمان بهذه الموعظة البلـيغة في لزوم التواضع والزهد في الحياة الدنيا، واجتناب ظلم الناس .

وفي هذا الخبر توجيه من سلمان رضي الله عنه إلى التخلق بخلق التـواضع ، وقد رغَّب في ذلك بـذكر ثمـرته في الآخرة ، وإذا كـان الإنسان في الـدنيا يتواضع لمديـره في العمل من أجل أن يسـاعده في رفع مـستواه الـوظيفي ، أفـلا يتواضع المسلم لإخـوانه من أجل الله تعالى ليكسب رفعةً في الدرجات يوم القيامة ؟!

وإذا كانت الدنيا تقوم على تبادل المنـافع فلنفرض أن منفعةً دنيوية زالت من الإنسان فـما الذي سيـخسره مـادام مستـور الحال ولايدري مامقامه في هذه الحياة ؟

ولكن كم يخـسـر لو ضـاعت منه منافع الآخـرة حـينمـا ترتفع درجات الصالحين ويبقى هو في مؤخرة الناس ؟!

ثم تساءل سلـمان عن الظلمات يوم الـقيامـة فأجاب بأنـها ظلم الناس بينهم في الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فماأقل متعة الظالم في الدنيا وما أقصر مدتها !

ولكن ما أشد عذابها يوم القيامة ، وما أطول حزنها آنذاك !

ومن هذه الوصيـة نعلم قدر التـوجيهـات التربوية التي استـفادها الصحابة رضي الـله عنهم من رسول الله ﷺ حيث أصبـحوا ينطقون بالحكمة المستقاة مـن السنة النبوية ، وذلك في مثل قوله ﷺ « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

ثم نجد سلمان رضي الله عنه بعد أن أعطى توجيهاته القيمة نحو تركيز الاهتمام بالحياة الآخرة يضرب مثالا على عظمة نعيم الجنة حيث بين فيه أن أصول شجر الجنة اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر ، فكأنه يقول : هذا النعيم الخالد هو الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون لا متاع الدنيا الزائل .

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

ومن أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في التواضع ماروُي عن مجاهد رحمه الله قال: كنت أصْحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإذا أردت أن أركب مسك ركابي، فإذا ركبت سَوَّى عليَّ ثيابي، فرآني مرة كرهت ذلك فيَّ، فقال: يامجاهد إنك لضيِّق الخلق، وفي رواية قال: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[1].

فهذه أخلاق عالية من العالم الرباني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، حيث يقوم بخدمة تلاميذه، ولقد كانت هذه الأخلاق أصيلة فيه حيث كان يصرٌّ عليها، ويغضب حينما تظهر الكراهية لذلك في وجوه تلاميذه.

ولقد كان أهمَّ الدوافع لتخلق الصحابة وعامة الصالحين بتلك الأخلاق الكريمة اهتمامُهم الكبير باكتساب الأعمال الصالحة ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالتواضع لمن هو دونهم ، وبهذه الأخلاق النبيلة ربَّوا مجتمعا صالحا خلَفَهم في وراثة هذا الدين وتبليغه لمن بعدهم .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٥ .

من مواقف مطرِّف بن عبد الله رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر ثابت البناني أن مطرِّف ابن عبد الله بن الشِّخِّير قـال لابن أبي مسلم : مامدحني أحد قط إلا تصاغرت على نفسي [(١)] .

وهذا دليل على قوة إيمان مطرف بن عبـد الله رحمه الله ، حيث غلب نفسه وحـجَّمها ومنعها من أن تطمح نحـو الجاه والشرف، وهو مثل جيـد في التواضع المبني على قطع موارد الكبريـاء التي من أهمها الإعجاب بالنفس .

من مواقف محمد بن سيرين رحمه الله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهانـي من خبر هشام بن حسام قال: حدثني بعض آل سيرين قال : مارأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع .

وأخرج أيضـا من خبر ابن عـون قال : دخل رجل على محـمد وهو عند أمه ، فقال : ماشأن محمد أيشتكي شيئًا ؟ قالوا : لا ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه [(٢)] .

فهـذا مثل من التـواضع للوالدين ، وهو من أهم مجـالات البر بهمـا، ولقد بلغ ابن سيـرين من إهانته نفـسه أمام أمـه حدا أثر على قسمات وجـهه حتى ظن من رآه أنه يشكو من ألم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة تمسكه بأحكام الإسلام وآدابه .

---

(١) حلية الأولياء ٢/١٩٨ .

(٢) حلية الأولياء ٢/٢٧٣ .

كمـا أن هذا الخبر وأمثـاله دليل على عظمة الإسلام وقـوة تأثيره على النفوس ، فهل كان أجداد ابن سيرين - وهم على مجوسيتهم - يعاملون أمهاتهم هذه المعاملة ؟!

إن الواقع التـاريخي يشهـد بأن هذا الرقي الأخلاقي لايـوجد إلا عند المسلمين ، وأن هذه القوة المؤثرة لاتوجد في غير الإسلام .

من مواقف سليمان بن مهران رحمه الله :

من ذلك مـاذكره الإمـام الذهبي عن الإمـام سليمـان بن مهـران المشهور بالأعمش وقد ذكر حديث الرجل الذي ذُكر عند النبي ﷺ أنه ما زال نائما حـتى أصبح ، ماقام إلى الصلاة فـقال « بال الشيطان في أذنه » أخرجه الشيخان [(١)] .

فقال الأعمش :ما أرى عينيَّ عمشت إلا من كثرة مايبول الشيطان في أذني ، قال أبو خالد الراوي عن الأعمش:وماأظنه فعل هذا قط .

قال الذهبي : يريد أن الأعمش كان صاحب ليل وتعبد [(٢)] .

فهذا مثل من تواضع هذا الإمام الكبير ، وقد كان هو وأمثاله من الصالحين يهتـمون بتحقـير النفس وإخفاء العمل الصـالح قطعا لموارد العجب والرياء ، وادخاراً لثواب العمل كاملا في دار البقاء .

من مواقف سفيان الثوري ومالك بن أنس رحمهما الله :

قال الحافظ ابن كـثير في ترجمـة الإمام أبي عمرو عـبد الرحمن

---

(١) صحيح البخـاري ، التهجد رقم ١١٤٤ (٣/ ٢٨) ، صحيح مـسلم ، باب المسافرين رقم ٢٠٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٣٢ .

الأوزاعي : وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به ، والثوري يقول : افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه [١]

فهذا مثل جيد لعلاقة المحبة والتواضع والاحترام بين العلماء، فالعلماء الثلاثة المذكورون كانوا متعاصرين ، وكل واحد منهم قد بلغ حدّا عاليا من الشهرة ، فمالك إمام أهل المدينة ، والثوري إمام أهل الكوفة ، والأوزاعي إمام أهل الشام ، ومع تقاربهم في مستوى الشهرة فإن الإمامين مالك والثوري قاما بهذه المقابلة الكريمة للإمام الأوزاعي ، وهذا دليل على فضلهما وقوة إيمانهما ، حيث لم يَرَيَا في ذلك غضاضة من شأنهما ولاحطًا من قدرهما ، بل بضد ذلك فإنهما بهذا السلوك العالي قد خلدا هذا المثل ليكون فيه قدوة لمن بعدهما من العلماء .

من مواقف عبد الله بن المبارك رحمه الله :

لقد كان للعلماء اهتمام بمعالجة أمراض القلوب التي تنتج عن عدم التحلي بخلق التواضع ، وذلك كالكبر والعجب ، ومن الأقوال في ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من خبر أبي وهب المروزي قال : سألت ابن المبارك : ما الكبر ؟ قال : أن تزدري الناس ، فسألته عن العجب قال : أن ترى أن عندك شيئا ليس عند غيرك ، لا أعلم في المصلين شيئا شرا من العجب [٢] .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦٠ .

وقوله « أن تزدري الناس » مأخوذ من قول رسول الله ﷺ «ولكن الكبر مَنْ بَطِر الحق وغمط الناس » [1] ، وقد ذكر ابن المبارك الشق الثاني من أنوع الكبر وهو ازدراء الناس واحتقارهم ، ولعله اقتصر على ذلك لأنه مراد السائل ، أما الشق الأول فهو بطر الحق وذلك بأن يترفع عن قبول الحق .

والكبر بنوعيه من الأخلاق الهدامة ، فهو يعطل المواهب ، ويقلل من الإنتاج الفكري، ويبعث على الظلم وهظم الحقوق بالنسبة للمتكبر، وعلى الغل والحقد بالنسبة لمن يعاملهم المتكبر ، إلى غير ذلك من المفاسد الكثيرة المترتبة على الكبر .

أما العجب فهو قاصمة الظهر ، لأن المرء إذا أعجب بنفسه أصيب بالغرور ، وذلك يترتب عليه ضرر في الآخرة والدنيا، فأما ضرره في الآخرة فمنه الآثام المترتبة على الكبر من احتقار الناس والبحث عن عيوبهم وغير ذلك ، وأما ضرره في الدنيا فإنه يُضعف من الإنتاج والتطلع نحو الكمال ، لأن المعجب بنفسه يرى أنه قد بلغ درجات عاليةً من الكمال فلا يشعر بالنقص والحاجة إلى العمل ، وهو من أضر المهلكات على طلاب العلم لأن من أعجب بنفسه احتقر من حوله، وربما احتقر أساتذته ، فيمنعه ذلك من الاستفادة منهم، وربما حمله الغرور على عدم الاجتهاد في التحصيل والمذاكرة فيصاب بالإخفاق في الاختبار أو عدم التسديد في الكتابة فتكثر أخطاؤه .

---

(١) سنن أبي داود ، رقم ٤٠٩٢ ، اللباس (٤/ ٣٥٢) ، سنن الترمذي رقم ١٩٩٩، البر (٤/ ٣٦٠) .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

من أخباره في الحلم والعفو ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته ، قال: وركب يوما في حُرَّاقة [1] فسمع ملاحا يقول لأصحابه : ترون هذا المأمـون يَنْبُل في عينـي وقد قـتل أخاه الأمين - يقـول ذلك وهو لايشعـر بمكان المأمون - فـجعل المأمون يبـتسم ويقـول : كيف ترون الحيلة حتى أنْبُلَ في عين هذا الرجل الجليل القدر ؟ [2] .

فهذا مـثل جيد في تقدير الولاة لمكارم الأخـلاق ، والحفاظ على السمعة الحسنة على طريق الفِعَال الحميدة ومحبة القلوب .

من مواقف يزيد بن هارون رحمه الله :

من ذلك ماذكره المروزي قال:قـال لي أبو عبد الله - يعني الإمام أحمـد بن حنبل - كنا عند يزيد بن هارون فوهم في شيء فكلمـته ، فأخرج كتـابه فوجده كما قلت ، فغـيره ، فكان إذا جلس يقول : يا ابن حنبل ادن ، يا ابن حنبل ادن ههنا [3] .

فهـذا مثل من تواضع الحافظ يزيد بن هـارون حيث أصلح الخطأ في كتـابه على مـاذكر له الإمام أحـمد،وصـار يثني عليه ويقـربه من مجلسه .

وذكر الإمام الذهبي من خبر جعـفر بن ميمون بن الأصبغ قال : سمعت أبي يقول : كـنا عند يزيد بن هارون وكان عنده المعيطي وأبو

---

(١) نوع من السفن .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤ .

خيثمة وأحمد ، وكانت في يزيد - رحمه الله - مداعبة ، فذاكره المعيطي بشيء فقال له يزيد : فَقَدتُك ، فتنحنح أحمد ، فالتفت إليه فقال : من ذا ؟ قالوا : أحمد بن حنبل ، فقال : ألا أعلمتموني أنه هاهنا ؟ (١) .

وهذا مثل آخر في التواضع يقدمه الإمام يزيد بن هارون لأحد تلاميذه وهو الإمام أحمد بن حنبل ، والتواضع من الكبير دليل على كمال العقل وعلو القدر .

موقف لإسماعيل بن عُلَيَّة رحمه الله :

ذكر الإمام الذهبي من رواية الأثرم قال : أخبرني عبد الله بن المبارك ، شيخ سمع قديما (٢) قال : كنا عند ابن علية ، فضحك بعضنا وثَمَّ أحمد ، قال : فأتينا إسماعيل - يعني ابن علية - بَعْدُ فوجدناه غضبان ، فقال : تضحكون وعندي أحمد بن حنبل (٣) .

فهذا مثل على تواضع الإمام ابن علية حيث غضب لضحكهم من أجل ابن حنبل ولم يغضب من أجل نفسه .

وهذا والذي قبله مثلان لما كان يتمتع به الإمام أحمد من هيبة وإكبار في النفوس ، وحينما يَفرض الرجل العظيم هيبته على الناس مع اتصافه بالتواضع الجم ، فإن هذا هو مجال الرفعة الحقيقية والشرف الكبير ، أما حينما تكون الهيبة من الرجل لاتصافه بالكبر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤ .

(٢) ليس هذا هو ابن المبارك الإمام المشهور .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٤ .

والصلف فإنها هيبة مصطنعة مُقَنَّعة بستر رقيق ، وما أسرع ماتزول ويعقبها المقت والسخرية حينما تنحط مكانة ذلك الرجل ، وتزول أسباب تسلطه وكبريائه .

موقف لقتيبة بن سعيد رحمه الله :

من أمثلة تواضع العلماء ماذكره محمد بن يوسف قال : كنا عند أبي رجاء - هو قتيبة - فسئل عن طلاق السكران ، فقال : هذا أحمد ابن حنبل وابن المديني وابن راهويه قد ساقهم الله إليك ، وأشار إلى محمد بن إسماعيل - يعني البخاري وكان مذهب محمد أنه إذا كان مغلوب العقل حتى لايذكر ما يُحدث في سكره أنه لايجوز عليه من أمره شيء [(١)] .

فهذا مثل من تواضع أهل العلم بعضهم لبعض ، حيث رد أبو رجاء قتيبة بن سعيد الثقفي الفتيا إلى أبي عبد الله البخاري مع أنه في طبقة تلاميذه ، وأثنى عليه بأنه قد جُمِع فيه علم العلماء الكبار من أمثال أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهويه .

موقف لأحمد بن حنبل رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي من خبر صالح بن الإمام أحمد قال: كان أحمد إذا رأيتَه تعلم أنه لايظهر النسك، رأيتَ عليه نعلا لايشبه نعال القراء له رأس كبير معقد وشراكه مسبل، ورأيتَ عليه إزارًا وجبَّة برد مخططة ، أي لم يكن بزيٍّ القراء [(٢)].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٢٠٧ .

فهذا تواضع من الإمام أحمد رحمه الله تعالى، حيث ترك اللباس الخاص بالعلماء مع مايترتب على هذا اللباس من احترام الناس، وهذا مدخل من مداخل العجب والخيلاء، فاجتنب ذلك اللباس تواضعا وتحريا لدينه .

من مواقف إسحاق بن راهويه وإسماعيل بن أبي أويس رحمهما الله :

من ذلك ماروواه حاشد بن عبد الله قال: كنا عند إسحاق -يعني ابن راهويه - وعَمْرو بن زرارة ثمَّ ، وهو يستملي على البخاري، وأصحاب الحديث يكتبون عنه ، وإسحاق يقول : هو أبصر مني، وكان محمد - يعني البخاري - يومئذ شابا [(١)] .

وكذلك ماذكره محمد بن أبي حاتم أن الإمام أبا عبد الله البخاري قال : قال لي إسماعيل بن أبي أويس : انظر في كتبي وماأملكه لك وأنا شاكر لك مادمت حيا [(٢)] .

فهذان مثلان على تواضع العلماء ورغبتهم الأكيدة في خدمة السنة النبوية وتنقيتها من الشوائب وإن ترتب على ذلك تخطئتهم ، وفي هذين الخبرين بيان تفوق الإمام البخاري في العلم وثقةُ العلماء الكبيرةُ فيه ، والجهدُ العظيم الذي بذله في تمحيص السنة النبوية وتخليصها مما خالطها من الكدر ، رحمه الله تعالى .

من مواقف أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من ذلك ماروواه كاتب الإمام البخاري محمد بن أبي حاتم قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٩ .

وكنا بِفرَبر وكان أبو عبد الله يبني رباطا مما يلي بخارى فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك ، وكان ينقل اللَّبن ، فكنت أقول له : إنك تُكفَى يا أبا عبد الله ، فيقول : هذا الذي ينفعنا ، ثم أخذ ينقل الزنبرات [1] معه ، وكان ذبح لهم بقرة ، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام وكان بها مائة نفس أو أكثر ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجتمع ، وكنا أخرجنا معه من فربر خبزا بثلاثة دراهم أو أقل فألقيناها بأيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمناء [2] بدرهم [3] .

فهذا مثل من تواضع الإمام البخاري وتقديره للعمل الصالح، فهو يشارك في بناء الرباط الخيري مع وجود ذلك العدد الكبير من الناس الذين يكفونه المهمة ، لأنه يفهمها على أنه عمل صالح وهو من أول من ينافسون على الخيرات .

من مواقف ابن هبيرة رحمه الله :

من الذين اشتهروا بالتواضع وحسن الأدب الوزير العالم العادل أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني ، ذكر الإمام الذهبي أنه تعلم العلوم الدينية والعربية حتى برع فيها ، وأصابه الفقر فعمل في مجال الكتابة وبرع فيها ، وأن أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله عيَّنه وزيراً له ، ثم صار وزيراً لابنه المستنجد .

---

(١) جمع زنبر وهو الزنبيل ، فارسية معربة .

(٢) جمع مَنّ وهو زنة رطلين .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٥٠ .

قال : وكـان دِّينا خيِّراً مـتعبـدا عاقلا وقوراً مـتواضعـا ، جَزْل الرأي، باراّ بالعلماء، مكبّا مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن حسنة الزمان .

وقال : قـال ابن الجوزي : كـان يتحدث بنعم الـله ، ويذكر في منصبه شدة فقره القديم، وقال: نزلت يوما إلى دجلة وليس معي رغيف أعبُـر به، وكان يُكثر مـجالسة العلمـاء والفقراء ويبـذل لهم الأموال، فكانت السَّنَة تدور وعليه ديون وقال: ماوجبت عليَّ زكاة قط .

وكان إذا استـفاد شيئـا من العلم قال : أفادنيه فـلان، وقد أفدته معنى حـديث ، فكان يقول : أفادنيـه ابن الجوزي فكنت استـحيي، وجعل لي مـجلسًا في داره كل جمـعة ، ويأذن للعامة في الحـضور، وكان بعض الفقـراء يقرأ عنده كثيـراً فأعجبه وقـال لزوجته : أريد أن أزوجه بابنتي فغضبت الأم .

وكان يُقْرأ عنده الحديث كل يـوم بعد العصر فحضر فـقيه مالكي فَذُكِرت مسألة فخالف فيها الجمع وأصرّ ، فقال الوزير : أحمار أنت! أما ترى الكل يخـالفونك ؟! فلمـا كان من الغد قـال للجمـاعة: إنه جـرى مني بالأمس في حق هذا الرجل مـا لا يليق، فليـقل لي كمـا قلت له فما أنا إلا كأحدكم ، فضجَّ المجـلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتـذار ، وجعل يقول : القِصـاصَ القصاص، فلم يزل حتى قـال يوسف الدمشـقي : إذ أبى القصاص فـالفداء ، فـقال الوزير : له حكمه ، فقال الفقيـه : نِعَمُك عليّ كثيرة فأيّ حكم بقي

لي ؟ قال : لابُدَّ ، قال : عليّ دين ـة دينار ، فأعطاه مئتي دينار، وقال: مئة لإبراء ذمته ، ومئةٌ لإبراء ذ ني [1] .

وبعد فإن هذا العالم الجليل الذي بلغ منزلة كبرى من المسئولية في دولة الإسلام يُعتبر مثلا من العلماء العاملين ، فقد نجح نجاحا كبيراً في سياسة الدولة، حيث طبق حصيلة علمه الواسع النافع في إدارة الأمور ومعاملة الراعي والرعية ، كما نجح في العلم، وذلك بمدارسة العلماء والعناية بهم ، وتأليف المؤلفات النافعة التي أهمها كتابه النافع « الإفصاح عن معاني الصحاح » وقد شرح فيه صحيحي الإمامين البخاريّ ومسلم في عشرة مجلدات .

وفي الخبر المذكور مواقف لهذا الوزير الجليل فمنها كرمه الفياض الذي أذهب ماله حتى أصبح لامال له تجب فيه الزكاة، وسبَّب تراكم الديون عليه مع كثرة دخله المالي لعلو منصبه .

ومنها تواضعه الجمّ وذلك في مثل ماجرى منه حينما نسب الفضل لأهله واعترف للعلماء بما استفاده منهم من العلم، وكذلك حينما أراد أن يزوج طالب العلم الفقير من ابنته ، وقد سار في ذلك على منهج الإسلام في اعتبار الكفاءة الدينية ، ولم يعتبر الفوارق الاجتماعية المعروفة .

كما يظهر تواضعه حينما اعتذر لذلك الفقيه من كلمته التي بدرت منه نحوه ، وألحَّ عليه في أخذ القصاص منه ، إلى أن أنقذ الموقف أحد العلماء باقتراح أخذ الفداء ، فأعطى ذلك الفقيه ضِعفَ ماطلب،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٢٦ - ٤٢٩ .

وهذا يدل على ورعه العظيم حيث شغلَت بالَه تلك الكلمة، وخاف من مغبتها في الآخرة فأراد أن يصفّي حسابها في الدنيا .

وهذه المواقف تدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه، لأن هذا السلوك العالي من آثار ذلك .

ومن مواقف ابن هبيرة في التواضع والوفاء ماذكر الحافظ ابن رجب من خبر أبي بكر التيمي قال : ولقد كنا يوما بالمجلس على العادة لسماع الحديث إذ دخل حاجبه أبو الفضائل بن تركمان فسارَّ الوزير بشيء لم يسمعه أحد فقال له الوزير : أَدخل الرجل ، فأبطأ عليه فقال الوزير : أين الرجل ؟ فأبطأ فقال : أين الرجل ؟ فقال الحاجب إن معه شملة صوف مكورة وقد قلت له : اتركها مع أحد الغلمان خارجا عن الستر وادخل ، قال : لاأدخل إلا وهي معي، فقال له الوزير : دعه يدخل وهي معه ، فخرج وعاد وإذا معه شيخ طُوال من أهل السواد [1] وعليه فوطة قطن وثوب خام، وفي رجليه جمجمان، فسلَّم وقال للوزير : ياسيدي إن أم فلان - يعني أم ولده- لما علمت أني متوجه إليك قالت : بالله سلِّم لي على الشيخ يحيى عني ، وادفع إليه هذه الشملة فقد خبزتها على اسمه ، فتبسم الوزير إليه وأقبل عليه ، وقال : الهدية لمن حضر، وأمر بحلِّها ، فحُلَّت الشملة بين يديه ، وإذا فيها خبز شعير مشطور بكامخ أكشوت، فأخذ الوزير منه رغيفين وقال : هذا نصيبي ، وفرَّق الباقي على من حضر من صدور الدولة والسادة الأجلة ، وسأله عن حوائجه جميعها،

---

(١) أي من ريف العراق .

وتقدم بقضائها على المكان، ثم التـفت إلى الجماعة وقال : هذا شيخ قد تقدمتْ صحـبتي له قديما ، واختبرته في زرع بيننـا فوجدته أمينا، ولـم يظهـر منه - أي الوزير - تأفف بمقال الشـيخ ولاتكبر علـيه ولا إعراض عنه ، بل أحسن لقاءه وقضى حوائجه وأجزل عطاءه .

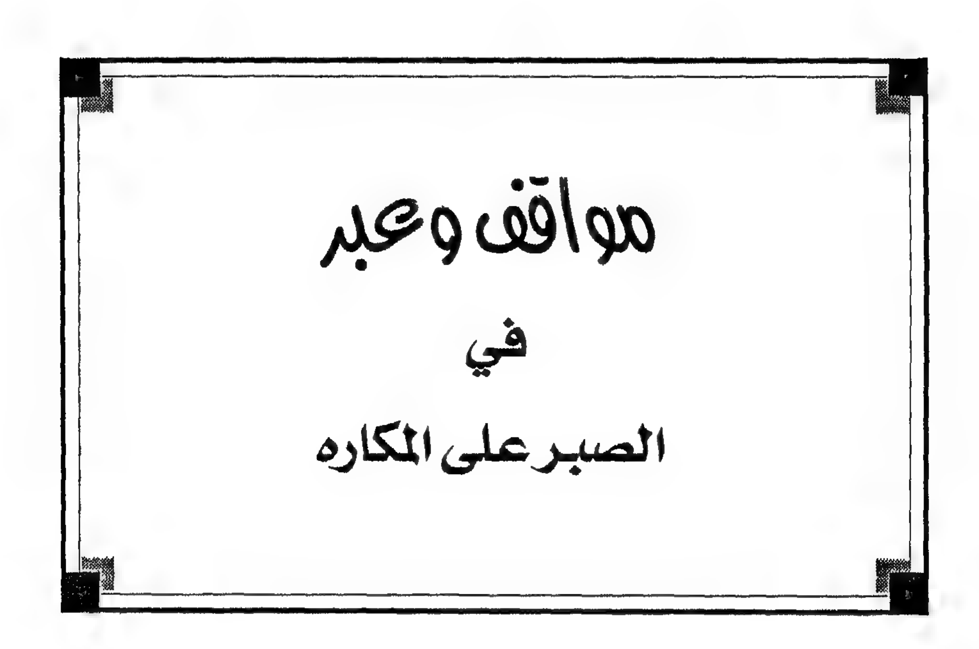
ثم حكى أنه كان بينـه وبين هذا الشيخ زرع ، وأنهم خشـوا عليه من جيش عظيم نزل عندهم ، فـقرؤوا على جوانبه القـرآن فسَلِم ولـم يُرَعْ منه سنبلة واحدة [(١)] .

فهذا مـثل من اتصاف الوزير ابن هبيرة بخلـق التواضع والوفاء ، حيث لـم يتكبـر على ذلك الرجل الفقيـر ، ولـم ينس ما بينه وبينه من معاملة قديمة يوم أن كان ابن هبيرة مثل ذلك الرجل في الفقر والعمل.

* * *

---

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٢ .



مواقف وعبر

في

الصبر على المكاره

نماذج من صبر الصحابة رضي الله عنهم على الفقر :

لقد كان المهاجرون وهم في مكة قبل الإسلام في رغد من العيش، فلما جاء الإسلام وعاداه أكثر كبراء مكة ضيقوا على بعض المسلمين في معيشتهم كما سبق بيان ذلك ، ثم لما هاجروا تركوا جميع أموالهم للمشركين وواجهوا حياة الفقر في المدينة ، وقد كانت لهم مواقف في الصبر تعتبر نموذجا يحتذى لمن بعدهم .

ومما يصور بعض ماواجهوه من ذلك ماأخرجه ابن إسحاق رحمه الله من طريق صالح بن كيسان عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه، فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما، فأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا ، فلما أصابه ماأصابنا لم يقو على ذلك ، فلقد رأيته وإن جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحية ، ولقد رأيته يُنقطع به فما يستطيع أن يمشي ، فنعرض له القِسِيَّ ثم نحمله على عواتقنا ، ولقد رأيتني مرة قمت أبول من الليل فسمعت تحت بولي شيئا يجافيه ، فلمست بيدي فإذا قطعة من جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها حتى أنعمتها ثم أحرقتها بالنار ، ثم رضضتها فشققت منها ثلاث شقات فاقتويت بها ثلاثًا [1] .

وهذا تصوير واضح لما كان يعاني منه المسلمون في أول الإسلام من شدة العيش وخشونة الحياة ، وقوله « كنا قبل الهجرة يصيبنا ظلف العيش وشدته فلا نصبر عليه » المراد بالصبر هنا الإلف والاعتياد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/١٤٨ .

ومرونة الأجسام على حياة الفقر والشدة وليس المراد انتفاء الصبر النفسي فإن الصحابة رضي الله عنهم لقوة إيمانهم كانوا في قمة الصابرين ، يدل على ذلك قوله « فما هو إلا أن هاجرنا فأصابنا الجوع والشدة فاستضلعنا بهما وقوينا عليهما » يعني فالصبر النفسي موجود قبل ذلك ، ولكن حياة الاعتياد والانسجام كانت أظهر في المدينة، وظل عدم الإلف والانسجام واضحا في حياة مصعب بن عمير حتى بعد الهجرة ، وذلك لتميزه بنوع من حياة الترف والنعيم قبل الإسلام ، وبالرغم مما عرض له من هذا التحول المفاجئ في حياته وماقامت به أمه وقومه من التضييق عليه فإنه ظل صابراً محتسبا.

ولقد كان النبي ﷺ يتأثر لِمَرآه وهو يقارن حاله تلك بحاله الأولى، كما أخرج الإمام الترمذي وحسنه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ماعليه إلا بردة له مرقوعة بفرو[يعني بجلد] فلما رآه رسول الله ﷺ بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليوم ، ثم قال رسول الله ﷺ : كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة ، وَوُضِعَتْ بين يديه صحفة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قالوا : يارسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نتفرغ للعبادة ونُكْفَى المؤنة ، فقال رسول الله ﷺ : لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ » (١) .

وبهذا نبههم النبي ﷺ إلى أن الاستقامة على الدين لاتكون مع

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٧٦ (٦٤٧/٤) .

حياة الترف والإسراف ، لأن هذا النوع من الحياة يُورث القلوب قساوة وجفاء . وقلَّ من يشكر عند الرخاء فيبقى على مستواه من الإيمان في حال الشدة والرخاء .

ولقد كان لتوجيهات النبي ﷺ أثر واضح في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، فقد فهموا أن الابتلاء مع الصبر والاحتساب كفارة للخطايا، وفي ذلك يقول ﷺ « مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وماعليه خطيئة »أخرجه الإمام مالك والترمذي بإسناد حسن (١) .

وفهموا أن الصبر على البلاء رفع للدرجات يوم القيامة وأن ابتلاء المؤمن من محبة الله تعالى له ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ « إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط » أخرجه الإمام الترمذي بإسناد حسن (٢) .

وأخذوا العبرة من ابتلاء الأنبياء عليهم السلام واقتدوا بهم في الصبر والاحتساب ، يقول رسول الله ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبْتَلَى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابْتُلِيَ على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وماعليه خطيئه » أخرجه الإمام الترمذي وقال : حسن صحيح (٣) .

---

(١) موطأ مالك ١/٢٣٦ ، سنن الترمذي رقم ٢٤٠١ ، في كتاب الزهد .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الزهد رقم ٢٣٩٨ .

(٣) سنن الترمذي ، الزهد ، باب ٤٥ (٧/٧٨) .

ومما يصور ماكان فيه المسلمون في العهد النبوي من شدة العيش ماجاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير : ابْنَ أختي إن كنا لننتظر الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وماأُوقِدَتْ في أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقلت : ماكان يُعيشكم ؟ قالت : الأسودان ، التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم فيسقيناه » [١] .

ويصور ذلك ماجاء في قول أبي هريرة رضي الله عنه : لقد رأيتني وإني لأخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مغشيا عليَّ، فيجئ الجائي فيضع رجله على عنقي ويُرى أني مجنون ومابي من جنون ومابي إلا الجوع » [٢] .

هذا أبو هريرة الذي كان مثلا من أمثلة المهاجرين الذين كانوا في يسار من العيش في بلادهم ، فهاجروا بدينهم وصبروا على مانالهم من البلاء ، ومن هؤلاء علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وقد ذكر صورة مما ناله من شدة العيش والجوع حيث يقول: خرجت في يوم شات من بيت رسول الله ﷺ ، وقد أخذت إهابا معطونا [٣] فجوبَّت وسطه[٤] فأدخلته في عنقي وشددت وسطي فحزمته بخوص النخل وإني لشديد الجوع ، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام

(١) صحيح البخاري رقم ٦٤٥٩ ، كتاب الرقاق (١١/ ٢٨٣) .

(٢) صحيح البخاري رقم ٧٣٢٤ ، كتاب الاعتصام (١٣/ ٣٠٣) .

(٣) يعني جلدا منتن الرائحة .

(٤) أي خرقته فجعلته جيبا .

لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئا ، فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة له، فاطَّلعت عليه من ثلمة في الحائط، فقال: مالك ياأعرابي، هل لك في دلو بتمرة ؟ فقلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلوا أعطاني تمرة ، حتى إذا امتلأت كفِّي أرسلت دلوه وقلت: حسبي فأكلتها، ثم جرعت من الماء فشربت ، ثم جئت المسجد فوجدت النبي ﷺ فيه » أخرجه الإمام الترمذي وقال : حسن غريب (١) .

ولقد كان لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي يقول « لقد أُخفْتُ في الله وما يَخاف أحد ولقد أوذيت في الله ومايُؤذى أحد، ولقد أَتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال » أخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح (٢) .

وإن هذه النماذج لتدلنا على مبلغ ماكان يعاني منه المسلمون من شدة العيش في ذلك العهد ، ولقد قابلوا ذلك بالرضى والتسليم والصبر الجميل ، ولم يرو التاريخ أن أحداً من المهاجرين الصادقين ترك المدينة ورجع إلى بلده من أجل ضعف احتماله وقلة صبره ، وهذا دليل ظاهر على قوة إيمانهم ومبلغ تضحيتهم .

وهؤلاء الصابرون على البلاء حينما تحوَّلَتْ حالهم إلى الرخاء لم يتكبروا ولم يبطروا بل كانوا من الشاكرين للنعماء ، فكانوا بحق

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي، رقم ٢٥٩١ كتابة صفة القيامة (٧/ ١٧١) .

(٢) تحفة الأحوذي ، رقم ٢٥٩٠(٧/ ١٧٠) ، سنن ابن ماجه رقم١٥١، المقدمة(١/ ٥٤).

مؤمنين متـصفين بقول رسول الله ﷺ : « عجبًـا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمـؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيـرا له ، وإن أصابتـه ضراء صبـر فكان خيـرًا له » أخرجـه الإمام مسلم(١) .

ومما يصور مـاكان يعاني منه الصحـابة رضي الله عنهم من الشدة وماعلَّمهم النبي ﷺ من الصـبر والزهد ماأخرجه الإمـام البخاري من حديث عليّ بن أبي طالب رضي اللـه عنه « أن فاطمة عليهـا السلام شكَتْ ماتَلْقَى من أثر الرَّحَى ، فأُتِيَ الـنبيُّ ﷺ بسَبْي ، فانطلقتْ فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبـرتها ، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة ، فـجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذْنا مضـاجعنا ، فذهبتُ لأقوم فقال : على مكانكما ، فقعد بيننا حتى وجدتُ بَرْدَ قدمَيه على صدري ، وقال : ألا أعلِّمكما خيرا مما سألتماني ؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبِّـران أربعـا وثلاثين ، وتسـبحـان ثلاثا وثلاثين ، وتحـمـدان ثلاثا وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم » (٢) .

وهكذا كانت هـذه الأسرة الكريمة تعيش في شْظـف من العيش ، فعليّ رضي الله عنه كان لابدَّ له من أجل الحصول على الطعام من أن يؤَجِّر نفسه في إخـراج الماء من الآبار ، وكان لابد لفاطمة رضي الله عنها من أن تطحن بالرحى .

وكانا صابرين على هذه الحياة الشـاقة ، ولكن حينما آنسَا بابًا من

---

(١) صحيح مسلم ، الزهد ، رقم ٢٩٩٩ ، (ص ٢٢٩٥) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٠٥ ، فضائل الصحابة (٧/ ٧١) .

أبواب الفرج طلبا من النبي ﷺ خادما ، ولكن النبي ﷺ الذي يدرك من أحوال أصحابه مالا يدركـان قد أدرك بأن هناك من هم أشد منهما فقرا وأحـوج منهما إلى المعونة ، وهم أهل الصـفة الذين لا مال لهم ولا أهل ، فقرر أن يبيع ذلك السبي وأن يرد قيمته على أولئك الفقراء كي ينقذ حياتهم من المسغبة [1]،وهذه نظرة عالية من رسول الله ﷺ إلى المستضعفين من أصحابه،ودرس بليغ لمن ولاه الله تعالى أمر الأمة أن لا يحابِيَ أقاربه على حساب من هم أشد حاجة وأبلغ استحقاقا .

وفي هذا الخبر درس آخر في غاية الأهمية حيث جاء النبيﷺ إلى ابن عمه علي وابنته فاطمة رضي الله عنهما فزوَّدهما بما هو خير لهما مما سألاه،فقد زودهما بذكر الله تعالى الذي هو زاد القلوب وحياتها.

وقد يتعجب الإنسان كيف يطلبان خادما فيرشدهما النبي ﷺ إلى ذكر الله تعالى ، ولكن حـينما يعرف المتأمل مـا لذكر الله جل وعلا من أثر عظيم في تقوية النفوس فإنه يزول ذلك العجب ، فإن القلوب إذا عُمِـرتْ بذكر الله سـبحـانه هانت عليهـا المصائب ، وسَـمَتْ في أفكارها المطالب ، وأصبح أصحابها يسـتعذبون الشدائد في سبيل الله تعالى ، ويرون أنها أبواب خير لرفع رصيدهم من الحسنات ، وخفض رصيدهم من السيئات .

موقف لأبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما[2] :

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

---

(١) جاء ذلك في رواية ذكرها ابن الجوزي – صفة الصفوة ٢/ ١٠ – .

(٢) أبو طلحة هو زيد بن سهل النجاري الأنصاري .

مـات ابن لأبي طلحة من أم سليـم . فقـالت لأهلها : لاتحـدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال فجاء فقربت إليه عشاءً . فأكل وشرب . فقـال ثم تصنعت له أحسن ماكان تصنـع قبل ذلك . فوقع بها. فـلما رأت أنه قد شـبع وأصاب منهـا ، قالت : ياأبا طـلحة ! أرأيت لو أن قوما أعارُوا عاريتـهم أهل بيتٍ ، فطلبوا عاريتهم ، آلهم أن يمنعـوهم ؟ قال : لا . قـالت : فاحـتسب ابنك . قـال فغـضب وقال: تركـتني حتـى تلطخت ثم أخبـرتني بابني ! فانطلق حـتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بماكان . فقال رسول الله ﷺ « بارك الله لكما في غابر ليلتكما » قال فحـملتْ . قال فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معهُ . وكـان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفـر، لايطرُقُها طرُوقًا(١). فدنوا من المدينة فضربها المخاض (٢) . فاحتبس عليها أبو طلحة. وانطلق رسول الله ﷺ . قال يقول أبو طلحة : إنك لتعلم، يارب ! إنه يُعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل . وقد احـتبست بما ترى . قال تقـول أم سليم : ياأبا طلحة ! ماأجد الذي كنتُ أجد (٣) . انطلق . فانطلقنا . قال وضربها المخاضُ حين قدما . فولدت غلاما . فـقالت لي أمي : ياأنسُ لايُرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ . فلما أصـبح احتملتهُ . فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ . قال فصادفـتهُ ومعهُ ميسمٌ (٤) فلما رآني قال

---

(١) أي لايدخلها في الليل .

(٢) هو الطلق ووجع الولادة .

(٣) تريد أن الطلق انجلى عنها ، وتأخرت الولادة .

(٤) هو الآلة التي يكوى بها الحيوان . من الوسم، وهو العلامة .

«لعلَّ أم سليم ولدت ؟ » قلتُ :نعم . فوضع الميسَمَ . قال وجئتُ به فوضعتهُ في حجره . ودعـا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت ، ثم قـذفها في في الصبي، فجعل الصبي يتلمظهـا ، قال رسـول الله ﷺ : انظروا إلى حب الأنصـار التمـر، قال: فمسح على وجهه وسماه عبد الله [1] .

وأخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بأخـصر من هـذا وجاء في آخـره « قـال سفـيـان : فقـال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن [2] .

وقال الحافظ ابـن حجر : سفيـان هو ابن عيينة ، وقـوله « فقال رجل من الأنصار » هو عبـاية بن رفاعة ، واستشـهد برواية عن عدد من الأئمة من حديث عباية قال « فلـقد رأيت لذلك الغلام سبعة بنين كلهم قد ختم القرآن » قال : وأفـادت هذه الرواية أن في رواية سفيان تجوزاً في قوله « لهما » لأن ظاهره أنه من ولدهما بغير واسطة ، وإنما المراد من أولاد ولدهما المدعو له بالبركة وهو عبد الله بن أبي طلحة، قال: ووقع في رواية سفـيان « تسعة » وفي هذه « سـبعة » فلعل في أحدهما تصحيفا ، أو المراد بالسبـعة من ختم القرآن كله وبالتسعة من قرأ معظمه [3] .

وهكذا كان أبو طلحـة وأم سليم رضي الله عنهما مثـلا عاليا في

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢١٤٤ ، فضائل الصحابة (ص ١٩٠٩) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم١٣٠١ ، الجنائز (٣/ ١٦٩) .

(٣) فتح الباري ٣/ ١٧١ .

الصبر على البلاء، فلقد كانا يحبان ابنهما حبّا شديدا فأراد الله عز وجل أن يبتليهما بفقد هذا الولد حتى ينالا أجر الصابرين، ولقد ظهر في هذا المثل العالي نموذج من البَشر يقدم محبة الله جل وعلا على محبة أحب شيء إليهم .

ولقد كانت أم سليم امرأة عظيمة ، حيث صبرت هذا الصبر القوي، وظهرت أمام زوجها وكأنها تخلو من أي مصيبة ، إن هذه المرأة التقية الصابرة كانت تتمتع بإيمان راسخ قد خالط شغاف قلبها فاستطاعت أن تكتم مشاعر الحزن على ابنها رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر .

وكان للتوجيهات الإسلامية أثر كبير في نفس تلك المرأة المؤمنة، فقامت بدور فعال في تهدئة زوجها حتى نام ليلته في راحة وطمأنينة، وكانت ترجو من الله عز وجل أن يكافئها على صبرها بولد صالح يعوضها عن ابنها الذي فقدته .

وظفر هذان الزوجان الكريمان بدعوة مباركة من رسول الله ﷺ ، وقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوة فحملت أم سليم وظهرت تباشير إجابة الدعوة بما شعرت به من خفة الحمل وعدم التعرض لما كانت تتعرض له من آلام ، ثم ظهرت بركة هذه الدعوة بما أنعم الله تعالى به على ولدهما من البنين الذين حفظوا القرآن الكريم .

من مواقف سلمان الفارسي رضي الله عنه :

ومن أمثلة الصبر على الشدائد ماجاء في خبر إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل هذا الخبر

من رواية محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه قال كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جَيّ وكان أبي دهقان قريته وكنت أحب خلق الله إليه فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته أي ملازم النار كما تحبس الجارية ، وأجهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها لايتركها تخبو ساعة ، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال : فشغل في بينان له يوما فقال لي : يابني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعها وأمرني فيها ببعض مايريد ، فخرجت أريد ضيعته فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لاأدري ماأمر الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر مايصنعون ، قال : فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه فو الله ماتركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي ولم آتها ، فقلت لهم : أين أصْل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام .

قال : ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله قال : فلما جئته قال : أي بني أين كنت ألم أكن عهدت إليك ماعهدت ؟ قال قلت : ياأبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني مارأيت من دينهم فو الله مازلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه قال قلت : كلا والله إنه خير من ديننا قال : فخافني فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيته .

قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فاخبروني بهم قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى ، قال: فأخبروني بهم قال فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم ، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق[1]، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم: إنَّ هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وماعلمك بذلك؟ قال قلت: أنا أدلكم على تنزه قالوا فدلَّنا عليه، قال: فأريتهم موضعه قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورِقا ، قال: فلما رأوها قالوا: والله لاندفنه أبدا فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه .

قال يقول سلمان فمارأيت رجلا لايصلي الخمس أرى أنه أفضل

---

(١) الورق بكسر الراء الفضة .

منه ولا أزهد في الدنيـا ولا أرغب في الآخـرة ولا أدأب ليلا ونهـارا منه[١] . قال: فـأحببـته حبـا لم أحبه من قـبله وأقمت معـه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له يافلان إني كنت معك وأحـببتك حبا لم أحبه من قـبلك وقـد حـضـرك مـاترى من أمـر الله فـإلى من توصي بي وماتأمرني ؟ قال أي بني والله ما أعلـم أحدا اليوم على ما كنت عليه لقد هلك الناس وبـدلوا وتركوا أكثـر ماكانوا عليـه إلا رجلا بالموصل وهو فلان فهو على ماكنت عليه فالْحق به .

قـال : فلما مـات وغـيِّب لحقت بصـاحب الموصل فـقلت له : يافـلان إن فلانا أوصـاني عند موتـه أن ألحق بك وأخبـرني أنك على أمره، قال فـقال لي: أقم عندي فأقمت عنده فوجـدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلـما حضرته الوفاة قلت له: يافلان إن فلانًا أوصى بي إليك وأمـرني باللحوق بك وقد حضـرك من الله عز وجل ماترى فإلى من توصي بي وماتأمرني؟ قال: أي بني والله ماأعلم رجلا على مثل ماكنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالْحق به.

قال: فلما مـات وغُيِّب لحقت بصاحب نصيـبين فجئته فـأخبرته بخبري ومماأمرني به صاحبي، قـال: فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صـاحبيـه فأقمت مع خـير رجل فو الله مـالبثت أن نزل به الموت، فلما حُضِر قلت له: يافـلان إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وماتأمرني؟ قال: أي بني والله مانعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه

(١) قوله س لايصلي الخمس » أي ليس من المسلمين .

بمثل مانحن عليه فإن أحببت فأته قال: فإنه على أمرنا .

قال : فلما مات وغُـيِّب لحقت بصاحب عمورية وأخـبرته خبري فقال: أقم عندي فأقمت مع رجلٍ على هدي أصحابه وأمرهم ، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغُنَيمة ، قال: ثم نزل به أمر الله فلما حُضِر قلت له : يافلان إني كنت مع فـلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فـلان إليك فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني والله ماأعلـمه أصبح على ماكنا عليه أحد من الناس آمـرك أن تأتيه ولكنه قـد أظلَّك زمان نبي هو مبـعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامـات لاتخفى ، يأكل الهدية ولايأكل الصـدقة بين كتفـيه خاتم النبوّة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال : ثم مات وغُيِّب فمكثت بعمورية ماشاء الله أن أمكث ، ثم مـر بي نفـر من كلب تجـارا فـقلت لهم تحـملوني إلى أرض العـرب وأعطيكم بقـراتي هذه وغنيمـتي هذه ؟ قالوا : نعـم فأعطيـتهمـوها وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القـرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يخف لي في نفسي ، فـبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قـريظة فابتاعني منه فاحـتملني إلى المدينة فو الله ماهو إلا أن رأيتهـا فعرفتها بصفة صاحـبي، فأقمت بها وبعث الله رسوله ﷺ فأقام بمكة ماأقـام لاأسمع له بذكر مع ماأنا فيه من شـغل الرق ، ثم هاجـر إلى المدينة فـو الله إني لفي رأس عـذق

لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يافلان قاتل الله بني قيلة و الله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي ، قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء [1] حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ماذا تقول ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال : مالك ولهذا أقبل على عملك ، قال قلت : لاشيء إنما أردت أن استثبت عما قال .

وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له : إني قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ، قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : كلوا وأمسك يده فلم يأكل، قال فقلت في نفسي : هذه و احدة .

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئًا وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت : إني رأيتك لاتأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها قال : فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال فقلت في نفسي : هاتان اثنتان .

قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد،وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ،

---

(١) أي الرعدة الشديدة .

ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي ، قال : فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فانكببت عليه أقبِّله وأبكي ، فقال لي رسول الله ﷺ : تحوَّل فتحوّلت فقصصت عليه حديثي كما حدثتك ياابن عباس ، قال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه .

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، قال ثم قال لي رسول الله ﷺ : كاتب ياسلمان فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحييها له بالفقير[1] وبأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه أعينوا أخاكم فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وَدِيَّة[2] والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ماعنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية ، قال لي رسول الله : اذهب ياسلمان ففقِّر لها [3] فإذا فرغت فائتني فأكون أنا أضعها بيدي، ففقَّرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الوديَّ ويضعه رسول الله ﷺ بيده فو الذي نفس سلمان بيده ماماتت منها ودية واحدة، فأدَّيت النخل وبقي عليَّ المال فأُتي رسولُ الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي ، فقال : مافعل الفارسي المكاتَب؟ قال: فدُعيت له فقال : خذ هذه فأدِّ بها ماعليك ياسلمان،

---

(١) الفقير الحفرة التي تحفر للنخلة كي تغرس فيها .

(٢) الوديَّة الفسيلة .

(٣) أي احفر لها في الأرض .

فقلت : وأين تقع هذه يارسول الله مما عليّ ؟ قال: خذها فإن الله عز وجل سيؤدِّي بها عنك ، قال: فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية ، فأوفيتهم حقهم وعتقت وشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتني معه مشهد (١) .

وهذه القصة تبين لنا ماكان يتصف به سلمان رضي الله عنه من الصبر الطويل على المشاقِّ الجَمَّة والصعاب المتواصلة من أجل الوصول إلى الدين الحق ، وإن في قصته لعبرة لأولي الألباب الذين ينظرون بعين الاعتبار لمستقبلهم الأخروي فيسخِّرون له حياتهم الدنيا، فقد صبر على حبس أبيه وقيْده أوَّلاً ، ثم صبر على السفر والتنقل من عابد إلى عابد حتى دلَّه العابد الأخير على الطريق الثابت الذي لايزول بزوال عبَّاده وعلمائه .

فلما عرف أن الطريق المستقيم في أن يبحث عن هذا النبي المنتظر فيؤمن به ويتبعه ، ضحى بماله وراحته من أجل الوصول إليه، وتحمل الرِّقَّ صابرا محتسبا مادام أنه سيبلغه إلى هدفه المنشود .

ونجد في هذه القصة عناية الله تعالى بسلمان حيث قاده توفيق الله تعالى من مرحلة إلى أخرى حتى بلغ أرض الهجرة النبوية ، فاطمأن بها منتظراً قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مسند أحمد ٥/٤٤١ - ٤٤٤ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيد، وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع ، والرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قرة وهو ثقة - مجمع الزوائد ٩/٣٣٦ - .

ومن خلال هذا الخبر يتبين لنا شيء من علامات النبي ﷺ المذكورة في الكتب السابقة وهي أنه يأكل الهدية ولايأكل الصدقة، وأن بين كتفيه خاتم النبوة، وأنه يبعث في مكة ويهاجر إلى المدينة، وأن أهل الكتاب كانوا يعرفون زمن بعثته على التقريب لما جاء في الخبر من قول الراهب لسلمان «قد أظلَّك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم».

وقد كان ذلك كافيا لدفع اليهود والنصارى إلى أن يكونوا أول من يؤمن به ، ولكنهم مع ذلك عادوه اتباعا للهوى وقاتلوه ، إلا القليل ممن دخل في الإسلام منهم كسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما .

من مواقف عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه :

من ذلك ماذكر الإمام الذهبي من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع قال : وجَّه عمر جيشًا إلى الروم فأسروا عبد الله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال: هل لك في أن تتنصَّر وأعطيك نصف ملكي ؟ قال: لو أعطيتني جميع ماتملك وجميع ملك العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين، قال: إذًا أقتلك ، قال : أنت وذاك ، فأمر به فصُلب ، وقال للرماة: ارموه قريبا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى ، فأنزله ودعا بقدر فصُبَّ فيها ماء حتى احترقت ، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فأُلقِي فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم بكى فقيل للملك : إنه بكى ، فظن أنه قد جزع، فقال: ردُّوه ، ماأبكاك؟ قال قلت : هي نفس واحدة تُلقَى الساعة فتذهب ، فكنت اشتهي أن

يكون بعدد شعري أنفس تُلقَى في النار في اللـه ، فقال له الطاغية : هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلي عنك ؟ فقال له عبد الله : وعن جميع الأسارى ؟ قال : نعم ، فقبَّل رأسه .

وقدم بالأسارى على عمر ، فأخبره خبره ، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبِّل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ فقبَّل رأسه .

وفي رواية أخرى ذكـرها الذهبي من طريق الوليد بن مـسلم قال حدثنا أبو عـمرو ومالك بن أنس: أن أهل قـيسارية أسروا ابن حـذافة فأمر به ملكهم، فَجُرِّب بأشياء صـبر عليها، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثا لايأكل، فاطَّلعوا عـليه فقالوا للملك: قد انثنى عنقه فإن أخرجته وإلامات، فأخرجه وقال: مامنعك أن تأكل وتشرب ؟ قـال: أما إن الضـرورة كانت قـد أحلتـها، ولكن كـرهت أن أشمـتك بالإسلام [١] .

وذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في الإصابة من طريق ضرار بن عمرو عن أبي رافع ونسبه للبيهـقي ثم قال : وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهدًا من حديث ابن عباس موصولا [٢] .

ونجـد في هذا الخـبـر حـرص ملك الـروم على أسـر رجل من أصحـاب النبي ﷺ ليتوصل بطريق الـترغيب أو التـرهيب إلى تحويله عن دين الإسلام ، ولو حصل له ذلك لكان نصرًا له يعوض به بعض خسـارة الروم الكبرى في حـروبهم مع المسلمين ، ولكان دافـعا لرفع معنوية جيش الروم المنهارة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤ .

(٢) الإصابة ٢/ ٢٨٨ رقم ٤٦٢٢ .

وهكذا نجد أعداء الإسلام من قديم الزمن يرون أن ظفرهم بتحويل المسلمين عن دينهم يعتبر أعظم انتصار لهم .

ولئن فشلوا في حصولهم على ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم فلقد نجحوا بعد ذلك كثيراً في هذا المجال .

فلما ظفر الروم بعبد الله بن حذافة جاؤوا يبشرون مَلكهم بهذا الظفر على أساس أن ذلك أول مراحل الانتصار .

وبدأ ملك الروم مع ابن حذافة في مرحلة الفتنة بالترغيب فقال له: هل لك في أن تنصر وأعطيك نصف ملكي ؟

وهذا عرض سخي كبير تُصغِي إليه النفوس المجبولة على حب المال والجاه ، وقد صدر من رجل يملك التصرف، وتحت يده ممالك النصف الغربي من الأرض إلى رجل لايملك من الدنيا إلا ما يبلغه إلى الآخرة ، فماذا كان جواب ابن حذافة ؟

لقد كان جوابَ الرجل الواثق بدينه الذي يؤمن بأن ماعند الله تعالى خير وأبقى حيث قال : لو اعطيتني جميع ماتملك وجميع ملك العرب مارجعت عن دين محمد طرفة عين .

وهذا دليل على ماكان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من قوة الإيمان والثبات عند الشدائد ، وهذا الموقف وأمثاله يصور لنا أنهم كانوا يعتبرون الدين أغلى جوهر يملكونه ، فهم لايفرطون فيه ولايبيعونه بأي ثمن .

وإنها لمساومة خاسرة يقوم بها ملك الروم لينزع بها كرامة المسلم وبهاءه في هذه الحياة الدنيا مقابل عَرَضٍ زائل، وهذا العَرْضُ وإن كان

في نظر أبناء الدنيا سخيا فإنه في نظر أبناء الخلود شيء تافه حقير .

ولقد وُفِّق ابن حذافة حينما أجابه بتحقير دنياه التي يعتز بها ببيان أن ملك الدنيا لايعادل الانخلاع من هذا الدين العظيم طرفة عين .

ويخرج ابن حذافة من فتنة الترغيب كالذهب الخالص ، ويدخل في فتنة الترهيب حيث يقول له ملك الروم : إذًا أقتلك ، قال: أنت وذاك ، فأمر به فصُلب ، وقال للرماة : ارموه قريبا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى .

إنه يبيع نفسه رخيصة في سبيل الإبقاء على هذا الدين العظيم .

إن الإنسان حينما ينخلع من دين الإسلام يكون كائنًا حيا لاقيمة له في الحياة ، لأنه يكون قد فقد كرامته الإنسانية ، وإنما تكون الكرامة بهذا الجوهر النفيس الذي به يصل إلى الهدف الأعلى الذي خُلق من أجله ، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في دار الخلود.

ويمعن ملك الروم في تخويفه حيث يُلقِي في القِدر الذي يغلي رجلا من المسلمين فإذا هو عظام تلوح كما جاء في بعض الروايات، ولكن ابن حذافة يمعن في تبكيت ملك الروم والتأكيد على احتقار هذه الدنيا التي من أجلها يتنافس التائهون عن الهداية ، ولقد تشكَّل هذا المعنى السامي بصورة قطرات من الدمع تَهْمِي من عيني ذلك الرجل العظيم .

ويظن ملك الروم وقومه – لفرط تعلقهم بالدنيا ومتاعها – أن تلك الدموع تحكِي نوعا من الانجذاب نحو حب البقاء الذي سيكون

ثمنا لخلع ذلك الجوهر السامي، وإذا بهم يفاجَؤون بما يذهلهم ويُذلُّهم.

إن ابن حذافة يبكي لأنه لا يملك إلا نفسًا واحدة يحوز بها أجر الشهيد عند الله تعالى ، ومن أجل مارسخ في قلبه من تصور ماأعده الله تعالى للشهداء فإنه يبكي على كونه لايملك أنفسا بعدد شعره لينال الشهادة بهذا العدد الكبير .

وهنا شعر ملك الروم بتحطُّم معنويته وكبريائه وقلة شأنه أمام هذا العملاق الضخم ، فأراد أن يستردَّ شيئًا من ذلك المجد الوهمي المحطَّم فقال لابن حذافة : هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلِّي عنك ؟

وما أن لامس مسامع ابن حذافة نبأ الفكاك من الأسر حتى تذكَّر إخوانه من أسارى المسلمين حالاً فقال : وعن جميع الأسارى ؟ قال: نعم ، فقبَّل رأسه .

إنه من جيل عظيم قد بلغ آفاق السمو الأخلاقي فهو لايعيش لنفسه، وإنما يعيش لإخوانه، فلذلك تذكَّرهم وشرط فكَّ أسرهم معه.

ولكن هل هذه القبلة تحمل معنى التعظيم والإجلال ؟

لا ، إنها جاءت عقب ذلك الانتصار العظيم . . انتصار المبادئ الإلهية السامية التي يمثلها أزكى العناصر البشرية على المبادئ الأرضية الواهية التي يمثلها التائهون الغاوون .

إنها قبلة تحمل معنى مداراة أهل الباطل لاستخلاص حق المسلمين منهم من غير مداهنة تتضمن التفريط فيما يجب لله تعالى .

ولقد أكبر عمر رضي الله عنه هذا السلوك الرفيع من ابن حذافة

فـقال هذه المقـالة العظيـمة « حق على كـل مسلم أن يقـبِّل رأس ابن حذافة وأنا أبدأه » فقبَّل رأسه .

وهي إشادة عظيمة من رجل كبير القدر في نفوس المسلمين لعمل جليل يستحق كل عناية واهتمام .

وماحـدث من أميـر المؤمنين عمـر يعتـبر إقراراً منه ومن عـلماء الصحـابة رضي الله عنهم بما جـرى من ابن حذافة من مـداراة عظيم الروم أخيرا لاستنقاذ عدد من أسرى المسلمين .

وهو مـوقف لايحمل أي مـعنى للذلة بعـدما سـبقـه من المظاهر العالية للتمسك بالإسلام وإظهار عزته وجلاله .

ونخلص إلى المشهـد الآخر الذي صورته لنا إضافة الـرواية الثانية حيث صبر ابن حـذافة على الجوع والعطش ثلاثة أيام ولم يمد يده إلى ماحرمه الله تعالى عليه ، رغم علمه بأن ذلك مباح للمضطر ، كراهة أن يُدخل السرور على ملك الروم فيؤدي ذلك إلى شماتته بالإسلام .

ونصل من ذلك إلى استهـانة أولئك الأفذاذ بأجسامـهم في مقابل الحفاظ على المعاني النبيلة التي خلدها في أذهانهم الإسلام .

من مواقف عروة بن الزبير رحمه الله :

أخرج الحـافظ أبو نعيم الأصبهـاني من خبر هشـام بن عروة بن الزبير قال: خرج أبي إلى الوليـد بن عبد الملك فوقع في رجله الآكلة، فقـال له الوليد : يا أبا عبـد الله أرى لك قطعها ، قـال: فقطع وإنه لصائم فما تضوَّر وجهه .

قـال : ودخل ابن له أكبـر ولده إصطبل الدواب فـرفـسْتـه دابة

فقتلته، فما سُمِع من أبي في ذلك شيء حتى قدم المدينة ، فقال : اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد ، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وإيم الله لئن أخذتَ لقد أبقيت ، ولئن أبليتَ طالما عافيت .

وأخرجه أيضا من عدة طرق ، وقد جاء في إحداها أنه تمثل بأبيات معن بن أوس :

لعمرك ماأهويت يوما لريبة ولاحملَتْني نحو فاحشة رجلي

ولاقادني سمعي ولابصري لها ولادلَّني رأيي عليها ولاعقلي

وأَعلمُ أنْ لم تُصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتًى قبلي[1]

وأخرج الحافظ ابن عساكر هذا الخبر من عدة طرق وجاء في رواية له: أنه لما وقعت الآكلة في رجله قيل له:ألا ندعو لك طبيبا؟ قال: إن شئتم ، فجاء الطبيب فقال: أسقيك شرابا يزول فيه عقلك، فقال امض لشأنك ماظننت أن خلقًا يشرب شرابا يزول فيه عقله حتى لايعرف ربه .

وذكر في رواية أنه أبى أن يشرب المخدر وأن الطبيب قطع رجله من نصف ساقه، فما زاد على أن يقول: حَسّ، حس[2]، فقال الوليد: مارأيت شيخا أصبر من هذا [3].

فهذا مثل جليل في الإيمان القوي الذي تمثل في الصبر على المكاره

(١) حلية الأولياء ٢/١٧٨ - ١٧٩ .

(٢) كلمة حَسّ تعبير عن الإحساس بالألم .

(٣) تاريخ دمشق ٤٠/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

والرضى بقضاء اللـه تعالى وقدره، والمستوى العـالي من الذكر القلبي وحضور القلب مع الله تعالى، حيث لم يقبل أن يفقد عقله حتى عند الضرورة وفي ذلك الوقـت القليل، وذلك كله ناتج من العلم الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره وماأعده لعباده الصابرين من الثواب الجزيل .

من مواقف إبراهيم بن إسحاق الحربي رحمه الله :

من ذلك ماأخـرجه الخطيب البغدادي من حـديث أبي الحسين بن سمعون قال قال أحمد بن بن سلمان القطيعى :ضِقت إِضاقةً فمضيت إلى إبراهيم الحربي لأبثـه ماأنا فيـه ، فقال لي : لَايَضِقْ صـدرك فإن الله من وراء المعونة ، وإني ضِقْتُ مرة حـتى انتهى أمري في الإضاقة إلى أن عـدم عيـالي قـوتهم ، فقـالت لي الزوجـة : هب أني وإياك نصبـر، فكيف نصنع بهاتين الصبـيتين ؟ فهات شـيئا من كتـبك حتى نبيعه أو نرهنه ، فَضَنَنْت بذلك وقلت : اقتـرضي لهما شيئا وأنظريني بقية اليـوم والليلة ، وكان لي بيت في دهليز داري فيـه كتبي، فكنت أجلس فـيه لـلنسخ وللنظر ، فلمـا كان فـي تلك الليلة إذا داقٌّ يدق الباب فقلت : من هذا ؟ فقال : رجل من الجيران ، فقلت : ادخل، فقال : أطفئ السراج حتى أدخل، فكببت على السراج شيئا وقلت: ادخل ، فدخل وترك إلى جانبي شيئا وانصرف ، فكشفت عن السراج ونظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام،وكاغد[1] فيه خمس مئة درهم ، فـدعوت الزوجة وقلت : أنبهي الصبـيان حتى يأكلوا ، ولما كان من الغد قضينا دينا كان علينا من تلك الدراهم ، وكان وقت

---

(١) الكاغد هو الورق .

مجيء الحاج من خراسان ، فجلست على بابي من غد تلك الليلة، وإذا جمَّال يقود جملين عليهما حِملان ورقا ، فحط الجملين وقال: هذان الحملان أنفذهما لك رجل من أهل خراسان ، فقلت: من هو؟ فقال : قد استحلفني أن لا أقول من هو [1] .

ففي هذا الخبر مثل عال في الصبر على البلاء والرِّضَى بمُرِّ القضاء وقوة الرجاء ، وماذاك إلا نتيجة للتربية القويمة التي كان يتلقاها أهل العلم منذ المراحل الأولى للطلب ، والنية الخالصة التي كانت ترافق طلبهم للعلم ، حيث كانوا يطلبونه للعمل به لا لمجرد التزود منه ، وقد كان الإمام أبو إسحاق إبراهيم الحربي من الأئمة في هذا الشأن .

كما أن فيه مثلا من عناية الله تعالى بأوليائه المؤمنين ، وذلك بتسخير عباده لقضاء حوائجهم، فحينما ادْلهمَّت الخطوب بهذا الإمام، وكان المخرج منها منحصرا ببيع شيء من كتبه أو رهنها لم تطب نفسه بذلك ، وعلم الله جل وعلا بإخلاصه وصدق توجهه فيسَّر أمره وأزال عسره.

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى: قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، ونور ضريحه، يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. قال: وقال لي مرة: مايصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي،

---

(١) تاريخ بغداد ٦/ ٣١ - ٣٢ .

لاتفارقني، أنا حبسي خلوة. وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ماعدل عندي شكر هذه النعمة- أو قال: ماجزيتهم على ماتسببوا لي فيه من الخير- ونحو هذا .

وقال مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه.

قال شيخنا : وعلم الله مارأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ماكان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض: أتيناه، فماهو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها [1].

فهذا الكلام المروي عن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الذي يتحدث به عن نفسه والذي يصفه به تلميذه شمس الدين أبو عبد الله ابن القيم فيه وصف بليغ لما كان يتصف به ابن تيمية من الإيمان الراسخ واليقين الصادق، والصبر على المكاره والرضا بقضاء الله وقدره، والزهد في الدنيا، فهو لايبالي بما يدبره له أعداؤه، فالسجن الذي يخشاه الناس عادة هو عنده خلوة بربه، فهو

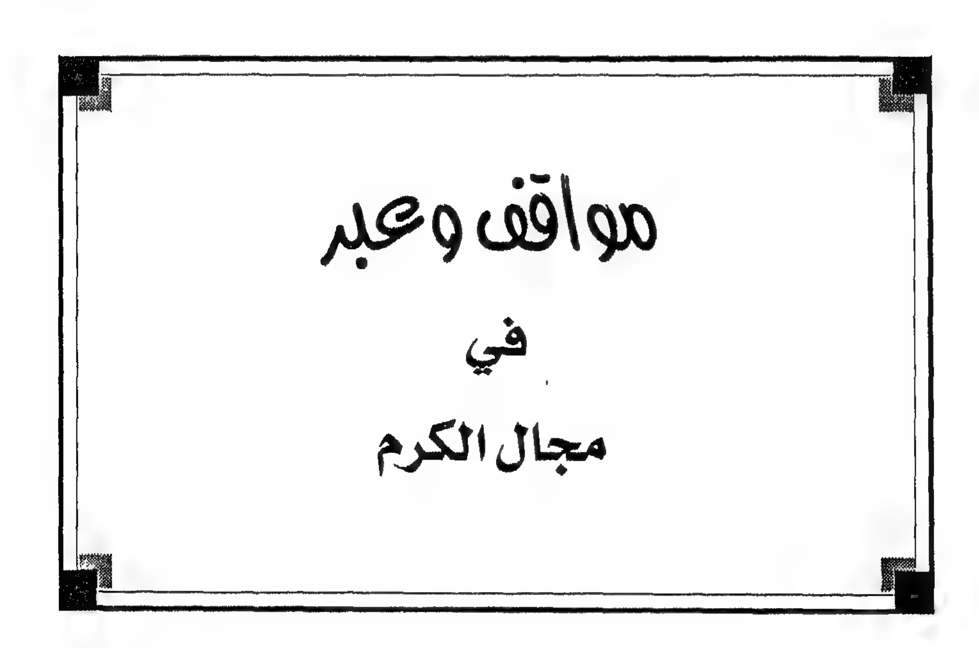
---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣ .

فرصة كبيرة لعبادة الله جل وعلا، حيث العزلة وفراغ الفكر، أما القتل الذي يفزع الناس منه فهو عنده شهادة، ولطالما تمنى الصالحون الاستشهاد في سبيل الله تعالى، وأما نفيه من بلده فهو عنده سياحة، والسياحة مرغوب فيها عند الناس عادة لما فيها من الترويح عن النفس واكتساب المعرفة والخبرات المتعددة .

وبهذا فإن الأعداء لن يصلوا منه إلى شيء يسوءه لأنهم لن يستطيعوا تغيير القناعات العلمية والإيمانية التي قد اقتنع بها، فليس لهم حيلة للإساءة إليه في فكره ووجدانه، وإنما كل ما يستطيعون أن يصلوا إليه هو الإساءة إليه في جسمه، وهذا لايعتبر مشكلة أمام أهل الإيمان الراسخ واليقين الصادق، لأن قوة استحضارهم لعظمة الله تعالى وخشيتهم منه ورجاءهم لثوابه تزيل كل الآثار التي تخلفها أنواع الأذى الجسماني، بحيث تظل في دائرة الأمور المادية ولاتصل إلى التأثير الروحاني، بل إن الأمر بضد ذلك لدى أقوياء الإيمان، حيث تسعد نفوسهم بما يصل إليهم من الأذى لشعورهم اليقيني بأن ذلك سيكون سببا في بلوغ رضوان الله تعالى والدرجات العليا في الجنة .

* * *



مواقف وعبر

في

مجال الكرم

حيث إن المال هو عصب الحياة وقوامها ، وقد جبلت النفوس على حبه والتمسك به ، فإن بذله في سبيل الله تعالى دليل على قوة الدافع الذي دفع إلى مقاومة رغبات النفوس وأهوائها . . ألا وهو الإيمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده من الجزاء .

مثل من كرم رسول الله ﷺ :

حيث إن رسول الله ﷺ هو إمام الأمة في مكارم الأخلاق فسنذكر مثالا لكرمه العظيم الذي كان من أهم عوامل استجابة الناس لدعوته، وذلك ماأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ماسئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: ياقوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء لايخشى الفاقة -يعني الفقر- .

وفي رواية له قال أنس : إن كان الرجل ليسلم مايريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وماعليها » [١].

وهكذا رأينا نتائج هذا الكرم العظيم حيث أسلم ذلك الرجل وذهب يدعو قومه إلى الإسلام، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من كرم رسول الله ﷺ .

إن السخاء بالدنيا مظهر من مظاهر التحرر من الشهوات التي يتنافس الناس فيها ، وحينما يكون الإنسان كذلك فإنه يكون متميزاً

(١) صحيح مسلم ، الفضائل رقم ٢٣١٢ (ص ١٨٠٦) .

وعظيما عند الناس ، لأنه استطاع أن يخرج من إسار العاطفة والهوى، وبالتالي فإن النفوس تتشوق إلى معرفة المبدإ العظيم الذي كان وراء هذا السلوك العالي ، ثم تسارع إلى الإيمان به .

وإذا كان بعض الناس ينقاد إلى الإسلام من أجل الدنيا في مثل هذه الحال فإنه لايلبث إلا قليلا في الغالب حتى تزول الغشاوة عن عقله فيفهم حقيقة دعوة الإسلام ، إذا فكر بعقله السليم المتجرد من اتباع الهوى والخضوع للضغوط الخارجية ،فيدرك عظمة الإسلام ويدخل في صف أهل الإيمان كما جاء في قول أنس « فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وماعليها » .

إن أصحاب المبادئ الأرضية يستطيعون أن يجذبوا الناس بأموالهم، وقد فعلوا ذلك على مدار التاريخ ، ولكن الناس يظلون مرتبطين بأموالهم ، وقلما يقتنعون بشيء مما يدعونهم إليه، حتى إذا انقطع المورد المالي والآمال الدنيوية المرتقبة عادوا أعداء ألداء لمن كان استغفلهم فحاول إلقاءهم في المهالك مستغلا بذلك حاجتهم الدنيوية، أما دعاة الإسلام فإنما يتألفون الناس بالدنيا حتى تزول الغشاوة عن عقولهم فإذا أدركوا عظمة الإسلام آمنوا به حقا وبذلوا من أموالهم أضعاف مابذل الدعاة في تأليفهم .

ومن هنا ندرك الفرق الكبير بين السلوكين : سلوك دعاة الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتأليف الناس وهدايتهم إلى الحق، وسلوك أعداء الإسلام وهم يبذلون من أموالهم لتضليل الناس عن الحق، وهدايتهم إلى الباطل، فكلهم دعاة ، وكلهم يستخدمون هذه الوسيلة، ولكن شتان بين هدف هؤلاء وهدف هؤلاء .

من أخبار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه :

لقد كان للصحابة رضي الله عنهم مواقف خالدة في البذل والعطاء وكرم النفوس والسخاء تدل على قوة إيمانهم بالله جل وعلا وتمثل الحياة الآخرة بوضوح في تفكيرهم وسلوكهم، وقد مرت بنا أمثلة لكرم بعضهم ، وسأذكر بعض مالم يتقدم ذكره في العرض التاريخي، ومن ذلك ماذكره الإمام الذهبي من طريق موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه أتاه مال من حضرموت سبعُمائة ألف، فبات ليلته يتململ، فقالت له زوجته: مالك؟ قال: تفكرت منذ الليلة، فقلت، ماظنُّ رجل بربه يبيت وهذا المال في بيته؟ قالت: فأين أنت من بعض أخلاَّئك؟ فإذا أصبحت فادع بِجِفان وقِصَاع فقسِّمه، فقال لها: رحمك الله، إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصدِّيق، فلما أصبح دعا بجفان فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي منها بجفنة، فقالت له زوجته-يعني زوجة طلحة- : أبا محمد! أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي، قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم(١).

الله أكبر ! ما أعظم هذا التفكير، وماأبلغ هذه المشورة، وماأصدق هذا السلوك !!

إذا كان أهل الدنيا يتململون ويأخذ بهم التفكير المضني في كيفية تصريف المال في وجوه التجارة، لتتضخم الثروة وتحصل السعادة الوهمية بتزايد المال فإن طلحة بن عبيد الله الذي سماه النبي ﷺ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٠ .

طلحة الفيـاض لجوده يتململ من تكاثر المال عنده خشـية أن يحاسب عنه يوم القيامة ، مع أنه لورعه وتقواه لايكتسب إلا من حلال .

ونجد زوجته التقيـة البارة بنت الصديق رضي الله عنه تخرجه من حيرته وتململه بمشـورة الخير والبر ، فتذكره بأحـبابه الذين هم بحاجة إلى هذا المال ، ولقـد أيقظت في نفـسه دوافع الخـير التي يملك منهـا رصيـدا كبيـرًا فأثنى عليهـا وعلى أبيها بـالتوفيق، وسـارع إلى تطبيق مشورتها المباركة .

وهكذا تكون الزوجة الصالحة أكبر عون لزوجها على فعل الخير ، لأن المألوف من حياة الناس أن تحاول الزوجـة منع زوجها من الإنفاق في سبـيل الله تعالى ، لتتوسع هي وذَوُوها بذلك المـال، فإذا وُجدت الزوجة الصالحـة التي تكسر هذا المألوف وتشير على زوجـها بالإنفاق فإنها في غاية التوفيق والرشاد .

وإن الذي ينفق في يوم واحد سبـعمائة ألف لايُنتظر منه بإذن الله تعالى أن يكتسب ماله من طريق فيه شبـهة، فضلا عن أن يكتسبه من طريق حرام .

ونجد طلحة رضي الله عنـه يخلِّد لنا مثلا عاليا من أمـثلة السخاء المبني على صلة الرحم، فقد جاء إليه أعرابي يسأله فتقرب إليه برَحِم، فقال طلحة : إن هذه لرحم ماسألـني بها أحد قبلك، إن لي أرضًا قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فاقبضـها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فأعطاه [1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣١ .

ومافعله طلحة في هذا الخبر لون من ألوان الكرم الرفيع، وإنما يدل إنفاق هذا المبلغ الكبير على براءة قلبه تماما من الشح والبخل والتعلق بالدنيا ، وأنه كان يرى المال وسيلة إلى العمل الصالح، وإشاعة المعاني السامية، فهو رجل متجرد لعبادة الله تعالى، ومن أجل ذلك استعبد المال ، ولم يستعبده المال .

من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فأمثلة كرمه كثيرة مر ذكر شيء منها ومن أمثلة كرمه ماروي عن بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة ، وكان يبيع منها القربة بمُدّ فقال رسول الله ﷺ : « تبيعها بعين في الجنة ، فقال : ليس لي يارسول الله عين غيرها، لاأستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال : أتجعل لي مثل الذي جعلت له عينا في الجنة إن اشتريتها ؟ قال: نعم ، قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين [1] .

وهكذا نجد تنافس أفراد ذلك الجيل الراشد على فعل الخير والرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد بن حنبل من خبر عطاء بن فروخ مولى القرشيين : أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضا فأبطأ عليه، فلقيه فقال: مامنعك من قبض مالك ؟ قال: إنك

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الراشدين / ٤٧١) .

غبنتني فما ألقى من الناس أحدا إلا وهو يلومني، فقال: أوذلك يمنعك ؟ قال: نعم ، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثم قال: قال رسول الله ﷺ : « أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعا، وقاضيا ومقتضيا » [1] .

فهذا مثل رفيع في السماحة في البيع والشراء، وهو يدل على ماجبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي من أهمها الإيثار، ولاتستعبده الدنيا فتجعل منه أنانيا يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس.

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر الأصبغ بن نباتة: أن رجلا جاء عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ياأمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدتُ الله وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال علي: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذُلَّ السؤال في وجهك ، فكتب : إني محتاج ، فقال علي : عليَّ بِحُلَّة، فأُتِي بها، فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشأ يقول :

كسوتني حلة تبلَى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثَّنا حُلَلا
إن نلتَ حسن ثنائي نلتَ مكرمة ولست أبغي بما قد قلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا

(١) مسند أحمد ٤١١/١ رقم ٤١٠ .

لاتـزهـد الـدهـر في خير تواقعه   فكل عـبـد سيُجْزَى بـالـذي عملا

فقــال علي : عليٌّ بالدنانير فــأُتِيَ بمائة دينار فدفعــها إليه، فــقال الأصبــغ : ياأميــر المؤمنين ، حلة ومائة دينار! قــال: نعم، سمــعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم ،وهذه منزلة هذا الرجل عندي [1] .

فهــذا موقف جليل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الوقوف عند حــاجات المحتــاجين والاهتمام بأمــورهم ورعاية مشــاعرهم، وإن أروع مــافي هذا الخبــر قوله « اكـتـب حاجـتك على الأرض فــإني أكــره أن أرى ذل السـؤال في وجـهك» ، فكم يعــاني المحتــاجون من الذل بين يدي من يعــرضون عليــهم حوائجــهم، وقد يتلعثمون فلا يستطيعون النطق، وتختلف مواقف المسئولين تجاه مشاهد الذل في وجوه السائلين، فبعضهم يطـرب لرؤيتها وتتعاظم لديه نفسه حينما يرى الناس يذلون بين يديه، وبعضهم يتألمون لرؤية هذه المشاهد ويودون معرفة حاجة السائل دون أن يتعرض للمذلة، فهؤلاء قد زكت نفوســهم وخلصت نياتهم، وآثروا رفع مــعنويات إخوانهم المحــتاجين على التمتع برؤية انكســار نفوسهم وجرح مشاعــرهم، فهؤلاء مربُّون قبل أن يكونوا منفقين، ومصلحون قبل أن يكون باذلين.

ولقد كانت مشاعر ذلك الرجل المحتاج عظيـمة حينما واجهه أمير المؤمنين علي بهذه المعاملـة السامية، ولقد صاغ هذه المشــاعر بالأبيات المذكورة .

---

(١) البداية والنهاية ٩/٨ .

ولقد زاده أمير المؤمنين مبلغا من المال حينما عرف من تلك الأبيات منزلته الاجتماعية، واستشهد بالحديث المذكور على سلوكه هذا، لأن مايكون عظيما عند إنسان قد يكون شيئا معتادا عند إنسان آخر.

من أخبار أبي طلحة رضي الله عنه :

من ذلك ماجاء في خبر أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه الذي أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار مالاً بالمدينة من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه « بيْرُحَاء » وكانت مستقبلة المسجد، فكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [**آل عمران** : ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذخرها عند الله، فضعها يارسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله ﷺ : بخ[1] ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح ، وقد سمعت ماقلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يارسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه [2] .

---

(١) بخ ، كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء- النهاية في غريب الحديث - .

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم ١٤٦١ (٣/ ٣٢٥) .

صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم ٩٩٨ .

وفي هذا الحـديث نجد مثـالا واضحـا لانتصـار المؤمن الحق على رغبات نفسـه وميلها نحو الدنيا، فحينمـا يصل إلى مسامع المسلم أن فعل الخير الذي ينال به رضى الله تعالى والسعادة الأخروية لايكون إلا بالتنازل عن محبوبه من ماله لله تعالى ، فإنه قد يسمو حالاً إلى العلو فيتنازل عن ذلك، وقد لايفكر في ذلك لغلبة الدنيا عليه، وقد يقع في شيء من الصراع النفـسي نحو الصـعود في درجات الإيمان أو البـقاء على المستوى الذي وصل إليه ، فإن حـالفه التوفيق قطع ذلك الصراع بالسمو نحو الآفاق العاليـة ، فتنازل عما يحب في الدنيا من أجل أن ينال مايحب في الآخرة .

ومن أخبار أبي طلحة رضي الله عنه في الكـرم والإيثار ماأخرجه الإمام البـخاري من حديث أبي هريرة رضي الـله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال النبي ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ! فقام رجل من الأنصـار فقال : أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامـرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لاتدخريه شـيئًا، فقـالت : والله ماعندي إلا قـوت الصِّبْـية ، قال: فـإذا أراد الصبـية العشـاء فنوميـهم ، وتعالي فـأطفئي السـراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غـدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: لـقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة ، وأنزل الله تعالى﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي**

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩][١].

وقد جاء في رواية للإمام مسلم أن هذا الرجل هو أبو طلحة رضي الله عنه [٢] .

إن خلق الإيثار مبني على الكرم وسخاء النفوس، وإن الوصول إلى التخلق بهذا الخلق الكريم قد يحتاج إلى جهاد نفسي لمقاومة نزعات النفس المتعلقة بحب إمساك المال .

ولكن حينما يؤمن الإنسان بالله جل وعلا إيمانا حقا فإن جواذب الإيمان القوي ترفعه من الالتفات إلى الدنيا على أنها مقصد وغاية، وتقصره على اعتبار أنها بُلْغَة ووسيلة .

ولكنه في سبيل الوصول إلى هذا المستوى قد يحتاج إلى قدر كبير من جهاد النفس حتى يترك مايحب في العاجل من أجل ماينتظر من المحبوب في الآجل ، ثم لا يلبث كثيرا حتى يتقوى إيمانه فيجد في نفسه من المتعة واللذة في إنفاق المال أضعاف مايجد من ذلك في إمساكه ، ثم نجده يشعر بالراحة والطمأنينة حينما يحس بأنه فرج بماله عن معسر أو أنقذ أسرة منكوبة .

من أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

أما أخبار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في البذل والسخاء

---

(١) صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٨٨٩ (٨/ ٦٣١) .

(٢) صحيح مسلم ، الأشربة ، رقم ٢٠٥٤ (ص ١٦٢٥) .

فإنها كثيرة نُمثِّل لها بما أخرجه ابن المبارك عن الزهري قال: تصدق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، وحمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله وكان عامة ماله من التجارة(١).

من أخبار الزبير بن العوام رضي الله عنه :

أما الزبير بن العوام رضي الله عنه فقد رُوي عن عروة بن الزبير أنه قال: أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة منهم عثمان وابن مسعود وعبد الرحمن، فكان ينفق على الورثة من ماله ويحفظ أموالهم (٢).

وهذا مثل رفيع من أمثلة الكرم والوفاء ، وهو يجسِّم المعاني السامية في النفس حتى تبقى هي الماثلة في الضمير الحي، وتبعًا لذلك يُسخِّر هذا الضمير الحي كل مايملك من أجل سيادة هذه المعاني .

وقد تجود النفس مرة ومرة ثم يعترضها شيء من الفتور، فأما أن يتكفَّل مثل هذا الشهم السخي بالنفقة على ورثة عدد من الصحابة ويحفظ لهم أموالهم فهو نموذج فريد في عالم الواقع، ومؤشر مهم من مؤشرات الرقي الأخلاقي لدى الصحابة رضي الله عنهم .

من أخبار عمرو بن العاص رضي الله عنه :

من ذلك ماروُي عن علقمة بن رمثة أن رسول الله ﷺ بعث

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٨١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥.

عمرو بن العاص إلى البحرين، فخرج رسول الله ﷺ في سرية وخرجنا معه، فنعس وقال: يرحم الله عمراً ، فتذاكرنا كل من اسمه عمرو.

قال : فنعس رسول الله ﷺ ثم قال : « رحم الله عمراً » ثم نعس الثالثة فاستيقظ فقال : « رحم الله عمرا » قلنا يارسول الله من عمرو هذا ؟ قال : عمرو بن العاص ، قلنا : وماشأنه ؟ قال : كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء فأجزل منها ، فأقول : عمرو أنّى لك هذا ؟ فقال : من عند الله ، قال : وصدق عمرو إن عند الله خيرا كثيرا (١) .

وهكذا فاز عمرو بن العاص بدعاء النبي ﷺ لكونه من المسارعين إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى .

والإنفاق إذا كان كذلك فهو دليل على قوة إيمان صاحبه حيث سخت نفسه بالمال الذي هو من أعز المحبوبات لدى الإنسان من أجل الله تعالى والدار الآخرة ، فهو دليل على أنه يفضل الأجر الأخروي على الاحتفاظ بالمال ، ومن ثَمَّ استحق رحمة الله عز وجل .

من أخبار عائشة رضي الله عنها :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: هلا أبقيت لنا درهما نشتري به لحما تفطري عليه ! فقالت : لو ذكرتيني لفعلت (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٦٥ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ١٣٦ - ١٣٧ .

فهذا من لطائف أخبار الكرم، فعائشة رضي الله عنها حينما ورد عليها ذلك المال لم يكن عندها شيء، ومع ذلك تصدقت به كله، فقد تصدقت بكل ماتملك من النقود، وقد ذكرت حاجات المحتاجين ونسيت حاجة بيتها، وهذا يدل على تخلقها بخلق الإيثار وبراءتها من الأنانية والأثرة ، والذي يدفع لذلك السلوك القويم هو تضاؤل النظر إلى الدنيا وضخامة النظر إلى الآخرة .

إن الكرم خلق إسلامي رفيع، يدل على كثافة النظرة الروحانية، وضآلة النظرة المادية عند من تخلق بهذا الخلق السامي، فالكرماء هم عشاق المثل العليا، وإن أعلى المثل وأسمى القيم الطموح إلى نعيم الآخرة، ولقد كان هذا الهدف السامي دافعا قويا لأصحاب المعادن الزكية نحو الترفع عن قيود المادة ، وتسخير المال للفعال الحميدة، وإشاعة الأخلاق الكريمة .

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي الزعيزعة كاتب مروان قال: بعث مروان إلى أبي هريرة بمائة دينار، فلما كان الغد بعث إليه : إني غلطت ولم أردك بها وإنما أردت غيرك، فقال أبو هريرة : قد أخرجتها فإذا خرج عطائي فخذها منه - وكان قد تصدق بها - وإنما أراد مروان اختباره [1] .

وهكذا نجح أبو هريرة رضي الله عنه عبد الرحمن بن صخر الدوسي في الاختبار، وماكان بحاجة إلى ذلك فإنه صحابي جليل وإن

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١١٤ .

رصيده السابق من الإحسان والكرم يكفي في معرفة حاله، وهل كان ينبغي لأحد تلاميذ النبي ﷺ الملازمين له أن يكون إلا زاهدًا في الدنيا سباقا إلى الخيرات ؟!

من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما :

كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه من المنفقين في سبيل الله تعالى، ومن أمثلة ذلك ماروي عن سليمان بن الربيع قال: انطلقت في رهط من نُسَّاك أهل البصرة إلى مكة، فقلنا: لو نظرنا رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، فدُلِلْنا على عبد الله بن عمرو، فأتينا منزله، فإذا قريب من ثلاثمائة راحلة، فقلنا: على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو؟ قالوا: نعم، هو ومواليه وأحباؤه، قال: فانطلقنا إلى البيت فإذا نحن برجل أبيض الرأس واللحية، بين بردين قِطْرِيَّين، عليه عمامة وليس عليه قميص[1].

فهذا دليل على كرم عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحبِّه لفعل الخير ، حيث قام بنفقة هذا العدد الكبير من الحجاج .

والنفقة في هذا المجال لها مزية خاصة ، وهي أنها تسهيل لأمر الحج ، الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فقد يوجد من لايستطيع الحج لفقره ، فالذي يتحمل نفقات حج هؤلاء له أجر الصدقة، وأجر تيسير هذه العبادة العظيمة .

وفي الخبر دلالة على اهتمام طلاب العلم بزيارة العلماء والتعرف عليهم، وهذا المقصد من أهم فوائد الحج حيث يتم اللقاء والتعارف بين أهل العلم من سائر بلاد المسلمين .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٩٣ .

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

من أخبار اتصاف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالكرم والإنفاق في سبيل الله تعالى ماروُي عن عبد الله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة، فعرَّسنا فانحدر علينا راعٍ من جبل، فقال له ابن عمر: أراعٍ ؟ قال :نعم،قال : بعني شاة من الغنم، قال: إني مملوك ،قال :قل لسيدك أكلها الذئب، قال فأين الله عز وجل ؟ قال ابن عمر : فأين الله !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعد، فأعتقه.

وفي رواية ابن أبي رواد عن نافع « فأعتقه واشترى له الغنم»[1] .

فهذا الخبر يدلنا أولاً على اهتمام عبد الله بن عمر بمعرفة أهل التقوى فقد قام باختبار ذلك الراعي ليعرف مدى ورعه وتقواه حيث طلب منه بيع تلك الشاة وأن يقول لسيده إن الذئب قد أكلها ، فلما عرف ورعه وتقواه اشتراه من سيده واشترى معه الغنم ثم أعتقه ووهب له تلك الغنم .

وهذا مثال لكرم ابن عمر وبذله في سبيل الله تعالى حيث نال ذلك المملوُك الراعي حريته على يديه وأصبح له من تلك الغنم مال يعيش عليه .

من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما :

من ذلك ماروُي عن القاسم بن الفضل الحُدَّاني قال : حدثنا أبوهارون قال: انطلقنا حجاجا فدخلنا المدينة، فدخلنا على الحسن-

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١٦/٣ .

يعني ابن علي رضي الله عنهما - فحدثناه بمسيرنا وحالنا، فلما خرجنا بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة، فرجعنا فأخبرناه بيسارنا، فقال: لاتردوا عليّ معروفي، فلو كنت على غير هذه الحال كان هذا لكم يسيرا، أما إني مزوِّدكم: إن الله تعالى يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة[1].

فهذا الصحابي الجليل قد أعطى أولئك الحجاج ذلك المال مع ظهور يسارهم، فكيف الحال لوكانوا محتاجين، وحينما أظهروا له عدم حاجتهم لم يقبل منهم رد ذلك المال، وهذا دليل على قوة الدافع في نفسه نحو السخاء والجود.

ولم ينس أن يزودهم بما هو خير من ذلك حيث ذكَّرهم بفضل يوم عرفة الذي يباهي الله تعالى به ملائكته عليهم السلام.

ومن ذلك مارواه عبد الله بن عبيد بن عمير قال قال ابن عباس عن الحسن بن علي: ولقد قاسم اللهَ مالَه ثلاث مرات، حتى إنه يعطي الخف ويمسك النعل[2].

وهذا مثال عزيز في الكرم، حيث قسم الحسن بن علي رضي الله عنهما ماله قسمين ثلاث مرات، فكان يتصدق بنصفه ماله، ولقد كان دقيقا في محاسبته نفسه وكأنه كان يؤدي واجبا من الواجبات، حيث كان يعطي الخف ويمسك النعل مع أن أحدهما لايغني عن الآخر، وإنه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٠.

في عملـه هذا قد جعل من نـفسه قـدوة للمسلمين في أعـمال الخـير والإحسان .

من أخبار حارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه :

أخرج محـمد بن سعد من خبـر محمد بن عثـمان عن أبيه : أن حارثة بن النعمان كان قد كُفَّ بصره فجعل خيطا في مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده مكتلا فيه تمر وغير ذلك ، فكان إذا سلم المسكين أخذ من ذلك التمـر ثم أخذ على الخيط حتى يأخـذ إلى باب الحجرة فيناوله المسكين، فكان أهله يقولون: نحن نكفيك ، فـيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن مناولة المسكين تقي ميتة السوء» (١).

فهـذا الصحـابي الجليل كان عظيم الاهتـمام بالصـدقة ومـراعاة المساكين، حـيث كان يناولهم الصـدقة بنفسـه ، وفي ذلك مافـيه من النشوة والفرح في رؤية علامات السـرور والغبطة على وجوه الفقراء، فلما كف بصـره لم يجعل ذلك عـائقا عن القيـام بهذه المهـمة الجليلة مكتفيا بسماع أصوات المساكين بالدعاء له الذي يرجو من ورائه الخاتمة السعيدة في الدنيا والظفر برضوان الله تعالى والسعادة في الجنة .

من أخبار معاذ بن الحارث رضي الله عنهما (٢):

قال أبو الفرج ابن الجـوزي رحمه الله تعالى: وعن عـبد الرحمن

---

(١) طبقـات ابن سعـد ٣/٤٨٨ ، وذكر الحـافظ ابن حجـر أن هذا الخبر رواه الطـبراني والحسن بن سفيان - الإصابة ١/٢٩٨ رقم ١٥٣٢ .

(٢) هو معاذ بن الحـارث بن رفاعة بن الحارث الأنصاري شـهد أبوه بيعتي العـقبة وبدرا، واشتهر معاذ بنسبته إلى أمه عفراء .

ابن أبي ليلى قال: كان ابن عفراء لايدع شيئا إلا تصدق به، لما وُلد له استشفعت إليه امرأته بأخواله، فكلموه وقالوا له: إنك قد أعَلْت فلو جمعت لولدك، قال: أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار.

فلما مات ترك أرضا إلى جنب أرض رجل، قال عبد الرحمن - وعليه ملاءة صفراء ماتساوي ثلاثة دراهم- : مايسرني الأرض بملاءتي هذه، فامتنع ولي الصبيان ، فاحتاج إليها جار الأرض فباعها بثلاثمائة ألف [(١)] .

فهذا معاذ بن الحارث رضي الله عنهما يتصدق بكل ماوقع تحت يده ماعدا القوت الضروري، وهذا من أعلى أنواع الكرم، وقد كان الدافع له إلى هذا الكرم النادر طلب مغفرة الذنوب والعتق من النار.

وهكذا يُخرج الإسلام رجالا يعيشون لمجتمعهم قبل أن يعيشوا لأنفسهم ، لأنهم يعتقدون أن بذل المعروف والإحسان للمسلمين يرفع من رصيدهم الأخروي، وهم إنما يعملون للآخرة، فإذا كان المال مطية للوصول إلى السعادة الأخروية فما أهون بذله على نفس المؤمن التقي!! وما أسعد المجتمعات البشرية بالمؤمنين السابقين بالخيرات!!

ولما كان معاذ بن عفراء قد وكل أمر أولاده إلى الله عز وجل ولم يمسك ماله من أجلهم فإن الله تعالى قد عوضهم من بعده بارتفاع قيمة تلك الأرض التي لم تكن تساوي في حياته إلا القليل .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٢ .

من أخبار سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما :

ومن الأجواد الكبار من الصحابة رضي الله عنهم سعد بن عبادة الأنصاري وابنُه قيس رضي الله عنهما .

فأما سعد فأخبار كرمه كثيرة ، ومنها أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كان يبعث إليه كل يوم جفنة من ثريد اللحم أو ثريد بلبن أو غيره، فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه [١] . وكان يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يعشيهم [٢] .

وكان مناديه ينادي على حصنه : من أراد الشحم واللحم فليأت أُطُمَ دُلَيْمِ بن حارثة [٣] .

أما قيس بن سعد فقد رُويت له أخبار رائعة في الجوْد، من ذلك أن امرأة أتت إليه فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان، فقال: ماأحسن هذه الكناية [٤] ثم قال : املؤوا بيتها خبزا ولحما وسمنا وتمرا .

ومن ذلك ماروي عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: باع قيس بن سعد مالا من معاوية بتسعين ألفا ، فأمر من نادى في المدينة: من أراد القرض فليأت، فأقرض أربعين ألفًا، وأجاز الباقي، وكتب على من أقرضه، فمرض مرضا قلَّ عواده، فقال لزوجته قُرَيْبَة أخت الصديق: لِمَ قلَّ عُوَّادي ؟ قالت : للدَّين ، فأرسل إلى كل رجل

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧٩ ، والأُطُم الحصن .

(٤) يعني حيث كنَّتْ عن انعدام الطعام في بيتها بقلة الجرذان فيه .

بصكه ، وقال : اللهم ارزقني مالا وفعـالا ، فإنه لاتصلح الفعال إلا بالمال (١) .

ففي هذين الخبرين مثل من كرم قيس رضي الله عنه وحبه لقضاء حوائج المسلمين، كما أن فـي الخبر الأخير مثلا على حـبه لبقاء صلة الأخـوة والمودة بينه وبين إخـوانه المسلمين ، فلمـا أنكر قلة عـواده لما مرض فزع من ذلك خشية أن يكون قد وقع منه مايخل بهذه الأخوة، ولكن زوجـته المؤمنه الـواعيـة أختَ أبي بكر الصـديق رضي الله عنه نبهـته إلى سبب ذلك، حـيث يجد المقـترضون صـعوبة في مواجـهة مُقرضهم حتى يسددوا ديونهم ، فلما تنبه لذلك ، أعفاهم جميعا من تلك الديون ، ليقضي على سبب حال بينه وبين زيارة إخوانه إياه .

من أخبار عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما :

ومن الكرماء المشهورين بالجود والإنفاق عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومن أخباره في الكرم ماروُي عن العمري أن ابن جعـفر أسلف الزبير ألف ألف، فلـما توفي الزبير قـال ابن الزبير لابن جعـفر : إني وجدت في كتب الـزبير أن له عليك ألف ألف ، قال: هو صادق ، ثم لقيه بعد ، فـقال ياأبا جعفر وهِمْتُ، المال لك عليه، فقال : فهو له ، قال : لاأريد ذلك(٢) .

وهذا مثال للسخـاء النادر ، فحينما أخبر ابن الزبـير عبد الله بن جعفـر بأن عليه للزبير ألف ألف صدّقـه مع أنه يعلم أن الأمر خلافُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦٠ .

ذلك، ثم حينما صحّح له ابن الزبير الأمـر وأخبره بأنها له على الزبير تنازل عنها .

إن النفوس قـد تسخو بالشيء المعتـاد الذي لايلفت النظر، ولكن السخاء بهـذا المبلغ الكبير ، والاستـعداد قبل ذلك بالوفاء بدين كـبير لاأصل له دليل على قـوة الإيمان عند هذا الصحـابي الجليل وأصـالة معدنه.

ومن أمثـلة سخائـه العالي مـارُوي عن الأصمعـي أن امرأة أتت بدجاجة مـسموطة، فقـالت لابن جعفر: بأبي أنت ، هـذه الدجاجة كانت مثل بنـتي، فآلَيْتُ أن لاأدفنها إلا في أكرم مـوضع أقدر عليه، ولا والله مافي الأرض أكرم من بطنك، قـال: خذوها منها، واحملوا عليهـا، فذكر أنواعا من العطاء ، حـتى قالت : بأبي أنت ، إن الله لايحب المسرفين [1].

فهذه الكلمات بليغة من تلك المرأة استـجاشت بها كرم ابن جعفر الفياض ، فأصبح يعطيها من غيـر حساب، حتى فدته بأبيها، وطلبت منه وقف ذلك العطاء حتى لايكون من المسرفين .

ومن أمثلة كرمه المتعلق بجبر أهل المصائب مارُوي عن ابن سيرين أن رجلا جلب سكَّرًا إلى المدينة فكسد، فبلغ عبـد الله بنَ جعفر فأمر قهرمانه [2] أن يشتريه، وأن يُنْهِبَه الناس [3] [4] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦١ .

(٢) يعني القائم على أمواله .

(٣) يعني أن يدعه للناس يأخذونه .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٦١ .

فهذا الخبر بيان لما كان يقوم به عبد الله بن جعفر من مواساة أهل النوائب، فكم هي فرحة صاحب السكر حينما اشترى منه بضاعته الكاسدة !

ومن ذلك ماذكره الحافظ الذهبي قال : قال أحمد بن جعفر بن سلم: حدثنا شيخ لنا، قال : قيل لإبراهيم الحربي: هل كَسَبْتَ بالعلم شيئًا ؟ قال : كَسَبْتُ به نصفَ فَلْسٍ : كانت أمي تُجري عليَّ كلَّ يوم رغيفين ، وقطيعةً فيها نصف دانق، فخرجتُ في يوم ذي طين، وأجمع رأيي على أن آكل شيئًا حُلوًا ، فلم أر شيئًا أرخص من الدّبس، فأتيتُ بقَّالاً ، فدفعتُ إليه القُطَيْعة ، فإذا فيها قيراط إلا نصف فلس ، وتذاكرنا حديث السخاء والكرم، فقال البقال : ياأبا إسحاق ! أنت تكتب الأخبار والحديث ، حدثنا في السخاء بحديث، قلتُ : نعم . حدثني أبو بكر عبد الله بن الزبير ، حدثنا أبي ، عن شيخ له ، قال : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضياعه ينظر إليها، فإذا في حائط[1] لنسيب له عبد أسود، بيده رغيفٌ وهو يأكل لقمةً ، ويطرحُ لكلبِ لقمةً ، فلمَّا رأى ذلك استحْسَنَه، فقال : ياأسود! لمن أنت ؟ قال: لمصعب بن الزبير . قال : وهذه الضيعة لمن؟ قال: له . قال : لقد رأيت منك عجبًا ، تأكلُ لقمة ، وتطرحُ للكلب لقمةً ! قال: إني لأستحيي من عين تنظرُ إليَّ أن أوثر نفسي عليها . قال: فرَجع إلى المدينة ، فاشترى الضيعة والعبد ، ثم رجع ، وإذا بالعبد ، فقال ياأسود ! إني قد اشتريتك من مُصعب . فوثب قائمًا ، وقال:

---

(١) أي بستان .

جعلني الله عليك ميمون الطلعة . قال :وإني اشتريت هذه الضيعة. فقال : أكمل الله لك خيرها. قال :وإني أُشهد الله أنك حُرٌّ لوجه الله. قال : أحسن الله جزاءك . قال :وأشهد الله أن الضيعة مني هديةٌ لك. قال: جزاك الله بالحسنى .ثم قال العبد : فأشهد الله وأشهدك أن هذه الضيعة وقفٌ مني على الفقراء،فرجع وهو يقول: العبد أكرم منا (١) .

فهذا الخبر يحتوي على مواقف :

الموقف الأول : في عفة الإمام الرباني إبراهيم الحربي وورِعه، فهذا الخبر شاهد براءةٍ له بتعففه عن كسب الدنيا بعلمه، وهكذا كان أكثر علماء الإسلام في عصوره الأولى حيث كانوا ينفرون من اتخاذ العلم الديني وسيلة إلى الدنيا، ويحتقرون من فعل ذلك ، ويرون أن ذلك يتنافى مع ابتغاء الأجر الأخروي، كما يرون أن ذلك يؤثر على بركة العلم، فيَضعُف التحصيل، ويَقِلُّ الانتفاع بالعلم .

الموقف الثاني : في براعة الإمام الحربي العلمية ، وذلك في سرعة استحضار النصوص المناسبة ، وحسن اختياره ، حيث اختار هذا الخبر المؤثر .

الموقف الثالث : فيما تحلى به ذلك الغلام المملوك من خلق الرحمة ، حيث شاطر الكلب زاده ، واستحيى من الكلب أن يراه بعينه وهو يأكل أكثر منه ، ولقد كان ذلك الغلام في غاية الرقة في الإحساس ، واللطف في المشاعر ، وإذا كان شعوره قد بلغ من الرقة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٣ - ٣٦٤ .

إلى حد الحياء من حيوان أعجم لايعقل فكيف بشعوره نحو الإنسان؟!
ثم كيف بشعوره نحو إخوانه المسلمين ؟

الموقف الرابع : في تأثر الإمام العَلَم ، في السماحة والكرم ، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، بهذا الموقف المدهش الذي شاهده، حيث سارع إلى شراء ذلك الغلام ، وشراء البستان الذي يعمل فيه، ثم أعتقه لوجه الله تعالى ، وأهدى إليه ذلك البستان، وهذا سلوك في غاية السمو والنبل ، حيث أسدى هذه المكافأة الكبيرة لذلك الغلام، الذي ارتفع بعقله وإحساسه إلى آفاق بعيدة من المثل العالية ، والأخلاق النبيلة .

الموقف الخامس :فيما قام به ذلك الغلام بعد نيله الحرية من التصدق بذلك البستان على الفقراء مع أنه لايملك غيره،وهو أول مال يتأثله .

ومن هذا الموقف والموقف السابق لهذا الغلام ندرك الهدف العالي الذي كان وراء ذلك الخلق النبيل الذي حمل الغلام على مراعاة مشاعر ذلك الكلب ، وكأنه أمام إنسان يملك العقل والمشاعر. . إن هذا الهدف العالي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، فلقد كان هذا الهدف مهيمنا على فكره ومشاعره، فما أن ملك ذلك البستان حتى جعله صدقة على فقراء المسلمين .

وإن هذه الأخلاق العالية التي صدرت من هذا الغلام تدل على عظمة الإسلام ، فإن هذا الغلام قبل أن يسلم لم يكن له شأن يذكر ولم يرتفع مستواه الخلقي إلى حد المساواة بينه وبين حيوانٍ في المعيشة،

والتصدق بكل مايملك على الفقراء، ذلك لأنه في حال كفره ينظر إلى دنياه فقط ،فتتضخم في عينه نفسه،وتبرز فيه الأنانية، ولايشعر بمشاعر الآخرين،فلما أن أسلم صار ينظر إلى آخرته فبرز فيه خلق الإيثار وغيره من مكارم الأخلاق التي تتطلبها الرفعة في الحياة الآخرة.

وموقف أخير للسيد الكبير عبد الله بن جعفر حيث اعترف لأهل الفضل بالفضل فقال : العبد أكرم منا ، مع أن كل ماجرى من ذلك الغلام إنما كان نتيجة لكرم هذا السيد الفياض .

من أخبار حكيم بن حزام رضي الله عنه :

هذا ومن الأجواد الكرماء المشهورين بالسخاء الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه،ومن أخبار جوده ماروُي عن شعبة بن الحجاج قال:لما توفي الزبير لقي حكيمٌ عبد الله بن الزبير فقال: كم ترك أخي من الدين ؟ قال:ألف ألف،قال:عليَّ خمسمائة ألف[1].

ومن أخبار بذله في سبيل الله ماروُي عن مصعب بن ثابت أنه قال: بلغني والله أن حكيم بن حزام حضر يوم عرفة، ومعه مائة رقبة[2] ومائة بدنة ، ومائة بقرة ، ومائة شاة ، فقال : الكل لله [3].

وكذلك ماروُي من أنه باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف،فقال له ابن الزبير: بعتَ مكرمة قريش،فقال:ذهبت المكارم ياابن أخي إلا

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٠ .

(٢) يعني من المماليك ليعتقهم .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٠ .

التقوى، إني اشتريت بها دارًا في الجنة، أُشهدكم أني قد جعلتها لله(١).

فهذه أخبار تدل على الزهد في الدنيا والكرم البالغ .

وقول حكيم « ذهبت المكارم ياابن أخي إلا التقوى » تنبُّهٌ دقيق إلى مقياس الكرامة في الإسلام حيث يرتفع المسلم بالتقوى ، لابالمال ولا بالشرف المبنيِّ على الأعراف والعادات البشرية .

وكون حكيم حمل عن الزبير نصف دَينه وهو خمسمائة ألف دليل على استعباده المال ، وصرفه في وجوه المعروف التي ترفع ذكره عند الله تعالى وعند الناس ، وعدم استعباد المال إياه .

من أخبار سعيد بن العاص رحمهُ الله :

ومن الكرماء المشهورين سعيد بن العاص الأموي الذي اشتهر بالجود والسخاء، فمن أمثلة جوده مارُوي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: خطب سعيد بن العاص أم كلثوم بنت عليّ بعد عمر(٢)، وبعث إليها بمائة ألف، فدخل عليها أخوها الحسين وقال: لاتَزَوَّجيه، فقال الحسن: أنا أزوجه، واتَّعدوا لذلك، فحضروا، فقال سعيد: وأين أبو عبد الله ؟ فقال الحسن: سأكفيك، قال: فلعل أباعبدالله كره هذا، قال: نعم، قال: لاأدخل في شيء يكرهه، ورجع ولم يأخذ من المال شيئًا (٣) .

---

(١) سيرة أعلام النبلاء ٣/ ٥٠ .

(٢) يعني أن عمر رضي الله عنه كان قد تزوجها وتوفي عنها وليست هذه الخطبة بعد وفاته وإنما هي بعد وفاة أبيها علي رضي الله عنه بزَمن .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

فهذا الخبر مثل من التواضع والسماحة وعدم الانتصار للنفس، فحينما علم سعيد بن العاص بأن الحسين يرفض تزويجه لم يتخذ منه موقفا معاديا ، بل ترك ذلك الزواج الذي أغضب الحسين .

ومع ذلك فإنه لم يسترجع المهر الذي دفعه مع ضخامته، وهذا لون من ألوان الكرم الرفيع الذي تُبنى به الأمجاد عادة ويرفع به الذكر.

وقال عنه الحافظ ابن كثير : كان من سادات المسلمين والأجواد المشهورين ، وقال : كان حسن السيرة جيد السريرة، وكان كثيراً مايجمع أصحابه كل جمعة فيطعمهم ويكسوهم الحُلَل، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبِرّ الكثير، وكان يَصُرُّ الصُّرر فيضعها بين يدي المصلين من ذوي الحاجات في المسجد .

قال : وروينا أنه استسقى يوما في بعض طرق المدينة فأخرج له رجل من دار ماء فشرب، ثم بعد حين رأى ذلك يعرض داره للبيع فسأله عنه: لم يبيع داره؟ فقالوا: عليه دين أربعة آلاف دينار، فبعث إلى غريمه فقال: هي لك علي، وأرسل إلى صاحب الدار فقال: استمتع بدارك .

قال: وكان رجل من القراء الذين يجالسونه قد افتقر وأصابته فاقة شديدة فقالت له امرأته : إن أميرنا هذا يوصف بكرم فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشيء! فقال : ويحك لاتخلقي وجهي، فألحَّت عليه في ذلك فجاء فجلس إليه، فلما انصرف الناس مكث الرجل جالسا في مكانه، فقال له سعيد: أظن جلوسك لحاجة؟

فسكت الرجل ، فقال سعيد لغلمانه: انصرفوا ، ثم قال له سعيد: لم يبق غيري وغيرك، فسكت ، فأطفأ المصباح ثم قال: رحمك الله لست ترى وجهي فاذكر حاجتك ، فقال: أصلح الله الأمير أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت ،فقال: إذا اصبحت فالْقَ وكيلي فلانا، فلما أصبح الرجل لقي الوكيل فقال له الوكيل: إن الأمير قد أمر لك بشيء فأْتِ بمن يحمله مغك، فقال: ماعندي من يحمله ، ثم انصرف الرجل إلى امرأته فلامها وقال: حملتيني على بذل وجهي للأمير، فقد أمر لي بشيء يحتاج إلى من يحمله، ومأأراه أمر لي إلا بدقيق أو طعام، ولو كان مالاً لما احتاج إلى من يحمله ولأعطانيه، فقالت المرأة : فمهما أعطاك فإنه يقوتنا فخذه، فرجع الرجل إلى الوكيل فقال له الوكيل: إني أخبرت الأمير أنه ليس لك أحد يحمله، وقد أرسل بهؤلاء الثلاثة السودان يحملونه معك، فذهب الرجل فلما وصل إلى منزله إذا على رأس كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فقال للغلمان: ضعوا مامعكم وانصرفوا، فقالوا: إن الأمير قد أطلقنا لك، فإنه مابعث مع خادم هدية إلى أحد إلا كان الخادم الذي يحملها من جملتها، قال: فحسن حال ذلك الرجل.

قال : وقال ابن معين وعبد الأعلى بن حماد: سأل أعرابي سعيد ابن العاص فأمر له بخمسمائة ، فقال الخادم: خمسمائة درهم أو دينار؟ فقال: إنما أمرتك بخمسمائة درهم، وإذ قد جاش في نفسك أنها دنانير فادفع إليه خمسمائة دينار، فلما قبضها الأعرابي جلس يبكي ، فقال له : مالك ؟ ألم تقبض نوالك ؟ قال: بلى والله، ولكن أبكي على الأرض كيف تأكل مثلك .

قال: وقال عبد الحميد بن جعفر: جاء رجل في حمالة أربع ديات سأل فيها أهل المدينة، فقيل له: عليك بالحسن بن علي، أو عبدالله بن جعفر، أو سعيد بن العاص، أو عبد الله بن عباس، فانطلق إلى المسجد فإذا سعيد داخل إليه، فقال: من هذا؟ فقيل: سعيد بن العاص، فقصده فذكر له ماأقدمه، فتركه حتى انصرف من المسجد إلى المنزل فقال للأعرابي: ائت بمن يحمل معك، فقال: رحمك الله إنما سألتك مالاً لاتمرا ، فقال : أعرف، ائت بمن يحمل معك! فأعطاه أربعين ألفا فأخذها الأعرابي وانصرف ولم يسأل غيره(١).

فهذه أمثلة عالية في الكرم يقدمها أبو عثمان سعيد بن العاص الأموي رحمه الله تعالى، وهي تدل على سمو نفسه نحو معالي الأمور، حيث سخر ماله لخدمة إخوانه المسلمين وقضى به حوائجهم، وإنه لمما يلفت النظر خبره مع ذلك القارئ الذي أصابته الحاجة فمنعه الحياء من ذكر حاجته فكان من أبي عثمان موقف نبيل حيث أطفأ المصباح حتى لايرى ذلك المحتاج وجهه وهو يعرض حاجته، وهكذا تسمو بالكرام نفوسهم حيث يهيئون الظروف التي تُبقي العزة في نفوس المحتاجين ولاتعرضهم لذل المسألة ، وهذا يدل على التخلق بخلق الإيثار والبعد عن الأثرة والأنانية .

وفي خبره مع الأعرابي لون من ألوان الكرم حيث غيَّر نيته من الدراهم إلى الدنانير لمجرد أن الخادم ظن أنه أراد الدنانير، فهو في هذا

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٣ - ٨٦ .

لايريد أن يكون أقل مما يظن الناس فيـه، وفي بكاء الأعرابي مثل من أثر الكرماء في حياة الناس .

وقال الحـافظ ابن كثـير : ولما حضـرت سعيـد الوفاة جـمع بنيه وقال: لايفقدن أصحـابي غير وجهي، وصلوهم بما كنت أصلهم به، وأجروا عليـهم ماكنت أجـري عليهم، واكـفوهم مؤنة الـطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه، وارتعدت فرائصه مخافة أن يرد، فو الله لرجل يتململ على فراشه يراكم موضعا لحاجته أعظم منة عليكم مما تعطونه، ثم أوصاهم بوصايا كثيـرة ، منها أن يوفوا ماعليه من الدين والوعـود، وأن لايزوجـوا أخواتهـم إلا من الأكفـاء، وأن يسوِّدوا أكبرهم ، فتكفل بذلك كله ابنه عمرو بن سعيد الأشدق، فلما مات دفنه بالبـقيع ، ثم ركب عمرو إلى معـاوية فعزاه فيـه واسترجع معاوية وحـزن عليه وقال: هل ترك من دين عليـه؟ قال: نعم، قال: وكم هو ؟ قال: ثلاثمائة ألف درهم، فقـال معاوية: هي علي، فقال ابنه: يا أمير المؤمنين إنه أوصاني أن لا أقضي دينه إلا من ثمن أراضيه، فاشتـرى منه معاوية أراضي بمبلغ الدين، وسأل منه عمـرو أن يحملها إلى المدينة ، فحملها له ، ثم شرع عمرو يقضي ماعلى أبيه من الدين حتى لم يبق أحد، فكان من جملة من طالبه شاب معه رقعة من أديم فيها عـشرون ألفا ، فقال له عمرو: كيف استـحققت هذه على أبي؟ فقال الشاب : إنه كـان يوما يمشي وحده فأحببت أن أكـون معه حتى يصل إلى منزله، فـقال: ابغني رقـعة من أدم، فذهبـت إلى الجزارين فأتيـته بهـذه فكتب لي فيـها هذا المبلغ واعـتذر بأنه ليس عنـده اليوم

شيء، فدفع إليه عمرو ذلك المال وزاده شيئا كثيراً [(١)]

وهكذا ظل أبو عثمان سعيد بن العاص رحمه الله تعالى على كرمه الفياض حتىٰ وهو يوصي أولاده حينما حضرته الوفاة ، حيث أوصاهم بأن يستمروا على صلة الناس الذين كان يصلهم، ولقد بلغ القمة في تمثيل الكرم حينما بين لأولاده بأن صاحب الحاجة الذي يراهم أهلا لقضاء حاجته أعظم منة عليهم بهذه الثقة منهم عليه بالعطية، وفي هذا المعنى يقول أيضا في وصية ابنه: يابني أجر لله المعروف إذا لم يكن ابتداء من غير مسألة، فأما إذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه في وجهه، أو جاءك مخاطرا لايدري أتعطيه أم تمنعه فوالله لوخرجت له من جميع مالك ماكافأته[(٢)] .

ولقد قام ابنه عمرو المعروف بالأشدق بتنفيذ هذه الوصية خير قيام، كما يدل على ذلك خبره مع ذلك الشاب الذي حمل وعداً من أبيه.

فلله در أبي عثمان ماأجمل سيرته في حياته، وماأروع وصيته عند مماته !!

من أخبار عبيد الله بن عباس رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر أبي الحجاج محمد بن الوليد الفزاري أن عبيد الله بن العبَّاس خرج في سفر له ومعه مولى له، حتى إذا كان في بعض الطريق وقع لهما بيت أعرابي، قال: فقال

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٨٦ .

لمولاه: لو أنا مضينا فنزلنا بهذا البيت وبتنا به، قال: فمضى وكان عبيد الله رجلاً جميلاً ، جهيراً ، فلما رآه الأعرابي أعظمه وقال لامرأته: لقد نزل بنا رجل شريف، وأنزله الأعرابي، ثم إن الأعرابي أتى امراته فقال: هل من عشاء لضيفنا هذا؟ فقالت: لا، إلاَّ هذه الشُّويهة التي حياة ابنتك من لبنها، قال: لابد من ذبحها، قالت: أفتقتل ابنتك، قال: وإنْ ، قال: ثم إنه أخذ الشاة والشفرة وجعل يقول:

يـاجـارتي لاتـوقظـني البُنَيّة   إن تـوقظيها تنتحب عليّه

وتـنزع الشفرة من يديه

ثم ذبح الشاة فهيّأ منها طعامًا، ثم أتى به عبيد الله ومولاه فعشّاهما، وعبيد الله يسمع كلام الأعرابي لامرأته ومحاورتهما .

فلما أصبح عبيد الله قال لمولاه: هل معك شيء؟ قال: نعم، خمسمائة دينار فَضُلت من نفقتنا، قال: ادفعها إلى الأعرابي، قال: سبحان الله أتعطيه خمسمائة دينار وإنّما ذبح لك شاة ثمن خمسة دراهم، قال: ويحك، والله لهو أسخى منها وأجود، إنّما أعطيناه بعض مانملك ، وجاد علينا وآثرنا على مهجة نفسه وولده .

قال: فبلغ معاوية، فقال: لله در عبيد الله من أي بيضة خرج، ومن أي عش درج [(١)].

وأمام هذا الخبر العجيب فإن المتأمل له لايدري أيعجب من ذلك الأعرابي الذي ذبح شويهته الوحيدة التي منها حليب ابنته إكراما لضيفه؟!

---

(١) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨٣ - ٤٨٤، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٩٠ .

أم يعجب من عبيد الله بن عباس حينما أعطى الأعرابي ذلك العطاء الجزيل ؟!

إنها مكارم خلدها التاريخ، وذهب ذلك المال الذي لو صرف في وجهة خاصة أو كُنِز لما كان له ذكر ولاخبر، وأعظم من ذلك ماسيترتب على إنفاقه من النعيم المقيم الخالد يوم القيامة، مع النية الخالصة في طلب رضوان الله جل وعلا والجنة .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر علي بن المنذر بن فرقد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عبيد الله بن عباس يسمى تيار الفرات، وكان عبد الله بن عباس يسمى حكيم المعضلات، قال: فكان عبيد الله يطعم كل يوم، ينحر غدوة حتى قدموا المدينة، قال: فقال له أبوه العباس : يابني مالك تغدِّى ولاتُعشِّي ، إذا غديت فَعَشِّ ، فقال عبيد الله لغلام له يقال له «بند» : يابند انحر غدوة وانحر عشية (١).

وأخرج الحافظ ابن عساكر أيضا في أخبار عبيد الله بن عباس من خبر عبيد الله بن محمد العائشي قال: قدمَتْ امرأة إلى البصرة في سنةٍ شهباء ومعها ابنان لها ، فلم يأت عليها الحول حتى دفنتهما، فقعدت بين قبريهما فقالت :

فلله عيناي اللتان تراهما	قريبين مني والمزار بعيد
هما تركا عينيَّ لاماء فيهما	وشكًّا سواد القلب فهو عميد
مقيمان بالبيداء لايبرحانها	ولايسألان الركب أين يريد

(١) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨١ .

فقيل لها: لو أتيت عبيد الله بن عباس فقصصت عليه القصة، فأتته فقالت له : يابن عم رسول الله ﷺ إني أصبحت لاعند قريب يحميني ، ولاعند عشيرة تؤيني ، وإني سألت عن المُرَجَّى سببه المأمول نائله ، المعطَى سائله، فأُرشدت إليك، فاعمل بي واحدة من ثلاث : إما أن تقيم أَوَدي[1] ، أو تحسن صلتي، أو تردني إلى أهلي، فقال عبيد الله : كلٌّ يُفعل بك [2].

وأخبار عبيد الله بن العباس رحمه الله ورضي عن أبيه في الكرم كثيرة، وهي تدل على أن هذا الخلق النبيل فيه طبع وسجية، فهو لايترك البذل والسخاء وإن لاحت له بوادر الإقلال والحاجة .

من أخبار عرابة الأوسي رحمه الله [3] :

وقال الحافظ ابن كثير : وقال الهيثم بن عدي: اختلف ثلاثة عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم، فقال أحدهم : عبد الله بن جعفر، وقال الآخر : قيس بن سعد، وقال الآخر: عُرابة الأوسي، فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة، فقال لهم رجل: فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذي يزعم أنه أكرم من غيره فلينظر مايعطيه وليحكم على العيان، فذهب صاحب عبد الله بن جعفر إليه، فوجده قد وضع رجله في الغرز ليذهب إلى ضيعة له، فقال له: يابن عم رسول الله ابنُ سبيل ومنقَطع به، قال: فأخرج رجله من الغرز وقال: ضع رجلك واستو عليها، وخذ مافي الحقيبة ،ولاتُخدعنَّ عن

(١) الأوَد العوج والمقصود أن تجبر كسري .

(٢) تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٨٣ .

(٣) هو عرابة بن أوس بن قيظي الأوسي الأنصاري .

السيف فإنه من سيوف علي، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة، وإذا في الحقيبة أربعة آلاف دينار ، ومطارف من خز وغير ذلك، وأجلُّ ذلك سيف علي بن أبي طالب .

ومضى صاحب قيس بن سعد فوجده نائما، فقالت له الجارية: ماحاجتك إليه ؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قالت: فحاجتك أيسر من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار مافي دار قيس مال غيره اليوم، واذهب إلى مولانا في معاطن الإبل فخذ لك ناقة وعبدا، واذهب راشدا ، فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها شكرًا لها على صنيعها ذلك، وقال: هلاَّ أيقظتني حتى أعطيه مايكفيه أبدا، فلعل الذي اعطيتيه لايقع منه موقع حاجته .

وذهب صاحب عرابة الأوسي إليه فوجده وقد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يتوكأ على عبدين له - وكان قد كف بصره- فقال له: ياعرابة ، فقال : قل، فقال : ابن سبيل ومنقطع به، قال: فخلَّى عن العبدين ثم صفق بيده باليمنى على اليسرى، ثم قال: أوّه أوّه، والله ماأصبحت ولا أمسيت وقد تركَت الحقوق من مال عرابة شيئا، ولكن خذ هذين العبدين، قال: ماكنت لأفعل، فقال: إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فأعتق وإن شئت فخذ، وأقبل يلتمس الحائط بيده، قال: فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه.

قال : فحكم الناس على أن جعفر قد جاد بمال عظيم، وأن ذلك ليس بمستنكر له، إلا أن السيف أجلُّها، وأن قيسًا أحد الأجواد، حكَّم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسن فعلها وعتقها شكرًا لها على

مافعلت، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسي لأنه جاد بجميع مايملكه ، وذلك جهد من مُقلّ (١) .

وبعد : فهذا الخبر من أحسن الأخبار في مواقف الأجواد الكرماء، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة قد جاء بخير كثير .

وقد اتفق المحكَّمون على أن عرابة الأوسي كان أكرم الثلاثة، مع أنه أقل منهم صدقة ، إلا أنه قد تصدق بماله كله، وذلك جهد المقل، وهو أفضل الصدقه كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يارسول الله أي الصدقة أفضل ؟ قال: جهد المقل وابدأ بمن تعول» (٢) .

من أخبار علي بن الحسين رحمه الله :

أخرج الإمام أحمد من خبر شيبةبن نعامة قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يُبَخَّل، فلما مات وجدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة.

وأخرج من خبر أبي حمزة ثابت الثمالي : أن علي بن الحسين كان يحمل الجراب فيه الخبز، ويقول: إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل .

وأخرج من خبر محمد بن إسحاق قال : كان ناس من أهل المدينة يعيشون ، مايدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين رحمه الله فقدوا ماكانوا يُؤتَون به بالليل (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٠٠-١٠١ .

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٣١٢ رقم ١٦٧٧ .

(٣) الزهد / ١٦٦ .

فهذه أخبار جليلة عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في مجال الكرم الذي قد ازدان بالإخلاص لله تعالى، وذلك بإخفاء الصدقة، وإخفاء الصدقة أفضل من إعلانها لما جاء في قول رسول الله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه » (١) .

وذلك في غير الحالات الخاصة التي يستحب فيها إعلان الصدقة مثل ماإذا أصابت المسلمين جوائح وأراد الإنسان بإظهار الصدقة أن يكون قدوة لغيره أو فيما إذا دعا الإمام للصدقة بشكل معلن .

ولقد كان رحمه الله تعالى يحمل الطعام إلى الفقراء في الليل بنفسه حتى يحافظ على إخفاء الصدقة، وقد نجح في إخفائها حيث لم يكن يعلم الفقراء بأنه هو الذي يمونهم حتى توفى .

ولئن كان قد فات ابنَ الحسين ما كان يعمل له بعض الناس في الدنيا من جاه وسمعة فلقد ظفر بجاه الآخرة وسمعتها، وشتان مابين الدارين .

من أخبار الليث بن سعد رحمه الله :

ومن مواقف الكرم ماذكره الحافظ ابن كثير عن الإمام الليث بن سعد الفهمي أنه استهداه الإمام مالك شيئًا من العصفر لأجل جهاز ابنته، فبعث إليه بثلاثين حملا ، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسمائة دينار وبقيت عنده منه بقية .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ (٣/٢٩٢) .

قال : وحج مرة فأهدى إليه مالك طبقا فيه رطب، فرد الطبق وفيه ألف دينار .

قال : وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار ومايقارب ذلك[1] .

فهذه أخبار عالية في السخاء تدل على عظمة هذا الإمام وتقدمه في مجالات البذل والمعروف والإحسان؛ ومـاأجمل المال الصالح للرجل الصالح الذي يقول به هكذا وهكذا حتى يفنيه في طاعة الله تعالى واكتساب الدرجات العلى في الجنة !

من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله :

ومن المشهورين بالسخاء الإمام محمد بن شهاب الزهري، ومن أخبار كرمه ماروُي عن الإمام الشافعي قال: عَتَب رجاء بن حيوة على الزهري في الإسراف ، وكان يستدين، فقال : لاآمن أن يَحبس هؤلاء القوم مابأيديهم عنك فتكون قد حُملت على أمانيك، قال: فوعده الزهري أن يقْصُر ، فمرَّ به بعد ذلكَ وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : ياأبا بكر ماهذا بالذي فارقتنا عليه، فقال الزهري : انزل فإن السخِيَّ لاتؤدِّبه التجارب[2] .

وذلك لأن الكرم فيه خلق أصيل، فهو يشعر بمتعة كبيرة إذا أحسن إلى الناس وبذل لهم من ماله، كما يشعر بانقباض في النفس إذا غيَّر عادته في ذلك ، هذا بالنسبة لهواية النفس ، فإذا أضيف إلى

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٧١ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٧ .

ذلك اعتبار ذلك من العمل الصالح الذي سيتقاضى عليه فاعله الأجر في الآخرة أضعافًا مضاعفة فإن فاعل ذلك يندفع بحماس ونشاط من غير أن ينظر لما سيترتب على إنفاقه في الدنيا، وإذا كان التاجر يغامر برأس ماله أحيانا رجاء الربح المحتمل في الدنيا فإن المنفق في سبيل الله تعالى يغامر بماله رجاء ربح محقق في الآخرة .

من أخبار عبد الله بن المبارك رحمه الله :

ومن أخبار السخاء وبذل المعروف ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك المروزي ، قال ابن كثير في ترجمته: وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع مايكون من النفقات والركوب ،وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فإذا قضوا حجتهم يقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ؟ فيشتري لكل واحد منهم ماوصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها ، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية، ، فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأُصلحت وبُيِّضت أبوابها ، ورُمِّم شعثها ، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ، ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصُّرر ، ثم يُقْسِم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل، وكانت سُفرته تُحمل على

بعير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهرَ صائم في الحر الشديد (١) .

وبعد : فهذا نموذج عالٍ للكـرم والإحسان وبذل المعروف، جمع فيه ابن المبارك بين بذل ماله الكثير فـي النفقة على الحجاج وبذل نفسه في خدمتهم وقـضاء حوائجهم ، فالذي يحج معـه يكون سعيدًا لأنه يُكفَى همَّ إعداد النفقة وتأمين اللوازم الخاصة في السفر وشراء الهدايا، ثم إذا عاد إلى بيته يجده مجدَّدًا مزيَّنًا بعده ، إلى جانب ماهو أهم من ذلك وهو الاستفادة من علمه وعبادته وزهده وورعه وأخلاقه .

وبهـذه الأخلاق العـاليـة من ابن المبارك وبمـا تَحلَّى به من العلم النافع وتعليم الأمة والتربية والجهاد ساد مجتمعا كبيرا في زمنه، وكان الناس يستقبلونه ويسيرون معه في حشود كبيرة في أي بلد حلَّ فيه.

ومن ذلك ماذكره الحـافظ ابن كثير أيضًا عن كرم الإمـام عبد الله ابن المبارك قـال : وسأله مـرة سائل فـأعطاه درهما، فقـال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشِّواء والفالوذج وقـد كان يكفيه قطعة، فقـال: والله ماظننت أنه يأكل إلا البقل والخـبز ، فأمـا إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لايكفيه درهم ، ثم أمر بعض غلمانه فقال: رُدَّه وادفع إليه عشرة دراهم (٢) .

وفي هذا يتـبين الفرق الـكبيـر بين فهـم ابن المبارك وفـهم الذين حاوروه في شأن ذلك السـائل، فقد كانوا يرون أن الدرهم كثـير عليه لأنه ليس بحـاجة ، حيث إنه من قـوم يأكلون أطايب الطعام، بـينما

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٥ .

فهم ابن المبارك أنه مادام كذلك فإن الدرهم لن يملأ عينه فأعطاه عشرة دراهم ، وهكذا تكون أذهان الكرماء لَمَّاحة لمعالي الأمور، سبَّاقة إلى اكتساب مودة الناس .

ومن أخباره في الإحسان ماذكره القاضي ابن أبي يَعْلَى من خبر علي بن المديني قال: كان عبد الله بن المبارك يتَّجر في البَزِّ ويقول: لولا خمسةٌ مااتَّجرت: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفُضَيل ابن عياض، ومحمد بن السَّمَّاك، وابن عُلَيَّة، وكان يخرج يتَّجر إلى خراسان فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج والباقي يصل به إخوانه الخمسة (١).

فهذه تضحية جليلة وكرم فياض من الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى ، حيث كان يبذل من وقته في التجارة من أجل أن يصل إخوانه من العلماء .

ولقد كان في ذلك مثالا عاليا للزهد حيث يملك المال ولايبقى منه إلا نفقته الضرورية وينفق بقيته على أولئك العلماء .

من أخبار أبي النجم الكردي رحمه الله :

ومن أخبار الأسخياء ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الأمير بدر ابن حسنَوَيه أبي النجم الكردي أمير بلاد الدينور وهمذان قال: وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى . . وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذائين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد،

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٠٠ .

يصلحـون الأحذية ونـعال دوابهم ، ويصـرف في كل سنة مـائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجـاورين ، وعمارة المصانع ، وإصلاح المياه في طريق الحجاز وحفر الآبار ، وماجتاز في طريقه وأسفاره بماء إلا بنى عنده قرية ، وعَمَّر في أيامه من المساجد والخانات ماينيف على ألفي مسجد وخان (١) .

من أخبار الإمام الأوزاعي رحمه الله :

من أخـبار الإمـام عبـد الرحـمن بن عمـرو الأوزاعي في الكرم والإحسان إلى المسلمين مـاذكره الحافظ ابن كثير عنه قـال: قالوا: وكان الأوزاعي من أكـرم الناس وأسـخـاهم، وكـان له فـي بيت المال على الخلفاء إقطاع صار إليه من بني أمية، وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحوٌ من سبعين ألف دينار، فلم يمسك منها شيئًا ولااقتنى شيئًـا من عقار ولاغيره، ولاترك يوم مات سوى سـبعة دنانير كـانت جهـازه بل كـان ينفق ذلك كلَّه في سـبيل الـله وفي الفقـراء والمساكين(٢) .

فهـذا الوصف المذكور للإمام الأوزاعي يدل عـلى زهده في الدنيا وسخـائه المتواصل بالمـال طيلة عمره ، فـهو لم يدخـر من ذلك المال الكثير شيئًا ولـم يُشَيِّد به قصورا ولـم يكوِّن به مظاهر دنيوية ، وإنما كان ينفقه في وجوه الخـير ، ولقد كان راجح العقل صائب التـفكير حينما ادخر تجـارته للآخرة ، ومـاأبعد الفـرق بين عائدات الدنيـا وعائدات الآخرة !!

---

(١) البداية والنهاية ١١/٣٧٨ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٢٠ .

من أخبار أمير المؤمنين المهدي رحمه الله [1] :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من أخبار الكرم النادرة ، وذلك فيما جرى لأمير المؤمنين المهدي في ضيافته عند أحد الأعراب.

قال ابن كثير : وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ ، أين الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة، وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فإذا هو قطعة أديم[2] فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن هذا هو خط الخليفة ، فتبسم المهدي وقال : صدق الأعرابي هذا خطي، إني خرجت يوما إلى الصيد فضعْت عن الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعويذ رسول الله ﷺ ، فَرُفِعَ لي نار من بعيد فقصدتها، فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباء يوقدان نارا ، فسلمت عليهما فردا السلام ، وفرش لي كساء وسقاني مذقة من لبن[3] مشوب بالماء فما شربت شيئًا إلا وهي أطيب منه، ونمت نومة على تلك العباءة ماأذكر أني نمت أحلى منها، فقام إلى شويهة له فذبحها، فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها، هلَّكتَ نفسك وعيالك ، فما التفت إليها ، واستيقظتُ فاشتويت من لحم تلك الشويهة وقلت له : أعندك شيء أكتب لك فيه كتابا ؟ فأتاني بهذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمس مائة ألف وإنما

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٢) أي من جلد .

(٣) المذقة اللبن الممزوج بالماء .

أردت خمسين ألفا ، والله لانفذّنّها له كلّها ولو لم يكن في بيت المال سواها ، فأمر له بخمس مائة ألف فقبضها الأعرابي ، واستمر مقيما في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار، فجعل يَقْرِي الضيف ومن مر به من الناس ، فعُرِف منزله بمنزل مُضيف أمير المؤمنين المهدي [1] .

ففي هذا الخبر مثلان من السخاء ، قدَّم أحدهما ذلك الأعرابي الذي ذبح شاته لضيفه وهو لايملك غيرها، وحينما ملك ذلك المال الكثير بعد ذلك لم يبق يثمِّر ذلك المال ويتاجر به وإنما رجع إلى خبائه ذلك على طريق الحجاج فصار يبذل من ذلك المال في إكرام الضيوف، وذلك لأن الكرم كان فيه سجية، فما أن ملك ذلك المال حتى صرفه فيما يُرضي طموحه في هذا الجانب .

والمثل الثاني فيما قدَّمه أمير المؤمنين المهدي لذلك الأعرابي من تلك المكافأة السخية التي فجَّرت فيه ينابيع الكرم ودفعته إلى الاستمرار في بذل المعروف والإحسان .

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله :

ممن اشتهروا بالكرم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري،ومن أخباره ماذكره محمد بن أبي حاتم قال: وكان أبو عبدالله يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله مابين العشرين إلى الثلاثين،وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد وكان لايفارقه كيسه،ورأيته ناوَلَ رجلاً مراراً صرة فيها ثلاثمائة

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٥٨ - ١٥٩ .

درهم، وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ماكان فيها من بَعْد، فأراد أن يدعو، فقال أبو عبد الله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد(١).

فهذا مثل على كرم أبي عبد الله البخاري ورغبته في تقديم العمل الصالح عن طريق الإنفاق، ومن إخلاصه لله تعالى أنه كان يحرص على إخفاء صدقته، وبذلك يكون قد طبق علمه رجاء أن يكون من السبعة الذين يظلهم الله تعالى تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله .

ومن ذلك مارواه محمد بن أبي حاتم عن سخاء الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، قال :كانت له قطعة أرض يكريها كل سنة بسبعمائة درهم، فكان ذلك المكتري ربما حمل إلى أبي عبدالله قثاة أو قثاتين، لأن أبا عبد الله كان معجبا بالقثاء النضيج، وكان يؤثره على البطيخ أحيانا، فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القثاء إليه أحيانا(٢).

ومن ذلك ماذكره الإمام الذهبي عن كاتب الإمام البخاري محمد ابن أبي حاتم قال : وكنت اشتريت منزلا بتسعمائة وعشرين درهما فقال لي - يعني الإمام البخاري - لِيْ إليك حاجة تقضيها ؟ قلتُ : نعم، ونعْمَى عين ، قال : ينبغي أن تصير إلى نوح بن أبي شداد الصيرفي، وتأخذ منه ألف درهم، وتحمله إليَّ ، ففعلت ، فقال لي : خذه إليك ، فاصرفه في ثمن المنزل ، فقلتُ : قد قبلته منك

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٩ .

وشكرته. وأقبلنا على الكتابة ، وكنا في تصنيف « الجامع» فلما كان بعد ساعة ، قلت: عَرَضت لي حاجة لاأجترئ رفعها إليك، فظن أني طمعت في الزيادة ، فقال : لاتحتشمني، وأخبرني بما تحتاج، فإني أخافُ أن أكون مأخوذا بسببك، قلت له : كيف؟ قال: لأن النبي ﷺ آخى بين أصحابه. فذكر حديث سعد وعبد الرحمن . فقلتُ له : قد جعلتُك في حلٍ من جميع ماتقول ، ووهبت لك المال الذي عرضته عليَّ ، عَنَيْتُ المُناصفةَ . وذلك أنه قال : لي جَوَارٍ وامرأةٌ ، وأنت عَزَبٌ فالذي يجبُ عليَّ أن أناصفك لنستوي في المالِ وغيره ، وأربح عليك في ذلك، فقلت له : قد فعلتَ - رحمك الله - أكثر من ذلك إذا أنزلتني من نفسك ما لم تنزل أحدا، وحللتُ منك محلَّ الولد، ثم حفظ عليَّ حديثي الأول وقال: ماحاجتك ؟ قلت : تقضيها؟ قال: نعم ، وأسرُّ بذلك . قلت : هذه الألف ، تأمر بقبوله، واصرفه في بعض ماتحتاج إليه ، فقبله، وذلك أنه ضمن لي قضاء حاجتي .

ثم جلسنا بعد ذلك بيومين لتصنيف « الجامع » ، وكتبنا منه ذلك اليوم شيئًا كثيرا إلى الظهر ، ثم صلينا الظهر ، وأقبلنا على الكتابة من غير أن نكون أكلنا شيئًا ، فرآني لما كان قُرب العصر شبه القلق المستوحش ، فتوهَّم فيَّ ملالا . وإنما كان بي الحصر غير أني لم أكن أقدر على القيام ، وكنت أتلوَّى اهتماما بالحصر . فدخل أبو عبد الله المنزل ، وأخرج إلي كاغدة فيها ثلاث مئة درهم ، وقال : أما إذا لم تقبل ثمن المنزل ، فينبغي أن تصرف هذا في بعض حوائجك فجهدني، فلم أقبل .

ثم كـان بعد أيام ، كـتبنا إلى الـظهر أيضًـا ، فناولني عشـرين درهما، فقـال : ينبغي أن تصرف هذه في شراء الخـضر ونحو ذلك، فاشـتريت بها ماكنت أعلم أنه يـلائمه، وبعثت به إليه وأتيت، فـقال لي: بيَّض الله وجـهك، ليس فـيك حـيلة فـلا ينبـغي لنا أن نُعَنِّي أنفسنا، فقلت له:إنك قد جمعت خـير الدنيا والآخرة، فأي رجل يبر خادمه بمثل ماتبرني،إن كنتُ لاأعرف هذا فلست أعرف أكثر منه[1].

وبعد : فهـذا خبر نفيس يدل على بلوغ الإمام البخـاري وتلميذه مـحمـد بن أبي حـاتم درجات عليـا في مكارم الأخـلاق ، فالإمـام البخاري يسخـو بالمال لتلميذه بمايزيد على قيمة بيت اشـتراه، وتلميذه يحتال في رد ذلك المبلغ بعدما شكر أبا عبد الله وأظهر قبوله إياه.

ثم يحاول أبو عبد الله أن يعطي تلميذه مرة أخرى مبلغا أقل لعله يرضى بقبوله ، ولكن تلميذه يأبى ويشعره بأن ماهو فيه من خدمته في مجال العلم أعظم عنده من الدنيا .

وحينما أعطاه مبلغـا من المال ليشتري شيئًا من الخـضرة اشترى به مايلائـم رغبة شـيخـه ، فلله در هذا التلميـذ البار ، مـاأعظم أدبه، وماأسمى أخلاقه !!

من أخبار الإمام الشافعي رحمه الله :

ومن ذلك مارُوي عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي من أخبار الكرم وسمـاحة النفس فمن ذلك ماذكـره عمرو بن سواد قـال: كان الشـافعي أسـخى الناس على الـدينار والدرهم والطعـام ، فقـال لي

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢ .

الشافعي : أفْلَسْتُ في دهري ثلاثة إفلاسات ، فكنت أبيع قليلي وكثيري، حتى حليّ بنتي وزوجتي ، ولم أرهن قط (١) .

يعني أنه أفلس من كثرة إنفاقه على الفقراء وإلا فإنه كان من الزهاد ، وكانت نفقته على نفسه قليلة .

وقال الربيع : كان الشافعي مارًّا بالحذَّائين فسقط سوطه فوثب غلام ومسحه بكمه وناوله ، فأعطاه سبعة دنانير (٢).

وهذا التصرف من هذا الغلام دليل على أدبه وسمو تربيته فهو لم يكتف بمناولة الإمام الشافعي عصاه بل مسح العصا بكمه، وإن المجتمع الذي يربي صغاره على احترام الكبار وتوقيرهم ، وخاصة أهل العلم منهم يكون مجتمعًا راقيًا صالحا .

وما كافأه به الإمام الشافعي من ذلك المبلغ الكبير يعتبر حثا بالغا على فعل الخير وخدمة المسلمين،وكم هي فرحة ذلك الغلام بحصوله على ذلك المبلغ ! وكم كان أثر ذلك فيه وفيمن حوله في الاندفاع نحو بذل المعروف والإحسان إلى المسلمين !

وقال الربيع : تزوجت فسألني الشافعي : كم أصدقتها قلت : ثلاثين دينارا ، عجَّلت منها ستة ، فأعطاني أربعة وعشرين دينارا (٣).

وحكى الربيع : أن إنسانا ناول الشافعي رقعة يقول فيها : إنني بقال رأس مالي درهم ، وقد تزوجت فأعنِّي ، فقال ياربيع أعطه ثلاثين دينارا واعذُرْني عنده ، فقلت : أصلحك الله إن هذا يكفيه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٧ .

عشرة دراهم ، فقال : ويحك ومايصنع بثلاثين ؟ أفي كذا أم في كذا؟ - يَعُدُّ مايصنع في جهازه - أَعْطِه [١] .

وهذا نوع رفيع من الإحسان والمواسعاة ، فكم هي فرحة من أقدم على زواج وقد ضاقت به المسالك حينما يوفق بمن يعطيه المهر كله! وأعظم من ذلك حينما يوفق بمن يعطيه أكثر من تكاليف المهر كما هو الحال في ذلك البقال .

وروى الزبير بن سليمان القرشي عن الشافعي قال: خرج هرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين هارون وقال : قد أمر لك بخمسة آلاف دينار.

قال [يعني الزبير]: فحُمل إليه المال، فدعا بحجام فأخذ شعره فأعطاه خمسين دينارا، ثم أخذ رِقَاعًا فصرَّ صُررًا وفرقها في القرشيين الذين هم بالحضرة ومن بمكة، حتى مارجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار[٢] .

وقال الربيع : أخبرني الحميدي قال : قدم الشافعي صنعاء فضُرِبت له خيمة ومعه عشرة آلاف دينار ، فجاء قوم فسألوه، فما قُلِعت الخيمة ومعه منها شيء [٣] .

فهذه نماذج عالية في الكرم يقدمها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، إلى جانب ماقدم للأمة من علم غزير وفهم ثاقب، والكرم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٨ .

من الأخلاق السامية التي تبين معادن الرجال، وهو مع الإخلاص دليل على قوة الإيمان ، لأن بذل المال - وهو من أعلى المحبوبات من أجل الله تعالى - شاهد على قوة الإيمان .

من أخبار أبي عبد الله الواقدي رحمه الله :

من ذلك ماأخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي من خبر القاضي أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي قال: أضقت مرة من المرار وأنا مع يحيى بن خالد البرمكي، وحضر عيد فجاءتني جارية فقالت: قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء، فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرَّفته حاجتي إلى القرض، فأخرج إليَّ كيسا مختوما، فيه ألف ومائتا درهم، فأخذته وانصرفت إلى منزلي ، فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي فشكى إلي تأخر غلته وحاجته إلى القرض، فدخلت إلى زوجتي فأخبرتها فقالت: على أيِّ شيء عزمت ؟ قلت: على أن أقاسمه الكيس ، قالت ماصنعت شيئا ، أتيت رجلا سوقة فأعطاك ألفا ومائتي درهم، وجاءك رجل له من رسول الله ﷺ رحم ماسة تعطيه نصف ماأعطاك السوقة! ماهذا شيئا ، أعطه الكيس كله، فدفعته إليه، ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي فسأله القرض فأخرج الهاشمي إليه الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه، وانصرف إليَّ فخبَّرني الأمر، وجاءني رسول يحيى بن خالد يقول : إنما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين، فركبت إليه فأخبرته بخبر الكيس، فقال: ياغلام هات تلك الدنانير، فجاءه بعشرة آلاف دينار فقال: خذ ألفي دينار لك، وألفين لصديقك،

وألفين للهاشمي، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم (١).

فهذه قصة عجيبة ظهرت فيها نماذج عالية من الكرم الفياض ، تردد فيها الكرم بين التاجر الذي بذل المال للواقدي مع حاجته إليه، والمرأة التي أبت أن يكون التاجر أكرم من زوجها، والواقدي الذي بذل ذلك المال لمقترضه مع حاجته إليه، ولقد كانت نتيجة ذلك الكرم المتبادل أن حصل كل واحد من هؤلاء الكرماء على مكافأة سخية من يحيى البرمكي وزير أمير المؤمنين هارون الرشيد .

ولقد كان أبو عبد الله الواقدي من الكرماء المشهورين يقول عن نفسه : صار إليَّ من السلطان ستمائة ألف درهم ماوجبت عليّ فيها الزكاة، ويقول عنه عباس الدوري : مات الواقدي وهو على القضاء وليس له كفن فبعث المأمون بأكفانه(٢).

من أخبار ابن مهدي رحمه الله :

ومن أسخياء العلماء المشهورين الإمام القدوة أحمد بن مهدي، قال أبو نعيم الحافظ : كان صاحب ضِياعٍ وثروة أنفق على أهل العلم ثلاثمائة ألف درهم (٣).

وهكذا يسخو هذا العالم الجليل بهذا المبلغ الكبير على أهل العلم، والمال عادة من مطالب الإنسان ، ولكن حينما تسمو الأهداف وتعلو المقاصد فإن الحب ينبل عن المألوفات ويرتفع عما تعارف الناس

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٩ - ٢٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٢٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٩٧ - ٥٩٨ .

عليه عادة، ليصل بصاحبه إلى خدمة الأهداف السامية بما يملكه من مال، فيتحول المال إلى خادم مخلص دؤوب نحو الوصول إلى تحقيق أهداف صاحبه. فالمال أداة طيِّعة يستخدمها الكبار في تحقيق المآرب الكبيرة والمكارم العالية، في الوقت الذي يتحول في أيدي الصغار إلى معبود أصم، يدفع عابديه نحو المهالك، ويحشرهم نحو الرذائل.

من أخبار سوار صاحب المهدي رحمه الله:

ومن أخبار السخاء والوفاء ماذكره الحافظ ابن كثير قال: وعن سوار -صاحب رحبة سوار- قال: انصرفت يوما من عند المهدي فجئت منزلي فوُضِع لي الغداء فلم تُقبل نفسي عليه، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم، فاستدعيت بعض حظاياي لأتلهى بها فلم تنبسط نفسي إليها، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم فقلت: من أين هذه؟ فقال: من مُلكك الجديد، فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات، فنزلت لأصلي فيه، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال: إن لي إليك حاجة، فقلت: وماحاجتك؟ فقال: إني رجل ضرير ولكني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة فأحببت أن أفضي إليك بحاجتي، فقلت: وماهي؟ فقال: إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي، فجئت

إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئًا أتبلغ به لعلِّي أجتمع بسوار فإنه كان صاحبًا لأبي، فلعله أن يكون عنده سعة يجود منها علي، فقلت: ومن أبوك ؟ فذكر رجلا كان أصحب الناس إلي، فقلت: إني أنا سوار صاحبُ أبيك، وقد منعني الله يومَك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك وأجلسني بين يديك، وأمرت وكيلي فدفع له الألْفَي الدرهم التي معه، وقلت له: إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا، وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ماأُتحف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا.

فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جدا وأمر لذلك الأعمى بألفي دينار [1] .

فهذه حادثة عجيبة فيها مثل من حكمة الله تعالى العالية في تدبير أمور خلقه، حيث تجتمع الأسباب الموصلة إلى مقاصدها من غير أن يكون لِمنْ جرت على يديه أحيانًا أي قصد في ذلك، فهذا الغني المحسن اجتمعت له تلك الأسباب التي أخرجته من بيته في ساعة ماكان يخرج فيها ليلقاه ذلك الأعمى الفقير فيعرض عليه حاجته، ويشاء الله تعالى أن يوافي ذلك المحسنَ أحدُ عماله بشيء من المال ليكون طعمة عاجلة لذلك الفقير .

وموقف في السخاء والوفاء وبذل المعروف من سوار صاحب أمير المؤمنين المهدي رفع الله به حال ذلك الأعمى الفقير وسدَّ حاجته .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٥٩ .

من أخبار إبراهيم بن أدهم التميمي رحمه الله :

ومن أخبار السخاء ماذكره الحافظ ابن كثير عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى حيث قال : وذكروا أنه - يعني ابن أدهم - حصد مرة بعشرين دينارًا فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤوسهم ويحجمهم فكأنه تبرم بهم واشتغل بغيرهم، فتأذى صاحبه من ذلك ، ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم: أريد أن تحلق رأسي وتحجمني ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين دينارا وقال : أردت أن لاتحتقر بعدها فقيرًا أبدا .

قال وقال مضاء بن عيسى : مافاق إبراهيم أصحابه بصوم ولابصلاة ولكن بالصدق والسخاء [1] .

فهذا غيض من فيض مما كان يتصف به إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى من السخاء ، وقد استخدم كرمه في هذه الحادثة لغرض دعوي، حيث رأى ذلك الحجام يحتقر الفقراء فأعطاه ذلك المبلغ الكبير ليُعلمه بأن هناك من الأغنياء من يَظهرون بمظهر الفقراء زهدًا في مظاهر الحياة الدنيا حتى لايحتقر الفقراء بعد ذلك .

من أخبار بقيّ بن مخلد رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام الحافظ بَقِّي بن مخلد الأندلسي قال قال ابن لبابة الحافظ : كان بقي من عقلاء الناس وأفاضلهم ، وكان أسلمُ بن عبد العزيز يقدمه على جميع من لقيه بالمشرق ويصف زهده ويقول : ربما كنت أمشي معه في أزقة قرطبة

(١) البداية والنهاية ١٠/١٤٢ .

فإذا نظر في موضع خال إلى ضعيف محتاج أعطاه أحد ثوبيه [1].

فهذا مثل من زهد الإمام بقي بن مخلد وكرمه ، وكونُه يتصدق بثوب ، ليس كبيرا ولكن حينما يكون ذلك الثوب أحد ثوبيه اللذين يلبسهما وهو بحاجة إليهما فإن ذلك يكون كبيرا .

من أخبار محمد بن عباد المهلبي الأزدي رحمه الله :

ومما رُوي من الكلام على خلق الكرم ماذكره أبو العيناء قال : قال المأمون لمحمد بن عباد : أردت أن أوليك فمنعني إسرافك قال: مَنْع الجود سوء ظن بالمعبود ، فقال : لو شئتَ أبقيت على نفسك ، فإن ماتنفقه ماأبعد رجوعَه إليك قال: من له مولًى غني لم يفتقر ، فقال المأمون : من أراد أن يكرمني فليكرم ضيفي محمدا ، فجاءته الأموال، فما ذخر منها درهما ، وقال : الكريم لاتُحَنِّكه التجارب[2].

فهذه كلمات بليغة في الكرم تدل على عمق التوحيد ، فمحمد ابن عباد المهلبي ينفق وهو يعلم أن الله تعالى سيَخلُف عليه ماأنفقه ولعله يستشعر قول رسول الله ﷺ « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا » [3] ، فهو يعلم أن المال مال الله جل وعلا، وأنه قد تكفل للمنفقين بالعوض، ويرى أن الإمساك سوء ظن بوعد الله تعالى ، فكان ينفق حتى يستدين من أجل ذلك فيهيئ الله

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٠ .

(٣) صحيح البخاري ، الزكاة ، رقم ١٤٤٢ (٣/ ٣٠٤)،صحيح مسلم،الزكاة رقم ٥٧ .

جل وعلا من يسد عنه دينه ، كما رُوي أن المأمون قال له مرة : كم دينك يامحمد ؟ قال : ستون ألف دينار فأعطاه مائة ألف دينار [1].

من أخبار دعلج السجستاني رحمه الله :

ومن الذين اشتهروا بالكرم المحدث الفقيه أبو محمد دَعْلَج بن أحمد بن دَعلج السجستاني ، روى الخطيب البغدادي من خبر أحمد ابن الحسين الواعظ قال : أُودِعَ أبو عبد الله بنُ أبي موسى الهاشميُّ عشرةَ آلاف دينار ليتيم، فضاقت يده فأنفقها ، وكبر الصبي وأُذِن له في قبض ماله، قال ابن أبي موسى : فضاقت عليَّ الأرض وتحيرت، فبكَّرت على بغلتي وقصدت الكرخ فانتهت بي البغلة إلى درب السلولي، ووقفَتْ بي على باب دَعلَج ، فدخلت فصليت خلفه الفجر، فلما انفتل رحب بي ، وقمنا فدخلنا داره فقُدِّمت لنا هريسة، فأكلت وقصَّرت ، فقال : أراك منقبضا ، فأخبرته فقال: كل فإن حاجتك تُقْضى ، فلما فرغنا استدعى بالذهب والميزان، فوزن لي عشرة آلاف دينار ، وقمت أطير فرحا ، فوضعت المال على القربوس[2] وغطيته بطيلساني ،ثم سلمت المال إلى الصبي بحضرة قاضي القضاة، وعظُم الثناء علي ، فلما عدت إلى منزلي استدعاني أمير من أولاد الخليفة فقال: قد رغبت في معاملتك وتضمينك أملاكي، فضمنتها فربْحتُ في سنتي ربحا عظيما وكسبت في ثلاث سنين ثلاثين ألف دينار، وحملت لدَعلَج المال، فقال : سبحان الله

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٠ .

(٢) هو جزء من السرج .

والله مانويت أخذها، حلٌّ بـها الصبيان، فقـلت: أيها الشيخ أيش أصل هذا المال حـتى تهب لي عشـرة آلاف دينار ؟ فقـال: نشأت وحـفظت القرآن وطلبت الحديث، وكنت أتبزَّز [1] فوافاني تاجر من البحر فقال: أنت دعْلَج ؟ قلت: نعم قال: قد رغبت في تسليم مالي إليك مضاربة، فـسلم إليَّ برنامجـات بألف ألف درهـم، وقـال لي: ابسط يدك فيـه ولاتعلمُ مكانا يُنْفَقُ فيه المتاع إلا حـملته إليه، ولـم يزل يتردَّد إليَّ سنة بعد سنة يحمل إليَّ مـثل هذا ، والبضاعة تنْمِي ، ثم قال : أنا كـثير الأسفار في البحر فإن هلكت فهذا المال لك على أن تصدق منه وتبني المساجـد ، فأنا أفعل مـثل هذا ، وقد ثمَّر الله المال في يدي، فـاكتم عليَّ ماعشت [2].

وبعد: فهذه نماذج من الكرم الفيـاض، فذلك التاجر الذي لم يُذكر اسمه قد فوض العالم دَعلَج السجستاني بالصدقة من ذلك المال الكثير الذي أعطاه إياه ليتاجـر به، وكان دعلج أمينا حيث عـمل بوصية ذلك التاجر ولم يقْصُر نفع المال على نفسه وأسرته بل بذله في وجوه الخير.

من أخبار الوزير ابن هبيرة رحمه الله :

من مواقف الوزير أبي المظفر يحيى بن محمـد بن هبيرة الشيباني في مجال الكرم ماذكره الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي نقـلا عن ياقوت الحموي بإسناده : أن الوزير عـُرِضت عليه جارية فـائقة الحـسن وظهر له في المجلس من أدبهـا وحسن كـتابتـها

---

(١) يعني يتاجر في الثياب .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٣ - ٣٤ .

وذكائها وظرفها ماأعجبه، فأمر فاشتُريت له بمائة وخمسين دينارا، وأمر أن يُهيَّأ لها منزل وجارية، وأن يُحمل لها من الفرش والآنية والثياب وجميع ماتحتاج إليه، ثم بعد ثلاثة أيام جاءه الذي باعها وشكى إليه ألم فراقها، فضحك وقال: لعلك تريدا ارتجاع الجارية؟ قال: إي والله يامولانا وهذا الثمن بحاله لم أتصرف فيه، وأبرزه، فقال له الوزير: ولانحن تصرفنا في المثمن، ثم قال لخادمه: ادفع إليه الجارية وماعليها وجميع مافي حجرتها، ودفع إليه الخرقة التي فيها الثمن وقال: استعينا به على شأنكما، فأكثرا من الدعاء له، وأخذها وخرج (١).

فهذا مثل بليغ في الكرم والإيثار حيث تنازل الوزير ابن هبيرة عن تلك الجارية التي اشتراها مع إعجابه بها ولم يكتف بذلك بل تنازل عن ثمنها للبائع، وزاده على ذلك ماأعطاها بعد ملكه إياها، وهذا الخبر يدل على مقدرة ابن هبيرة الفائقة على تحويل شهواته الجسدية إلى الرغبات الأكيدة في تطهير نفسه والسمو بها نحو الفِعال الحميدة والأخلاق الكريمة.

إن ماوقع فيه ذلك الرجل البائع من ألم الفراق أمر محزن، ولقد كان قصارى مايتمناه أن تعود إليه تلك الجارية مع إعادة ثمنها ولكنه فوجئ بكرم ابن هبيرة الفياض حيث عادت إليه وماحازته وثمنُها، وهذا يعتبر إسهامًا كبيرًا في سد حاجات المعوزين وتضميد جراحاتهم.

وقال الإمام أبو الفرج البغدادي: وحُكِيَ عن الوزير أنه كان إذا مد السماط فأكثرُ مايحضره الفقراء والعميان، فلما كان ذات يوم وأكل

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

الناس وخرجوا بقي رجل ضرير يبكي ويقول : سرقوا مداسي ومالِيَ غيره ، والله ماأقدر على ثمن مداس ومابي إلا أن أمشي حافيا وأصلي، فقام الوزير من مجلسه ولبس مداسه وجاء إلى الضرير فوقف عنده وخلع مداسه والضرير لايعرفه وقال له : البس هذا وأبصره على قدر رجلك، فلبسه وقال : نعم ، لا إله إلا الله كأنه مداسي ومضى الضرير ، ورجع الوزير إلى مجلسه وهو يقول : سلِمتُ منه أن يقول : أنت سرقته [1] .

فهذا مثل جليل في التواضع والكرم ، لقد كان أيسرَ من التنازل عن الحذاء أن يدفع الوزير لذلك الفقير مالاً يشتري به حذاء، ولكنه عزَّ عليه أن يمشي ذلك الفقير الأعمى حافيا ، خصوصا حينما ذكر تحرجه من الصلاة وقد مشى حافيا لاحتمال أن يطأ نجاسة وهو لايدري، ففضَّل هذا الوزير النبيل أن يؤثر بنعليه ذلك الفقير .

من أخبار الوزير علي بن عيسى رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر والقاهر من رواية أبي القاسم علي بن الحسن التنوخي عن أبيه عن جماعة : أن عطاراً من أهل الكرخ كان مشهوراً بالسنَّة، ركبه ستمائة دينار دينًا ، فأغلق دكانه وانكسر عن كسبه ولزم منزله، وأقبل على الدعاء والتضرع والصلاة ليالي كثيرة، فلما كان من بعض تلك الليالي رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول له: اذهب إلى علي بن عيسى الوزير فقد أمرته لك بأربعمائة دينار، فلما أصبح

(١) الذيل على طبقات الحنابلة ٣/ ٢٨٣ .

الرجل قصد باب الوزير فلم يعرفه أحد ، فجلس لعل أحدًا يستأذن له على الوزير حتى طال عليه المجلس وهمَّ بالانصراف، ثم إنه قال لبعض الحجبة، قل للوزير إني رجل رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأنا أريد أن أقصه على الوزير، فقال له الحاجب: وأنت صاحب الرؤيا إن الوزير قد أنفذ في طلبك رسلاً متعدده .

ثم دخل الحجاب فأخبروا الوزير فقال: أدخلوه سريعا، فدخل عليه فأقبل عليه الوزير يستعلم عن حاله واسمه وصفته ومنزله، فقال له الوزير: إني رأيت رسول الله ﷺ وهو يأمرني بإعطائك أربعمائة دينار، فأصبحتُ لاأدري من أسأل عنك، ولا أعرفك ولاأعرف أين أنت، وقد أرسلت في طلبك إلى الآن عدة رسل فجزاك الله خيرا عن قصدك إياي .

ثم أمر الوزير بإحضار ألف دينار فقال: هذه أربعمائة دينار لأمر رسول الله ﷺ وستمائة هبة من عندي، فقال الرجل: لا والله لاأزيد على ما أمرني به رسول الله ﷺ فإني أرجو الخير والبركة فيه، ثم أخذ منها أربعمائة دينار ، فقال الوزير : هذا الصدق واليقين، فخرج ومعه الأربعمائة دينار فعرض على أرباب الديون أموالهم فقالوا: نحن نصبر عليك ثلاث سنين وافتح بهذا الذهب دكانك ودم على كسبك، فأبى إلا أن يعطيهم من أموالهم الثلث وفتح حانوته بالمائتي دينار الباقية، فما حال عليه الحول حتى ربح ألف دينار[1] .

ففي هذا الخبر مثل من المعروف والإحسان الذي كان يتصف به الوزير علي بن عيسى ابن الجراح .

---

(١) البداية والنهاية ١١/٢٣١ - ٢٣٢ .

وفيه مثل من رحمة الله جل وعلا بأوليائه المؤمنين الذين يتضرعون إليه ويلجئون إليه وقت الشدائد، ولاينسون عبادته في حال رخائهم، فإن ماتم من تقدير الله تعالى هذه الرؤيا التي رآها هذا الوزير والتي رآها صاحب الحاجة إنماهو أثر من اثار التوحيد الخالص الذي كان يتصف به هذا العطار، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء.

وفيه مثل من القناعة وصدق اليقين، حيث اكتفى ذلك العطار بالأربعمائة التي أمره النبي ﷺ في المنام أن يأخذها من الوزير ورد بقية الألف اعتماداً على أن البركة فيما نص عليه رسول الله ﷺ ، فبارك الله تعالى له فيها، وقضى منها دينه، وكوّن له بها تجارة طيبة .

من أخبار عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله :

ومن أخبار السخاء عند العلماء ماذكر الحافظ الضياء المقدسي عن الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي : أنه كان سخيا جوادا لايدخر دينارا ولادرهما ، مهما حصّل أخرجه ، وقال : لقد سمعت عنه أنه كان يخرج في الليل بقفاف الدقيق إلى بيوت متنكرا في الظلمة، فيعطيهم ولايُعرف ، وكان يُفتح عليه بالثياب فيعطّي الناس وثوبه مرقّع .

قال : وسمعت بدر بن محمد الجزري يقول : مارأيت أحد أكرم من الحافظ ، كنت أستدين ، يعني لأطعم الفقراء ، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهما ، فلما تهيأ الوفاء أتيت الرجل فقلت : كم لك ؟ قال : مالي عندك شيء ، قلت : من أوفاه قال : قد أُوفِي عنك ، فكان وفّاه الحافظ وأمره أن يكتم عليه[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٥٧ .

وهكذا قدم هذا الإمـام الجليل نماذج عالية من السمـاحة والكرم، وتفقُّدِ أحـوال المحتاجين، والوفاء عن المـعسرين ، مع ماكـان حريصا عليه مَن إخفاء عمله بُعدًا عن الرياء وليكون أجره عند الله أعظم .

* * *

مواقف وعبر

في

العدل والاهتمام بالمسئولية

في أثناء العرض التاريخي للمواقف والعبر مرَّت بنا أخبار عن عدل النبي ﷺ واهتمامه بالمسئولية ، وكذلك الحال في خليفته الصديق أبي بكر رضي الله عنه وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقيت أخبار أخرى لم يكن لها ارتباط محدد بتاريخ معين، وهي التي سيتم عرضها في هذا الباب .

اهتمام عمر بأهل الذمة :

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي عن شيوخه قالوا : وكتب عمر إلى عتبة (1) : أن أَوْفِدْ عليَّ وفدًا من صلحاء جند البصرة عشرة ، فوفد إلى عمر عشرة فيهم الأحنف (2) ، فلما قدم على عمر قال: إنك عندي مصدَّق وقد رأيتك رجلا فأخبرني أَأَن ظُلمت الذمة ؟ (3) أَلمظلمة نفروا أم لغير ذلك ؟ قال: لا ، بل لغير مظلمة ، والناس على ماتحب ، قال: فنعم إذًا .

وهذا مثل من أمثلة اهتمام عمر رضي الله عنه بالعدل ومتابعة ولاته والسؤال عنهم حتى لايقع ظلم على أيديهم أو أيدي من يولونهم.

وإذا كان أهل الذمة قد حَظُوا باهتمام عمر وعدله فكيف بالمسلمين؟! إنه يشعر بمسئوليته عما يجري في أي جزء من بلاد الله

---

(1) يعني ابن غزوان عامله على البصرة .

(2) هو الأحنف بن قيس التميمي .

(3) يعني أهل الذمة .

ولو كان نائيا ولايكتفي بالتحري الشديد في اختيار الولاة ثم إلقاء المسئولية عليهم، ولذلك كان لايشعر بالراحة إلا إذا سأل الناس على مختلف طبقاتهم حتى يتأكد من إقرار العدل والقيام بأمور الدين .

ومن أجل ذلك كتب إلى عتبة بن غزوان كما جاء في هذه الرواية يقول : أَنِ اعْزُبِ الناس عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يُدال عليكم لغدر يكونَ منكم أو بغيٍ ، فإنكم إنما أدركتم بالله ماأدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدَّم إليكم فيما أخذ عليكم ، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عونًا وناصرا [1] .

ففي هذا تأكيد من عمر على ولاته بلزوم جانب العدل، وحمل الناس عليه، وهو إدراك منه لأهمية إقرار العدل في ثبات الهيمنة للمسلمين على أعدائهم، واستقرار أمورهم .

وفيه تنفير من الغدر وتأكيد على الالتزام بالوفاء بالعهود وعدم الاغترار بقوة جيوش المسلمين وتوالي انتصاراتهم ، فإنهم إنما أُديلوا على أعدائهم بعدلهم ووفائهم ، فإذا جاروا وخانوا العهد لم يكونوا جديرين بنصر الله تعالى .

وقوله « فإنما أدركتم بالله ماأدركتم » تأكيد منه على استحضار عظمة الله جل وعلا ، وأن كل مايوفَّق المسلم إليه في حياته من الخير فإنه من الله وبالله تعالى ، فَلْيُلازم المسلم ذكره جل وعلا وَلْيَفِ بالعهد الذي عاهد ربه عليه من تنفيذ شريعته وإخلاص العمل له يكن الله دائما معه ، ومن كان الله معه فلن يُخْذَل ولن يُدال عليه .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٧٨ .

قال الله تعالى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور:٥٥].

وإنما تصاب الأمة الإسلامية بما تصاب به لغفلة أفرادها عن ذكر الله تعالى وعدم استحضار عظمته وأنه بيده مقاليد الأمور كلها، فيتضخم في أعينهم حجم القُوَى المادية ، وتتشكل تصوراتهم للنصر والهزيمة والنجاح والإخفاق على ضوء تعظيمهم للأمور المادية ، وتقلُّص استحضارهم معية الله تعالى ورقابته عليهم وعلى أعدائهم .

هذا وقد جاء في الرواية السابقة أن عمر رضي الله عنه بعدما سأل الأحنف عن العدل مع أهل الذمة قال : انصرفوا إلى رحالكم ، فانصرف الوفد إلى رحالهم ، فنظر في ثيابهم فوجد ثوبا قد خرج طرفه من عيبة فشمَّه ، ثم قال : لمن هذا الثوب منكم ؟ قال الأحنف: لي ، قال : فبكم أخذته ؟ فذكر ثمنًا يسيرا . ثمانية أو نحوها ، ونقص مما كان أخذه به - وكان قد أخذه باثني عشر - قال: فهلاَّ بدون هذا ووضعت فضلته موضعا تُغني به مسلما ! حُصُّوا وضعوا الفضول مواضعها تربحوا أنفسكم وأموالكم ، ولاتسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم ، إن نظر امرؤ لنفسه وقدَّم لها يُخْلَف له .

وهذا مثل من أمثلة حياة الزهد والقناعة التي حمل عمر نفسه عليها بأشد صورها ، وأراد أن يحمل الناس على مااستطاع منها وقاية

لهم من حيـاة السرف والبذخ التي لها نتـائجها المعروفـة ، من ضياع الأفراد والأمم في الدنيا وخسارتها في الآخرة .

وفي قوله « ووَضَعْتَ فضلته موضـعا تُغني به مسلما » إشارة إلى أن إغناء المسلمين إلى حد الاكتفاء بالنسبة للضروريات مقدَّم على تمتع الإنسان بأمور الكـماليات ، وأنه مطلوب منه أن يقتـصد بشراء الأدنى من الملابس والمراكب وجـميع متـاع الحياة ليـؤَمِّن بما بقي المال الكافي لإنقاذ أُسَرٍ مسلمة من الفقر والحاجة .

وقوله « حُصُّوا وضعوا الفضول مواضعها » يعني اجعلوا أموالكم حصصـا يكون منها للضروريات ويكون منها للحاجـيات ويكون منها فضول تستـغنون عنها وضعوا هذه الفضول مواضـعها من الإنفاق في سبيل الله تعالى . وفي قوله « تـربحوا أنفسكم وأموالكم » إشارة إلى أن الربح والفـلاح لدى المسلم العاقل ليس في تمتـيع الأجسـام بألوان المتع وإنما يكون بمقـدار انتصـار الإنسان على مطالب جـسمـه وادِّخار الفضول من المال لتقديمـها أعمالاً صالحة تُدَّخر لصاحبـها يوم القيامة، فمن اقتصد في إنفاقه ربَح نفسه حيث يقودها إلى الفلاح ، وربح ماله لأنه لم يستهلكه كله فيما يعـود عليه في الدنيا ، وإنما حوَّلَه إلى عمل صالح بإنفاقه في سبيل الله تعالى فربح ماله، أما إذا أسرف فإنه يكون قد خسر نفسـه حيث متَّعها بمتاع عاجل مـؤقت ، على حساب العمل الصالح الذي ينفعـها في يوم آجل خالد ، وخسر مـاله لأنه استهلكه في عائـد نفعه قـليل محـدود، ولم يقدِّمـه ليوم خالـد تُضاعف فـيه حسنات الأعمال أضعـافًا كثيرة، فهو خاسر في مـاله ولو كان عبقريا

في التجـارة ، لأنه في تجارته ينظر لمواقع الربح والخسـارة في الدنيا، ولو فكر في الآخرة لعلم أنه هو الخاسر وأن الصالحين المنفقين أموالهم في سبيل الله تعالى هم الرابحون المفلحون .

وهذا لايعني أن المسلم يزهد فـي طلب المال، بل المطلوب منه أن يعـمل بطاقتـه في عمـران الأرض، ولكن من منطلق تحـرير الكسب أولا ، بأن يكون حلالا، ومن منطلق إخلاص النية وتصحـيحها ثانيا، وذلك بأن يكون هدفـه من جمع المال أن يحـصل على أكبـر قدر من الكسب الذي يصرفـه في الإنفاق في سبـيل الله تعالى ، بعـد تغطية ضروراته واحتياجاته ، مع الالتـزام بالقصد ، فإذا فعل ذلك أُجِر أوَّلاً على تنقية ماله من الكسب الحرام، وأُجِـرَ ثانيًا على النية الصالحة التي بيَّتـها وهو يجـمع ذلك المال، وأُجِرَ ثالثًـا على العمل الصـالح الذي اجتمع له بسبب هذا المال الذي أنفقه في سبيل الله تعالى .

محاسبته سعد بن أبي وقاص في بناء بيت له :

لقد كـان أمير المـؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه يحرص دائما على محاسـبة ولاته وتفقد أمورهم ، فقـد أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أن سعد بن أبي وقاص لما بنى له بيتا في الكوفة ادَّعى الناس عليه مالم يقل، وقالوا : قال سعد: سكِّن عني الصُّوَيْت (١) ، وبلغ ذلك عمـر وأن الناس يسمونه قصـر سعد، فدعا محمد بن مسلمة فسـرَّحه إلى الكوفة ، وقال: اعْمِدْ إلى القصر حتـى تُحرق بابه، ثم ارجع عَـوْدَكَ على بَدْئِك ، فخـرج حتـى قدم

---

(١) يعني أنه أمر بوضع باب لبيته ليمنع وصول صوت غوغاء الناس وهم في أسواقهم .

الكوفة فاشترى حطبًا ، ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب وأُتِيَ سعد فأُخبر الخبر، فقال : هذا رسول أُرسل لهذا الشأن ، وبعث لينظر مَنْ هو ، فإذا هو محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه رسولا بأن : ادْخل ، فأَبَى ، فخرج إليه سعد ، فأراده على الدخول والنزول فأبى، وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ، ودفع كتاب عمر إلى سعد: بلغني أنك بنيت قصرا اتخذته حصنا، ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس بابا، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال، انزل منه منزلا مما يلي بيوت الأموال وأغلقه[1] ولاتجعل على القصر بابا تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت، فحلف له سعد ماقال الذي قالوا .

ورجع محمد بن مسلمة من فوره ، حتى إذا دنا من المدينة فني زاده، فتبلغ بلحاء من لحاء الشجر، فقدم على عمر وقد سنق[2]، فأخبره خبره كله ، فقال : هلا قبلت من سعد ! فقال : لو أردت ذلك كتبت لي به، أو أذنت لي فيه ، فقال عمر : إن أكمل الرجال رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل ، وأخبره بيمين سعد وقوله ، فصدَّق سعدا وقال : هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني [3] .

هذا وإن من أبرز مانلاحظه في هذا الخبر اهتمام عمر رضي الله

---

(١) هكذا جاء في رواية الطبري ولعله وأغلقها يعني بيوت المال ، لأنه قد نهاه أن يجعل لمنزله بابا .

(٢) يعني ظهر عليه أثر الجوع والتعب .

(٣) تاريخ الطبري ٤/٤٧ .

عنه بأداء الحقوق لأصحابها ، وتمكين أصحاب الحقوق من طلب حقهم من غير حواجز تمنعهم أو تضعف من شخصيتهم ، فإذا شعر صاحب الحق والحاجة بأن المسئول قد فتح بابه لسماع تظلم أصحاب الحق وعرفوا بأن حقهم سيصل إليهم من غير مشقة ولاضياع وقت طويل أو نفقة تفوق الحد الضروري المعتاد فإنهم يُقدمون على رفع حوائجهم وطلب حقوقهم أما إذا كان الأمر بضد ذلك فإن الإنسان قد يترك حقه تفاديًا لهذه العوائق المرهقة .

فلذلك وغيره اهتم عمر رضي الله عنه بمحاسبة ولاته، ووضع الضمانات الكافية لوصول أصحاب الحقوق والحاجات للمسئولين دون مشقة أو عوائق .

ولاشك أن توفر هذه الضمانات التي تكفل راحة أصحاب الحقوق والحاجات ، وسرعة وصولهم إلى مطلوبهم ، حتى لو كانوا من غير المسلمين . . لاشك أن ذلك يعتبر مجالا مهما من مجالات الدعوة الإسلامية ، سواء في تثبيت وتقوية إيمان المسلمين ، أو باجتذاب غير المسلمين إلى الإسلام .

هذا ومن المقطوع به أن سعدا رضي الله عنه لم يحتجب عن الناس ولم يُقصِّر في أداء حقوقهم والعدل بينهم ، ولم يتهمه عمر رضي الله عنه بذلك ، ولكن عمر كان يراعي تثبيت قواعد عامة لتقرير العدل وتيسير حصول أصحاب الحقوق على حقوقهم، وإذا كان سعد لم يُرِدْ ماخافه عمر حين أغلق باب بيته، فإن من سيأتون بعد سعد لايؤمن عليهم أن يحتجبوا عن الناس ، وأن يعوقوا أصحاب

الحقوق والحاجات عن بلوغ مرادهم ، فكان تصرف عمر بهذه الشدة في إنكار هذا الأمر مقصود به إبلاغ جميع المسئولين المعاصرين له، ومن سيأتون من بعده بما يقتضيه عليهم واجب المسئولية في الدين.

أما بالنسبة للفُرْس فإن هذا الحدث يعتبر أمرًا عظيما عندهم فإن الأمر بتحريق باب قصر متواضع من أجل حماية حقوق عامة الناس يعتبر نوعا من الأحلام الخيالية ، حيث قد أَلِفَت أنظارهم منظر القصور الضخمة ذات الأبواب الحصينة والحرس المدججين بالسلاح والمظاهر الدنيوية الخلاَّبة ، وكلها تكسر من شخصية العامة وتحرمهم من مجرد المطالبة بحقوقهم ، فهذا الحدث لاشك أن له أثرًا في اجتذاب الأعاجم للإسلام وإعجابهم بالمسلمين .

هذا ومما نستفيده من مناقشة عمر مع محمد بن مسلمة بعد عودته من مهمته أن الإنسان إذا كُلِّف بمهمة فإنه يعمل بوصية من كلَّفه ، فإذا عرض له أمر لم يكن فيه رأي لمن كلفه فإنه ينبغي له أن يتصرف فيه بالحكمة والحزم ، فمحمد بن مسلمة لم يأمره عمر بأن يأخذ نفقةً من سعد ولم ينهه عن ذلك ، فاجتهد محمد بموجب ماتقتضيه طاعة ولي الأمر فلم يقبل النفقة من سعد، ولكن الحزم يقتضي بأن يتزود منه بما يكفيه في سفره خشية أن يتعرض للهلاك .

والحكمة تقتضي أن يدخل بيت سعد تطييبًا لخاطره، وحفاظًا على مكانته بين المسلمين الذين هو مسئول عنهم، ولكنه اجتهد فرأى أن ماقام به من ضمن العمل بوصية أمير المؤمنين، ولاشك أن الطاعة من أهم الأمور التي تعين على النجاح في المسئولية، ولكنها مقيدة بالحكمة

والحزم،وذلك بالنظر إلى المحافظة على جوهر القضية التي كُلِّف بها الإنسان،ثم النظر بعد ذلك بما تقتضيه المصلحة العامة والخاصة.

وفي هذا المعنى قال له عمر : إن أكمل الرجال رأيًا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به .

جوابه لمن أمره بالتقوى :

أخرج المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال قال رجل لعمر رضي الله عنه : اتق الله ياأمير المؤمنين، فو الله ما الأمر كما قلت ، قال: فأقبلوا على الرجل فقالوا : لاتَأَلِت[1] أمير المؤمنين ، فلما رآهم أقبلوا على الرجل قال: دعوهم فلا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولاخير فينا إذا لم تُقَل لنا [2] .

فهذه كلمة عظيمة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قرر فيها وجوب التناصح بين الحاكم والمحكومين ، فلا خير في شُعوب تداهن في دينها ولاتقول كلمة الحق، ولاخير في ولاة يخشاهم الناس ولايتجرؤون على أن يقولوها لهم، وإذا كانت هذه الكلمة قد قيلت لأبي العدل أمير المؤمنين عمر فكيف يستعظم أحد أن تقال لمن هم دونه في ذلك بمراحل ؟!

تحاكمه مع أبَيّ بن كعب إلى زيد بن ثابت :

ومن ذلك ماأخرجه أيضا أبو زيد عمر بن شبة من خبر عامر الشعبي قال : كان بين عمر وأُبَيّ بن كعب رضي الله عنهما خصومة،

(١) أي لاتنتقص .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٧٧٢ .

فجعلا بينهما زيد بن ثابت رضي الله عنه ، فأتياه فضربا الباب فخرج إليهما فقال: ألا أرسلتَ إليّ ياأمير المؤمنين ؟ فقال : في بيته يُؤتَى الحَكَم ، فدخلا فقال : في الرحب والسعة ، وألقى وسادة ، فقال - يعني أمير المؤمنين - : هذا أول جورك ، فتكلما فقال لأبَيّ: بيِّنتك ، وإن رأيت أن تُعفي أمير المؤمنين من اليمين فافعل ، فقال أبيّ: نعفيه ونصدقه ، فقال عمر رضي الله عنه : أيُقْضَى عليّ باليمين ثم لاأحلف؟ ! فحلف ، فلما وجبت له الأرض وهبها لأُبيّ [(١)] .

فهذا مثل عظيم في العدل ، حيث يجلس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أمام القاضي ليحكم بينه وبين أحد أفراد رعيته ويأتي بنفسه إلى بيت القاضي الذي كان - آنذاك - هو المحكمة ، حيث كان القضاة يحكمون في بيوتهم أو في المساجد ونحو ذلك .

وحينما ألقى القاضي لأمير المؤمنين الوسادة أنكر عليه ووصفه بالظلم حيث لم يُسَوِّ بينه وبين خصمه، وفي هذا تثبيت لقاعدة من أهم قواعد العدل في الحكم .

وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه الذي ارتضاه أمير المؤمنين للحكم في غاية الأدب وتقدير أهل الفضل، حيث عرض على أُبَيّ ابن كعب رضي الله عنه أن يعفي أمير المؤمنين من الحلف، كما أن أُبيًّا كان قمة في الأدب وحسن الخلق، حيث أعفى أمير المؤمنين من الحلف وصدَّقه ، ولكن عمر لم يرض بذلك بل أمضى ماحكم به القاضي، وقد بلغ درجة عالية في العفو والإحسان حينما تجاوز عن ذلك ووهب الأرض لأُبَيّ بن كعب .

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٥٥ .

وإننا لنجد في هذه القضية مثلا عاليا من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم ، فقد جرت هذه القضية بين أعلى رجل في الدولة وبين رجل من سادة المسلمين وعلمائهم، وهذا يبين لنا أن وقوع الخلاف بين المسلمين وتحاكُمهم إلى القاضي الشرعي لايعتبر عيبًا ولامنقصة ، ماداموا محتفظين بأخوتهم الدينية وأخلاقهم الإسلامية ، وإنما العيب والنقص فيما يقع بين ضعفاء الإيمان من السب والشتم والتهاجر والمخادعات بسبب وقوع الخلاف بينهم، فهذا يعتبر من الانحطاط الخلقي ، بينما نجد الصحابة رضي الله عنهم قد بلغوا درجة عالية من الرقي الأخلاقي ، حيث لم يُفسد الخلاف أخلاقهم، ولم يقطع حبل الوصل بينهم .

إعلانه الاستعداد لإنصاف الرعية من الأمراء :

أخرج المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر أبي فراس قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني لم أبعث عمَّالي عليكم ليصيبوا من أشعاركم ولا أبشاركم ولا أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، ويقسموا فيئكم، فمن فُعل به غير ذلك فليقُم فو الله لأُقصنَّنَّه منه، فقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : ياأمير المؤمنين إن كان رجل على رعية يؤدب بعض رعيته إنك لتُقصَّه منه ؟ فقال: أنا لأُقصُّه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ أقَصَّ من نفسه ! ثم قال : ألا لاتضربوا المسلمين فتذلُّوهم ، ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم ، ولاتجمِّروهم في البعوث فتفتنوهم ، ولاتُنزلوهم الغياض

فتضيِّعوهم[1]. وأخرج ابن سعد نحوه من خبر عطاء [2].

ففي هذا الخبر مثل من عدل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وتحرِّيه في رفع الظلم عن أفراد رعيته، وقوله « والله لأقصنَّه منه » محمول على وجود الظلم من الوالي وتجاوزه حدود الاعتدال، أما إذا كان هناك تجاوز من بعض أفراد الرعية فإنه يجوز للوالي أن يؤدبهم في حدود الاعتدال .

وفي قوله « لاتضربوا المسلمين فتذلوهم » تنبُّه منه إلى أهمية رفع معنوية المسلمين وتقوية شخصياتهم ، ليكون عطاؤهم لدينهم وأمتهم كبيرا، وإرشاد منه إلى تحاشي إذلالهم لأن المسلم إذا شعر بالذلة ضعف وانزوى ، وأصبح يعطي بجهد قليل .

وقوله « ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم » يفيد بأنه يجب أن تبقى الصلة بين الوالي والرعية قائمة على المودة والاحترام بين الطرفين ، وذلك مبني على الرحمة والعدل من الوالي ، والشكر والاعتراف بالفضل من الرعية ، ومن الأمور المهمة التي تعكر على هذه الصلة وتضعفها أن يمنع الوالي حقوق الرعية فيحملهم على كفر النعمة ونكرانها بدلا من شكرها، وفي مقابل التقصير الحاضر قد ينسى الأفراد الإنعام السابق ، وإذا ضعفت الثقة بين الوالي والرعية اختلَّت حياة الأمن وضعفت أسباب السعادة والرخاء .

وقوله « ولاتجمِّروهم في البعوث فتفتنوهم » يعني ولاتطيلوا مدة

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ٨٠٧/٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢٩٣/٣ .

غياب الجنود عن أهاليهم فتفتنوهم عن دينهم، وفي هذا توجيه إلى لزوم المحافظة على مستوى الإيمان والاستقامة عند المسلمين ، وأنه لايجوز للولاة أن يعرِّضوهم للفتن التي تُضعف من تمسكهم بدينهم .

وقوله « ولاتنزلوهم الغياض فتضيِّعوهم » الغياض هي مجتمع الشجر في مغيض الماء ، وإذا نزل الجيش فيها تفرقوا فيسهل على الأعداء تصيدهم ، فلذلك نهى أمير المؤمنين عن ذلك حتى لايتعرض أفراد الجيش لسهام الأعداء .

اهتمامه بحراسة المسلمين في الليل :

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في مجال تفقد أحوال المسلمين ماأخرجه الإمام الطبري من طريق بكر بن عبد الله المزني قال: جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه، فجاءت المرأة ففتحته ، ثم قالت له : لاتدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي ، فلم يدخل حتى جلست ، ثم قالت : ادخل ، فدخل ثم قال : هل من شيء ؟ فأتته بطعام فأكل، وعبدالرحمن قائم يصلي ، فقال له : تجوز أيها الرجل [1]، فسلم عبدالرحمن حينئذ ، ثم أقبل عليه فقال : ماجاء بك هذه الساعة ياأمير المؤمنين ؟ فقال : رُفْقَةٌ نزلتْ في ناحية السوق خشيت عليهم سرّاق المدينة ، فانطلقْ نحرسهم، فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان . فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : ألم أنه عن المصابيح بعد النوم ! فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم ، فقال:

---

(١) يعني خفف صلاتك .

انطلق فقد عرفته ، فلما أصبح أرسل إليه فقال : يافلان كنت وأصحابك البارحة على شراب ؟ قال: وماعلمك ياأمير المؤمنين ؟ قال: شيء شهدته ، قال : أو لم ينهك الله عن التجسس ؟! قال: فتجاوز عنه .

قال بكر بن عبد الله المزني : وإنما نهى عمر عن المصابيح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد [1] .

نجد في هذا الخبر فهم عمر العميق لمجالات العبادة وتقديم الأهم على المهم . فحينما كان بعض المسلمين بحاجة إلى عمر وعبدالرحمن ابن عوف كان أمر احتياجهم مقدما على صلاة النفل، فالصلاة عبادة، وخدمة المسلمين أيضا عبادة، ومادامت الصلاة نفلاً فإن مانزل من حاجة المسلمين مقدم على ذلك ، لأن الصلاة عبادة يقتصر نفعها على صاحبها، وخدمة المسلمين عبادة يتعدى نفعها للمسلمين .

ولقد كان هذا الأمر واضحًا لدى الصحابة رضي الله عنهم ولذلك لم ينكر عبد الرحمن على عمر أن أمره بتخفيف الصلاة وإنهائها من أجل المشاركة في خدمة المسلمين ، ولم ير أن غيرهما من صغار المسلمين أولى بالقيام بهذه المهمة لأنهم كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من خلال كونه عبادةً وعملا صالحًا ، فهو أمر يتنافسون عليه، ولا يكلونه إلى غيرهم ، لأنهم يرون أنفسهم أحوج إلى الأجر من غيرهم، وإن لهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذي قال لمن

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥ .

عرض عليه أن يستريح في السفر « ماأنت بأقوى مني ولاأنا بأغنى منك عن الأجر » وقد كان النبي ﷺ أراد جمع الحطب لرفقته .

ونجد في هذا الخبر مثلا مهما للوقوف عند كتاب الله تعالى، فلقد كان عمر رضي الله عنه مُقْدِما على التحقيق في أمر أولئك الذين اجتمعوا على الشراب، ولكن حينما ذكَّره أحدهم بقوله تعالى ﴿ ولاتجسسوا ﴾ تجاوز عنهم ، فلم يكمل التحقيق في الأمر لكون الاشتباه في أمرهم نتج عن التجسس عليهم، وهو أمر منهي عنه .

وتجاوز عمر عنهم محمول على عدم ثبوت مايوجب إقامة الحد عليهم.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله نحواً من هذه الرواية وفيها أن عمر لما دنا من البيت المذكور قال له عبد الرحمن بن عوف : أرى أنا قد أتينا مانهى الله عنه ، قال الله تعالى ﴿ ولاتجسسوا ﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم (١) .

هذا وإذا كان الله جل وعلا قد نهى عن التجسس حتى في معرفة المخالفات التي في إزالتها صلاح المجتمع ، فكيف بمن يتجسسون على المسلمين في خاصة أمرهم، وينقلون كلامهم من غير معرفتهم ؟!

وكما كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عميق الشعور بالمسئولية نحو المسلمين في أرواحهم وأمنهم ، فإنه كذلك في الاهتمام بحفظ أموالهم وتنميتها .

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر عبد الله بن عمر رضي

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/٣٣٣ .

الله عنهما قال: قدمت رفقةٌ من التجار فنزلوا المُصَلى فقال عمر لعبدالرحمن بن عوف : هل لك أن نحرُسَهم الليلة من السَّرَق؟ فباتا يحرسانهم ويصليّان ماكتب الله لهما، فسمع عمر بكاءَ صبيّ فتوجّه نحوه فقال لأمه: اتّقي الله وأحْسِني إلى صبيّك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ثم عاد إلى مكانه، فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك، إني لأراك أمّ سوءٍ ، مالي أرى ابنك لايقرّ منذ الليلة ؟ قالت: ياعبد الله قد أبْرمْتَني منذ الليلة ، إني أريغُه عن الفطام فيأبَى، قال : ولِمَ؟ قالت: لأن عمر لايفرضُ إلاّ للفُطُم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لاتُعْجليه ! فصلى الفجر وما يَستبينُ الناسُ قراءته من غلبة البكاء ، فلمّا سلّم قال: يابؤسًا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين! ثم أمَرَ مناديًا فنادى : ألا لاتُعْجِلوا صبيانكم عن الفطام فإنّا نفرض لكلّ مولود في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق : إنّا نفرض لكل مولود في الإسلام (١) .

فهذا مثل من قيام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بمسئوليته الكاملة في رعاية أفراد أمته وحمايتهم، ولقد كان بإمكانه أن يوكل بالحراسة أفرادًا يقومون بهذه المهمة، ولكنه يريد أن يجعل من نفسه مثلا عاليًا لأمرائه في أنحاء الأرض، فحينما يسمعون هذا الخبر يتحمسون لأداء مسئوليتهم، ويجافيهم النوم ليقوموا بالإشراف على أعمالهم.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٠١ .

وفي آخر الخبر موقف عظيم لأمير المؤمنين عمر في الشعور بالمسئولية والخشية من الله جل وعلا، حيث تمخض هذا الخبر عن تغيير نظام من أنظمة العطاء، فصار عمر يفرض لكل مولود في الإسلام ، حتى لاتعجل الأمهات بفطام أولادهن فيتضرروا بذلك، ومع أنه مجتهد في النظام الأول ولم يظلم الرعية بذلك حيث إن الرضيع لايحتاج إلى طعام وبالتالي فإنه لايحتاج إلى نفقة فإن سوء الرعاية من بعض الأمهات جعل عمر يُحمِّل نفسه مسئولية كل ضرر يحصل على أولاد المسلمين، وهذا من أعلى مايتصور من الشعور بالمسئولية ، ولقد بلغ من تأثره بهذه الحادثة أن غلبه البكاء حتى وهو يصلي الفجر بالمسلمين .

فأي وجدان كان ينطوي عليه قلب عمر !!

وأي إحساس كان يعمر فكره الحي المتوقد !!

مثل من تفقده أحوال المسلمين في الليل :

كان عمر رضي الله عنه يتفقد أحوال المسلمين في الليل كعادته، عله يجد أناسًا منقطعين في سفرهم فيسعفهم ، أو يجد أمورا تخالف الدين أو تخل بالأمن فيزيلها .

وهذه المهمة الشاقة كان يمكن أن يوكل بها عمر من يقوم بها من أفراد رعيته الذين هم أطوع له من بنانه ، ولكنه كان شديد الخشية من الله تعالى وعظيم التقدير للمسئولية ، وقد حمله ذلك على أن يباشر هذا الأمر الشاق بنفسه خشية أن لايبلغ غيره مبلغ مايريد من الاطمئنان التام على أحوال المسلمين .

وقد رُويت عن عمر في ذلك أخبار مهمة منها ماأخرجه الإمام الطبري من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أسلم العدوي مولى عمر قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رحمه الله إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث ، فقال : ياأسلم ، إني أرى هؤلاء ركبًا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان وقدر منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغون - يعني يتضورون جوعا - فقال عمر : السلام عليكم ياأهل الضوء - وكره أن يقول ياأصحاب النار - قالت : وعليك السلام ، قال: أأدنو؟ قالت : أدن بخير أوْدَعْ ، فدنا فقال : مابالكم ؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد ، قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت: الجوع، قال : وأي شيء في هذه القدر ؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر ، قال: أي رحمك الله مايدري عمرَ بكم! قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا ! فأقبل عليّ فقال: انطلق بنا.

وهذا مثل عظيم من تواضع عمر رضي الله عنه واهتمامه بخدمة المسلمين حيث عرج على تلك النار التي رآها رجاء أن يقدم خدمة لأصحابها في تلك الليلة الباردة .

وكان الواقع أعظم مما تصور عمر حيث شاهد واقع تلك المرأة وأبناءها ، وكان منظرًا يبعث على الحزن والرحمة لأقسى الناس فضلا عن أمير المؤمنين عمر الذي يخشى الله تعالى في ضياع بهيمة في أقصى البلاد .

وكان موقفا ساميا من عمر حينما شكته تلك المرأة إلى الله تعالى حيث أشفق على نفسه من تلك الشكوى فقال: أي رحمك الله

ومايدري عمـر بكم ؟ وإنما قال ذلك لعله يخفف من موجـدتها عليه فيكون ذلك شـافعـا له عند الله تعالى الذي نصب أمـام عينيـه دائما خشيته والوجل منه ، ولكن تـلك المرأة ردت بما يزيد من إشفاق عمر وخوفه حـيث قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنـا ! ولم تَعُدْ لغة الكلام مجـدية في ذلك الموقف وإنما كان الموقف يسـتدعي الإسـراع في نجدة تلك الأسرة المنكوبة ، وهذا مافعله عمر .

يقول أسلم : فخرجنا نهرول حـتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كـبة شحم فقـال : احمله عليَّ فقلت : أنا أحمله عـنك، فقال: احمله علي، مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك أقـول : أنا أحمله عنك فقال لي في آخر ذلك : أنت تحمل عني وزري يوم القـيامة ، لا أم لك ، فحملته عليـه، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهـينا إليها، فألقى ذلك عندها .

وهكذا يبلغ تصور عمـر لمستقبله الأخروي ، ويـبني عليه سلوكه الدنيوي، فـهو أولا يهرول ولايمشي مـشيا ، ثم هو يصـرُّ على حمل الكيس الكبير على ظهـره اتقاء مايخشاه من الحساب يـوم القيامة على ماظن أنه تقصير منه في أمور الرعية .

ولم يكن مـركـزه الكبـير الذي أهَّلـه لأن يكون أعظم رجل في العالم آنذاك . . لم يكن ليـحول بينه وبين أن يجعل من نفسـه عاملا متواضعا يحمل الأثقال على ظهره .

إنه مظهر من مظاهر العظمة والجلال ، تفتخر به الأمة الإسلامية عبر الأجيال .

إنه واقع مدهش وسلوك محير ، أن يتنازل أعظم رجل في العالم ليقوم بمهمة الحمالين البسطاء .

ولكن الذي يحل اللغز ويزيل الحيرة والدهشة قول عمر « أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ! » ، إنه كلما عظمت الآخرة في عين المسلم صغرت في عينه الدنيا ومافيها ، ومن ثَمَّ يأتي بالعجائب من السلوك العالي الذي يظل أمامه أهل الدنيا خاشعين حائرين . .

إن مفتاح شخصية العباد في هذه الحياة الدنيا هو مقدار نظرهم إلى الآخرة ووزنها في تفكيرهم ، فإن كانت الآخرة هي التي تبرز أمام خيالهم عند كل سلوك يقومون به في هذه الحياة الدنيا فإنهم يعيشون سعداء ويُسعد الله بهم الأمة، ويصلح بهم ما اعوج من سلوكها ، ويأمنون بإذن الله تعالى من الوقوع في الزلل والمهالك، وإن كان الذي يبرز هو الحياة الدنيا بما فيها من مال وجاه فالويل لهؤلاء ولمن كانوا مسئولين عنه، والخراب والدمار هو الذي يتوقع من خلال سلوكهم .

إلى أن قال أسلم : وقام - يعني عمر - وقمت معه فجعلَتْ - يعني المرأة - تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قولي خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله !

لقد غمر المعروف والإحسان تلك المرأة حتى عقدت مقارنة بين هذا المحسن الكبير وبين أمير المؤمنين ، لما استقر في الأذهان بأن الإمام الذي استرعاه الله جل وعلا أمر الأمة مسئول عن كل فرد من

أفرادها، ولم تكن تدري أن الذي تخاطبه هو أمير المؤمنين، وماكان يدور في خلدها أن الله سبحانه قد ساقه إليها ليقضي أمرين كل واحد منهما بالغ الأهمية : أمر إنقاذ تلك المرأة وأبنائها من الجوع، وأمر إنقاذ أمير المؤمنين من الإخلال بالمسئولية فيما لايعلم ، وأمر ثالث لايقل عنهما ، وهو أن يسطر التاريخ هذه الحادثة المهمة بمداد الفخار والعز الذي يرفع رؤوس المسلمين أمام العالم، وينشئ الأجيال المتعاقبة على القدوة الحسنى والتربية الفاضلة .

وبعد ذلك هل اكتفى أمير المؤمنين بما قدم لتلك المرأة وأولادها من خدمات جليلة؟! يقول أسلم : ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع ، فجعلت أقول له : إن لك شأنا غير هذا، وهو لايكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ، ثم ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل علي فقال: ياأسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى مارأيت منهم [1] .

الله أكبر ماأعظمك ياعمر ! وماألطف مشاعرك وأحاسيسك ! إن عمر العظيم لم يشغله تأمين المواد المادية عن ملاحظة النواحي المعنوية، لقد كان رأى الصبية وهم يبكون ويتضاغون من الجوع، وهو منظر مؤلم لأصحاب النفوس الأبية، وإذا كان عمر قد ملأ بطونهم بالطعام فإن هول المنظر السابق لايزال يعمل عمله في حسه المرهف، ونفسه الجياشة ، فأحب أن يمسح هذا المنظر برؤية الأطفال وقد بدت عليهم علائم الفرح والسرور .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٠٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٤/٣٥٣ .

هذا ومما تجدر الإشارة إليه الإشادة بجرأة أمير المؤمنين عمر الخارقة وإيمانه الراسخ بقضاء الله تعالى وقدره، حيث كان يخرج ليلا وليس معه حرس والمسلمون في حال حرب ضروس شاملة مع أعدائهم في الشرق والغرب ، وفي المدينة عدد كبير من الأعاجم الذين فتحت بلدانهم، وأزيلت ممالكهم أو أضعفت على يد المسلمين، ومع ذلك يخرج خارج المدينة وليس معه إلا مولاه أو أحد أصحابه، ولاشك أن هذا يعتبر مثلا عاليًا للشجاعة النادرة والإيمان القوي واليقين الراسخ.

طلبه من سعد أن يقتص منه :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من حديث الإمام الطبراني بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: خرجت جارية لسعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يقال لها : زبراء ، وعليها قميص جديد فكشفتها الريح، فشد عليها عمر بالدرة ، وجاء سعد ليمنعه فتناوله عمر بالدرة ، فذهب سعد يدعو على عمر، فناوله الدرة وقال: اقتص مني فعفا عن عمر [1] .

فهذان مثلان من مكارم الأخلاق يطبقهما عظيمان من عظماء الصحابة رضي الله عنهم ، فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تناول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعصا في ساعة غضب بسبب تلك الجارية التي لم تلتزم بالاحتشام ، وسعد أقدم على الدعاء على عمر في ساعة غضب مما حدث، لكن أمير المؤمنين ندم على

---

(١) البداية والنهاية ٧٦/٨ ، وأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب - منتخب كنز العمال ٧١/٥ - .

ماكان منه نحوه فأعطاه العصا ليقتص منه ، حتى يخرج من دنياه ولم يحمل حقا لمسلم ، فهل يفعل سعد ذلك ؟!

إنه لايمكن أن يقدم على ضرب أمير المؤمنين ، ويكفيه نبلا وتواضعا من أمير المؤمنين أنه أعطاه العصا ليقتص منه، فكان العفو من سعد، واطمأنت نفس عمر حينما عفا أخوه سعد رضي الله عنهما.

محاسبته أهله وأبناءه :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: اشتريت إبلا وارتجعتها إلى الحمَى، فلما سمنَتْ قدمت بها ، قال: فدخل عمر بن الخطاب السوق فرأى إبلا سمانا، فقال: لمن هذه ؟ قيل لعبد الله بن عمر ، قال: فجعل يقول: ياعبدالله بن عمر بخٍ بخ ، ابن أمير المؤمنين ، قال: فجئته أسعى، فقلت : مالك ياأمير المؤمنين ؟ قال : ماهذه الإبل ؟ قلت: : أنا اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى ابتغي مايبتغي المسلمون، قال فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، ياعبد الله ابن عمر اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين[1].

فهذا الخبر يدل على ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو لايريد أن يستفيد أولاده من جاه الخلافة ويرى أن مااستفاده من مال من هذا الطريق فالمسلمون أحق به .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال : رأيت عبد الله بن الأرقم صاحب بيت مال المسلمين في

---

(١) تاريخ دمشق ٣٢٦/٤٤ - ٣٢٧ .

زمن أبي بكر وعمر أتى عمر فقال : ياأمير المؤمنين إن عندنا حلية من حلية جلـولاء ، آنية من ذهب وورق [1] فانظر أن تفـرغ لذلك يوما فترى فيه رأيك ، فقال : إذا رأيتني فارغا فآذني، فجاءه يوما فقال: أراك اليوم فارغا قال: أجل ، فابسط لي نطعا في الأشاء - وهو النخل الذي لايسقى - فبسط له فيه نطعا ، ثم أُتِي بذلك المال، فصُبَّ عليه، فدنا عمـر حتى وقف عليه وقـال: اللهم إنك ذكرت وقلت ﴿ **زين للناس حب الشهوات** ﴾[آل عمران: ١٤] وقلت: ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ [الحديد: ٢٣]. وإنا لانسـتطيع إلا أن نفـرح بما زينته لنا، اللهم فاجعلني أنفقه في الحق، وأعذني من شره .

قال : وأُتِيَ عـمر بابن له يحمل يقـال له: عبد الرحمن، فـقال: ياأبتاه هب لي خاتما، فقال له عمر: اذهب إلى أمك تسقيك سويقا[2] .

وهكذا حينمـا رأى أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب رضي الله عنه نفائس الأموال التي أفاءها الله تعالى على المسلـمين أدركته الخشية من الله جل وعلا ، فـتفتق فكره عن تذكـر الآيات التي تزهد المسلم في الحياة الدنيا وتسـمو بفكره نحو آفاق الحياة الآخرة، ومع مـا اشتهر به عمر من الورع والزهد فـإنه يشير إلى طبيعة الإنسان التـي جبل عليها من الفرح بطيـبات الحيـاة الدنيا ، ثم يلجـأ إلى الله سبحـانه بالدعاء ليسدده إلى الطريق القويم في إنفاق المال ، وأن يعيذه من فتنته .

وفي آخر الخبـر مثل من ورع أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنه،

---

(١) الورق بكسر الراء الفضة .

(٢) تاريخ دمشق ٣٢٥/٤٤ .

حيث لم يسمح لابنه الصغير أن يأخذ شيئا من مال المسلمين العام .

ويشبه ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر أيضا من خبر عبد الله ابن واقد بن عبد الله بن عمر قال : بعث أبو موسى من العراق إلى عمر بن الخطاب بحلية ، فوضعت بين يديه ، وفي حجره أسماء بنت زيد بن الخطاب ، وكانت أحب إليه من نفسه، لما قتل أبوها باليمامة عطف عليهم ، فأخذت من الحلية خاتما فوضعته في يدها، وأقبل عليها يقبلها ويلتزمها ، فلما غفلت أخذ الخاتم من يدها، فرمى به في الحلية ، وقال: خذوها عني [1] .

هذا ومن النماذج الدالة على قيام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بالمسئولية وأداء الأمانة ماذكره ابن جرير رحمه الله من أن عمر كان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله، وتقدم إليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره، ثم روى حديثا بإسناده عن سالم بن عبد الله قال : كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير - يعني إلى اللحم- وأُقسم بالله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة [2].

وهذا تركيز بالغ على القدوة الحسنة ، وجمع بين القول والعمل، فإن الحاكم إذا أمر بأمر ، والعالم الداعية إذا دعا إلى فعل خير أو ترك شر فإن أول ماينظر الناس إليه وإلى أسرته، فإن رأوا تطبيقا والتزاما

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣٢٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٠٦ .

أخذوا قوله مأخذ الجد وسارعوا إلى التطبيق ، وإلا فإن قوله يذهب أدراج الرياح، وقد يطبقون من غير قناعة بشكل ضعيف ثم يحصل التفلت بعد ذلك .

وتهديد عمر رضي الله عنه أفراد أسرته بتضعيف العقوبة يلاحظ فيه أمران :

الأول : ارتكاب المخالفات ، وهذا يشتركون فيه مع غيرهم .

الثاني : صدُّ الناس عن الالتزام ، وهذا تنفرد به أُسَرُ المسئولين ومن لهم بهم علاقة لأنهم موضع القدوة .

ولئن كان هذا يدل على ورع عمر الشديد فإنه يدل أيضا على حزمه البالغ في تنفيذ مايراه في صالح المجتمع الإسلامي .

مثل من اهتمامه بأموال المسلمين :

من أمثلة اهتمامه البالغ في هذا المجال ماأخرجه الإمام الطبري من حديث أبي يزيد المديني قال: حدثنا مولى لعثمان بن عفان قال: كنت رديفا لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم ، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الأبل يدخلها الحظيرة ، حظيرة إبل الصدقة، فقال عثمان : من ترى هذا ؟ قال : فانتهينا إليه فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقال: هذا والله القوي الأمين .

وأخرج أيضا من حديث أبي بكر العبسي قال: دخلت حَيْسَرَ الصدقة- يعني الحظيرة - مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ،

قال: فجلس عثمان في الظل يكتب ، وقام على رأسه عليٌّ يملُّ عليه مايقول عمر ، وعمر في الشمس قائم في يوم حار شديد الحر ، عليه بردان أسودان ، متزرًا بواحد ، وقد لف على رأسه الآخر ، يَعُدُّ إبل الصدقة ، يكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي لعثمان - وسمعته يقول نَعْتَ بنت شعيب في كتاب الله تعالى : ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾ [**القصص**: ٢٦]، ثم أشار عليّ بيده إلى عمر ، فقال : هذا القوي الأمين [١] .

وهكذا رأينا اهتمام عمر الشديد بأموال الأمة ، واستهانته براحته وصحته من أجل صيانة وحفظ هذه الأموال ، وفي سبيل الأهداف العالية يهون على النفوس العظيمة تحمل المشاق ، ولعل إحساس عمر الكبير بالمسئولية ، واستغراق فكره في أداء عمل يراه مهما قد خفف عن جسمه الإحساس بحرارة الشمس ولفح السموم .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

ولقد استحق عمر بجدارة ثناء كبار الصحابة عليه بالقوة والأمانة فهو القوي الأمين حقا الذي لم تشغله كبار الأمور عن صغارها، وهو بعمله هذا نموذج حي للشعور بالمسئولية والدقة في محاسبة النفس .

تورعه في صرف مال المسلمين :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن المسيب قال: انكسر بعير من مال الله، فنحره عمر فصنعه ، ودعا عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال العباس بن عبد المطلب : ياأمير

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٠١ .

المؤمنين لو صنعت لنا كل يوم مثل هذا أصبنا منه وتحدثنا عندك فقال عمر: يهون عليك جوع امرأة بسلع (١) ؟ إنه كان لي صاحبان عملا عملاً وسلكا طريقا ، إن عملت بمثل عملهما سلكت طريقهما، وإن عملت بغيرها لم أسلك في طريقهما (٢) .

فالمنهج واضح عند عمر رضي الله عنه فهو ملتزم بمنهج رسول الله ﷺ ومنهج صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد استقام على ذلك طوال حياته، وهذا قد جنبه الزلل وسار به على الطريق القويم .

محاسبته نفسه في رعيته :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر سلامة بن صبيح التميمي قال : قال الأحنف بن قيس : ماكذبت قط إلا مرة ، قالوا: وكيف ياأبا بحر ؟ قال: وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فلما دنونا من المدينة قال بعضنا لبعض : لو ألقينا ثياب سفرنا ولبسنا ثياب صوننا فدخلنا على أمير المؤمنين والمسلمين في هيئة حسنة وشارة حسنة كان أمثل، قال : فلبسنا ثياب صوننا وادخلنا ثياب سفرنا ، حتى إذا طعنًا في أوائل المدينة لقينا رجل فقال: انظروا إلى هؤلاء أصحاب دنيا ورب الكعبة ، قال: فكنت رجلا ينفعني رأيي،فعلمت أن ذلك ليس بموافق للقوم،فعدلت فلبستها وأدخلت ثياب صوني العيبة(٣) وأشرجتها(٤)

(١) سلع هو الجبل المعروف في المدينة .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) العيبة وعاء من جلد وهو بمنزلة الحقيبة الآن .

(٤) أي ربطتها .

وأغفلت طرف الرداء، ثم ركبت راحلتي فلحقت أصحابي، فلما دفعنا إلى عمر نَبَتْ عيناه عنهم ووقعت عيناه علي ، فأشار إلي بيده فقال: أين نزلتم ؟ قلت: في مكان كذا وكذا، قال فقال: أرني يدك ، فقام معنا إلى مناخ ركابنا، فجعل يتخللها ببصره ثم قال: ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه ؟ أما علمتم أن لها عليكم حقا؟ ألا تقصدتم بها في المسير ؟ ألا حللتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟ فقلنا : ياأمير المؤمنين إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا أن نسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بالذي يسرهم، فحانت منه التفاتة فرأى عيبتي فقال: لمن هذه العيبة ؟ قلت: لي ياأمير المؤمنين، قال: فما هذا الثوب ؟ قلت : ردائي ، قال: بكم ابتعته ؟ فألغيت ثلثي ثمنه، فقال : إن رداءك لحسن لولا كثرة ثمنه .

قال : ثم انصفق راجعا ونحن معه ، فلقيه رجل فقال: ياأمير المؤمنين انطلق معي فأعْدِني [1] عَلى فلان فإنه قد ظلمني ، قال: فرفع الدِّرة فخفق بها رأسه، فقال: تَدَعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدني ، أعدني ! قال: فانصرف الرجل وهو يتذمر ، قال: علي بالرجل، فألقى إليه المخفقة فقال : امتثل [2] ، فقال : لا والله ولكن أدعها لله ولك، قال: ليس هكذا ، إما أن تدعها لله إرادة ماعنده، أو تدعها لي، فاعلم ذلك ، قال : أدعها لله .

قال: فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه ،

---

(١) أي انصرني .

(٢) أي اضربني مثل ما ضربتك .

فافـتتح الصلاة فصلى ركـعتين وجلس فقـال : كنتَ وضيعا فـرفعك الله، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب المسلمين، فجاءك رجل يستعيذ بك فضربته ، ماتقول لربك غدا إذا أتيته ؟ قال : فجعل يعـاتب نفسه في ذلك معاتبة ظننا أنه من خير أهل الأرض (١) .

في هذا الخبر نماذج من سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخلاقه ، فبينما نراه رحيـما بالبهائم ، يلوم أصحابها على إتعابها في السير نراه زاهدا في الدنيا حيث رأى ثمن ذلك الثوب كثيرا مع أن الأحنف لم يذكـر له إلا ثلث ثمنه، ثم نراه متواضـعا عـادلا حـينما طلب من ذلك الرجل أن يـقتص منه، كـما نراه غـزير العلم حـينما وجـه ذلك الرجل إلى إخـلاص العـمل لله تعـالى ، ثم نراه خاشـعا لله جل وعـلا عظيم الخـشية منـه حيث صار يـعاتب نفـسه ويحاسـبها على شـدته في معاملة ذلك الرجل الـذي تظلم له، حتى حكم له الأحنف بمجمـوع تلك الفضائل بأنه من خـير أهل الأرض ، بل هو في خلافته خير أهل الأرض .

وأخيراً موقـف أخلاقي للأحنف بن قيس التميمي حـيث كان قد نزه نفسـه من الكذب ماعـدا تلك المرة التي ذكر ، وإن رجـلا يعيش عـشرات السنين لا يمارس الكذب لهـو رجل عظيم، لأنه قلمـا يسلم الناس من فلتات اللسان.

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٢٩١ - ٢٩٢ .

خبره مع الحطيئة :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال : أمر عمر بإخراج الحطيئة من الحبس وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره، فأخرج وأنا حاضر فأنشأ يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ   زغب الحواصل لاماء ولاشجر

غادرت كاسبهم في قعر مظلمة   فارحم هداك مليك الناس ياعمر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه   ألقى إليك مقاليد النُّهَى البشر

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها   لكن لأنفسهم كانت بك[الخِيَرُ]

فامنن على صبيةٍ بالرمل مسكنهم   بين الأباطح يغشاهم بها القدر

نفسي فداؤك كم بيني وبينهم   من عرض أودية يَعْمَى بها الخبر

قال: فلما قال الحطيئة : ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ، بكى عمر، فقال عمرو بن العاص : ماأظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة [١] .

فهذا مثل من أمثلة كثيرة على ماكان يتصف به أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من الرحمة والشفقة ، حيث بكى حينما ذكر له الحطيئة أبناءه الذين أصبحوا لاعائل لهم، ولقد اعتبر عمرو بن العاص رضي الله عنه ذلك منتهى العدل وكماله، لأن مساوئ الحطيئة الكثيرة تجعل قلوب الناس عليه قاسية ، لأنه كان كثير الهجاء للناس، وقد سجنه عمر رضي الله عنه لحماية أعراض الناس منه .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٩٧ - ٩٨ ، والخضراء هي السماء والغبراء هي الأرض .

خبره مع سلمان حينما اعترض عليه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر العتبي قال: بُعث إلى عمر بِحُلَل فقسمها فأصاب كل رجل ثوب، ثم صعد المنبر وعليه حلة، والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون ؟ فقال سلمان: لانسمع، فقال عمر: لم يا أباعبد الله ؟ قال: إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا وعليك حلة، فقال: لاتعجل يا أباعبد الله، ثم نادى : ياعبد الله ، فلم يجبه أحد، فقال: ياعبد الله بن عمر، فقال: لبيك ياأمير المؤمنين، فقال: نشدتك الله، الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟ قال: اللهم نعم، قال سلمان : فقل الآن نسمع[1] .

فهذا خبر جليل يكشف لنا صورة من واقع الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وذلك في العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، فأفراد الرعية يقولون الحق علنا إذا رأوا أمرا مجانبا للصواب غير هيابين ولامترددين، والحكام يسمعون كلمة الحق بصدور رحبة وخضوع كامل للحق .

فأبو عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه كان جريئا حينما رد على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وكان في رده هذا يريد كشف الأمر للناس، وإلا فإنه يعرف أن عمر لايفضل نفسه على أفراد الرعية بشيء، وكان فقيها حينما ربط السمع والطاعة بالعدل، وهذا يبين لنا أن العدل مع الرعية من شروط الطاعة .

وأمير المؤمنين عمر كان متواضعًا عادلا حينما سمع كلام سلمان

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٣٥ .

بصدر رحب وسماحة عاليه، ولم يغضب من اعتراضه عليه .

فرضي الله عنهم ماأعظمهم حكاما، وماأعظمهم محكومين !!

خبره مع القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص :

أخرج ابن عبد الحكم من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ياأمير المؤمنين عائذٌ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا ، قال: سابقتُ ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه،

فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين.

قال أنس: فضرب ، والله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: ياأمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مُذْ كم تَعَبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

قال : ياأمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني [1] .

فهذا موقف عظيم في العدل ، أنصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رجلا من أهل مصر من ظالمه ابن حاكم مصر .

لقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه مشهوراً بالعدل والحكمة، ولكن ابنه استغل مكانة أبيه فاعتدى على ذلك المصري، ورفع شعار العصبية، حيث اعتز بنسبه وجاه أبيه، فاعتبر أنه من

(١) منتخب كنز العمال ٤/ ٤٢٠ .

طائفة الأكرمين وأن ذلك المصري من طائفة الأذلين، وحيث إنه لااستعباد في الإسلام إلا في حال الحرب فإن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد فزع من سماع تلك الكلمة التي تنذر بخطر نشوء الطبقية في المجتمع الإسلامي، فلذلك كان علاجه لتلك الظاهرة الخطيرة حازما وحاسما .

إن الناظر في هذه القضية لأول وهلة يرى غرابة ذلك الحكم ، حيث تم استدعاء والي مصر من أجل تلك القضية الصغيرة مع مايترتب على ذلك من مشقة السفر واحتمال تأخير بعض الأحكام التي لايبت فيها إلا عمرو نفسه، وكان يكفي أن يتم استدعاء صاحب القضية وهو ابن عمرو، ولكن أمير المؤمنين عمر كان يعلم أن ابن عمرو ماكان له أن يستطيل على الناس إلا بجاه أبيه، ولذلك أمر عمر المصري بأن يضرب عمراً كذلك، فأراد عمر بذلك أن يقرر العدالة في أبلغ صورها، وذلك بحضور صاحب القضية وأبيه الذي انخدع ابنه بسلطانه فقال هذه الكلمة العظيمة التي أصبحت مثالا لكمال العدل والإنصاف « مُذْكم تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟! » .

ولاشك أن تلك الكلمة العظيمة كان لها مردود كبير في الدعوة إلى الإسلام ، فإنها ترفع من معنوية جميع المصريين وكل الشعوب الذين تبلغهم ، حيث أظهرت مايدعو إليه الإسلام من محاربة كل أنواع العصبية وإقرار المساواة بين الناس .

لقد كانت هذه الكلمة مثلا عاليا في كمال العدل وسمو الأخلاق، حتى أصبح النصارى يستشهدون بها على عدالة الإسلام،

لقد نادى أحد الصادقين في مجلس البرلمان المصري وهو الشيخ صلاح أبو إسماعيل بتطبيق الإسلام ، فقام أحد الأعضاء من النصارى وقال: ولِمَ لانوافق على تطبيق الإسلام ؟ وهل ر أينا في التاريخ من الإسلام إلا العدالة منذ أن أمر عمر بن الخطاب غلاما من أبناء القبط بأن يقتص من ابن أمير مصر ؟!

وهكذا حوَّل أمير المؤمنين عمر عدالة الإسلام إلى واقع تطبيقي خلَّده التاريخ حتى صار أبناء هذا العصر يذكرون به عدالة الإسلام، ورحم الله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما قالت في وصف عمر : كأنما خلق للإسلام .

اهتمامه بالمسئولية :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر عروة بن الزبير أن عمر رضي الله عنه خطب فقال: إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع مابحضرتكم لكم ، وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ماأعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلُقي شيئا إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي، أَعقِلُ الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة أو ظُلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذنِّي فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم،

ولايحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إليّ ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إليَّ صلاحكم عزيز عليّ عتبكم، وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله، وأهل بلد لازرع فيه ولاضرع إلا ماجاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه .ومطلع على مايحضرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع مابعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله تعالى (١) .

هذا الخبر مثل من أمثلة اتصاف عمر رضي الله عنه بالتوحيد وقوة الإيمان والاتصال بالله تعالى ، فهو حينما يذكر تحمله لولاية المسلمين يسأل الله تعالى أن يعينه على أداء ماتحمل وأن يحرسه من الوقوع في الخطأ، وإن هذا ليعتبر مظهرا من مظاهر تمثل العبودية لله جل وعلا، فالإنسان مهما اتصف بالعظمة وتحلى بالمواهب الممتازة ووفق بالأعوان المخلصين فإنه عبد لله تعالى ضعيف بنفسه محتاج إلى عون ربه جل وعلا ، ٠٠ سر إلى تسديده وتوفيقه .

ثم يشير إلى موضوع ثبات الشخصية واتزانها، وذلك ببيان أن عمر الذي كان جنديا من جنود الإسلام هو عمر الذي أصبح خليفة على المسلمين، وأن الخلافة لن تغير من نفسيته وأخلاقه، وذلك لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى الولاية والمسئولية على أنها درجات رفيعة في الحياة الدنيا ، وإنما ينظرون إليها على أنها مجال من مجالات العمل الصالح ، فإنْ أحسن فيها حاملها وعدل والتزم بضوابط عبوديته لله

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٥ .

تعالى كـان له الثواب العظيم عنـد الله تعالى، الذي منه مـا جاء في قوله ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل» الحديث (١) .

وإن أساء وجـار وتعالى وطغى فـلم يلتزم بضـوابط عبوديتـه لله تعالى فإنه يبوء بالعذاب الأليم يوم القيامة إذا لم يغفر الله له . ويقول حين لاينفـعه الندم ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٨ - ٢٩] .

ومن وصـايا عمـر النافـعة في هذه الخطبـة إرشـاد المسلمين إلى اجتناب الظلم ، وإنصـاف إخوانهم من أنفسهم، وعـدم التعدي الذي يلجئ المعتدى عليه إلى التظلم والشكوى .

ويثبِّت هذا المعنى ببيان أنه ليـس بينه وبين أحد من الناس محاباة ولامداراة، وأن الأمر إذا رفع إليه فسيقر مايرى فيه من الحكم الشرعي .

وإن مما يثبـت العـدل ويجـفف مـنابع الظلم ويقلـل من وقـوع الخصومات شعور المسلمين بقـوة الوالي وحزمه وعدله بحيث لايحابي سيدا لجاهه ولاغنيا لغناه ولايقبل شفاعة شافع في ظلم .

ثم يبين عمر رضي الله عنه أن قيامـه بهذه المسئولية الكبرى يكون بأمـرين : أن يطلع بنفسـه على مايحـضره في دار الخـلافة مـن أمور الرعية، وأن يوكِّل على ما بَعُدَ عنه من يثق بهم من أهل الأمانة، وأنه لن يجعل أمانته إلا عند أهلها .

وإذا كان المسئول يقوم بنفسه في أداء مسئوليته أو يوكلها إلى أهـل

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ ، الزكاة (٣/ ٢٩٢) .

الأمانة فإنه يكون قد أدى ماعليه من واجب، فإذا جاءت الأمور موافقة للحق ومحققة لمصلحة الأمة فهذا مايهدف إليه أهل الإخلاص، وإن كانت غير ذلك فإن المسئول قد بذل جهده، ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: رأى عوف بن مالك كأن شيئا دُلِّي من السماء، فأخذ به رسول الله ﷺ فانبسط ثم دُلِّي، فأخذ به أبو بكر فانبسط، ثم ذُرِعَ الناسُ ففضلهم عمَر بثلاثة أذرعٍ ، فقصها عوف على أبي بكر، فلمّا بلغ هذا المكان قال له عمر: دعنا من رؤياك ، فسكت عوف، فلما استُخلف قال لعوف: بقية رؤياك، قال: أليس أنت انتهرتني فأسكتني؟ قال: إنّي كرهتُ أن تنعى إلى الرجل نفسه، هات رؤياك من أوّلها، حتى بلغ : وذُرع الناسُ ففضلهم عمر بثلاثة أذرع- قال: فقلت: ففيم فضلهم عمر بثلاثة أذرع؟ فقيل لي: إنّه خليفة، وإنه شهيد، وإنه لايخاف في الله لومة لائم- قال عمر: أما الخلافة فإن الله عز وجل يقول : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾(١) ، فقد استخلفت ياعمر، فانظر كيف تعمل، وأما الشهادة فكيف لي بها وحولي العرب، وإن الله لقادر على أن يسوقها إليّ وأمّا ألا أكون أخاف في الله لومة لائم ، فما شاء الله (٢).

---

(١) سورة يونس : الآية ١٤ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/٤٠٥، وأخرجه ابن سعد من خبر أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وذكر نحوه - طبقات ابن سعد ٣/٣٣١ . .

وهكذا كان فهم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للخلافة، فليست الخلافة لطلب زيادة الشرف والجاه، ولا للذكر بين الناس، وإنما هي مجال كبير للعمل، فمن عمل فيها صالحا وعدل نال الأجر على ذلك من الله تعالى، ومن أساء وظلم فإنه يبوء بالإثم ويكون معرضا للعذاب، وكون عمر يستحضر الآية التي استشهد بها دليل على عمق علمه ودقة فهمه .

ومما جاء في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر سعيد بن المسيب أن عمر قال : أيما عامل لي ظَلَم أحدا فبلغتْني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته (١) .

وهكذا يكون فهم المسئولية ، فإن المسئول المباشر ليست مسئوليته مطلقة ، ولاتبرأ ذمة المسئول الأعلى بأحكام المسئول المباشر، بل يكون مشاركا له في الإثم عند المخالفة إذا بلغه ذلك ، كما أن المسئول المباشر مسئول عن المخالفة إذا صدرت من المسئول الأعلى مسئولية مشاركة ، فلايجوز له تنفيذ مايراه باطلا وإن كان قد صدر من مسئول أعلى منه .

ولقد كان اهتمامه بالمسئولية كبيرًا حتى إنه شمل البهائم في الصحراء ، ومما جاء في ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر قطن ابن واهب بن عويمر بن الأجدع قال: إن عمر بن الخطاب كان يسير ببعض طريق مكة ، فسمع صوت راع في جبل فعدل إليه ، فلما دنا منه صاح : ياراعي الغنم، فأجابه الراعي: ياراعيها، فقال عمر: إني

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥ .

قد مـررت بمكان هو أخـصب من مكانك، وإن كل راع مسـؤول عن رعيته، ثم عدَل صدور الرِّكاب [1] .

وهكذا مال بالإبل نحـو ذلك الراعي ليذكـره بمسئوليـته في رعي مواشيه ، وإن حاكما يشعر بمسئوليته عن البهائم التي لاتقع تحت ملك دولته لجدير بأن يكون اهتمامه أكبر بأموال المسلمين العامة، وإن أجدر من ذلك وأولى أن يهـتم بأفراد رعـيته فـيخـتار لهم الطيـب الأفضل ويجنبهم السيء الأرذل .

ومن ذلك ما أخرجه أبو جعفر مـحمد بن جرير الطبري من خبر الحسن بن أبي الحـسن البصري قـال: قال عمـر : إذا كنتُ في منزلة تسعني وتعـجز عن الناس فو اللـه ماتلك لي بمنزلة حتى أكـون أسوة للناس [2] .

فهـذا مثل أعلى في المساواة بين الراعي والرعـية، وتمثيل لخـلافة النبوة، حيث التساوي مع الرعية في نمط العيش، فالولاية في الإسلام لاتعني الترفع بنوع من المعيشة، لأن ذلك يعني وجود الطبقية التي كان عليها ملوك فارس والروم، والتي كان من أهداف الإسلام محاربتها.

ومن ذلك ما أخرجه الطبري أيضـا من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قـال: قال عمر: لئن عـشت إن شاء الله لأسيرن فـي الرعية حـولا ، فـإني أعلم أن للناس حـوائـج تقطع دوني، أمـا عـمَّـالهم فلايرفعونهـا إلي ، وأما هم فلايصلون إلي ، فأسير إلـى الشام فأقيم

(1) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(2) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ .

بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنِعْم الحول هذا (1) .

فهذا مثل مهم في شعور الوالي بمسئوليته عن جميع أفراد رعيته، حيث عزم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في السير في البلاد الإسلامية لسماع شكاوى الناس، مع اجتهاده الدقيق في التحري في اختيار الولاة ومحاسبتهم .

وأخرج أيضا من خبر أسلم العدوي مولى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قال : بعثني عمر بإبل من إبل الصدقة إلى الحِمَى فوضعت جهازي على ناقة منها ، فلما أردت أن أصدرها قال: اعرضها علي ، فعرضتها عليه فرأى متاعي على ناقة منها حسناء، فقال : لا أم لك ! عمدت إلى ناقة تغني أهل بيت من المسلمين! فهلاّ ابن لبون بوالا ، أو ناقة شصوصا ! (2) .

فهذا مثل من اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأموال المسلمين العامة وتقديم مصالحهم على المصالح الخاصة، كما أنه مظهر من مظاهر مراقبة الله تعالى ، حيث لم يجامل الحاضر على حساب مصلحة الغائب .

---

(1) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(2) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٢ ، وابن اللبون ولد الناقة إذا كان في العام الثاني أو دخل في الثالث ، والشصوص الناقة الغليظة اللبن .

وأخرج الطبري أيضا من خبر أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب : إن ها هنا رجلا من أهل الأنبار له بَصَر بالديوان، لو اتخذته كاتبا ! قال عمر : لقد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين (١).

يريد قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨] .

فجواب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يعتبر إدراكا عميقا لمبدأ الولاء والبراء ، حيث لايجوز وضع أمور المسلمين في يد غيرهم لأنهم لايؤتمنون على مصلحة الأمة، وفي هذا اهتمام بدرء المفاسد وإن كانت قد لاتوجد إلا في المستقبل .

وأخرج ابن جرير الطبري أيضا من خبر أبي عمران الجوني قال: كتب عمر إلى أبي موسى(٢): إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم ،فأكرم من قِبَلَك من وجوه الناس،وبِحسْب المسلم الضعيف من العدل أن يُنصَف في الحكم وفي القسم (٣) .

فهذه وصية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بإكرام وجوه المسلمين، فالناس قادة وعامة، وتتفاوت درجات القيادة بتفاوت سمعة القادة، والقادة يتكوَّنون في المجتمع بحسب مايقدمون لمجتمعهم في العلم النافع ومكارم الأخلاق

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٠٢ .

(٢) هو أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس رضي الله عنه .

(٣) تاريخ الطبري ٤/٢٠٣ .

كالكرم والشجاعة والوفاء والإيثار، فهؤلاء وجوه الناس الذين يرفعون حوائج المحتاجين لمن بيدهم الأمر، وإكرام هؤلاء السادة من عوامل نجاح الحكم واستقرار المجتمع ، وهؤلاء الذين تتكون سيادتهم من خلال عملهم الصالح لن يشفعوا لأحد إلا بأمر فيه خير له ولامضرة فيه على غيره، وبهذا يستقيم المجتمع ويتجه نحو الصلاح.

وهناك سادة تتكون سيادتهم من قربهم من الحكام بغض النظر عن تمثيلهم لمكارم الأخلاق ، فهؤلاء غالبا يكون الضابط لشفاعاتهم هو بناء سمعتهم وإشباع غرورهم ، لأن سيادتهم لم تتكون من رصيدهم الأخلاقي الذي تم بناؤه شيئا فشيئا حتى ترسخ في النفوس، وإنما تكون من علاقتهم بالحكام، وهؤلاء تزول سيادتهم بزوال الحكام الذين رفعوهم بما يقدمون لهم من خدمات ، بخلاف وجهاء الناس الذين تكونت سيادتهم بمالَهم من رصيد علمي وأخلاقي فإن سيادتهم راسخة في المجتمع ولاتتغير بتغير الولاة والدول .

ثم يبين عمر رضي الله عنه أن أمور العامة تستقر بأمرين : العدل في الحكم ، والعدل في توزيع المال العام، وذلك لأن النفوس مهما بلغت من التضحية والصبر فإنه يندر وجود من يصبر على الضيم والهضم ويتنازل عن حقه في المال، خصوصا مع الحاجة إليه، فإذا لم يحصل الإنصاف في هذين الأمرين لجأ الناس إلى وجهائهم ليدافعوا عنهم ويستخلصوا لهم حقوقهم، فإذا لم يُسمع من هؤلاء السادة فإن سمعتهم تضعف أو تزول ، وبذلك تنفصم حلقة الاتصال بين الولاة والعامة أو تضعف ، وبالتالي قد تكون المواجهة ، وستكون بغير نظام

ولاضوابط ، مما يسبب حدوث الفوضى والقلاقل في المجتمع، وذلك لغياب وجوه الناس عن الساحة ، وقد يشارك بعضهم في تمثيل هذه المواجهة إذا رأوا ظلما فادحا ، وهضما لحقوق الناس واضحا .

ومن هنا نعرف قيمة هذه الوصية الغالية من أمير المؤمنين عمر الذي حنكته التجارب وصقلته المحن، بعد استهدائه بنور الله تعالى واعتصامه بشريعته .

مثل من عدالة عمر في توزيع العطاء :

أخرج المؤرخ محمد بن سعد من خبر جهم بن أبي جهم قال: قدم خالد بن عُرْفُطة العُذري على عمر فسأله عمّا وراءه فقال: ياأمير المؤمنين تركتُ من ورائي يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم، ما وطئ أحدٌ القادسية إلا عطاؤه ألفان أو خمس عشرة مائة، وما من مولود يولدُ إلا أُلحق على مائة وجريبين كل شهر ذكرًا كان أو أنثى، وما يبلغ لنا ذكرٌ إلا أُلحق على خمسمائة أو ستّمائة ، فإذا خرج هذا لأهل بيت منهم من يأكل الطعام ومنهم من لايأكل الطعام، فما ظنك به؟ فإنه لينفقه فيما ينبغي وفيما لاينبغي ، قال عمر : فالله المستعان إنما هو حقهم أعطوه وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه، فلا تحمدني عليه فإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه ولكنّي قد علمتُ أن فيه فضلا ولاينبغي أن أحبسه عنهم، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العريب ابتاع منه غنمًا فجعلها بسوادهم ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع الرأس فجعله فيها فإني ويحك ياخالد بن عرفطة أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاة لايُعد العطاء في زمانهم مالاً، فإن بقي

أحدٌ منهم أو أحدٌ من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه فيتكئون عليه، فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين وذلك لما طوقني الله من أمرهم، قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم: من مات غاشًا لرعيته لم يرح رائحة الجنة[1].

فهذا مثل من النعمة والرخاء في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد وسع العطاء المسلمين مع كثرتهم حينما تم توزيعه بالعدالة ولم يقتصر على كبراء الناس ووجهائهم.

وفي آخر هذا الخبر توجيه سديد من الفاروق رضي الله عنه نحو الاقتصاد في المعيشة وتوفير جزء من العطاء لشراء مايدخر وينمو حتى ينتفع به الأبناء وأبناؤهم.

سؤاله عن أحوال أمرائه:

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر الأسود بن يزيد قال: كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيرا، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله[2].

فهذا اهتمام من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأحوال الأمراء في عهده، فهو يتحرى ويجتهد في اختيارهم، ولكنه لايكتفي بذلك

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٢٦.

بل يسأل عنهم أفراد رعيتهم الذين يفدون إليه ، ويركز على ضرورة اتصافهم بالتواضع والعدل، ولايتردد في عزلهم إذا أنكر عليهم شيئا من سلوكهم .

اهتمامه بتولية الأكفاء :

مما جاء في ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر الزهري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه (١) .

فالولاية لابد أن يتوفر فيها عاملان : القوة والأمانة كما جاء في قول الله تعالى حكاية عن كلام ابنة شعيب عليه السلام ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ [القصص: ٢٦] والقوة درجات ، وأمير المؤمنين عمر يخبر بأنه يتحرج من تأمير من هو في درجة أقلّ في القوة وهو يجد من هو أقوى منه لأن ذلك نقص في تحقيق المسئولية العليا عن الأمة ، فإن أداء من هو أضعف في القوة أقل من أداء من هو أقوى منه .

بيان شيء من سياسته :

من ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي معشر قال: حدثنا أشياخنا أن عمر قال: إن هذا الأمر لايصلح إلا بالشدة التي لاجبرية فيها وباللين الذي لا وهن فيه (٢) .

وهكذا يضع لنا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قاعدة من قواعد

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

الحكم الناجح ، وهي القوة من غير عنف واللين من غير ضعف، وقد كان يطبق هذه السياسة في عهده، وكانت من أسباب نجاحه في إدارة أكبر دولة في الأرض أكثر من عشر سنوات بدون حدوث فتن ولا اضطرابات .

من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر أبي قبيل قال: كان معاوية يبعث رجلا يقال له أبو الجيش في كل يوم، فيدور على المجالس يسأل : هل وُلد لأحد مولود ؟ أو قدم أحد من الوفود؟ فإذا أُخبر بذلك أُثبت في الديوان ليجري عليه الرزق (١) .

فهذا مثل مماكان يتصف به أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه من التحري الدقيق في القيام بالمسئولية التي وفقه الله إليها، فهو لا ينتظر من أبناء الأمة أن يغدوا إليه أو يراسلوه ليثبت لهم العطاء ، بل كان يكلف من يسأل كل يوم عن المواليد والوفود، ولقد كان ذلك من أسباب سعادة الناس في عهده وتمتعهم بنعمتي الرخاء والأمن .

موقف لأمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك رحمه الله :

من أخبار الانتصار للمظلومين ماذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة أربع ومائة ، قال: وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك ، فألح عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣٤ .

عبد الله النضري نائب الطائف فولاه المدينة،وأن يضرب عبد الرحمن ابن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق ،وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار،فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق واستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل على أخيه فقال: إن لي إليك حاجة ، فقال: كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال : هو والله حاجتي، فقال: والله لاأقبلها ولا أعفو عنه، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف، فسأل الناس بالمدينة .

وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهرا، وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره[1] .

هذا وإن الناظر في هذا الخبر يرى شدة في الحكم على ذلك الأمير، ولكن إذا قورن ذلك بجريمته التي كان يريد ارتكابها فإن تلك العقوبة تبدو مناسبة،لأن مهمة الحاكم هي الحكم بين الناس وإدارة أمورهم والعدل بينهم ،فأما حينما يستغل الحاكم سلطته للاعتداء على حرية أفراد الرعية فإنه جدير بأن يبعد عن الولاية وأن يعاقب على ذلك العدوان،ولعل هذا الموقف الجيد في الشهامة والعدالة من يزيد ابن عبد الملك يخفف من آثامه التي اشتهر بها في اللهو والمظالم .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله :

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢٣٨.

من ذلك ماذكره الإمام الطبري من خبر إسحاق بن موسى بن عيسى : أن المنصور ولَّى رجلا من العرب حضرموت، فكتب إليه والي البريد أنه يُكثر الخروج في طلب الصيد بِبُزَاة [١] وكلاب أعدَّها، فعزله وكتب إليه : ثكلتْك أمك وعدمتْك عشيرتك؟ ماهذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش؟! إنا إنما استكفيناك أمور الناس ولم نستكفك أمور الوحش ، سلِّم ماكنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان، والْحق بأهلك ملوما مدحورا [٢] .

فهذا مثال على اهتمام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بالمسئولية، حيث عرف مايجري من ذلك الوالي على بعد المسافة بينه وبينه، فاتخذ هذا الإجراء الصارم ضده، وهذا يدل على حزم المنصور وجدِّه، وبذلك استطاع أن يسوس دولة تمتد من الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا مع ما اكتنفها من الفتن الداخلية وحداثة عهد هذه الدولة .

من عدالة القاضي أبي يوسف رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم أنه قال: وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لايسألني عن جور ولاميل إلى أحد إلا يوما واحدا، جاءني رجل فذكر أنه له بستانا وأنه في يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي، فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يُحضره

---

(١) هي الطيور التي تستعمل في الصيد .

(٢) تاريخ الطبري ٦٨/٨ .

لأسمع دعـواه، فأحضـره فادعى بالبسـتان ، فـقلت: ماتقول ياأمـير المؤمنين ؟ فقال : هو بستاني ، فقـلت للرجل: قد سمعت مأجاب، فقال الـرجل : يحلف ، فقلت : أتحلف ياأمير المؤمنـين ؟فقال: لا، فقلت : سأعرض عليـك اليمين ثلاثا فإن حلفت وإلا حكمت عليك ياأميـر المؤمنين ، فعرضـتها عليـه ثلاثا فامتـنع ، فحكمت بالبسـتان للمدعي، قال: فكنت في أثناء الخـصومه أود أن ينفصل، ولم يمكني أن أُجلس الرجل مع الخليـفـة، وبعث القاضـي أبو يوسف في تسليم البستان للرجل [1] .

فـهـذا شيء عظيم أن يحكم القـاضي أبو يوسـف تلك السنوات الطويلة وهو يتحرى العدل ويطبقـه ولم يظلم أحدا، وإن كان قد شعر بخطئه في مـقدمات الحكم في هذه القـضية،حيث لم يُجلس الخليـفة وخصمه في مجلس سواء،فإنه قد حكم على الخليفة لصالح خصمه، وكونه أصدر هذا الحكم،وكونه أيضا أظهر ندمه على عدم المساواة بين الخليفة وخصمه دليل على قوة إيمانه وورعه .

فما أعظم هذا الـقاضي وأمثاله من القضـاة الذين يحكمون على أعلى مسئول في العالم !!

من مواقف القاضي حفص بن غياث رحمه الله تعالى :

قال ابن خلكان : قـال حميد بن الربيع : لما جيء بعـبد الله بن إدريس وحفص بن غـياث ووكيع بن الجراح إلى أمـير المؤمنين هارون الرشيـد ليوليهم القـضاء دخلوا عليه، فـأما ابن إدريس فقـال:السلام

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٨٧ .

عليكم وطرح نفسه كأنه مفلوج، فقال هارون: خذوا بيد الشيخ لا فضل في هذا، وأما وكيع فقال: والله ياأمير المؤمنين ما أتصرف بها منذ سنة، ووضع إصبعه على عينه وعنى إصبعه، فأعفاه، وأما حفص بن غياث فقال: لولا غلبة الدين والعيال ماوليت [1].

فهذه مواقف عالية من هؤلاء العلماء حيث تورع عبد الله ابن إدريس ووكيع بن الجراح الرؤاسي من تولي القضاء، والامتناع عن القضاء منهج سار عليه كثير من العلماء، لما قد يتعرض له القاضي من ضغوط من الناس أو من الولاة وغير ذلك من الفتن، مع أن القاضي إذا عدل ولم يرتكب مأثما فإنه يؤدي عملا من أركى الأعمال الصالحة، ولكن أولئك العلماء يأخذون بقاعدة « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ».

أما حفص بن غياث فإنه قد أجاب إلى القضاء، حيث دعته ضرورة المعيشة إلى ذلك، ولم يكن له هدف في الجاه والسمعة ولا في التكثر من الدنيا، ولقد كان مثالا للعدل في القضاء.

ومن أمثلة عدله ماذكره ابن خلكان من خبر غنام بن حفص قال: باع رجل من أهل خراسان جمالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر [2] فمطله ثمنها وحبسه عن سفره، وطال ذلك على الرجل، فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوره فقال له: اذهب إليه فقل له: أعطني ألف درهم وأحيل عليك ببقية المال

---

(١) وفيات الأعيان ٢/١٩٨.

(٢) هي زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد.

وأخرجُ إلى خراسان ، فإذا فعلت هذا فأخبرني حتى أشير عليك، ففعل الرجل وأتى مرزبان فأعطاه ألف درهم فرجع إلى الرجل فأخبره فقال : عد إليه فقل له : إذا ركبت غداً فطريقك على القاضي تحضر، وأُوكلُ رجلاً بالقبض على المال وأخرجُ، فإذا جلس إلى القاضي فادّع عليه بما بقي لك من المال، فإذا أقر حبسه القاضي وأخذت مالك.

فرجع إلى مرزبان فسأله فقال: انتظرني بباب القاضي، فلما ركب من الغد وثب إليه الرجل وقال: إن رأيت أن تترك إليَّ القاضي حتى أُوَكِّل بقبض المال وأخرجُ، فنزل مرزبان إلى حفص المذكور فقال الرجل : أصلح الله القاضي، لي على هذا الرجل تسعة وعشرون ألف درهم ، فقال حفص: ماتقول يامجوسي؟ قال: صدق، أصلح الله القاضي ، فقال القاضي : ماتقول يارجل فقد أقرّ لك، فقال: يعطيني مالي، فأقبل حفص على المجوسي فقال: ماتقول؟ فقال: هذا المال على السيدة، فقال: أنت أحمق تقر ثم تقول على السيدة؟ ماتقول يارجل ؟ قال: أصلح الله القاضي إن أعطاني مالي وإلا حبستَه، قال حفص : ماتقول يامجوسي؟ قال: المال على السيدة، فقال حفص : خذوا بيده إلى الحبس .

فلما حُبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندي: وجِّهْ إلى المرزبان ، وكانت القضاة تحبس الغرماء في مجلس الشرط، فأخرجَه، وبلغ الخبر حفصًا فقال: أحبس أنا ويُخرج السندي؟ لاجلست مجلسي هذا أو يردّ مرزبان إلى الحبس، فجاء السندي إلى أم

جعفر فقال: الله الله فيّ، إنه حفص بن غياث وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لي : بأمر من أخرجته؟ رديه إلى الحبس، وأنا أكلم حفصًا في أمره ، فرجع مرزبان إلى الحبس [1] .

فهذا الخبر فيه موقف قوي للقاضي حفص بن غياث، حيث حكم على وكيل زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد، وحيث غضب حينما أخرج رئيس الشرطة ذلك الرجل الذي حبسه حفص وصمم على ترك القضاء إن لم يرجع ذلك الرجل إلى الحبس .

وهكذا تكون مواقف القضاة الذين يريدون بعملهم وجه الله تعالى ولايعظمون معه مخلوقا يرجونه أو دنيا يعملون لها، فإن من كان كذلك فإن عظمة الله تعالى وخشيته ورجاءه تتضخم في القلب حتى تملأه فلايكون فيه متسع لأي قوة من القوى الدنيوية ، وبذلك يكتسب صاحب هذا القلب جرأة فائقة وقوة خارقة ، ويسخر الله تعالى له قلوب عباده إكراما له ومثوبة على خلوص نيته وحسن عمله.

ومن مواقفه العالية في القضاء أنه كان يعتبر نفسه أجيرا فلايشتغل في الوقت المخصص للقضاء بغيره ، حتى لو كان الذي سيشغله أمير المؤمنين ، وفي ذلك يقول ابن خلكان : وقال الخطيب: كان حفص ابن غياث المذكور جالسا في الشرقية للقضاء [2] فأرسل إليه الخليفة يدعوه فقال لرسوله : حتى أفرغ من الخصوم، إذ كنت أجيرا لهم،

---

(١) وفيات الأعيان ٢/١٩٩ .

(٢) يعني الجهة الشرقية من بغداد وكان قد تولى قضاءها .

(٣) وفيات الأعيان ٢/١٩٨ .

وأصير إلى أمير المؤمنين ، ولم يقم حتى تفرق الخصوم [٣] .

وكان لايعتبر نفسه مستحقا لراتب القضاء إذا لم يحضر حتى لو كان معذورا بالمرض، وفي ذلك يقول غنام بن حفص: مرض أبي خمسة عشر يوما فدفع إلي مائة درهم وقال: امض بها إلى العامل وقل له : هذه رزق خمسة عشر يوما لم أحكم فيها بين المسلمين لاحظ لي فيها [١] .

وهذان مثالان جليلان في الورع والعفة ومحاسبة النفس، وهذا يدل على قوة إيمان القاضي حفص بن غياث وغزارة علمه رحمه الله تعالى.

ولقد ظل حفص بن غياث في القضاء عدة سنوات كان فيها قرير العين لما يتم على يديه كل يوم من إحقاق الحق وإبطال الباطل، يدل على ذلك ماذكره ابن خلكان من خبر ابنه عمرو بن حفص قال: لما حضرت أبي الوفاة أغمي عليه فبكيت عند رأسه ، فأفاق فقال: مايبكيك ؟ قلت: أبكي لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر ، يعني القضاء ، فقال لابنه : يابني ماحللت سراويلي على حرام قط، ولاجلس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم بينهما [٢].

فهو يحمد الله تعالى على نزاهته وعفته وسلامته من الفتن التي يتعرض لها بعض القضاة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

---

(١) وفيات الأعيان ١٩٨/٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١٩٨/٢ .

قال الحافظ ابن كثير : جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها يعلو صوته، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون :اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم حكم لها بحقها و أغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم (١) .

فهذا مثل من عدل الولاة حتى مع الأقارب الأدنين ، وقد تمثل عدل أمير المؤمنين عبد الله المأمون في إجلاس ابنه العباس مع تلك المرأة التي خاصمته ، وتوحيد المجلس بين الخصوم مظهر من مظاهر العدل ، كما ظهر عدله في إتاحة الفرصة لتلك المرأة في إبداء ظلامتها مع ارتفاع صوتها ، ثم في حكمه لها على ابنه ، والعدل من أهم أسباب استقرار الحكم ، لأن الحاكم يكسب بالعدل قلوب الرعية .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله (٢):

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير قال: وقد أورد ابن الجوزي بإسناده أن المعتضد اجتاز في بعض أسفاره بقرية فيها مقثاة ، فوقف صاحبها صائحا مستصرخا بالخليفة، فاستدعى به فسأله عن أمره فقال: إن بعض الجيش أخذوا لي شيئا من القثاء وهم من غلمانك، فقال: أتعرفهم ؟ فقال : نعم ، فعرضهم عليه فعرف منهم ثلاثة، فأمر الخليفة بتقييدهم وحبسهم، فلما كان الصباح نظر الناس ثلاثة

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠ .

(٢) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي .

أنفس مصلوبين على جادة الطريق، فاستعظم الناس ذلك واستنكروه وعابوا ذلك على الخليفة ، وقالوا : قتل ثلاثة بسبب قثاء أخذوه!! فلما كان بعد قليل أمر الخوَّاص - وهو مسامره - أن ينكر عليه ذلك ويتلطف في مخاطبته في ذلك والأمراء حضور، فدخل عليه وقد عزم على ذلك ، ففهم الخليفة مافي نفسه من كلام يريد أن يبديه، فقال له: إني أعرف أن في نفسك كلاما فما هو ؟ فقال: ياأمير المؤمنين وأنا آمن ؟ قال: نعم ، قال له : فإن الناس ينكرون عليك تسرعك في سفك الدماء ، فقال: والله ماسفكت دما حراما منذ وليت الخلافة إلا بحقه ، فقال له : فعلام قتلت أحمد بن الطيب وقد كان خادمك ولم يظهر له خيانة ؟ فقال : ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبينه ، فلما دعاني إلى ذلك قلت له : ياهذا أنا ابن عم صاحب الشريعة ، وأنا منتصب في منصبه فأكفر حتى أكون في غير قبيلته !! فقتلته على الكفر والزندقة .

فقال له : فما بال الثلاثة الذين قتلتهم على القثاء ؟ فقال : والله ماكان هؤلاء الذين أخذوا القثاء ، وإنما كانوا لصوصًا قد قتلوا وأخذوا المال فوجب قتلهم ، فبعثت فجئت بهم من السجن فقتلتهم وأريت الناس أنهم الذين أخذوا القثاء ، وأردت بذلك أن أرهب الجيش لئلا يفسدوا في الأرض ويتعدوا على الناس ويكفُّوا عن الأذى .

ثم أمر بإخراج أولئك الذين أخذوا القثاء فأطلقهم بعدما استتابهم وخلع عليهم وردهم إلى أرزاقهم [١].

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٢ - ٩٣ .

أوهم أنه قتل أصحاب تلك الجريمة الخفيفة ليرتدع جميع الجنود بينما قدَّم للقتل ثلاثة قد وجب عليهم حد القتل شرعا، وهذه سياسة حكيمة في ردع أصحاب الجرائم، وذلك يدل على رغبة المعتضد في أن يسود الأمن في المجتمع مع حرصه على عدم ارتكاب الظلم، وإذا كان الوالي حريصا على سيادة الأمن والقضاء على الجرائم فإنه يُسدَّد للمنهج الأفضل في ذلك .

وفي هذا الخبر دلالة على تغلغل الملحدين في الدولة الإسلامية حيث وصل ذلك الملحد إلى مرتبة عالية عند الخليفة المعتضد، ثم تجرأ على دعوته إلى الإلحاد، ولو نجح في ذلك لأحدث فتنة كبرى في العالم الإسلامي ، وكون ذلك الملحد وصل إلى تلك المنزلة دليل على نقص الوعي الديني عند أهل العلم، إذ كان يجب عليهم أن يعرفوا الملحدين وأن يتابعوهم وأن يحذِّروا الولاة منهم حتى لايصلوا إلى مناصب قيادية فيفسدوا في الأرض .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: وروَى ابن الجوزي عن بعض خدم المعتضد قال: كان المعتضد يوما نائما وقت القائلة ، ونحن حول سريره ، فاستيقظ مذعوراً ثم صرخ بنا فجئنا إليه، فقال: ويْحكم اذهبوا إلى دجلة فأول سفينة تجدونها فارغة منحدرة فأْتُوني بملاحها واحتفظوا بالسفينة ، فذهبنا سراعا فوجدنا ملاحا في سَمْيرية [1] فارغة منحدرا، فأتينا به الخليفة، فلما رأى

---

(١) هي السفينة الصغيرة .

الملاح الخليفة كاد أن يتلف، فصاح به الخليفة صيحة عظيمة، فكادت روح الملاح تخرج ، فقال له الخليفة : ويحك اصدقني عن قصتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك .

قال: فتلعثم ثم قال : نعم ياأمير المؤمنين كنت اليوم سحَرًا في مَشْرَعتي الفلانية فنزلَت امرأة لم أر مثلها وعليها ثياب فاخرة وحليّ كثير وجوهر ، فطمعت فيها، واحتلت عليها فشددت فاها وغرَّقتها وأخذْت جميع ماكان عليها من الحلي والقماش، وخشيت أن أرجع به إلى منزلي فيشتهر خبرها، فأردت الذهاب به إلى واسط، فلَقيني هؤلاء الخدم فأخذوني .

فقال : وأين حليُّها ؟ فقال: في صدر السفينة تحت البواري[1]، فأمر الخليفة عند ذلك بإحضار الحلي فجيء به فإذا حلي كثير يساوي أموالا كثيرة .

فأمر الخليفة بتغريق الملاح في المكان الذي غرَّق فيه المرأة، وأمر أن ينادَى على أهل المرأة ليحضروا حتى يتسلموا مال المرأة ، فنادى بذلك ثلاثة أيام في أسواق بغداد وأزقتها، فحضروا بعد ثلاثة أيام، فدفع إليهم ما كان من الحلي وغيره مما كان للمرأة ، ولم يذهب منه شيء.

فقال له خدمه : ياأمير المؤمنين من أين علمت هذا؟ قال: رأيت في نومي تلك الساعة شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: ياأحمد ياأحمد ، خذ أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه، وقرِّرْه

---

(١) هي الحصر من القصب .

عن خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلَبها، فأقم عليه الحد، وكان ماشاهدتم [1] .

وهكذا نبَّه الله تعالى الخليفة المعتضد بذلك الشيخ الجليل الذي رآه في المنام ، وذلك من فضل الله جل وعلا عليه حتى لايقع تحت إمارته ظلم من غير أن يعلم ، إذ أن جرأة ذلك الملاح على قتل تلك المرأة وسلبها من مظاهر نقص الأمن وضعف الحراسة ، فأنقذ الله تعالى المعتضد من مسئولية ضياع تلك المرأة بتلك الرؤيا الصالحة، لأنه كان حريصا على العدل وإنقاذ المظلومين، فنبهه الله لتلك المظلمة من باب الجزاء بالحسنى على العمل الصالح .

وهذا مما يدخل في قول رسول الله ﷺ « تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » [2] إذ أن قيام ذلك الحاكم بالعدل فيما يعلم من الأمور كان سببا في توفيقه إلى علم مالم يعلم من ذلك ليبرئ ساحته من وجود الظلم تحت مسئوليته .

ومن أخباره في الشهامة والعدل ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر القاضي أبي الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطَلَني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه، ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يُفِد ذلك شيئا، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئا ، ومازاده ذلك إلا منعًا وجحودًا، فأيست

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٤ .

(٢) مسند أحمد ١/ ٣٠٧ .

من المال الذي عليه ودخلني همٌّ من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي ، إذ قال لي رجل : ألا تأتي فلانا الخياط- إمام مسجد هناك - فقلت وماعسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم. وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه ؟ فقال لي : هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه ، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا . قال فقصدته غير محتفل في أمره ، فذكرت له حاجتي ومالي ومالقيت من هذا الظالم ، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملا من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر ، غير أنه قال له : ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذَّنت. فتغير لون الأمير ودفع إليَّ حقي .

قال التاجر : فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع (١) ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل مني شيئًا ، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لايحصى. فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن ، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها الثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله ، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها : يامسلمين أنا امرأة ذات زوج ، وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منزله ، وقد حلف زوجي بالطلاق أن لاأبيت في

---

(١) انطاع : انصاع واستمع .

غير منزله ،ومتى بت ها هنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار لاتدحضه الأيام ولاتغسله المدامع .

قال الخياط : فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس في يده فشج رأسي ، وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله قهراً ، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء ثم قلت للجماعة : إن هذا قد فعل ماقد علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلّص المرأة منه ، فقام الناس معي فهجمنا عليه داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس،وقصدني هو من بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدماني،وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة.

قال : فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء ، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم ، وتحيَّرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتى لايقع على زوجها الطلاق ، فأُلهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها ، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح ، فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا ، إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون : أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا ، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا : انزل، فنزلت فقالوا:

أجب أميـر المؤمنين ، فأخذوني وذهبـوا بي لاأملك من نفسي شيـئا، حتى أدخلوني عليه، فلمـا رأيته جالسًا في مقام الخـلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعا شديدًا ، فقال: ادْنُ ، فدنوت فقال لي: ليسكنْ رَوعك وليـهـدأ قلبك . ومـا زال يلاطفـني حـتى اطمـأننت وذهب خـوفي، فقـال: أنت الذي أذنت هذه السـاعة ؟ قـلت: نعم ياأميـر المؤمنين . فقال : ماحـملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكـثـر مما مضى منه؟ فـتـغرّ بـذلك الصائم والمسـافـر والمصلي وغيرهم. فقلت : يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمن . فذكرت له القصة .

قال: فغضب غـضبًا شديدًا وأمر بإحضـار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأُحضـرا سريعا فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جـهته ثقات ومـعهن ثقة من جـهته أيضا ، وأمـره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحـسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة. ثم أقبل على ذلك الشـاب الأمير فـقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال ؟ وكم عندك من الجـوار والزوجات ؟ فذكـر له شيـئًا كـثيـرًا . فقـال له : ويحك أما كـفاك مـا أنعم الله به عليك حـتى انتهكت حرمة الله وتعديت حـدوده وتجرأت على السلطان، وماكفاك ذلك أيضا حـتى عمـدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهـاك عن المنكر فضـربته وأهنته وأدمـيته ؟ فلم يكن له جـواب . فأمر به فـجعل في رجله قيـدًا وفي عنقه غل ثم أمر به فـأدخل في جوالق [١] ثم أمر به

(١) الجوالق كيس كبير من الصوف .

فضـرب بالدبابيس ضربًـا شديدًا حتى خـفت ، ثم أمر به فـألقي في دجلة فكان ذلك أخـر العهـد به . ثم أمـر بَدْرًا صاحب الشـرطة أن يحتـاط على ما في داره من الحواصل والأموال التي كـان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الـرجل الصالح الخيـاط : كلما رأيت منكرًا صغـيرًا كان أو كبـيرًا ولو على هذا - وأشار إلى صـاحب الشرطة - فأعلمني . فإن اتفق اجتـماعك بي وإلا فعلى مابيني وبينك الأذان ، فأذِّنْ في أي وقت كان ولو في مثل وقتك هذا .

قال : فلهذا لا آمر أحدًا من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من المعـتضد . وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن (١) .

في هذا الخبر موقفان عاليان :

أولهما : موقف ذلك الخيـاط الصالح الذي أبى عليه إيمانه القوي وشهـامتـه العاليـة أن يترك أخـته في الإسـلام فريسـة لذلك الوحش الغادر، فأنكر عليه اعتداءه عليها وتلقى منه الإهانة والضرب بالحديد، ولما لم يسـتطع ردع ذلك الظالم بمفرده اسـتعـان عليه بمن ناصـره من جماعة المسجد ، فلما لم يستطع لامتناع ذلك الظالم بغلمانه لم ييأس من إنقاذ تلك الفتاة المظلومة ولم تهدأ نفسه ولم يغمض له جفن حتى ابتكر تلك الحيلة الناجحة ، فـأذن في جوف الليل ليوهم ذلك الظالم بأن الفجر قد طلع .

وهكذا يصل المتقون السابقون بالخيرات إلى تعريض أنفسهم للأذى

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٥ - ٩٧ .

والهلاك في سبيل إنقاذ إخوانهم المسلمين من الظلم والعار .

إنهم ينظرون إلى كل أخت مسلمة على أنها بمنزلة أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ، فيحبُّون لإخوانهم وأخواتهم مايحبون لأنفسهم، ويكرهون لهم مايكرهون لها .

والموقف الثاني : موقف ذلك الحاكم العادل الحازم أمير المؤمنين المعتضد بالله ، الذي تنبَّه لذلك الأذان الذي انطلق في جوف الليل، مما يدل على يقظته واهتمامه بأمور رعيته ، ثم اهتمامه بالقضاء على ذلك المنكر بصرامة وشدة ، ليكون في ذلك ردع للظالمين المتجبرين .

من مواقف القاضي يوسف بن يعقوب رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في ترجمة القاضي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد قال: ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد ، وكان عفيفا شديد الحرمة نَزِها، جاءه يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه، فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة، فزبره القاضي وقال: ائتوني بدلاّل النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة ، وجاء حاجب القاضي فأخذ بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه فقال له: مالك ؟ فأخبره بالخبر وما أراد القاضي من بيعه ، فقال: والله لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع، فإنه عمود السلطان وقوام الأديان [1] .

---

(١) البداية والنهاية ١١/١١٩ .

فهذا مثل من عدل القضاة فـي الإسلام وعدم محاباتهم أصحاب الجاه والمنزلة ، ولقد كان هذا القاضي العادل يوسف بن يعقوب شديداً على ذلك الخادم الذي أراد أن يهين الدين بعـدم استسلامـه للقاضي، وترفعه عـن مساواة خصمـه ، ولقد أثر فيه هذا الموقف الـقوي حتى أبكاه أمام الخليـفة ، ولكنه كان أمـام خليفة تقي عادل، حـيث وبخه على مـاكان منه من التـرفع والإدلال بصلتـه به ، وهذا موقف يذكـر لأمير المؤمنين المعتـضد مع مواقفه السابقة فـي العدل وتعظيم حرمات الدين .

موقف للأمير أبي النجم بدر بن حسنويه الكردي رحمه الله :

قال عنه الحـافظ ابن كثير : كـان من خيار الملوك بناحـية الدينور وهمدان، وله سياسـة وصدقة كثيرة ، كنّاه القـادر بأبي النجم، ولقبه ناصر الدولة ، وعقد له لواء وأنفذه إليه ، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والـطيبة ، بحـيث إذا أعيى جـمل أحد من المسـافرين أو دابته عن حـمله يتركهـا بما عليها في البـرية فيرد عليـه ولو بعد حين لاينقص منه شيء ، ولما عـاثت امراؤه في الأرض فـساداً عـمل لهم ضيـافة حسنة ، فقـدمها إليـهم ولم يأتهم بخبز ، فـجلسوا ينتظرون الخبز، فلما استبطـؤوه سألوا عنه فقال لهم : إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمـون الزراع ، فمن أين تؤتـون بخبـز؟ ثم قال لهم : لا أسـمع بأحد أفسد في أرض بعد اليوم إلا أرقت دمه .

واجتاز مـرة في بعض أسفاره برجل قد حـمل حزمة حطب وهو يبكي فقـال له : مالك تبكي؟ فقـال: إني كان معي رغيـفان أريد أن

أتقوتهما فـأخذهما مني بعض الجند ، فقال: أتعـرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه ، قال: هذا هو ، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة ، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه ، حتى تأدب به الجيش كلهم [1] .

فهذا مـثل جليل في العدل ، ولمسة حانيـة وعطف رحيم من هذا الأمير لذلك العامل البسيط .

إن منظر المظلومين الضـعفاء وهم يـبكون يثير شـهامـة الكرماء، ويبعث أصـحاب النفـوس السوية على الرحـمة بهم والعطف عـليهم وبذل الجهد في إنصافهم .

ومن هذا المنطلق كـان هذا الموقف الكريم من هـذا الأميـر الذي سلك سلوكا عـاليا أنصف به المظلوم وردع به الظـالم ، وبهذا الحكم العادل تستقيم أمور الأمة ويصلح المجتمع .

موقف للسلطان عبد العزيز الحفصي رحمه الله تعالى :

قال عنه الإمام شمس الدين السخاوي رحمه الله تعالى: عبدالعزيز ابن أحمد بن محمد أبو فارس الهنتاتي الحفصي ملك المغرب وصاحب تونس . قال شيـخنا في « انبائه» : قرأت بخط صاحـبنا أبي عبد الله محـمد بن عبد الحق التـونسيّ فيما كـتب من سيرته أنه بلغـه أنّه كان لاينام من الليل إلا قليلا بل حزر بقـدر أربع ساعات لاتزيد قط وربما نقصت ، وأنه ليس له شغل سوى النـظر في مصالح ملكه، وأنه كان

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ .

يؤذن بنفسه ويؤم بالناس في الجماعة ويكثر من الذكر ويقرب أهل الخير، وأنه أبطل كثيراً من التركات والمفاسد بتونس كالعيالة وهو مكان يباع فيه الخمر للفِرَنج يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه، وكذا المُكوس [1] بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها .

شُكِيَ إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليهم قمحًا من عنده وقال أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لايُشترى من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ماعندهم كذلك فترك هو حينئذ البيع فبلغه أنهم زادوا قليلا فأمر ببيع ماعنده بدينار فقط وتقدم إلى خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لايبيع شيئًا وإلا باع بدينار فاضطربوا إلى أن مشى الحال فكانت من أحسن الحِيَل في تمشية حال الناس .

إلى أن قال: حضر محاكمة مع منازع له في بستان إلى القاضي فحكم عليه فقبل الحكم وأنصف الغريم [2] .

فهذا موقف جيد من السلطان عبد العزيز الحفصي ، وذلك في الشعور بمسئوليته عن الأمة التي تولى أمرها، فبعض التجار لايهمهم إلا مصالحهم الخاصة ولايبالون باحتكار الأطعمة الضرورية والزيادة في أثمانها ، ولايشعرون بمشاعر الفقراء الذين لايستطيعون دفع الأثمان

---

(١) أي : الضرائب .

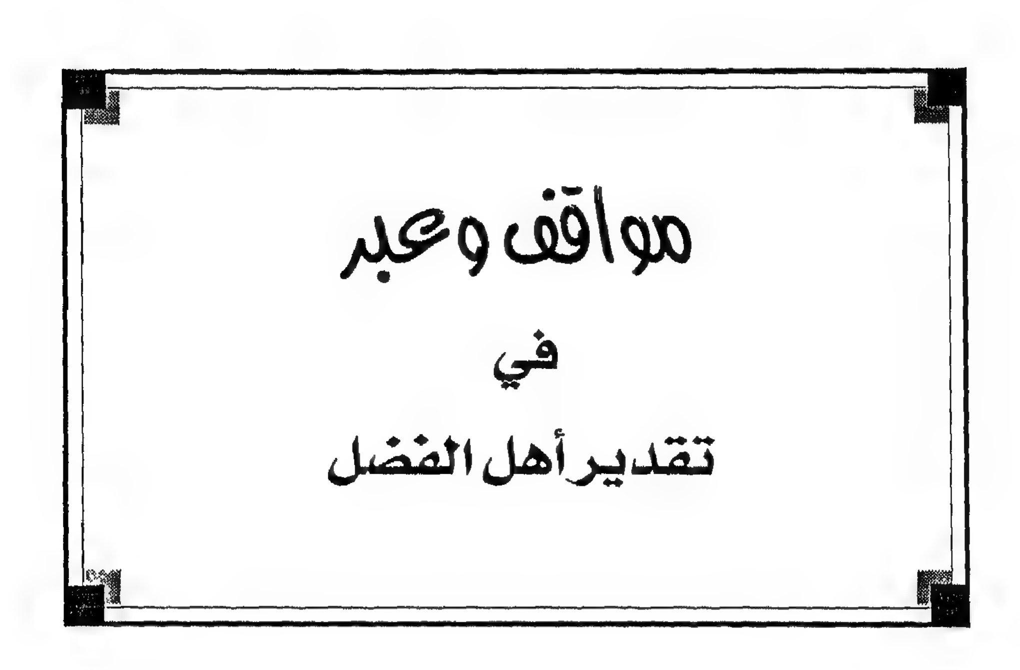
(٢) الدر المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ٤٢٨ عن « الضوء اللامع» للسخاوي.

الغالية ، فيكون ذلك سببا في حرمانهم من العيش الضروري أو تحملهم الديون بسبب ذلك .

فلما قام بعض التجار باحتجار ماعندهم من القمح ليكون ذلك سببا في غلاء الأسعار قام ذلك السلطان بتصرف مضاد لهم ، حيث أمر عملاءه من التجار بالبيع بثمن منخفض ، فاضطروا إلى البيع بالثمن المعتاد ، فقضى بذلك على تلك الأزمة التي سيتضرر منها جميع الفقراء .

وأخيرًا موقف في التواضع والعدل من السلطان الحفصي، حيث حضر إلى القاضي وجلس مع خصمه ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورجاحة عقله .

* * *


مواقف وعبر
في
تقدير أهل الفضل

سبقت أمثلة لهذا الموضوع أثناء عرض مواقف النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم .

وسأذكر في هذا الفصل بعض الأخبار في ذلك مما لم يسبق عرضه في أحداث السيرة والتاريخ .

تقدير النبي ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

لقد كان رسول الله ﷺ قدوة هذه الأمة في مكارم الأخلاق، ومما رُوي عنه في تقدير أهل الفضل قوله في أبي بكر الصديق رضي الله عنه « إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم (١) .

وقوله في عمر بن الخطاب رضي الله عنه « قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحَدَّثون (٢) فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » أخرجه الإمامان البخاري ومسلم واللفظ لمسلم (٣) .

ولقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك أخبار كثيرة .

---

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٥٤ (٧/ ١٢) ، صحيح مسلم، فضائل الصحابة ، رقم ٢٣٨٣ (ص ١٨٥٥) .

(٢) أي ملهمون يجري الصواب على ألسنتهم .

(٣) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٨٩ (٧/ ٤٢) ، صحيح مسلم، فضائل الصحابة ، رقم ٢٣٩٨(ص١٨٦٤) .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته،فقال النبي ﷺ أما صاحبكم فقد غامر[1]، فسلَّم وقال: يارسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك، قال: يغفر الله لك ياأبا بكر (ثلاثا)، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر [2]، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يارسول الله والله أنا كنت أظلم (مرتين)، فقال النبي ﷺ: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ وقال أبو بكر: صدقتَ، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ (مرتين)، فما أُوذي بعدها [3].

وهذا الإعلان من النبي ﷺ لفضل أبي بكر رضي الله عنه مع اعترافه بالخطأ دليل على اهتمام النبي ﷺ بتمييز أهل الفضل والإشادة بهم ليكونوا أعلام هداية في القدوة الحسنة، فإن الأمة تقاد برجالها الذين يحملون مبادئها، وليست تقاد بمجرد المبادئ، ولهذا وغيره من المقاصد العالية ركز النبي ﷺ في الثناء على أناس معدودين من الصحابة على رأسهم أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما.

وثمت أمر آخر في غاية الأهمية نلاحظه في هذا الخبر ولابد من

---

(١) أي دخل في غمرة الخصومة.

(٢) أي يتغير ويتلون من الغضب.

(٣) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، رقم ٣٦٦١ (١٨/٧).

الإشارة إليه إنصافا لذلك الجيل الراشد واعترافًا بمدى السمو الأخلاقي الذي بلغوه ، وذلك في الوضوح والصراحة، ثم العفو والتسامح .

إن الأخوة الـتي بين أبي بكر وعمـر رضي الله عنهمـا لم تنقص بهذا الخـلاف والمغاضبـة، بل زادت قوة ومتـانة بما يتبـعها من العـفو والتسامح، بينمـا نجد أبناء الدنيا على غيـر هذه الشاكلة. . تحامل في القلوب ، وأحقاد وضغائن في الخفاء ، ومداراة وبشاشة في العلانية، وظهور بوجه أمام بعض الناس وبوجه آخر أمام الآخرين ممن يخالفون الصنف الأول في المعتقـد والرأي، يحاولون بذلك كسب رِضَى الناس جميعا عنهم ، ولو كانوا متبـاينين في العقيدة التي يترتب عليها الحب والبغض أو يحاولون الكسب الدنيوي من وراء أعمالهم هذه، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقـوله « تجد من شر الناس يوم القيـامة ذا الوجـهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجـه » أخرجـه الإمامـان البخاري ومسلم (١) .

من مواقف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما :

من ذلك ماأخـرجه الحافظ ابن مـردويه من حديث عـبد الله بن عبـاس رضي الله عنهمـا قال: قام رجل إلى أبي بكـر الصديق رضي الله عنه بعـد رسول الـله ﷺ فقـال: ياخليفـة رسـول الله مَنْ خيـر الناس؟ قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: ولأي شيء قدمته على نفسك؟ قال: بخصـال، لأن الله تعالى باهى به الملائكة ولم يباه

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٠٥٨ ، الأدب (١٠/ ٤٧٤) ، صحيح مسلم ، كتاب البر، رقم ٩٨ .

بي، ولأن جبريل أقرأه السلام ولم يقرئني، ولأن جبريل قال: يارسول الله اشدد الإسلام بقول عمر، القول ماقال عمر، ولأن الله صدقه في آيتين من كتابه ولم يصدقني، قال: عاتب النبي ﷺ بعض نسائه فأتاهم عمر فقال: لتنتهن عن رسول الله ﷺ أو لَيُنزلنَّ الله فيكن كتابا فأنزل الله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية [سورة التحريم: ٥] ، ولأن عمر قال: يارسول الله إنه يدخل عليهن البر والفاجر فلو ضربت عليهن الحجاب، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣] ، ولأن عمر قال: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة : ١٢٥] .

قال: فلما قبض أبو بكر قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ياأمير المؤمنين من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ قال: أبو بكر الصديق ، فمن قال غيره فعليه ماعلى المفتري (١).

ففي هذا الخبر بيان اتصاف أبي بكر الصديق بصفتي التواضع والإيثار ، فبالرغم مما استقر في أذهان الصحابة رضي الله عنهم من أن أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ فإن أبا بكر يفضل عمر عليه رضي الله عنهما، ويذكر شيئا من فضائله التي تميز بها .

ونجد عمر من شدة حماسه لتفضيل أبي بكر على جميع أفراد الأمة بعد رسول الله ﷺ يهدد من فضله عليه بالجلد ثمانين جلدة وهو حد المفتري .

---

(١) كنز العمال ١٥/٢-٣ .

إن هذا الخبر وأمثاله يبين لنا شيئا من الصفات التي تفوق بها الصحابة رضي الله عنهم، من الإيثار، والتواضع وتقدير أهل الفضل.

ومن ذلك ماأخرجه المؤرخ ابن الأثير من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: وفد ناس من أهل الكوفة وناس من أهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر، وفضل بعض القوم عمر على أبي بكر، وكان الجارود بن المُعَلَّى ممن فضل أبا بكر على عمر، فجاء عمر ومعه دِرَّةٌ [أي عصا] فأقبل على الذين فضلوه على أبي بكر فجعل يضربهم بالدرة، حتى مايتقى أحدهم إلا برجله، فقال له الجارود: أَفِقْ أفقْ ياأمير المؤمنين فإن الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على أبي بكر، أبو بكر أفضل منك في كذا وأفضل منك في كذا، فَسُرِّيَ عن عمر، ثم انصرف فلما كان من العشي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفتر عليه ماعلى المفتري (١).

وهكذا رأينا موقفا جليلا من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث غضب غضبا شديدًا على من فضلوه على أبي بكر رضي الله عنه، وقد حمله ذلك على القيام بتأديبهم وهو في حال من التأثر الشديد من مقالتهم، وإنه حينما يقوم بذلك العمل لايقوم به تمثيلا ولاتظاهرا بالتواضع..

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢١٥ - ٢١٦ .

إنه عاصف يعصر قلبه أن سمع من يفضله على أبي بكر ، فظهرت آثار هذا العاصف المشاهَدةُ للناس بصورة التأديب التي قام بها .

ولئن شاهد الناس منه شيئا من مظاهر إجلاله لأبي بكر فإن مايُكِنُّ قلبه أبلغ من ذلك بكثير ، ولاأدل على ذلك من ظهور السرور على وجهه حينما بين له المعلَّى فضل أبي بكر عليه .

« أفق أفق ياأمير المؤمنين » كلمات شديدة قالها المعلَّى لعمر، فهل كان عمر في غيبوبة !! الحقيقة أنه كان في حال من الغضب الشديد الذي هيمن على مشاعره فعبر عنه بذلك التأديب الذي قام به، ولقد كان المعلَّى بحاجة إلى هذا التعبير لأنه هو السلوك المناسب لرفع حالة الغضب الشديد الذي هيَّج أمير المؤمنين عمر، فهي كلمات تنبيه قوية ليصغي عمر لما سيقوله له من بيان فضل أبي بكر عليه، فلما سمع عمر ذلك البيان زال غضبه واطمأنت نفسه، فأين طلاب الدنيا الذين يتسابقون على بناء أمجادهم الشخصية ليسمعوا هذه الروائع العظيمة من حياة الصحابة رضي الله عنهم !!

ومن ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر أبي هريرة رضي الله عنه قال قال عمر بن الخطاب : عليٌّ أقضانا .

وأخرج من خبر سعيد بن المسيب قال: كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن (١).

وهكذا يقدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٣٩ .

الفضل، ويظهر كفاءة الأكفاء فيما تميزوا به، فلما كان أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه متفوقا في العلم بالأمور الدقيقة، وحل المشكلات العويصة أشاد به عمر، وكان يبحث عنه إذا نزل به شيء من ذلك، ويشفق من فقده لعدم وجود من يسد مسده في ذلك.

ومن ذلك ماأخرجه الإمام البخاري من حديث ثعلبة بن أبي مالك: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مروطا بين نساء أهل المدينة، فبقى مرط جيد، فقال بعض من عنده: ياأمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك- يريدون أم كلثوم بنت علي- فقال عمر: أم سليط أحق - وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ -قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القِرب يوم أحد [1].

ففي هذا الخبر حفظ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حق أم سليط بنت عبيد بن زياد المازنية الأنصارية رضي الله عنها، وقدَّر لها موقفها مع المؤمنين المجاهدين يوم أحد، ففضَّلها بذلك الثوب المتميز، وكونُ عمر يذكر هذا الموقف بعد سنوات من زمانه دليل على اهتمامه بما يقدمه المسلمون من أعمال البر والإحسان، وخاصة فيما يتعلق بالجهاد، وهذا أسلوب تربوي بناء، فإن صاحب المعروف إذا قَدَّر له المسلمون أعماله يزداد حماسا وإقداما على المزيد من البذل والإحسان، ويسارع الآخرون في التنافس على أعمال الخير، وإن كان الهدف الأساسي هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة، ولكن ثناء المؤمنين من عاجل بشرى المؤمن في هذه الحياة الدنيا.

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٢٨٨١، الجهاد (٦/ ٧٩) وقوله «تزفر» يعني تحمل.

ومن ذلك ماأخرجه أيضا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر أفلحَ مولى أبي أيوب قال: كان عمر رضي الله عنه يأمر بحُلَل تُنسج لأهل بدر يُتَنَوَّق[1] فيها، فبعث إلى معاذ ابن عفراء رضي الله عنه الحلة فقال لي معاذ : ياأفلح بع لي هذه الحلة، فبعتها له بألف وخمسمائة، ثم قال: اذهب فابتع لي رقابا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءًا اختار قشرتين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لَغَبِيْن الرأي [2] اذهبوا فأنتم أحرار .

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه أنه لايلبس مايبعث به إليه، فاتخذ له حلة غليظة أنفق عليها مائة درهم، فلما أتاه بها الرسول قال: ماأراه بعثك إليّ ! قال: بل والله إليك بعثني، فأخذ الحلة فأتى بها عمر رضي الله عنه فقال: ياأمير المؤمنين بعثتَ إلي بهذه الحلة؟ قال: نعم، إنا كنا نبعث إليك حلة مما يتخذ لك ولإخوانك فبلغني أنك لاتلبسها، فقال : ياأمير المؤمنين إني وإن كنت لا ألبسها فإني أحب أن تأتيني من صالح ماعندك، فأعاد له حلَّته [3].

فهذا الخبر فيه موقفان :

الأول : تقدير أهل الفضل ، حيث اختص أمير المؤمنين أهل بدر بمزيد من التقدير والعناية ، وتقدير أهل الفضل يعتبر نوعا من الشكر على الجميل والإحسان، يناله صاحب الفضل في الدنيا، إلى جانب

---

(١) أي يتأنق بها ويتجمل .

(٢) أي ضعيف الرأي .

(٣) تاريخ المدينة المنورة / ٧٨١ - ٧٨٢ .

مايدخره الله تعالى له في الآخرة، وهو الأمر الأهم، كما أنه يعتبر تشجيعًا للمسلمين على المزيد من تقديم الأعمال الصالحة التي ينتفع بها المسلمون ويترتب عليها عز الإسلام ودولته .

الثاني : موقف جليل من معاذ ابن عفراء رضي الله عنه في الزهد في الدنيا، وإيثار العمل الصالح الذي يرجو ثوابه في الآخرة، ولقد قارن بين ثوبين يلبسهما وعملٍ صالح يتمثَّل في عتق خمسة مماليك، فحكم على من يقدم الثوبين بأنه ضعيف الرأي، وهذا يدل على ضآلة الدنيا وضخامة الآخرة في عينه، فلهذا أقدم على ذلك العمل الصالح .

ومن ذلك ماأخرجه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقتْ عمرَ امرأةٌ شابة فقالت: ياأمير المؤمنين ، هلك زوجي وترك صبية صغارًا والله مايُنضجون كراعًا ولا لهم زرع ولاضرع[1] وخشيت أن تأكلهم الضبع[2] ، وأنا بنت خفاف ابن إيماء الغفاري وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ . فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال مرحبًا بنسب قريب. ثم انصرف إلى بعير ظهير[3] كان مربوطًا في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا وحمل بينهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها خطامه ثم قال: اقتاديه ، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير. فقال

---

(١) أي ليس عندهم مايكفي لحاجتهم، وليس لهم مورد من زراعة ولاماشية .

(٢) أي السنة المجدبة .

(٣) أي قوي الظهر معد للحاجة .

الرجل: ياأمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهماننا فيه »[1].

فهذا موقف لأمير المؤمنين عمر في تقدير أهل السابقة والفضل، فقد اهتم بتلك المرأة تقديراً لأبيها خفاف بن إيماء الغفاري رضي الله عنه، وفي ذكر كونه من أهل الحديبية بيان لما استقر في الأذهان من تقدير الذين حضروا بيعة الرضوان يوم الحديبية لأن الله تعالى قد رضي عنهم كما جاء في قوله سبحانه ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ..** ﴾**الآية** [الفتح : ١٨] .

وفي قوله عمر « والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنا زمانا فافتتحاه» إشادة بالمجاهدين في سبيل الله تعالى ومالهم من فضل في حماية الأمة وتوسيع مصادر تمويلها .

وفي هذا الخبر تتكشف لنا بعض نواحي عظمة عمر رضي الله عنه، ومنها رحمته بالضعفاء ولينه لهم في حدود الحق، والعظماء هم الذين يتحسسون آلام الضعفاء فيقفون لمواساتهم .

ونجد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ينكر بشدة على رجل رد على ابن مسعود لما أمره بالالتزام بحكم شرعي وذلك فيما ذكر الإمام الذهبي من حديث أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلا قد أسبل، فقال: ارفع إزارك ، فقال: وأنت ياابن مسعود فارفع إزارك ، قال:

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٤١٦٠ ، المغازي (٧/ ٤٤٥) .

إنَّ بِسَاَقِيَّ حموشة [1] وأنا أؤم الناس فبلغ ذلك عمر، فجعل يضرب الرجل ويقول : أتردُّ على ابن مسعود ؟ [2] .

وفي هذا اهتمام كبير من عمر رضي الله عنه في حفظ مكانة علماء الأمة ، ولايمكن أن تستقيم أحوال المجتمع إلا بحفظ كرامة العلماء الربانيين لأنهم قادة الأمة وموجهوها ، فإذا تجرأ عامة الأمة عليهم انقطع خيط المهابة الذي يفرض وجود علاقة قوية بين العلماء وسائر أفراد الأمة .

ونجد عمر بن الخطاب يقدر فضل ابن مسعود رضي الله عنهما في حفظ القرآن، ومما يبين ذلك ماأخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث قيس بن مروان رحمه الله تعالى : أنه أتى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال : جئتُ ياأمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها رجلا يُمْلِي المصاحف عن ظهر قلبه، فغضب وانتفخ حتى كاد يملأ مابين شعبتي الرَّحْل ، فقال: ومن هو ويحك؟ قال: عبد الله بن مسعود ، فما زال يطفأ ويُسَرَّى عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها ، ثم قال : ويحك والله ماأعلمه بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك ، كان رسول الله ﷺ لايزال يسمر عند أبي بكر رضي الله عنه الليلة كذلك في الأمر من أمر المسلمين،وإنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه،فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فإذا رجل قائم يصلي في المسجد،فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته،فلما كدنا أن نعرفه قال رسول الله ﷺ :من سره أن

(١) يعني أنه كان دقيق الساقين .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، قال: ثم جلس الرجل يدعو فجعل رسول الله ﷺ يقول له: سَلْ تُعْطَهْ، سل تعطه ، قال عمر رضي الله عنه : قلت : والله لأغدونَّ إليه فلأبشرنَّه ، قال : فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر رضي الله عنه قد سبقني إليه فبشره ، ولا والله ماسبقته إلى خير قط إلا وسبقني إليه (١) .

هذا وإذا قارنا بين فزع عمر حينما طرق مسامعه خبر من يملي المصاحف من قلبه، وبين سكينته ورضاه حين علم أن المعنيَّ بذلك هو عبد الله بن مسعود ، يتبين لنا سمو منزلة ابن مسعود العلمية بين الصحابة رضي الله عنهم .

ثم إذا رأينا ثناء النبي ﷺ عليه أمام كبار الصحابة، ثم تذكُّر عمر لهذا الثناء ، وروايته إياه ندرك مدى اهتمامهم بتقدير أهل الفضل، وحفظ منزلتهم ، والإشادة بها في المجتمع .

ومن ذلك ماذكره الخطيب البغدادي بإسناده عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه: أنه أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أناس من طيء-أو قال من قومه-فجعل يفرض للرجال من طيء في ألفين ألفين، قال: فاستقبلته فأعرض عني، فقلت: ياأمير المؤمنين أما تعرفني؟ قال: بلى إني والله لأعرفك، أسلمتَ إذْ كفروا، وأقبلتَ إذ أدبروا، ووفيتَ إذ غدروا، وإن أول صدقة بيَّضَتْ وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه صدقة طيء، جئت بها إلى رسول الله ﷺ (٢).

---

(١) مسند أحمد ١/٢٥ - ٢٦ .

(٢) تاريخ بغداد ١/ ١٩٠ .

وهكذا ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضل عدي بن حاتم وسابقته في الإسلام رضي الله عنه بعد مرور سنين على مواقفه المشرفة في عهد النبي ﷺ ويوم أن ارتدت أو تمردت أكثر قبائل العرب بعد وفاته ﷺ ، حيث حمل عدي قومه على طاعة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلم ينس له عمر هذا الفضل بل أثنى عليه علانية بما يستحق من التكريم والشكر ، وهكذا ينبغي لكل مسئول أن يكون خبيراً بفضل أهل الفضل وأن يشكرهم عليه في الوقت المناسب .

من مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

من ذلك اعترافه بفضل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مع ماسبق بينهما من خلاف، وقد أخرج الخبر في ذلك الإمام الطبري من حديث أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخل عمران بن طلحة على عليّ بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾[1] ورجُلان جالسان على ناحية البساط فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانًا ؟ فقال علي: قُومَا أبعد أرضٍ وأسحقها، فمن هم إذن إذا لم أكن أنا وطلحة [2].

فقد بين علي فضل طلحة رضي الله عنهما، وإنما يُعرف فضل الإنسان بما يقدِّم من عمل يُرجَى به حسن العُقْبَى في الآخرة، فهما

(١) الحجر / ٤٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/٣٧ .

أخوان تتلمذا في مدرسة النبوة ، ولئن كان باعد بينهما اجتهادهما في آخر حياتهما حيث اختلف رأيهما في تطبيق الإسلام فإن أُخُوَّتهما الإيمانية باقية راسخة مادامت قلوبهما تسير نحو هدف واحد هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة .

ولقد استبعد اثنان من الجاهلين أن يتقابل المسلمون في ميدان القتال ثم يكون مصيرهم في الآخرة إلى الجنة فزجرهما علي رضي الله عنه لكون الزجر أجْدَى في مقام الجدل المبني على اتباع الهوى، ومن أجل ذلك لم يورد خبر شهادة رسول الله ﷺ لطلحة بالجنة مع وضوحه لكون الرجلين المعترضين يعلمان ذلك ، ولكنهما من أهل الأهواء المنحرفة .

وفي موقف علي رضي الله عنه هذا درس للمسلمين في حفظ حقوق إخوانهم،فالخلاف الشديد الذي دار بينه وبين إخوانه لايعني تغير قلوبهم،بل كل واحد منهم يرى للآخر فضله وإن خالفه في الاجتهاد.

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي السفر قال: رُئِيَ على علي - رضي الله عنه - بُرْدٌ كان يكثر لبسه، فقيل له: ياأمير المؤمنين إنك تكثر لبس هذا البرد ! قال: إنه كسانيه خليلي وصفيي وصديقي وخاصتي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، إنه عمر ناصَحَ الله فنصحه الله تعالى ، ثم بكى (١) .

نعم ، بكى رضي الله عنه من شدة تأثره لمّا ذكر خليله عمرَ

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٦٣ .

رضي الله عنه الذي اكتسب محبة معاصريه بعدله وحكمته وتواضعه وزهده في الدنيا ، وسائر صفاته الحميدة .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي جحيفة قال: دخلت على علي - رضي الله عنه - فقلت ياخير الناس بعد رسول الله ﷺ ، قال: فقال: مهلا ياأبا جحيفة ، أولا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر ، ويحك ياأبا جحيفة لايجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن، ويحك ياأبا جحيفة لايجتمع بغضي وحب أبي بكر وعمر في قلب مؤمن [1].

ففي هذا الخبر يبين علي رضي الله عنه فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الناس بعد رسول الله ﷺ ، ويبين أن حبه ملازم لحبهما، وأن من أبغضهما فقد أبغضه، ومن أبغضه فقد أبغضهما، ذلك لأنهم إخوة في الله متحابون، ويسر كل واحد منهما مايسر صاحبيه ويسوؤه مايسوؤهما .

ومن ذلك ماأخرجه اللالكائي والشيرازي وأبو الحسن البغدادي وابن منده وابن عساكر من خبر سويد بن غفلة قال: مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما ، فأتيت عليا فذكرت له ذلك فقال لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه .

قال: ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال: مابال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه ومما يقولون برئ

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٢٠١ ، وانظر كنز العمال ١٥/١٦ .

وعلى مايقولون معاقب، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لايحبهما إلا مؤمن تقي ولايبغضهما إلا فاجر ردي ، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ويعاقبان ، فما يجاوزان فيما يصنعان رأي رسول الله ﷺ ، ولايرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأيا، ولايحب كحبهما حبا، مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راض، والناس راضون، وولّى أبا بكر الصلاة ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ولاه المسلمون ذلك ، وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان، وكنت أول من لبّى له من بني عبد المطلب وهو لذلك كاره، يود أن بعضنا كفاه فكان والله خير من بقي ، أرأفه رأفة ، وأرحمه رحمة، وأكيسه ورعا، وأقدمه إسلاما ، شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة، وبإبراهيم عفوا ووقارا ، فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى قبض رحمة الله عليه .

قال: ثم ولّى الأمر من بعده عمر بن الخطاب، واستأمر في ذلك الناس، فمنهم من رضي ومنهم من كره، فكنت ممن رضي، فو الله مافارق عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارها، فأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ وصاحبه، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل أثر أمه، وكان والله خير من بقي، رفيقا رحيما، وناصر المظلوم على الظالم، ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكا ينطق على لسانه، وأعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواما، وقذف في قلوب المؤمنين الحب له، وفي قلوب المنافقين الرهبة منه، شبهه رسول الله ﷺ بجبريل فظا غليظا على الأعداء، وبنوح حَنِقًا ومغتاظًا على الكافرين، فمن لكم بمثلهما؟ لايُبْلَغ مبلغهما إلا بالحب لهما، واتباع

آثارهما، فمن أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه بريئ ، ولو كنت تقدمت في أمرهما لعاقبت أشد العقوبة، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ماعلى المفتري، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو، أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم [١].

فهذه خطبة بليغة بين فيها علي بن أبي طالب أفضلية الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، وذكر شيئا من فضائلهما، وهذا موقف يذكر له في الوقت الذي غالى في حبه وتفضيله بعض التابعين، فقال كلامًا فصلاً في هذا الموضوع ووضع الأمور في نصابها .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

أخرج أبو بكر الخطيب البغدادي من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: لما كان من بعض همج الناس ماكان [٢] جعل رجل يسأل عن أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعل لايسأل أحدا إلا دله على سعد بن مالك، قال فقيل له : إن سعدا رجل إذا أنت رفقت به كنت قَمِنًا أن تصيب منه حاجتك، وإن أنت خرقت به كنت قَمِنًا أن لاتصيب منه شيئا، فجلس أياما لايسأله عن شيء حتى استأنس به وعرف مجلسه، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ** ﴾ **الآية** [البقرة:١٥٩] قال فقال سعد : هات ماقلت: لاجرم والذي نفس سعد بيده

(١) كنز العمال ١٦/٥ - ١٨ ، تاريخ دمشق ٤٤/٣٦٦ .

(٢) يعني في الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه .

لاتسألني عن شيء أعلمه إلا أنبأتك به، قال: أخبرني عن عثمان، قال: كنا إذ نحن جميع مع رسول الله ﷺ كان أحسننا وضوءًا، وأطولنا صلاة وأعظمنا نفقة في سبيل الله تعالى [1].

فهذا مثل من حفظ الصحابة رضي الله عنهم حقوق إخوانهم بعد موتهم، فقد اختلف الناس من التابعين في شأن عثمان بن عفان رضي الله عنه فكثر القدح فيه ممن لم يعاصروه إلا في خلافته أو بعدها، فركزوا على مارأوه مثالب، وغضوا الطرف عن فضائله الجمَّة ومناقبه الحميدة، وكان بعضهم يأتي إلى من بقي من كبار الصحابة فيسأله عن عثمان، ربما للتثبت في أمره، وربما لمحاولة الحصول على نقد من صحابي كبير، ليطير به في الآفاق، ويعمر به قلوب أصحاب الفتن، لكن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ليس ممن يغمط أصحاب الحقوق فضلهم، وليس ممن تُعمر به مجالس الفتن، بل هو خرِّيج المدرسة النبوية التي يحافظ أفرادها على أعراض المسلمين أكثر مما يحافظون على أموالهم وجاههم، فكان منه هذا الجواب السديد الذي يعتبر حجرا في حلوق الراتعين في الفتن الشاغلي أوقاتهم وجهودهم في تلمس العيوب والنقائص لأعلام المسلمين الذين بهم انتشر الإسلام وبهم استقرت دولته .

من مواقف كعب بن مالك رضي الله عنه :

أخرج الإمام أبو داود من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك وكان قائد أبيه بعدما ذهب بصره عن أبيه كعب بن مالك أنه كان إذا

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٤٤٧ .

سمع النداء يوم الجمعة ترحَّم لأسعد بن زرارة قال: فقلت له : إذا سمعت النداء يوم الجمعة ترحَّمت لأسعد بن زرارة ، قال: لأنه أول من جمَّع بنا في هزْم النَّبِيت (١) من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخَضَمات ، قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون (٢) .

هذا وإن تذكُّر كعب بن مالك لفضل أبي أمامة أسعد بن زرارة رضي الله عنهما بعد ذلك العهد الطويل دليل على صدق الوفاء، والقيام بحق الشكر على الجميل، ولقد كانت مبادرة أبي أمامة في تطبيق شعائر الإسلام في مجتمع لم يألفها شجاعة عالية تَنِمُّ عن إيمان راسخ ووعي تام بأهداف الإسلام العليا ، فلهذا استحق من كعب بن مالك هذا الدعاء الذي واظب عليه سنوات طويلة وكان مظهراً من مظاهر الشكر والثناء .

فالذين يبادرون إلى إقرار سنن الإسلام وتطبيقها في مجتمع لايقبلها ابتداءً لهم أجر عظيم، كما جاء في قول رسول الله ﷺ « من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فعُمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولاينقص من أجورهم شيء » (٣) .

هذا وإن بروز هذا المشهد في ذهن كعب بن مالك مع هذا العمر المديد دليل على تمكن هذا الخلق الرفيع من نفسه، وهو مثل صادق على عظمة النبي ﷺ ونجاحه الكبير في تربية ذلكم الجيل الراشد .

---

(١) يعني في مكان بني النبيت ، والهزم المكان المنخفض .

(٢) سنن أبي داود / كتاب الصلاة، باب الجمعة في القرى ، حديث رقم ١٠٦٩ .

(٣) صحيح مسلم ، رقم ١٠١٧ ، العلم ١٥ (٢٠٥٩) .

من موقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

وهناك موقف كـريم لأبي الدرداء رضي الله عنه أشاد فيـه بفضل بعض علماء الصحابة، وذلك فيمـا أخرجه الإمام البخاري من حديث علقـمة قـال: قدمت الشـام فصليت ركـعتين، ثم قلت اللهم يسِّـر لي جليسـا صالحا، فأتيت قـوما فجلست إليـهم، فإذا شيخ قد جـاء حتى جلس إلى جنبي، قلت: من هذا ؟ قالوا: أبو الدرداء، فقلت: إني دعوت الله أن ييسر لي جليـسا صالحا فيـسرك لي، قال: من أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قـال: أوليس عندكم ابن أم عبد صـاحب النعلين والوساد والمطهـرة ؟ أفيكم الذي أجـاره الله من الشـيطان ، يعني على لسـان نبـيهﷺ ؟ أولـيس فيكم صـاحب سـر النبي ﷺ الذي لايعلم أحـد غيره؟[1] .

وقوله « أليس فيكم ابن أم عبد » يعني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ووصفه المذكور في الخبـر كناية عن قربه من النبي ﷺ وقيامه بخدمـته وذلك يعني كثـرة تحصيله العلمي منه، وقـوله « أفيكم الذي أجـاره الله من الشـيطان ؟ يعـني عـمار بـن ياسـر رضي الله عنه، وصاحب السر هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لأن رسول اللهﷺ أسر إليه بأسماء المنافقين .

وهكذا يعرف الصـحابة رضي الله عنهم فـضل إخوانهم فـيثنون عليهم أمام المسلمين بذكر مناقبـهم ، وهذه سنة حسنة ينبغي أن تنتشر بين العلماء ، وذلك بأن يحـاول العالم تثبيت مكانة العلـماء الآخرين

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٤٢ ، فضائل الصحابة (٧/ ٩٠) .

في بلادهم عن طريق نشر فضائلهم في قومهم ليعودوا لعلمائهم وهم يحملون عنهم سمعة حسنة، وهذا له نفعه ووقعه في النفوس، خاصة إذا صدر من العالم الكبير لمن هو دونه .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ومن أمثلة تذكر حقوق أهل الفضل وأدائها في الوقت المناسب ماأخرجه الإمام الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أتى عبد الله بن عباس بالبصرة وقد أمَّره عليها علي رضي الله عنه، فقال : ياأبا أيوب إني أريد أن أخرج لك من مسكني كما خرجت للنبي ﷺ ، فأمر أهله فخرجوا وأعطاه كل شيء أغلق عليه الدار ، فلما كان انطلاقه قال: حاجتك ؟ قال : حاجتي عطائي وثمانية أعبد يعملون في أرضي، وكان عطاؤه أربعة آلاف ، فأضعفها له خمس مرات، فأعطاه عشرين ألفا وأربعين عبدا » [١] .

وهكذا تذكر ابن عباس ماقام به أبو أيوب من إنزال النبي ﷺ في بيته يوم الهجرة والقيام على خدمته والعناية به، فأراد أن يكافئه على هذا الفضل لمَّا قدر على ذلك ، وهو نوع رفيع من الوفاء ، وبراعة في اختزان المعاني السامية في الذاكرة وقد مرَّ عليها قرابة أربعين عاما، ثم إبداؤها عند اللزوم لبناء الحاضر عليها ، وإنما يعرف قيمة أهل الفضل ويتذكر أخبارهم أهل الفضل والوفاء .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث طارق بن شهاب

---

(١) المعجم الكبير ٤/١٤٨ ، رقم ٣٨٧٦ .

قال: قلت لابن عباس : أيُّ رجل كان عمر؟ قال: كان كالطير الحَذِر الذي كأن له بكل طريق شركا [1].

ففي هذا الخبر يصف عبد الله بن عباس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم بالنباهة واليقظة والفراسة، فهو بذلك يدرك الأخطار المحدقة بالأمة وما يتوقع أن يكون من تخطيط الأعداء، ويتصور المشكلات التي قد تحدث فيضع الحلول المناسبة لها بفكره ، فإذا حدثت بوادرها سارع إلى حسم القضايا قبل أن تستفحل، ويشبه هذا الوصف قول عائشة رضي الله عنها في عمر رضي الله عنه : كان والله أحوذيًّا نسيج وحدِه ، قد أعدَّ للأمور أقرانها، كأنما خلق للإسلام .

من مواقف معاوية رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة : صف لي عليّا : فقال: أو تعفيني؟ قال: بل صفْه . قال: أو تعفيني ؟ قال: لاأعفيك. قال أما إذًا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه ، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ماخشُن، ومن الطعام ماجَشُبَ [2] ، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٢ .

(٢) الجشب من الطعام : الغليظ الخشن ، وقيل : غير المأدوم .

لانكلمه هيبة، ولانبتديه لعظمه. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لايطمع القويّ في باطله، ولاييئس الضعيفُ من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُجوفَه وغارت نجومُه، وقد مَثُلَ في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم[1]، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يادنيا يادنيا أبي تعرّضت أم لي تشوّفت؟ هيهات هيهات غُرّي غيرى، قد بَتَتُّك [2] ثلاثًا لارجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلَّة الزاد وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

قال فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه حتى خرّت على لحيته فما يملكها، وهو ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء. ثم قال معاوية رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار قال: حزن من ذُبح ولدها في حجرها فلا ترقأ[3] عبرتها، ولايسكن حزنها [4].

فهذا وصف بليغ من ضرار الكناني لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث وصفه ببعد النظر، والقوة في الحق، والفصاحة والبيان، والعدل في الحكم، وغزارة العلم والتقيد بالحكمة، والزهد في الدنيا ومظاهرها، والأنس بذكر الله تعالى ومناجاته، والبكاء من خشيته جل وعلا، واستدامة التأمل والتفكير في أمور

(١) السليم يعني المريض فهو من أسماء الأضداد.

(٢) أي طلقتك.

(٣) أي لاتجف.

(٤) صفوة الصفوة ١/ ٣١٥ - ٣١٦.

الدنيا والآخرة، والتواضع لإخوانه المؤمنين ، وتعظيم أهل التقوى، والانتصار للضعفاء حتى يأخذوا حقوقهم، والقوة على أهل الباطل حتى يرتدعوا عن باطلهم، وقوة الاتصال بالله سبحانه وكثرة العبادة.

فهذه صفات عظيمة قلما تجتمع لإنسان واحد، وهي تدل على تفوق علي رضي الله عنه في أمور الدنيا والدين .

وفي الخبر موقف لمعاوية رضي الله عنه حيث بكى من خشية الله تعالى، ووافق ضرارا على تلك الصفات العالية التي وصف بها عليا رضي الله عنه مع ماسبق بينهما من خلاف، وفي هذا الخبر وأمثاله رد على الأخبار التي تفيد بأن معاوية أمر بسب علي على المنابر، وهذه الأخبار ظاهرة البطلان لأنها تتنافى تماما مع أخلاق معاوية الذي اشتهر بالحلم والسماحة والسياسة الحكيمة، فإنه ليس من الحكمة أن يُصدر هذا الأمر الذي سيثير عليه غضب الأمة الإسلامية في وقت كان يحاول بكل وسيلة اجتذاب قادتها وحكمائها .

من مواقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :

وفي باب الثناء على العلماء من أقرانهم تذكر هذه الحادثة التي جرت بين أبي موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقد أخرج الإمامان أحمد والبخاري وغيرهما من حديث هزيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى الأشعري عن ابْنَةٍ وابنةِ ابن وأخت[1] فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وائتِ ابنَ مسعود سيتابعني، فسئل ابن مسعود وأُخبرِ بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذًا وماأنا

(١) يعني عن قسمة الميراث بينهن .

من المهتدين ، أقضي بما قضى النبي ﷺ : للابنة النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين ومابقي فللأخت ، فأتينا أبا موسى وأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لاتسألوني مادام هذا الحبر فيكم (١).

وهذا موقف جليل من أبي موسى رضي الله عنه حيث خالفه في الحكم عبد الله بن مسعود فلم يغمطه حقه، ولم ينتقص من قدره، بل أحال الناس عليه في الفتيا اعترافًا بقدره العلمي، وهكذا يجب أن تكون العلاقة بين علماء الدين حتى تبقى منزلتهم عالية في النفوس ويحترمهم الناس .

وفي هذا بيان لحياة الصحابة رضي الله عنهم القائمة على الحب والإخاء ، والاعتراف لأهل الفضل ، والترفع عن الأنانية .

من مواقف حذيفة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: لأن أعلم أن فيكم مائةَ مؤمن أحبُّ إليَّ من حمر النعم وسودها، فقال أصحاب النبي ﷺ : ما تهاجرنا بيننا، ولاتشاتمنا بيننا ولاتفرقنا، قال : هل فيكم من لايخاف في الله لومة لائم؟ ثم بكى ، ثم قال: لا أعلمه إلا عمرَ بن الخطاب فكيف أنتم لو فارقكم ؟! (٢).

في هذا الخبر يبين لنا حذيفة رضي الله عنه صفة من الصفات التي تميز بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهي قول الحق والعمل

---

(١) مسند أحمد ٤٦٣/١ ، صحيح البخاري ، رقم ٦٧٣٦ ، الفرائض(١٧/٢) .

(٢) تاريخ دمشق ٣٣٢/٤٤ .

به في جميع الظروف والأحوال ، وعدم خشية الناس، وهذا مقام من مقامات الدين العظيمة، وهو دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين، وبه تصلح أمور الأمة، ويستسلم الناس للحق طوعا أو كرها .

ويقصد حذيفة بذلك الكمالَ في هذه الصفة، وإلا فإن الصحابة يتصفون بهذه الصفة بِنِسَب متفاوتة، ولكنهم لايصلون في ذلك إلى مستوى عمر ولا إلى قريب منه رضي الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك ماأخرجه الشيخان من حديث شقيق بن سلمة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة ؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال: ليس عن هذا أسألك ولكن التي تموج كموج البحر، فقال : ليس عليك منها بأس ياأمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال عمر: أَيُكسَر الباب أم يفتح؟ قال: بل يكسر، قال عمر: إذًا لايُغلق أبدا، قلت: أجل ، قلنا لحذيفة؟ أكان عمر يعلم الباب ؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، فَهِبْنَا أن نسأله من الباب، فأمرنا مسروقًا فسأله فقال: مَنِ الباب ؟ قال: عمر (١) .

ففي هذا الحديث بيان لمنزلة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٧٠٩٦ ، الفتن (١٣/٤٨) .
صحيح مسلم رقم (١٤٤) الإيمان (ص ١٢٨) .

الإسـلام ، فهـو الباب الذي كـان يحجـز بين المسلمين والوقـوع في الفتن، وهذا لايعني أن كل الصحابة والتابعين قد وقعوا في الفتنة بعد عمـر، بل إن أكثـر الصحابة وبعض التـابعين ظلوا على استـقامـتهم وزهدهم في الدنيـا حـتـى بعـد وفـاته، ولكن المعـتـبـر هو العـرف الاجـتمـاعي الذي يسـيِّر النـاس نحو سلوك مـعين وإن لم يقـتَنِعْ به بعضـهم، والرأي العام الذي يشكِّل تصورات الناس وأفكارهم، فـقد كانت الاستقامة على الدين والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة هي المفاهيم السائدة قبل وفاة عمر، وكـان الناس يتسابقون في إظهار حياة التـقشف في الملـبس والمأكل وغيـر ذلك من أمـور الدنيا، وإن كـان بعضهم في قـرارة نفسه يودُّ أن يعيش حيـاة أكثر رخاء ونعيـما، فلما توفي عمـر أصبح هناك انفـتاح نحـو الدنيا من الذين لم يكـونوا قبل ذلك مقتنعين بحياة الزهد والتقشف .

وكانت طاعة الإمام والولاة هي المنهجَ السائد قبل وفاة عمر رضي الله عنه سـواء كان ذلك عن رضى أو عن كراهيـة، فلما توفي عـمر كثر الطعن على الإمام والولاة حتى أدى ذلك إلى قـيام الثورة المعروفة على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، ثم إلى وقوع القتال المعروف في عهد علي رضي الله عنه .

موقف للشفَّاء بنت عبد الله رحمها الله :

من ذلك ما أخرجـه الحافظ ابن عساكر أيضا من حـديث سليمان بن أبي حـثمة قـال: قالت الـشفّاء بنـت عبد الـله: - ورأت فتيـانا يقـصدون في المشي ويتكلـمون رويدا فـقالت - : مـاهذا ؟ فقـالوا:

نُسَّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا [1].

نعم فليست العبادة بتصنع الوقار، وإظهار النفوس في حال التخشع المفتعل، بل هي بالاستقامة على منهج الله تعالى الكامل الذي تصبح فيه العلانية صورة من السريرة .

وقد روي نحو هذا عن عائشة رضي الله عنها .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع [2].

وهكذا يكون المربون قدوة للناس بسمتهم ووقارهم وسلوكهم ، قبل أن يكونوا كذلك بوعظهم وتذكيرهم .

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر حسن بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان، وقال قائلون : فلان فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب [3].

فهذه كلمة حق من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في و سط كان يكرهها، حيث كان أغلب بني أمية يكرهون أمير

---

(١) تاريخ الإسلام ٢٨٨/٤٤ .

(٢) تاريخ دمشق ٢٨٨/٤٤ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٢ /٤٨٩، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٥ .

المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد صدَق عمر بن عبد العزيز في ذلك فلقد كان علي يشبه عمر بن الخطاب في الزهد ولكن المجتمع الذي عاش فيه قد اختلف وتمكنت الدنيا من نفوس كثير من الناس، فلذلك لم يستطع أن يعمم حياة الزهد على أمرائه كما كان يفعل عمر وأصبح غريبا في مجتمعه .

من مواقف الحسن البصري رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر هشام بن حسان قال: بينا نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة فقال : ياأبا سعيد ماتقول في علي بن أبي طالب ؟ قال: فاحمرت وجنتا الحسن وقال: رحم الله عليّا ، إن عليّا كان سهما لله صائبا في أعدائه، وكان في محلة العلم أشرفَها وأقربها إلى رسول الله ﷺ ، وكان رهبانيَّ هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسَّروقة، ولا في أمر الله بالنؤومة، أعطى القرآن عزائمه وعملَه وعلمه، فكان منه في رياضٍ مونقة، وأعلام بينة ، ذاك علي بن أبي طالب يالكع [1].

فهذا موقف جيد من الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله تعالى، حيث صرح بفضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمام رجل من الخوارج، الذين كانوا من أعدائه، والتصريح بفضائل الصحابة أمام من يعادونهم نوع من الجهاد ، لأن من فعل ذلك قد يتعرض للأذى .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٥ .

من مواقف محمد بن علي بن الحسين رحمه الله :

قال عروة بن عبد الله: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال: لابأس به، قد حلى أبو بكر الصدِّيق سيفه. قال: قلت: وتقول الصديق؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: نَعَمْ الصديق ، نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة .

وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : ياجابر! بلغني أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما، وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة .

وقال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾(١) الآية . قال: هم أصحاب محمد ﷺ ، قال : قلت: يقولون : هو علي قال : علي من أصحاب محمد ﷺ (٢) .

فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام في إثبات عدالة

(١) سورة المائدة ، الآية/ ٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٣٢٣ .

الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يعتبر من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها، وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت، حيث نسب إليهم المبطلون كلاما في التنقيص من قدر الصحابة هم منه برءاء.

إن محبة أي إنسان تعني أن يصدر من مُحبِّه مايهواه ويلائمه، ليكون قد حقق متطلبات الحب، وإن الذي يهواه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته أن تتحقق محبة الصحابة رضي الله عنهم في قلوب المسلمين وأن يُعرف فضل أهل التقدم منهم، أما دعوى التناقض بين محبة علي وآله ومحبة بقية الصحابة فهي دعوى باطلة، قد فنَّدها عليّ كما سبق، وهذا أحد أحفاده محمد بن علي يرد على هذه الدعوى ويبطلها .

موقف للأئمة أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد رحمهم الله :

ذكر الإمام الذهبي عن محمد بن إسحاق بن راهويه قال: حدثني أبي قال : قال لي أحمد بن حنبل : تعال حتى أريَك من لم يُرَ مثله، فذهب إلى الشافعي ، قال أبي : ومارأى الشافعي مثل أحمد بن حنبل ، ولولا أحمد وبذلُ نفسه لذهب الإسلام - يريد المحنة - [1] .

فهذا مثل جليل في تقدير أهل الفضل ، فقد كان الإمام أحمد يكثر من الثناء على الإمام الشافعي ، ويرى أنه يتفوق على غيره بالتوسع في فهم معاني النصوص الشرعية ، فلذلك أطنب في الثناء

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١٩٦ .

يعني امتحان الناس بالقول بخلق القرآن .

عليه، ومن ذلك ماذكره علي بن أحمد بن النضر الأزدي قال: سمعت أحمد بن حنبل ، وسئل عن الشافعي فقال: لقد مَنَّ الله علينا به ، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره ، وقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير [1] .

وقوله « لقد تعلمنا كلام القوم » يشير به إلى فقه الفقهاء في المسائل التي دونوها حسب فهمهم من الكتاب والسنة والقياس عليهما فيما لانص فيه .

وهذا الثناء يبين قوة إيمان الإمام أحمد وتجرده من حظ النفس، فالإمام الشافعي معاصر له ، وقد وفد إلى بغداد بعلمه المتميز الذي لايقاربه فيه أحد من علماء عصره ، فلم يكن في قلب أحمد بن حنبل ذرة من الحسد له ، بل رفع من ذكره ولازمه وأخذ العلم عنه حتى عاتبه أحد أهل العلم في لزوم ركابه فقال له : لو علمت علمه للزمتَ الرِّكاب الآخر .

وكما كان الشافعي متفوقا في هذا الجانب فإن أحمد بن حنبل كان متفوقا في جوانب أخرى ، أبرزها التوسع في رواية السنة النبوية ، كما كان صاحب الموقف العظيم في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم والثبات عليها، وبهذا أثنى عليه الحافظ إسحاق بن راهويه .

وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة عالية في مكارم الأخلاق في مجال تقدير أهل الفضل وتمجيد ذكرهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٨/١٠ .

ومن ذلك ماروِي عن محمد بن أبي بشر قال: أتيت أحمد بن حنبل في مسألة فقال : ائت أبا عبيد فإن له بيانا لاتسمعه من غيره، فأتيته فشفاني جوابه، فأخبرته بقول أحمد فقال: ذاك رجل من عمَّال الله نشر الله رداء عمله وذخر له عنده الزُّلفى ، أما تراه محببا مألوفا، مارأت عيني بالعراق رجلا اجتمعت فيه خصال هي فيه، فبارك الله له فيما أعطاه من الحلم والعلم والفهم ، فإنه لَكَمَا قيل :

يَزِينُك إمَّا غاب عنك فإن دنا رأيت له وجها يَسُرُّك مقبلا

يعلِّم هذا الخَلْق ماشذَّ عنهمُ من الأدب المجهول كهفا ومعقلا

ويُحسِن في ذات الإله إذا رأى مَضِيمًا لأهل الحق لايسأم البَلا

وإخوانه الأدنون كل موفق بصير بأمر الله يسمو على العلا[1]

ففي هذا الخبر مثل من آداب أهل العلم وتقدير أهل الفضل، فهذان الإمامان الجليلان كل واحد منهما أثنى على الآخر بما فيه من خصال الخير ، فالإمام أحمد قد تواضع وبرئ من حظ النفس حينما أحال من سأله في تلك المسألة العلمية على أبي عبيد القاسم بن سلاَّم.

وفي المقابل كان أبو عبيد منصفا عارفا بفضل أهل الفضل، فقد أطنب في الثناء على أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ولم يقل فيه إلا حقا وصدقا ، فإن مآثر هذا الإمام قد بلغت المشرق والمغرب في زمنه، ومايزال ذكره حسنا وسمعته عالية .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

ومما جاء في إبراز أهل الفضل والتقدم في العلم ماروُي عن عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: ياأبة مَنِ الحفاظ ؟ قال يابُنَي شباب كانوا عندنا من أهل خراسان، وقد تفرقوا قلت: من هم ؟ قال: محمد بن إسماعيل ذاك البخاري، وعبيد الله بن عبد الكريم ذاك الرازي، وعبد الله بن عبد الرحمن ذاك السمرقندي، والحسن بن شجاع ذاك البلخي ، قال: فقلت : ياأبة من أحفظ هؤلاء ؟ قال: أما أبو زرعة فأسردهم ، وأما محمد فأعرفهم، وأما الدارمي فأتقنهم وأما ابن شجاع فأجمعهم للأبواب [1] .

وهذا كلام جليل من الإمام أحمد في حق هؤلاء الأربعة الحفاظ الكبار، الذين أصبح لهم شأن كبير في الحياة العلمية آنذاك، وخاصة في بلاد خراسان وماوراء النهر .

وقد نال هؤلاء كلهم شهرة علمية ماعدا محمد بن شجاع البلخي وقد أبان السبب في ذلك محمد بن عقيل، وذلك فيما ذكر أبو عمرو محمد البيكندي قال : فحكيت هذا - يعني كلام الإمام أحمد - لمحمد بن عقيل فأطرى ذكر الحسن بن شجاع، فقلت له · لم يشتهر كما اشتهر هؤلاء ؟ قال : لأنه لم يُمتَّع بالعمر [2] .

والعمر كان عاملا مهمّا في اشتهار العالم آنذاك لأن مرحلة الطلب طويلة،ولايكاد العالم يعطي علمه ويؤلف إلا في سن الكهولة .

فأما الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، فمن المعروف في ذلك

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/١٨٩ .

العهد وبعده بأنه أفضل هؤلاء ، وقد حاز التميز في كل الخصال التي ذكرها الإمام أحمد ولكن الإمام أحمد أراد أن يذكر أهم صفة تميز بها كل واحد ، وقد اشتهر في التصنيف في السنة كما هو واضح من كتابه " الجامع الصحيح " وفي الجرح والتعديل كما هو واضح في كتابه " التاريخ الكبير " .

وأما الإمام أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي فقد اشتهر في علم الجرح والتعديل ، وأقواله مبثوثة في كتب هذا الفن ومن أبرزها " الجرح والتعديل " لابن أبي حاتم .

وأما الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي فقد اشتهر بتدوين السنة وكتابه في السنن مشهور معروف .

وهذا لايعني خلو ذلك العصر من الحفاظ غير هؤلاء بل هناك حفاظ كثيرون من أمثال الحافظ أبي حاتم الذي كان قرين الحافظ أبي زرعة في الجرح والتعديل ، والحافظ أحمد بن عبد الله العجلي ، والحافظ محمد بن واره ، وأمثالهم كثير .

وإنما ذكر الإمام أحمد أبرز الحفاظ الذين لازموه في أثناء طلب العلم .

موقف لعمرو بن علي الفلاس رحمه الله :

أخرج الخطيب البغدادي من خبر محمد بن أبي حاتم الوراق قال : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : ذاكرني أصحاب عمرو بن علي بحديث فقلت : لا أعرفه ، فسرُّوا بذلك ، وساروا إلى عمرو بن علي فقالوا : ذاكرنا محمد بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه ، فقال

عمرو بن علي: حديث لايعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث[1].

فهذا موقف جليل للحافظ عمرو بن علي الفلاس حيث لم يغتنم هذه الفرصة للتشهير بالإمام البخاري حينما أبدى عدم معرفته بذلك الحديث الذي طرحه عليه تلاميذ الفلاس، بل تصرف بضد ذلك حينما أثنى على البخاري في العلم ثناء عظيما، فحكم على أي حديث لايعرفه البخاري بأنه ليس بحديث معتبر ، وهذه شهادة قيمة من حافظ كبير .

وهذا السلوك من الحافظ الفلاس يعتبر قمة في البعد عن الأنانية، والتجرد من حظ النفس ، والاعتراف بالفضل لأهله .

موقف لسهل بن عبد الله التستري رحمه الله :

ومن ذلك ماروي عن القاضي الخليل بن أحمد السجزي : سمعت أحمد بن محمد بن الليث قاضي بلدنا يقول : جاء سهل بن عبد الله التستري إلى أبي داود السجستاني ، فقيل : يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله جاءك زائرا ، فرحب به وأجلسه، فقال سهل : ياأبا داود لي إليك حاجة ، قال : وماهي؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان ،قال: نعم ، قال: أخرِج إلي لسانك الذي تحدث به أحاديث رسول الله ﷺ حتى أقبِّله ، فأخرج إليه لسانه فقبله [2].

فهذا مثل عالٍ من إكرام أهل العلم وتقديرهم الذي هو مبني على تعظيم سنة رسول الله ﷺ .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢١٣ ، وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٤ .

وإن هذا التقدير البالغ والاحترام الكبير لأصحاب الحديث الذي عمرت به تلك العصور الزاهرة من أهم أسباب ازدهار التحديث، وإقبال طلاب العلم على دراسة السنة النبوية ، فقد أصبح أهل الحديث هم عِلْيَةُ القوم في كل بلد ، وهم الذين يشار إليهم بالبنان، ويغبطهم على السمعة العالية الكبراء من أهل السمعة الدنيوية .

ولقد أصبح الحُلُم الكبير في تلك العصور للآباء والأمهات في مستقبل أبنائهم أن يكونوا من المحدثين حتى يحوزوا على تلك السمعة العالية ، ولذلك كانوا يحملون أبناءهم من الصغر على حفظ القرآن الكريم ، ثم على السماع من شيوخ الحديث .

موقف للأمير نوح بن نصر رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي من خبر أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا أحمد الحافظ [١] يقول : حضرت مع الشيوخ عند أمير خراسان نوح بن نصر ، فقال: من يحفظ منكم حديث أبي بكر رضي الله عنه في الصدقات ؟ فلم يكن فيهم من يحفظه ، وكان عليَّ خُلْقَانٌ وأنا في آخر الناس ، فقلت لوزيره : أنا أحفظه ، فقال: هاهنا فتى من نيسابور يحفظه ، فقُدِّمت فوقهم، ورَوَيْتُ الحديث، فقال الأمير : مثل هذا لايُضَيَّع ، فولاني قضاء الشاش [٢] .

وهكذا ارتفع هذا الفتى بسبب حفظه حديث أبي بكر رضي الله

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري (الحاكم الكبير) .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٧٢ - ٣٧٣ .

عنه في الصدقات ، وقد أصبح فيما بعد من الحفاظ المشهورين .

وهذا السؤال من ذلك الأمير نوح بن نصر يعتبر اهتماما منه بالعلم وأهله ، ولما برز هذا الشاب في حفظ ذلك الحديث الطويل قدَّره ذلك الأمير وولاه القضاء .

وهكذا يرفع العلم أقواما وإن كانوا صغارا لايُؤْبه بهم وذلك عند من يقدرون العلم وأهله .

موقف للأمير إسماعيل بن أحمد الساماني رحمه الله :

من أمثلة تقدير أهل الفضل والعلم ماذكره الوزير أبو الفضل محمد بن عبيد الله البَلْعَمي : سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد يقول: كنت بسمرقند ، فجلست يوما للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى جنبي إذ دخل أبو عبد الله محمد بن نصر، فقمت له إجلالا للعلم، فلما خرج عاتبني أخي وقال : أنت والي خراسان تقوم لرجل من الرعية ؟ هذا ذهاب السياسة .

قال : فبتُّ تلك الليلة وأنا متقسِّم القلب، فرأيت النبي ﷺ في المنام ، كأنِّي واقف مع أخي إسحاق، إذ أقبل النبي ﷺ فأخذ بعضُدِي ، فقال لي : ثَبَتَ ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر ، ثم التفت إلى إسحاق فقال : ذهب ملك إسحاق وملك بنيه باستخفافه بمحمد بن نصر [1] .

وهكذا أنقذ الله تعالى بهذه الرؤيا المباركة الأمير إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان من تلك الحيرة التي تردد فيها بين الاستمرار

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٣٨ - ٣٩ .

في احترام العلماء ، وهو الذي تميل إليه نفسه الطيبة، وبين التمسك بالمظاهر المصطنعة التي يقصد بها إظهار هيبة السلطة، فتبيَّن له من هذه الرؤيا أن التواضع للعلماء هو السياسة الحكيمة وهو الذي يعطي ولي الأمر قوة تُبقي على ولايته وتحبب الرعية إليه .

إن هذا هو الموافق لتوجيهات النبي ﷺ في مثل قوله « إن من إجلال الله تعالى إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المقسط » (١) .

وإذا كان إجلال عالم الدين إجلالا لله تعالى فإنه سبحانه يوفق من صدر منه إلى الخير ، ويقيه الشر ، ويثبت له أمره إن كان من الولاة .

وإذا نظرنا إلى الأمر من ناحية السياسة الإنسانية الاجتهادية فإن علماء الدين لهم مكانة عالية في نفوس المسلمين ، فمن أعزهم كان عزيزا عندهم ، ومن أذلهم كان محتقرا مكروها لديهم ، ولهذا فإنه بِغَضِّ النظر عن المعنى الأول الذي هو الأهم ، فإن ذلك الوالي كان أعلى في فهم السياسة من أخيه .

موقف للإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي : لما رحلت بابني (٢) إلى العراق صحبني جماعة من الغرباء ، فسألوني : أي حديث عند أحمد

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب رقم ٤٦٧٦ باب ٢٣ .

(٢) يعني ابنه يحيى بن محمد الذهلي وهو من الحفاظ وقد ورث المكانة العلمية بعد أبيه في نيسابور .

ابن حنبل أغرب ؟ [1] فكنت أقول : إذا دخلنا عليه سألته عن حديث تستفيدونه ، فلما دخلنا عليه سألته عن حديث يحيى بن سعيد عن عثمان بن غياث عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر . . حديث الإيمان [2] .

فقال : يا أبا عبد الله ليس هو عندي عن يحيى بن سعيد، فخجلت وقمنا ، فأخذ أصحابنا يقولون : إنه ذكر الحديث غير مرة ، ثم لم يعرفه أحمد ، وأنا ساكت لا أجيبهم .

قال : ثم قدمنا بغداد فدخلنا على أحمد فرحب بنا وسأل عنا، ثم قال : أخبرني ياأبا عبد الله أي حديث استفدت من مسدَّد عن يحيى بن سعيد ؟ فذكرت له حديث الإيمان، فقال أحمد : حدثناه يحيى بن سعيد، ثم أخرج كتابه وأملى علينا، فسكت محمد بن يحيى ولم يقل : سألناك عنه ، فتعجب أصحابه من صبره .

قال : فأُخبر أحمد بأنه كان سأله عن الحديث قبل خروجه إلى البصرة، فكان أبو عبد الله إذا ذكره يقول: محمد بن يحيى العاقل[3] .

فهذا مثل رفيع في الأدب مع العلماء، فمحمد بن يحيى الذهلي كان قد اهتز موقفه لما عرض ذلك الحديث على الإمام أحمد بن حنبل فأجابه بأنه ليس من حديثه، واختلال السمعة العلمية أمام إمام كبير كأحمد بن حنبل يعتبر هبوطًا في المستوى العلمي في الحفظ، فكان

---

(١) أي غير مشهور بإسناد معين وإن كان متنه مشهورًا .

(٢) يعني حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان إلخ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٧٨ - ٢٧٩ .

المظنون بالذهلي أن ينتهز فرصة تحديث الإمام أحمد به في المرة الثانية ليذكّره بذلك الموقف ، ولكن لما كان في ذلك شيء من التهوين من سمعة العلماء أعرض عن ذلك .

وموقف جليل من الإمام أحمد حينما أشاد بمحمد بن يحيى لما علم بذلك الموقف ولقبه بالعاقل .

ولئن كان الإمام أحمد قد نسي ذلك الحديث في ذلك الموقف مع قوة حفظه وسعة علمه فإن ذلك لايهوّن من سمعته العلمية فلكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة .

موقف للأمير طاهر بن عبد الله رحمه الله :

ومما جاء في تقدير أهل الفضل واحترام أهل العلم ماجاء في قول جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ : مارأيت في المحدثين أهيب من محمد بن رافع ، كان يستند إلى الشجرة الصنوبر في داره، فيجلس العلماء بين يديه على مراتبهم ، وأولاد الطاهرية ومعهم الخدم [1] ، كأن على رؤوسهم الطير ، فيأخذ الكتاب ويقرأ بنفسه ، ولاينطق أحد ولايتبسم إجلالا له ، وإذا تبسم واحد أو راطن صاحبه قال : وصلى الله على محمد ، ويأخذ الكتاب ، فلا يقدر أحد يراجعه أو يشير بيده، ولقد تبسم خادم من خدم الطاهرية يوما فقطع ابن رافع مجلسه، فانتهى الخبر بذلك إلى طاهر بن عبد الله فأمر بقتل الخادم، حتى احتلنا لخلاصه [2] .

---

(١) يعني أولاد الأمير ابن طاهر .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١٦ .

فهذا مثل من إجلال الأمير طاهر بن عبد الله للعلم وأهله ، وإن كان قد بالغ في العقوبة ، ولعله لم يكن يريد تنفيذ ذلك وإنما أراد تثبيت هيبة ذلك العالم الجليل في نفوس الناس .

إن إجلال علماء الدين دليل على تعظيم الدين نفسه ، وذلك دليل على قوة الإيمان بهذا الدين .

وماكان من محمد بن رافع من الحزم والشدة في ضبط الدرس يعتبر إجلالا لحديث رسول الله ﷺ ، وليس من باب الكبر وإثبات الشخصية ، فلقد قال عنه الإمام البخاري : كان من خيار عباد الله .

موقف للحافظ محمد بن بشار رحمه الله :

وذلك فيما أخرجه الخطيب البغدادي عن محمد بن أبي حاتم قال: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس محمد بن بشار ، فلما خرج وقع بصره عليَّ فقال: من أين الفتى ؟ قلت : من أهل بخارى ، قال: كيف تركت أبا عبد الله ؟ فأمسكت ، فقال له أصحابه : رحمك الله هو أبو عبدالله ، فقام وأخذ بيدي وعانقني ، وقال: مرحبًا بمن أفتخر به منذ سنين (١) .

فهذه لفتة كريمة من الحافظ محمد بن بشار المعروف بـ«بندار» حيث احتفى بالإمام أبي عبد الله البخاري وأكرمه وهو في طبقة تلاميذه، وهذا من تقدير أهل الفضل لأهل الفضل، وإنما يقدر أهل الفضل والتقدم الكبارُ العظماء ولايحتقرهم إلا حاسد أو جاهل .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٧ .

وموقف لأبي عبد الله البخاري حينما سأله بندار عن البخاري وهو لايعرف أنه الذي أمامه حيث سكت أبو عبد الله ولم يَظهر منه الفخر والاعتداد بالنفس ، وكان رحمه الله تعالى من رجاحة عقله شديد الحياء والبعد عن الشهرة ، كما قال عنه محمد بن سلام لجلسائه: أترون البكر أشد حياء من هذا ؟ (١) .

وموقف آخر للحافظ بندار مع أحد أقارب الإمام البخاري يقول محمد بن يوسف : لما دخلت البصرة صرت إلى بندار فقال لي : من أين أنت ؟ ؟ قلت : من خراسان ، قال: من أيها ؟ قلت : من بخارى ، قال : تعرف محمد بن إسماعيل ؟ قلت : أنا من قرابته، فكان بعد ذلك يرفعني فوق الناس (٢) .

فهذا مثل من إجلال أهل الفضل والعلم ، فقد حاز محمد بن يوسف على التقدم في مجلس بندار لكونه من قرابة أبي عبد الله البخاري، وهذا يبين لنا شيئًا من فضل الإمام البخاري وتقدمه في نظر العلماء .

موقف للحسين بن أحمد بن فطيمة رحمه الله :

ذكر الحافظ الذهبي في رواية له عن أبي المظفّر عبد الرحيم بن عبد الكريم ابن الحافظ أبي المظفر منصور بن محمد السمعاني أنه قال عن الإمام الحسين بن أحمد بن فطيمة الخُسْروجِرْدي: كثيرُ السماع حسن السيرة مليح المجالسة، مارأيت أخف روحا منه، مع السخاء

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٢ .

والبذل ، سمعت منه الكثير، وكتب لي أجزاء، ومن العجب أنه قُطعت أصابعه بكرمان من علَّة، فكان يأخذ القلم ويترك الورق تحت رجله ويمسك القلم بكفَّيه، فيكتب خطا مليحا سريعا، يكتب في اليوم خمس طاقات خطًّا واسعا، تفقه بمرو على جدِّي أبي المظفر .

قال السمعاني: خرجت نحو "أصبهان" ، فتركت القافلة ومضيت إلى "خُسْرَوْجرد" مع رفيق لي راجلين، فدخلنا داره، وسلمنا على أصحابه فما التفتوا علينا ، ثم خرج الشيخ فاستقبلناه فأقبل علينا وقال: لِمَ جئتم ؟ قلنا : لنقرأ عليك جزأين من معرفة الآثار للبيهقي ، فقال: لعلكم سمعتم الكتاب من الشيخ عبد الجبار[1] وفاتكم هذا القدر؟ قلنا : بلى ، وكان الجزآن فَوتًا لعبد الجبار ، فقال: تكونون عندي الليلة فإن لي مُهمًّا، أريد أن أخرج إلى «سَتْرَوار» فإن ابني كتب إليَّ أن ابن أستاذي جائي في هذه القافلة ، فأريد أن أسلم عليه وأسأله أن يقيم عندي أياما ، وسمَّاني [2]، فتبسمت، فقال لي: تعرفه ؟ قلت : هو بين يديك ، فقام ونزل وبكى، وكاد أن يقبل رجلَيّ، ثم أخرج الكتب والأجزاء ، ووهبني بعض أصوله ، فكنت عنده ثلاثة أيام [3] .

وهكذا رأينا معاملة هذا العالم الجليل مع حفيد شيخه، وهذا سلوك كريم في احترام العلماء والوفاء لأهل الفضل، فقد كان على

---

(١) يعني أبا محمد عبد الجبار بن محمد الخواري المنيعي .

(٢) يعني ذكر اسم ابن أستاذه فإذا هو الذي يخاطبه .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/٦١ - ٦٢ .

استعداد للخروج إلى قرية أخرى لاستقبال حفيد استاذه مع فارق السن بينهما إجلالا لأستاذه الإمام أبي المظفر السمعاني وحفظا لحقه ، ثم لما علم بأنه من يخاطبه بكى من تذكر أستاذه والفرح بلقاء حفيده ، وكانت منه تلك المظاهر العالية من الحفاوة والإكرام .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تبين لنا رابطة المحبة القوية بين الشيوخ وتلاميذهم .

ومما جاء في هذا الخبر وصف هذا العالم الجليل بأنه لما قُطعتْ أصابعه أصبح يمسك القلم بكفيه ويكتب خطا مليحا سريعا ، وهذا دليل على علو همة الإمام وطموحه نحو المعالي ، فلم يعذر نفسه بفقد أصابعه ، بل مرّن كفيه حتى أصبحتا تقومان بمهمة الأصابع ، وهذا دليل على أن الإنسان لديه طاقة عالية للعمل ، ولكنه يكبتها بالتكاسل أحيانا والاعتماد على غيره .

موقفان لأبي عمر محمد بن يوسف القاضي وأبيه رحمهما الله :

ومما جاء في تقدير أهل الفضل والعلم وجزاء ذلك ماروُي من أن الإمام أبا إسحاق الحربي لما دخل على إسماعيل القاضي بادر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلى نعله فأخذها فمسحها من الغبار ، فدعا له وقال : أعزك الله في الدنيا والآخرة ، فلما توفي أبو عمر رُؤي في النوم فقيل : مافعل الله بك ؟ قال: أعزني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح (١) .

فهذا الخبر قد اشتمل على تواضع كريم من أبي عمر محمد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٥٧ - ٣٥٨ .

يوسف القاضي حيث بادر إلى نعل الإمام إبراهيم الحربي فمسحها من الغبار ، وهذا دليل على المكانة الكبرى في قلوب أهل العلم للعلماء الربانيين .

ولقد كان هذا العمل البسيط سببا في حصول أبي عمر على العز في الدنيا والآخرة استجابة لدعوة العالم الرباني الصالح أبي إسحاق الحربي ، كما تفيده تلك الرؤيا المباركة ، وهذا يدل على أن دعوة أبي إسحاق قد صدرت من قلبه ، رحمهم الله تعالى جميعا .

وموقف آخر ليوسف القاضي والد أبي عمر يرويه الحسن بن قريش فيقول : حضرت إبراهيم الحربي وجاء يوسف القاضي ومعه ابنه أبو عمر : فقال له : يا أبا إسحاق لو جئناك على مقدار واجب حقك لكانت أوقاتنا كلها عندك ، فقال: ليس كل غيبة جفوة ولاكل لقاء مودة وإنما هو تقارب القلوب [1] .

فهذه كلمات جليلة معبرة من العالم يوسف القاضي في حق الإمام إبراهيم الحربي ، تدل على مكانته العالية في قلبه، وإجابةٌ سديدة من أبي إسحاق الحربي وضع فيها الأمور مواضعها حيث بين أن العبرة بتقارب القلوب لابكثرة الزيارات ، وإن كانت الزيارات سببا في توثيق الصلات ، وتقوية الروابط القلبية .

موقف لأبي مسلم الكجِّي رحمه الله :

ومن أمثلة تقدير أهل العلم والفضل ماذكره جعفر بن محمد الطَّبَسي قال : كنا ببغداد ومعنا عبد الله مستملي صالح جزرة ، فقيل

(١) سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١٣ .

لأبي مسلم الكجي : هذا مستملي صالح، قال: ومَنْ صالح؟ فقيل : صالح الجزري ، قال: ويْحكم ، ماأهونه عليكم ! ألا تقول : سيد المسلمين ،وكنا في أخريات الناس فقدَّمَنا ، فقال : كيف أخي وكبيري؟ ماتريدون ؟ فقلنا : أحاديث محمد بن عرعرة وحكايات الأصمعي ، فأملى علينا عن ظهر قلب ، وكان ضريرا مخضوب اللحية (١) .

فهذا موقف كريم من الإمام أبي مسلم الكجي حيث حفظ حق العالم الجليل الحافظ صالح جزرة ، فوصفه بأنه سيد المسلمين، وهذا الوصف له سابقة من أقوال الصحابة رضي الله عنهم في وصف العلماء،فقد قال عمر بن الخطاب عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنهما: إنه سيد المسلمين،والسيادة تعني التقدم والرئاسة ، فسيد القوم هو رئيسهم المقدم فيهم ، والعلماء هم سادة المسلمين لأن مهمة جميع المسلمين في هذه الحياة هي تطبيق شريعة الله تعالى وعمران الأرض بها،والذين لهم حق الإشراف على هذا التطبيق وتوجيه المسلمين نحو التطبيق الصحيح هم علماء الدين .

موقف لإبراهيم الحربي رحمه الله :

قال ابن بشكوال : نقلت من كتاب ابن عتاب : كان إبراهيم الحربي رجلا صالحا من أهل العلم ، بلغه أن قوما من الذين كانوا يجالسونه يفضلونه على الإمام أحمد بن حنبل، فَوقَفَهم على ذلك فأقروا به ، فقال : ظلمتموني بتفضيلكم لي على رجل لا أشْبهه ولا

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٥ .

ألحق به في حال من أحواله ، فأقسم بالله لا أسمعكم شيئًا من العلم أبدا، فلا تأتوني بعد يومكم [1] .

فهذا موقف كريم للعالم الجليل إبراهيم الحربي ، فقد غضب حينما فضلوه على الإمام أحمد بن حنبل، وبيَّن فضله عليه، فهذا يدل على تواضعه وعدم اغتراره بثناء الناس عليه، والعاقل هو من عرف قدر نفسه ، ووزنها بما يعلم منها لا بما يقول الناس عنه .

وهؤلاء الطلاب لعل لهم بعض العذر فيما ذهبوا إليه وذلك أن الناس عادة تميل نفوسهم إلى العالم المعاصر لهم، لمباشرتهم معرفة فضائله ، ولفضله المباشر عليهم ، وقد يكون ذلك أبلغ في نفوسهم من قراءة تاريخ من مضى ولو كان قريبا من زمنهم .

ولئن كان مايتصف به إبراهيم الحربي من تواضع كبير ،ومايعتقده من تقدم الإمام أحمد عليه في كل أحواله قد حمله على الغضب مما قاله تلامذته ، فلقد بالغ في عقوبة هؤلاء التلاميذ وماكان ينبغي له أن يحرمهم من علمه إلى الأبد ، رحمهم الله جميعا .

موقفان للإمامين علي بن المديني والبخاري رحمهما الله :

ذكر الإمام الذهبي من خبر أحمد بن عبد السلام قال: ذكَرْنَا قول البخاري لعلي بن المديني يعني : ماستصغرت نفسي إلا بين يدي عليّ ابن المديني ، فقال علي : دَعُوا هذا فإن محمد بن إسماعيل لم ير مثل نفسه [2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٢٠ ، تاريخ بغداد ٢/ ١٨ .

وهذا مثل مـن السمو الأخـلاقي في الأدب العلمي يقـدمه هذان الإمامان الكبيران حيث ذكـر كل واحد منهما الآخر بما هو أهله، ولـم يغتـر ابن المديني بثناء البخاري عليه مـع أن الثناء منه يعني ارتفاع من أثنى عليه وتميزه ، لأن الثناء عن الكبير كبير .

موقف لإسماعيل بن أبي أويس رحمه الله :

ذكر الإمـام الذهبي من خبـر الإمام البخـاري أنه قال : اجـتمع أصحاب الحـديث فسألوني أن أكلم إسماعـيل بن أبي أويس ليزيدهم في القراءة ، ففعلت ، فدعا إسمـاعيل الجارية وأمرها أن تُخرِج صرة دنانير ، وقال: ياأبا عبد الله فرِّقها عليهم .

قلت : إنما أرادوا الحـديث ، قال: قد أجـبتك إلى مـاطلبت من الزيادة ، غير أني أحب أن يُضمَّ هذا إلى ذاك ليظهر أثرك فيهم [1] .

ففي هذا الخبر بيان اهتمام أهل الحديث بهذا العلم الشريف. فقد استشفعوا بأبي عبـد الله البخاري إلى إسماعيل بن أبي أويس ليزيدهم في الحديث ، وفي هذا دلالة على مكانة الإمام البخاري .

وفيما قام به الحافظ ابن أبي أويس من توزيع الدنانير على يد أبي عبد الله البخاري مَثَلٌ من تقديرِ أهل الفضل وحفظ مكانتهم .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١٩ .

المَوَاقِفُ العِلْمِيَّة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص . ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٨)

المواقف العلمية

دكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء

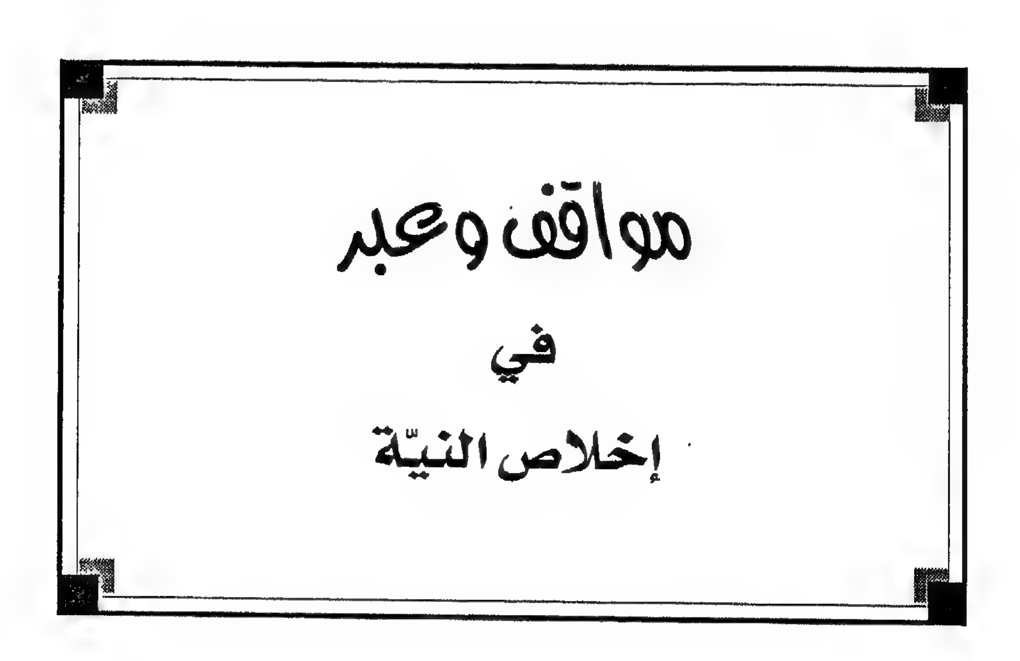
للنشر والتوزيع

جدة

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم



مواقف وعبر

في

إخلاص النيّة

قبل أن أذكر المواقف الإسلامية في هذا الموضوع أحب أن أقدم لذلك بذكر حديث عظيم كان له أثر بالغ في إخلاص كثير من العلماء على مر العصور ، وقد أخرج هذا الحديث الإمام أبو عيسى الترمذي بإسناده عن عقبة بن مسلم أن شُفَيًّا الأصبحيَّ حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس ، فلما سكت وخلا قلت له أنشدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدَّثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلتهُ وعلمتهُ ، فقال أبو هريرة أفعلُ ، لأُحدِّثنك حديثًا حدَّثنيه رسولُ الله ﷺ عقلتُهُ وعلمتُهُ ، ثمَّ نَشَغَ (1) أبو هريرة نشغةً ، فمكث قليلاً ثم أفاق ، فقال : لأحدثنك حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت مامعنا أحد غيري وغيرهُ ، ثم نشغ أبو هريرة نشغةً أخرى ، ثم أفاق فمسح وجههُ فقال: لأُحدثنك حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت مامعنا أحد غيري وغيرهُ ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح وجهه فقال: أفعلُ لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت مامعه أحد غيري وغيره ، ثم نشغَ أبو هريرة نشغة شديدة ، ثم مالَ خَارًا على وجهه فأسندته علي طويلاً .

قال : ثم أفاق فقال : حدَّثني رسولُ ﷺ أن الله تبارك وتعالى

---

(1) نشغ نشغة : أي شهق حتى كا د يغمي عليه ، ويحصل ذلك للإنسان إذا اشتد أسفه على فائت .

إذا كان يوم القيامة ينزلُ إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ ، فأولُ من يدعو به رجلٌ جمع القرآن ، ورجلٌ قُتِل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال ، فيقولُ الله للقارئ: ألم أعلمك ماأنزلت على رسولي ؟ قال : بلى ياربِّ . قال : فماذا عملت فيما عُلِّمت ؟ قال: كنت أقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار . فيقول الله لهُ كذبت . وتقولُ له الملائكة كذبت . ويقول الله : بلْ أردتَ أن يُقال إن فلانًا قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحدٍ ؟ قال : بلى ياربِّ . قال: فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال: كنت أَصل الرحم وأتصدقُ ، فيقول الله له كذبت، وتقول له الملائكة كذبت . ويقول الله تعالى : بل أردتَ أن يقال فلانٌ جوادٌ فقد قيل ذلك . ويُؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فبماذا قتلتَ ؟فيقول:أُمِرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلت فيقول الله تعالى له كذبت ، وتقول له الملائكة كذبتَ. ويقولُ الله : بل أردت أن يُقال فلانٌ جريء فقد قيل ذاك، ثم ضرب رسولُ الله ﷺ على ركبتي فقال : ياأبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة .

وقال الوليد أبو عثمان : فأخبرني عقبةُ بن مسلم أن شُفَيًّا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان : وحدثني العَلاء بن أبي حكيم أنه كان سيَّافًا لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية: قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك. وقلنا قد

جاءنا هذا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦] .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسنٌ غريب [(١)] .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه [(٢)]:

ومن مظاهر الإخلاص في طلب العلم أن يكون العلم من أجل العمل ، ولقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يهتم بالتربية مع التعليم حيث كان يحث تلامذته على العمل بما علموا ، كما جاء في قوله: لن تكون عالما حتى تكون متعلما ، ولاتكون متعلما حتى تكون بما علمت عاملا ، إن أخوف ماأخاف إذا وقفت للحساب أن يقال لي : ماعَمِلتَ فيما عَلِمْتَ ؟

وقال : أيضًا في هذا المعنى : ويل للذي لايعلم مرة ، وويل للذي يعلم ولايعمل سبع مرات [(٣)] .

من مواقف أبي جعفر القاريء رحمه الله :

وكان العلماء يهتمون بالعمل الصالح مع العلم النافع، ولايعتبرون العلم نافعًا إذا لم يصاحبه العمل الصالح ، وفي ذلك يقول عبد

---

(١) سنن الترمذي ، رقم ٢٣٨٢ ، كتاب الزهد (٤/ ٥٩١ - ٥٩٣) .

(٢) هو عويمر بن زيد الأنصاري اشتهر بكنيته ، وتوفي في آخر خلافة عثمان .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٤٧ .

الرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله : قال رجل لأبي جعفر - وكان في دينه فقيها وفي دنياه أبله - : هنيئًا لك ما آتاك من القرآن ، قال: ذاك إذا أحللت حلاله وحرمت حرامه وعملت بما فيه [(١)] .

وأبو جعفر هو القارئ أحد الأئمة العشرة في القراءات .

من مواقف سفيان الثوري وفضيل بن عياض رحمهما الله :

لقد كان علماء السلف يهتمون بإخلاص النية في طلب العلم لله تعالى ، ويحثون طلابهم على ذلك ، ومما رُوي في ذلك أن سفيان الثوري وفضيل بن عياض رحمهما الله التقيا فتذاكرا فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة ، فقال له فضيل : لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه شؤما ، أليس نظرت إلى أحسن ماعندك فتزيَّنت به لي وتزينتُ لك ، فعبدتني وعبدتك ؟ فبكى سفيان حتى علا نحيبه ، ثم قال: أحييتني أحياك الله [(٢)] .

وهكذا وجدنا هذين العالمين العابدين يلتقيان فيبكيان من ذكر الله تعالى ، فيشعر سفيان الثوري بالفرح من تلك النتيجة الطيبة التي خرجا بها من ذلك المجلس ، ولكن فضيل بن عياض يذكِّره بأن ماتذاكرا به من العلم الذي أثار فيهما خشية الله تعالى يُخشَى أن لايكونا وصلا به إلى درجة التجرد التام من ملاحظة حظ النفس ، خشية أن يكون خطر في بالهما تزيُّن كل واحد منهما للآخر بخير

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٧ .

ماعنده من العلم ، فيؤثر ذلك على إخلاص النية لله تعالى .

وإذا كان هذان السيدان الجليلان اللذان ملأت شهرتهما الأرض بالتقوى والعلم والورع والزهد قد خافا على أنفسهما من الرياء والسمعة فكيف بمن هو دونهما في هذه المحامد بمراحل ؟!

ولأهمية إخلاص النية نجد سفيان الثوري رحمه الله يقول : مانعلم شيئا أفضل من طلب العلم بنية [(١)] .

يعني أن يطلب المسلم العلم ابتغاء وجه الله تعالى وحده ، وإنما جعل سفيان ذلك أفضل من أداء نوافل العبادة مثلا لأن الإخلاص في طلب العلم عسير المنال عند كثير من طلاب العلم ، فهو يحتاج إلى مكابدة ومجاهدة للنفس حتى تستقيم على النية الخالصة وتتجرد من الرياء والسمعة .

ولقد بين سفيان الثوري رحمه الله منزلة العالم الصادق في إصلاح الأمة حيث يقول : المال داء هذه الأمة والعالم طبيب هذه الأمة ، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس ؟[(٢)]

نعم ، متى يبرئ الناس وهو مريض ، كما قال الشاعر :

طبيب يداوي الناس وهو عليل

إن مجموعة أدواء الأمة أكثرها يترتب على عبادة المال، فعبيد المال لايتورعون عن الكسب الحرام بطرقه المختلفة ، ولايتورعون عن إنفاق المال في الوجوه المحرمة، إلى جانب اتصافهم بالحسد والغل والكذب والنفاق وغير ذلك من الأخلاق السيئة التي يجر إليها محاولة كسب

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٣ .

أكبر قدر ممكن من المال، والانحراف في تصريفه .

والطبيب الذي يستطيع بإذن الله تعالى تشخيص أمراض القلوب ثم تطهيرها من تلك الأمراض هو عالم الدين الذي نوَّر الله بصيرته، وشغل قلبه بمحبته ومحبة رسوله ﷺ ومحبة دينه، وبالاهتمام الدائم بتشخيص أمراض الأمة والبحث في علاجها .

أما إذا كان العالم الديني قد رتع فيما رتع فيه مرضى القلوب فمن لهؤلاء المرضى ؟

أين من يشخص أمراضهم ويلتمس شفاءهم من تلك الأمراض؟

وهكذا شخَّص سفيان الثوري رحمه الله أدواء الأمة.وبيَّن سببها الأساسي ، وعلى يد مَنْ يكون علاجها، ومتى يتمكن هؤلاء الأطباء من شفاء الأمة من أدوائها .

ولقد كان وراء هذا العالم الرباني وأمثاله آباء مربون وأمهات مربيات،كما جاء عن وكيع بن الجراح رحمه الله قال: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب فاطلب العلم حتى أعُولَك بمغزلي،فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه،وإلا فلا تتعنَّ(١) .

نعم لقد كان وراء هذا العالم الكبير أم صالحة مربية كانت تعمل بيديها في طلب الرزق لتكفي ابنها مؤنة النفقة حتى يتفرغ للعلم .

لقد علَّمته الاستقامة على العمل الصالح قبل أن يتعلم العلم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٩ .

ولقد أخذ من أمه مقاصد العلم فوعاها ، وأصبح رقيب نفسه، فهو يزنها كلما تعلم مجموعة من الأحاديث .

هل تقوَّى إيمانه ؟ هل ازداد عمله الصالح ؟

هل نما يقينه وذكره لله تعالى والدار الآخرة ؟

وهكذا تفاعل هذا العالم في سنوات الطلب مع العلم الذي تلقاه، واقتبس خير ماوجده من تربية العلماء وسلوكهم حتى أصبح من كبار علماء الأمة المربين .

وكان أساس ذلك وبذرتَه الأولى تربيةُ أمه له ووصيتُها الغالية التي كانت منارًا لطريقه العلمي .

ومما روي عن الثوري في الإخلاص في طلب العلم وتقدير أصحاب النية الصادقة ماأخرجه القاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي من حديث محمد بن إسحاق بن عبد الله الكوفي قال: سمعت أبي يقول : جاء رجل إلى سفيان الثوري وهو في مجلسه بعد العصر وحوله أصحاب الحديث ، فقال له : ياشيخ ما يمنعك أن تنشر ما عندك وتحدث به هؤلاء ؟ فقال سفيان : لو علمتُ أن الذي يطلب هذا لله لكنت آتيه في منزله حتى أحدثه (١) .

من مواقف سفيان بن عيينة رحمه الله :

من ذلك مارواه محمد بن قدامة الحمصي قال : كنا نواظب على

---

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي / ١٨٤ .

(٢) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي / ١٨٤ .

ابن عُيَيْنة فقال : تتركون الصلاة والطواف وتأتوني ؟ فقال بعضنا : لعلنا نسمع منك بعض ما ينفعنا الله به ، فقال : لوددت أني أرى من يطلبه لله فآتيه وأحدثه [٢] .

من مواقف هشام الدستوائي رحمه الله :

وبعضهم نفى عن نفسه الإخلاص تواضعا لشدة حذرهم من اختلاط النية كما رُوي عن هشام بن سَنْبَر الدستوائي أنه قال: والله ماأستطيع أن أقول إني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل.

ذكره الإمام الذهبي وقال: قلت: ولاأنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يُقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أوَّلاً لا لله، وحصَّلوه ثم استقاموا وحاسبوا أنفسهم، فَجَرَّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم ومالنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضا حسن ثم نشروه بنية صالحة[١] .

ولاشك أن اتهام هذين العالمين الجليلين أنفسهما بعدم التجرد والإخلاص في طلب العلم إنما هو من باب التواضع منهما، وهذا هو اللائق بمقامهما الرفيع .

من مواقف الشافعي رحمه الله :

ومن الأمثلة على الإخلاص والتجرد من حظ النفس مارواه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٥٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٣ ، طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٢

عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول: قال الشافعي : أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه ، كوفيا كان أو بصريا أو شاميا [٢] .

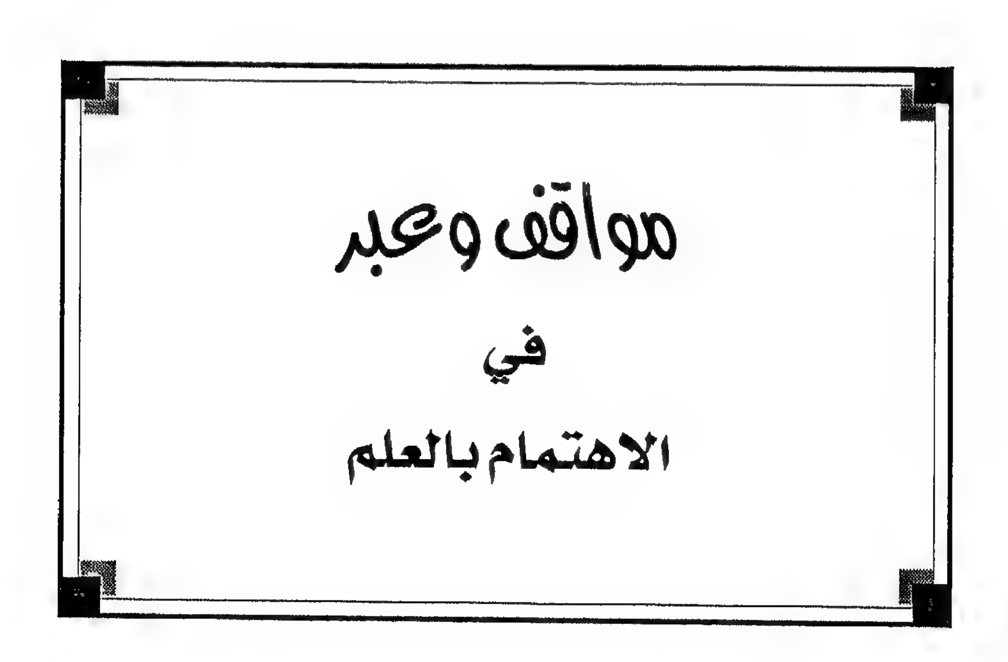
وقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي هذا إلى جانب كونه من التواضع حيث إنه من شيوخ الإمام أحمد فإنه دليل على قوة إيمان الشافعي ورغبته الصادقة في معرفة الحق المتمثل في الكتاب والسنة، وتجرده من هوى النفس ، فهو على استعداد تام للرجوع عن رأيه إذا ثبت عنده حديث يخالفه ، وهذا يعني أنه لايتعمد مخالفة السنة اتباعًا لقواعد علمية قعَّدها أو فتاوى صدرت عنه .

وهكذا اطلعنا على نماذج طيبة من إخلاص العلماء في تعليم العلم وحثهم طلاب العلم على إخلاص النية في طلبه، وقد تقدمت لنا أمثلة كثيرة من أخبار العلماء في الزهد والعفة والورع ، وقد صاروا بذلك قدوة صالحة لطلاب العلم على مر العصور، فإن طالب العلم حينما ينشأ فيرى شيوخه لاينافسون أهل الدنيا في دنياهم، ولايطلبون في مقابل علمهم مالاً ولاجاها فإنه يقتدي بهم في هذه الأخلاق العالية .

أما إذا نشأ طالب العلم فرأى من حوله من العلماء ينافسون الناس في طلب المال والجاه فإنه قد يعتقد مشروعية ذلك، وأن طلب المال والجاه هدف مشترك بين علماء الدين وغيرهم وإن اختلفت الوسائل

الموصلة إلى ذلك ، فربما سلك طريق التعليم الديني للوصول إلى ذلك الهدف ، وهذا هو الذي حذر منه العلماء المخلصون أبلغ تحذير.

* * *


مواقف وعبر
في
الاهتمام بالعلم

لقد كانت للعلماء مواقف عالية في الاهتمام بطلب العلم وتعليمه وإرشاد الناس به وتدوينه .

وفي هذا الفصل أذكر بعض مواقف العلماء في هذا المجال .

من مواقف أبي هريرة رضي الله عنه :

كان أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه أبرز أصحاب رسول الله ﷺ في نشر السنة ، ولقد انتشر العلم عنه وكثر تلامذته في المدينة وحملوا علمه إلى الآفاق .

وإلى جانب ماكان يقوم به من تعليم العلم فإنه كان يهتم بوعظ الناس بالسنة وتذكيرهم في أيام اجتماعهم ، كما روى عاصم بن محمد عن أبيه قال : رأيت أبا هريرة يخرج يوم الجمعة ، فيقبض على رمّانتي المنبر قائما ، ويقول : حدثنا أبو القاسم ﷺ الصادق المصدوق ، فلايزال يحدث حتى إذا سمع فتح باب المقصورة لخروج الإمام جلس .

أخرجه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ثم قال : قد تحريت الابتداء من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه لحفظه لحديث المصطفى ﷺ وشهادة الصحابة والتابعين له بذلك فإن كل من طلب حفظ الحديث من أول الإسلام وإلى عصرنا هذا فإنهم من أتباعه وشيعته، هو أولهم وأحقهم باسم الحفظ .

وقد أقره الإمام الذهبي على تصحيح هذا الحديث [(١)] .

من مواقف تميم الداري رضي الله عنه :

من ذلك ماذكره الإمام الذهبي من حديث الإمام الزهري عن حميد بن عبد الرحمن : أن تميما استأذن عمر في القصص سنين ويأبى عليه ، فلما أكثر عليه قال: ماتقول ؟ قال : أقرأ عليهم القرآن وآمرهم بالخير وأنهاهم عن الشر ، قال عمر : ذاك الربح، ثم قال: عِظْ قبل أن أخرج إلى الجمعة [(٢)] .

وفي هذا الخبر والذي سبق عن أبي هريرة رضي الله عنه دلالة على مشروعية الوعظ قبل صلاة الجمعة .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

مما يبين اهتمام السلف بالعلم كثرة عدد التلاميذ في الحلقات العلمية، ومن الذين كان التلاميذ يزدحمون في حلقاتهم أبو الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري رضي الله عنه ، وهو أحد القراء الثلاثة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر لتفقيه أهل الشام ، وقد استقر بدمشق فصار سيد القراء والعلماء بها، وقد لُقِّب بحكيم الأمة لكثرة ماصدر عنه من الحكم والمواعظ .

وفي الشام ازدحم عليه طلاب العلم حتى بلغوا المئين كما جاء في رواية عن مسلم بن مشكم قال قال لي أبو الدرداء : اعدُد من في

---

(١) المستدرك ٣/ ٥١٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٧ .

مجلسنا قال: فجاؤوا ألفًا وستمـائة ونيفا ، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة ، فإذا صلى الصبح انفتل وقرأ جزءًا فيُحدقون به يسمعون ألفاظه ، وكان ابن عامر مقدَّمًا فيهم (١) .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

لقد كان ابن عباس رضي الله عنهما حريصا على العلم دؤوبا في جمعه وتحصيله حتى استوعب علم أكابر الصحابة إلى جانب مااستفاده من النبي ﷺ ، ومن شـواهد ذلك مأخـرجه الإمـام الدارمي بإسناده عن عكرمة عن ابن عبـاس قال : لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصـار : يافلان هلم فلنسـأل أصحـاب النبي ﷺ فإنهم الـيوم كثيـر، فقال : واعجـبًا لك يا ابن عباس أترى الناس يحـتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى ، فترك ذلك وأقبلت على المسألة ، فإنْ كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه فـتسفي الريح على وجـهي التراب، فـيخرج فـيراني فيـقول يـاابن عم رسول الله مـاجاء بك ؟ ألا أرسلت إليَّ فـآتيك ! فأقول : أنا أحق أن آتـيك ، فأسأله عن الحديث، قال: فـبقي الرجل حـتى رآني وقد اجـتمـع الناس عليّ فقـال : كـان هذا الفتى أعـقل مني(٢).

أما تلاميذ ابن عباس فقد كانوا كثيرين جدًا حتى كان موكبه يشبه

---

(١) سير أعـلام النبلاء ٢/٣٤٦، وابن عامر هو عـبد الله بن عامر الذي كـان أميرا على البصرة في عهد عثمان رضي الله عنه .

(٢) سنن الدارمي / المقدمة ١/ ١٤١ .

مواكب الخلفاء، كما جاء عن يزيد بن الأصم قال: خرج معاوية حاجًّا معه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم [1] .

وذكر الحافظ ابن كثير من خبر شقيق بن سلمة قال: خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة، فجعل يقرؤها ويفسرها، فجعلت أقول مارأيت ولاسمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت[2].

فهذا مثل من سعة علم حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وتعمقه في تأويل القرآن .

وقول أبي وائل « لو سمعته فارس والروم لأسلمت » دليل على قوة تأثير ابن عباس على السامعين لقوة تأثره هو بمايقول، وحسن اختياره للمعاني والألفاظ .

من مواقف مكحول الدمشقي رحمه الله :

من ذلك ماروُي عن مكحول الدمشقي رحمه الله أنه قال: عُتِقت بمصر فلم أدع بها علما إلا احتويت عليه فيما أرى، ثم أتيت العراق فلم أدع بها علما إلا احتويت عليه فيما أرى ، ثم أتيت المدينة فلم أدع بها علما إلا احتويت عليه، ثم أتيت الشام فغربلتها، كل ذلك أسأل عن النَّفَل فلم أجد أحدا يخبرني عنه حتى مررت بشيخ من بني تميم يقال له : زياد بن جارية جالسًا على كرسي ، فسألته فقال:

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١ .

(٢) البداية النهاية ٨/ ٣٠٣ .

حدثني حبيب بن مسلمة قال : شهدت رسول الله ﷺ نفل في البُداءَة الربع ، وفي الرجعة الثلث .

قال الإمام الخطابي رحمه الله : البداءة ابتداء السفر للغزو وإذا نهضَتْ سرية من جملة العسكر فإذا أوقعَتْ بطائفة من العدو فما غنموا كان لهم فيه الربع ويشركهم سائر العسكر في ثلاثة أرباعه، فإن هم قفلوا من الغزاة ثم رجعوا فأوقعوا بالعدو ثانية كان لهم مما غنموا الثلث، لأن نهوضهم بعد القفل أشق لكون العدو على حذر وحزم[1] .

ومكحول عالم أهل الشام من التابعين ، كان مولى لرجل مصري من هذيل فأعتقه، وكان إماما في العلم، وهذا الخبر يدل على شدة اهتمامه بالمعرفة حيث ظل سنوات يبحث عن هذا الحكم الشرعي ويسأل عنه أهل العلم حتى وجده عند أحد الشيوخ .

من مواقف أبي عبد الله عكرمة رحمه الله :

ومما يدل على حرص طلاب العلم آنذاك على التحصيل ماكان يحصل بينهم من التزاحم على أبواب العلماء وفي حلقاتهم وتنافسهم في الوصول إليهم .

ومن الأمثلة على ذلك ماجاء عن أيوب السختياني أنه قال : قدم علينا عكرمة فاجتمع الناس عليه حتى صعد فوق ظهر بيت .

وقال أيوب : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق فإني لفي سوق البصرة إذا رجل على حمار، فقيل لي: عكرمة،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥٨/٥ .

فاجتمع الناس إليه ، فقمت إليه، فما قدرت على شيء أسأله، ذهبَتْ مني المسائل ، فقمت إلى جنب حماره، فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظ (١) .

وعكرمة هو العلامة المفسر أبو عبد الله البربري المدني مولى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما كان إماما في التفسير والحديث، وهذا الخبر يدل على منزلة العلماء في ذلك الوقت وحرص طلاب العلم على الأخذ عنهم حتى وهم يسيرون في الأسواق.

من مواقف أبي الزناد رحمه الله :

ومن الأمثلة على كثرة طلاب العلم في عهد التابعين مارواه الليث ابن سعد عن عبد ربه بن سعيد قال: دخل أبو الزناد(٢) مسجد رسول الله ﷺ ومعه من الأتباع - يعني طلبة العلم - مثلُ مامع السلطان فمن سائل عن فريضة ومن سائل عن الحساب، ومن سائل عن الشعر ومن سائل عن الحديث ومن سائل عن معضلة (٣) .

من مواقف الإمام الزهري رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير قال :وجاء شيخ إلى الزهري فقال: حدثني ، فقال : إنك لاتعرف اللغة، فقال : لعلي أعرفها، فقال: فما تقول في قول الشاعر :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥ .

(٢) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن ذكوان القرشي الفقيه الحافظ كان من أكابر علماء المدينة .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٥ .

صريعَ ندامَى يرفع الشربُ رأسَه [1]

وقد مات منه كل عضو ومِفصَل

ما المفصل ؟ قال : اللسان ، قال: عُد عليَّ أحدثك [2] .

وهذا مثل على اهتمام علماء الحديث باللغة العربية، حيث كانوا يختبرون طلابهم باللغة أولاً ، فإذا أجادوها أذنوا لهم بالسماع منهم وإلا امتنعوا من ذلك حتى يتقنوا اللغة، وذلك لأن حديث رسول الله ﷺ رواه الصحابة رضي الله عنهم باللغة العربية الفصحى، فإذا رواه من لايتقن هذه اللغة فإنه سيؤديه بشيء من اللحن فيكون قد قصر في أداء ماتحمل من هذه السنة .

من مواقف أبي بكر الباغندي رحمه الله :

وكانوا لاهتمامهم بالعلم يعتنون به أكثر من عنايتهم بمصالحهم الخاصة، فمن ذلك ماجاء في خبر أبي بكر الباغندي الحافظ أنه كان ينتخب على شيخ – يعني يسمع منه أحاديث مختارة– فكان يقول له: كم تُضجرني ؟ أنت أكثر حديثا مني وأحفظ، فقال: إني قد جئت إلى الحديث ، بحسبك أني رأيت النبي ﷺ في النوم فلم أسأله الدعاء، وإنما قلت : يارسول الله أيما أثبت في الحديث منصور أو الأعمش؟ فقال : منصور منصور [3] .

يعني منصور بن المعتمر رحمه الله ، فأبو بكر الباغندي حينما

(١) أي قتيل المنادمين حيث يزيل شرب الخمر عقله .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٦١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٨ . وأبو بكر الباغندي هو محمد بن محمد بن سليمان .

رأى رسول الله ﷺ في النوم كان أول ماتبادر إلى ذهنه أن يسأله عن هذه القضية العلمية ، ونسي أن يسأله الدعاء له، مما يدل على أن الذي كان يشغل باله هو الاهتمام بالعلم .

من مواقف سعيد بن المسيب وقتادة رحمهما الله :

من ذلك مارَوَى الإمام مالك عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه قال : إنْ كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد [1].

وسعيد بن المسيب من أكبر سادة التابعين وعالم أهل المدينة في وقته أبو محمد المخزومي القرشي ، وقد حصل له ابتلاء في حياته على يد بعض ولاة المدينة، فقد ضُرِبَ وأُوقف في الشمس، ومع ذلك لم يتركه طلاب العلم بل حاولوا الاستفادة منه وهو في تلك الحال كما جاء في رواية عن قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله قال: أتيت سعيد بن المسيب وقد أُلبِسَ تِبَّان الشعر وأُقيم في الشمس فقلت لقائدي: أَدْنني منه فأدناني ، فجعلت أسأله خوفا من أن يفوتني ، وهو يجيبني حسبةً والناس يتعجبون[2] .

وهو موقف يثير العجب فعلا عند عامة الناس، ولكنه بالنسبة لطلاب العلم أمر معتاد ، فكم خاطروا بحياتهم في الأسفار، وكم كابدوا من المشاق في سبيل طلب العلم

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٢٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٢ .

من مواقف أبي حنيفة النعمان رحمه الله :

ومن أخبارهم في الجد في طلب العلم وطول ملازمة الشيوخ مارُوي عن الإمام أبي حنيفة قال : قدمت البصرة فظننت أني لاأُسأل عن شيء إلا أجبت فيه، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب، فجعلت على نفسي أن لاأفارق حماداً حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة (١) .

يعني شيخه حماد بن أبي سليمان رحمه الله .

من مواقف عبد الملك بن جريج رحمه الله :

وقال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج : مادوّن هذا العلم تدويني أحد ، جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاءَ سبع سنين ، وقال: لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد، فقيل له: فما منعك من يمينه ؟ قال : كانت قريش تغلبني عليه (٢) .

وقال أيضا : أقمت على عطاء إحدى وعشرين حجة، يخرج أبواي إلى الطائف وأقيم أنا تخوفًا أن يفجعني عطاء بنفسه (٣) .

من مواقف مالك بن أنس رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن عبد البر في « التمهيد» قال : هذا كتبته من حفظي وغاب عني أصلي : أن عبد الله العمريَّ العابد كتب

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٣٦ .

إلى مالك يحضُّه على الانفراد والعمل (١) ، فكتب إليه مالك : إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ، فَرُبَّ رجل فُتِح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد ، فَنَشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه ، وماأظن ماأنا فيه بدون ماأنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرّ (٢) .

وهكذا أبان الإمام مالك فضل العلم، وبين لذلك العابد شمول العبادة، حيث ذكر له أن نشر العلم من أفضل الأعمال الصالحة، وأن العالم الذي ينشر علمه ليس بأقل عملا ممن قَصَر عملَه على أداء الشعائر التعبدية . .

وهذه نظرة مهمة في بيان شمول العبادة حيث تشمل كل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، وإن من أفضل الأعمال التي تدخل في ذلك نشر العلم ، بل إنه أفضل من الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية من النوافل ، لأن هذه نفعها قاصر على فاعلها، ونشر العلم يصل نفعه إلى من قام به ومن استفاد من ناشره .

هذا إضافة إلى الأدلة الصحيحة الصريحة التي تدل على فضل نشر العلم والدعوة به إلى الإسلام ، كما جاء في قول رسول الله ﷺ « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٣)، وقوله « لأن يهدي الله بك

---

(١) يعني على العزلة والتعبد .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠٢/٨ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن .

رجلا واحدًا خيـر لك من حمر النعم » [1] وقوله « مثل المؤمن الذي يقرأ الـقرآن [2] كمـثل الأترجّة ريحـها طيب وطعـمها طـيب، ومثل المؤمن الذي لايقرأ القرآن كمثل التـمرة طعمها طيب ولاريح لها » [3] وهذا صـريح في تفضـيل مـعلم العلم الديني على من اقـتصـر على العبادات الخاصة .

بل أصرح من ذلك قوله ﷺ « من سلك طريقـا يطلب فيه علما سلك الله به طريقـا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتـضع أجنحـتهـا لطالب العلـم رِضًى بما يصنع ، وإن العـالم ليـسـتـغـفـر له من في السـموات ومن في الأرض ، والحـيتـانُ في جوف الماء ، وإن فـضل العالم على العـابد كفضل القمر ليلة البـدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولادرهما إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر » [4] . وكذلك قوله ﷺ « فضل العالم على العـابد كفضلي على أدناكم ، إن الله عز وجل ومـلائكته وأهلَ السماوات والأرض ، حتى النملة في جـحرها ، وحتى الحوت ليصلُّون على معلِّم الناس الخير » [5] .

كما يبين النـبي ﷺ أن الاشتغال بالعلم أفضل مـن نوافل العبادة

---

(1) سبق في مواقف غزوة خيبر .

(2) يعني يعلمه الناس .

(3) صحيح البخاري ، كـتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، صحـيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن .

(4) صحيح الجامع الصغير ، رقم ٦١٧٣ (٥/٣٠٢) .

(5) صحيح الجامع رقم ٤٠٨٩ (٣/٨٦) .

حيث يقول: « فضل العلم أحب إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع »[1].

ويربط النبي ﷺ في حديث آخر بين الخير والفقه في الدين كما في قوله « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » [2] .

وذلك أن عبادة الله تعالى بغير فقه قد تضر صاحبها ، وذلك فيما إذا عبد الله سبحانه بغير ماشرع .

فهذه النصوص وأمثالها تدل على فضل الاشتغال بطلب العلم ونشره على الاشتغال بنوافل العبادة ، وإن كان الكمال في الجمع بين ذلك لمن استطاع .

ولو أن الإمام مالكا وأمثاله من العلماء ساروا على منهج ذلك العابد الذي أشار عليه بالعزلة والاشتغال بنوافل العبادة لما انتشر العلم ولَعَبَدَ الناسُ ربهم على جهل، وماذلك الاهتمام الذي تمتع به ذلك العابد إلا بسبب مابلغه من العلم عن طريق العلماء الذين تقربوا إلى الله تعالى بنشر العلم .

ومن المواقف في الاهتمام بالعلم ماروا ابن مهدي قال: سأل رجل مالكا عن مسألة فقال : لا أحسنها ، فقال الرجل : إني ضربت إليك من كذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالك : فإذا رجعت إلى مكانك وموضعك فأخبرهم أني قد قلت لك : إني لا أحسنها [3].

---

(١) صحيح الجامع رقم ٤٠٩٠ (٣/ ٨٦) .

(٢) صحيح الجامع رقم ٦٤٨٧ (٥/ ٣٧١) .

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٣٢٣ .

فهذا مثل على ورع الإمام مالك وقوة إيمانه ، فقد كان لايفتي إلا متمكنا من معرفة الحكم ، ولايبالي أن يوصف بنقص العلم إذا اعتذر عن الجواب، لأنه لايعمل من أجل الناس وإنما يعمل من أجل الله تعالى ، والعالم إذا سئل عن مسألة فأجاب يكون قد خلص نفسه من الناس، ولكنه إذا أجاب بغير علم يكون قد ورط نفسه وأوقعها في مهلكة ، فالعالم التقي يوازن بين مشكلة الدنيا التي قد تنقص من جاهه ومكانته عند الناس، وبين مشكلة الآخرة، حينما يقف للحساب بين يدي الله تعالى فيسأله عن الفتوى بغير علم، فيفضِّل الخلاص من مشكلة الآخرة وإن حصل له نقص في جاهه ومنزلته في الدنيا .

وهكذا فعل الإمام مالك حينما اعتذر عن الفتيا في تلك المسألة مع أن ذلك زاده شرفا ومنزلة عند العلماء، لأنهم اعتبروا ذلك دليلا على ورعه وتقواه .

وقد بين في خبر آخر عنه أنه يخشى من إجابة السائلين القادمين من الآفاق البعيدة أن يرجع عن فتواه إلى مايراه أقرب إلى الصواب، فلايستطيع بعد ذلك العثور على السائلين لإخبارهم بذلك، كما أخرج أبونعيم بإسناده عن عمرو بن يزيد أنه قال قلت لمالك: ياأبا عبد الله يأتيك ناس من بلدان شتَّى قد أَنْضَوا مطاياهم، وأنفقوا نفقاتهم يسألونك عما جعل الله عندك من العلم تقول لا أدري! فقال: ياعبدالله يأتيني الشامي من شامه، والعراقي من عراقه، والمصري من مصره، فيسألونني عن الشيء لعلِّي أن يبدوَ لي فيه غير ماأجيب به فأين أجدهم ؟[1] .

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٣٢٤ .

وهذا أبلغ في التحري والورع حيث يكون له اجتهاد في المسألة ويخشى أن يتغير اجتهاده .

موقف لعبد الله القعنبي رحمه الله :

ومن العلماء من بالغ في الورع فترك نشر الحديث خشية الوقوع في مآثم بسبب ذلك مثل احتمال مداخلة الرياء والسمعة أو وقوع الخلاف مع العلماء الآخرين ونحو ذلك ورأى بسبب ذلك أن يتفرغ لأداء الشعائر التعبدية .

ومن هؤلاء الإمام عبد الله بن مسلمة القعنبي ، ولكنه بعد التوقف رجع إلى التحديث بسبب رؤيا صالحة رآها ، كما رُوي عن أبي سبرة المديني قال : قلت للقعنبي : حدَّثتَ ولم تكن تحدث! قال: إني رأيت كأن القيامة قد قامت ، فَصِيحَ بأهل العلم، فقاموا وقمت معهم، فنودي لي : اجلس ، فقلت : إلهي ألم أكن أطلب ؟ قال: بلى ولكنهم نشروا وأخفيته ، قال : فحدثت [1] .

فهذه الرؤيا جاءت تذكيرا وإيقاظا لهذا الإمام لِمَا أراد الله تعالى به من الخير ، وإلا فهو على علم غالبا بالأحاديث التي تحث على نشر العلم وتُبَيِّن أن ذلك من أزكى الأعمال الصالحة ، لكن غلب عليه الورع، فغلَّب جانب اتقاء الأثم المحتمل على التزود بالعمل الصالح المتيقن مع صلاح النية .

من مواقف أبي حنيفة وتلميذه أبي يوسف رحمهما الله :

من أمثلة اهتمام العلماء بطلب العلم ونشره ماذكره الحافظ ابن

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

كثير من خبر الإمام القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة قال: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصار[1]، فكنت أمرُّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة ، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة : إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ماأطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي، فقال لها : اسكتي يارعناء [2]، هاهو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروزج، فقالت له : إنك شيخ قد خرفت، قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء - وكان أول من ولاه القضاء الهادي، وهو أول من لُقِّب قاضي القضاة ، وكان يقال له : قاضي قضاة الدنيا لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة - قال أبو يوسف : فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أُتِيَ بفالوذج في صحن فيروزج، فقال لي: كل من هذا فإنه لايُصنع لنا في كل وقت، وقلت: وماهذا ياأمير المؤمنين ؟ فقال : الفالوذج ، قال: فتبسمت فقال: مالك تتبسم ؟ فقلت: لاشيء أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال: لَتخبرنِّي ، فقصصت عليه القصة، فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة، ثم قال: رحم الله أباحنيفة فلقد كان ينظر بعين عقله،مالاينظر بعين رأسه[3] .

ففي هذا الخبر مثل على اهتمام الطلاب آنذاك بالعلم،حيث تنبه

(١) القصَّار الصانع أو مبيض الثياب .

(٢) أي ياحمقاء .

(٣) البداية والنهاية ١٠/١٨٦ - ١٨٧ .

الإمام أبو يوسف إلى أهمية العلم وهو طفل، وفراسة عالية وتقدير للعلم من الإمام أبي حنيفة حيث أخبر بماسيؤول إليه أمر أبي يوسف، وموقف لأمير المؤمنين هارون الرشيد في إعزاز العلماء وتقديريهم .

من مواقف هاشم السلمي وشيخه أبي شيبة رحمهما الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي معاوية هاشم بن بشير بن أبي حازم السُّلمي ، قال: كان أبوه طباخا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد ذلك يبيع الكوامخ[1] ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله، فأبى إلا أن يسمع الحديث، فاتفق أن هاشمًا مرض فجاءه أبو شيبة قاضي واسط عائدًا له ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال: يابني أَبَلَغَ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي ؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث[2] .

وهكذا عرف بشير بن أبي حازم قيمة العلم ومنزلة أهله حينما جاء قاضي واسط ومعه أهل العلم لزيارة ابنه هاشم الذي كان -آنذاك- من طلاب العلم، وكم كانت فرحته حينما جاء القاضي لزيارته لما سيترتب على ذلك من تقدير أبيه للعلم وأهله، وهذا موقف يذكر لأبي شيبة قاضي واسط في تقديره لطلاب العلم، ولقد رفعت هذه الزيارة الحرج عن هاشم بن بشير ، حيث أصبح أبوه لايمنعه بعد ذلك من طلب العلم .

---

(١) جمع كامخ ، معرَّب ، وهو اسم لما يؤتدم به .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٠ .

موقف لهشام بن عمار رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمامهم بطلب العلم ماروُي عن هشام بن عمار قال: دخلت على مالك [1] فقلت له : حدثني ، فقال: اقرأ، فقلت: لا بل حدثني ، فقال: اقرأ ، فلما أكثرت عليه، قال: ياغلام تعال اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر، فذهب بي فضربني خمس عشرة درَّة، ثم جاء بي إليه، فقال : قد ضربته ، فقلت له : لِمَ ظلمتني ؟ ضربتني خمس عشرة درةً بغير جرم ، لا أجعلك في حل، فقال مالك : فما كفارته ؟ قلت : كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثا، قال: فحدثني بخمسة عشر حديثا ، فقلت له : زد من الضرب وزد في الحديث، فضحك مالك وقال: اذهب [2] .

فهذا مثل بليغ في اهتمام طلاب العلم بالتحصيل العلمي في رواية السنة النبوية،فقد احتمل هشام بن عمار الضرب في سبيل العلم،وكان يريد المزيد من العلم وإن ناله مزيد من الضرب في سبيل ذلك.

وفيه مثل من اهتمام الإمام مالك بتأديب الطلاب الذي قد يصل إلى حد الضرب، ومع أنه قد فعل ذلك على سبيل التأديب فإنه لما تظلَّم إليه هشام بن عمار غلب عليه جانب الخوف من الله تعالى فسأل ذلك الطالب عن كفارة ماحصل منه نحوه، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة استحضاره لرقابة الله عز وجل والحساب الأخروي .

---

(١) يعني الإمام مالك بن أنس .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٤٢٩ .

من مواقف أبي يوسف يعقوب الفسوي رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام أبي يوسف يعقوب بن أبي معاوية الفسوي قال: وقد رحل في طلب الحديث إلى البلدان النائية ، وتغرَّب عن وطنه ثلاثين سنة، وروى ابن عساكر عنه قال : كنت أكتب في الليل على ضوء السراج في زمن الرحلة، فبينا أنا ذات ليلة إذا وقع شيء على بصري فلم أبصر معه السراج، فجعلت أبكي على مافاتني من ذهاب بصري ، وما يفوتني بسبب ذلك من كتابة الحديث، ومأأنا فيه من الغربة ، ثم غلبتني عيني فنمت فرأيت رسول الله ﷺ فقال : مالك ؟ فشكوت إليه ماأنا فيه من الغربة ومافاتني من كتابة السنة، فقال: ادْنُ مني، فدنوت منه فجعل يده على عيني، وجعل كأنه يقرأ شيئًا من القرآن، ثم استيقظت فأبصرت وجلست أسبح الله (١) .

وهكذا كان اهتمام الإمام الفسوي سببا فيما نزل به من الغم الشديد حينما فقد بصره ، فلم يفكر - آنذاك - بأمور دنياه وإنما كان باله مشغولا بما سيفوته من كتابة السنة النبوية بسبب فقد البصر، وقد رحمه الله تعالى فشفاه بواسطة رقية رسول الله ﷺ إياه في المنام، وأكْرِمْ بها من واسطة !

من مواقف عبد الله بن المبارك وعلي بن الحسن بن شقيق رحمهما الله :

ومن أمثلة اهتمامهم بالعلم وهيامهم بمذاكرته مارُوي عن علي بن الحسن بن شقيق رحمه الله قال: قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٦٣ - ٦٤ .

باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح (١) .

فهذان العالمان الجليلان يستغرقان في مذاكرة الحديث ليلة كاملة عند باب المسجد ، ولم يعكِّر عليهما ماكان من برودة الجو لأن اشتيقاهما إلى المذاكرة واستغراقَ أفكارهما في العلم ينسيهما لوافح البرد وسمائم الحر .

من مواقف إسماعيل بن عياش رحمه الله :

ومن الأخبار التي تدل على اهتمام العلماء بالعلم وتذكره ماروواه محمد بن عوف عن أبي اليمان قال: كان منزل إسماعيل [يعني ابن عياش] إلى جانب منزلي، فكان يحيي الليل، وكان ربما قرأ ، ثم يقطع ثم رجع فقرأ من الموضع الذي قطع منه، فلقيته يوما فقلت: ياعم قد رأيت منك في القراءة كيت وكيت ، قال: يابني وماسؤالك؟ قلت: أريد أن أعلم، قال: يابني إني أصلي فأقرأ ، فأذكر الحديث في الباب من الأبواب التي أخرجتها فأقطع الصلاة فأكتبه ثم أرجع إلى صلاتي فأبتدئ من الموضع الذي قطعت منه (٢) .

وقوله « فأقطع الصلاة » يعني القراءة ثم يتم الركعتين خفيفتين ثم يعود إلى القراءة بعد كتابه الحديث في صلاة أخرى، لأنه يبعد من ذلك العالم أن يقطع صلاته بالكلية .

وفي هذا الخبر دلالة على اهتمام العلماء البالغ بالعلم وتذكره

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٨٠ .

وتدوينه، فقد كـان التفكير في العلم يدخل عليهـم حتى في صلاتهم التي كانت أغلى شيء في حـياتهم، فهذا العـالم الجليل يوقف قراءته ويخفف صلاته ليدون ماخطر في فـكره من العلم خشية فواته، وهذا دليل على فهمهم الصحيح لمنزلة العلم وأهميته .

من مواقف أبي جعفر المنصور مع أحد العلماء رحمهما الله :

ذكر الإمام محـمد بن جرير الطبري في ترجمـة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصـور قال : ودخل على المنصور رجل من أهل العلم فازدراه واقتحمتْه عينه، فجعل لايسأله عن شيء إلا وجد عنده، فقال له: أنَّى لك هذا العلم ! قـال: لم أبخل بعلم عـلمتـه، ولم أسـتح من علم أتعلمه ، قال: فمِنْ هناك [1] .

وهكذا رفع العلم هذا الرجل الذي احتقره أمير المؤمنين أبو جعفر المنصورُ في أول الأمر ، فالعلم النافع رِفْعة ونـور لصاحبه في الـدنـيـا والآخرة، وقد أبان هذا العالم للمنصور سبب حـفظه العلم واستيعابه إياه بأمرين: الأول أنه لـم يبخل بعلمه، بل نشـره وعلَّمه غيره، وتعليم العلم هو أهم وسائل حـفظه وتذكُّره ، والثاني أنه لم يمنعـه الحياء من طلب العلم حيث كان يسـأل عما خفي عليه منه، وهذا يعطيـه فرصة أكبر في التزود من العلم ومعرفة مسائله الخفية .

من مواقف عاصم بن علي رحمه الله :

ومن أمثلة كثرة طلاب العلم وتزاحمهم على العلماء ما جـاء عن

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٨٨ .

عمر بن حفص السدوسي قال: سمعنا من عاصم بن علي، فوجه المعتصم من يحرز مجلسه في رحبة النخل التي في جامع الرصافة، وكان يجلس على سطح، وينتشر الناس، حتى إني سمعته يوما يقول: حدثنا الليث بن سعد، ويُستعاد ، فأعاد أربع عشرة مرة، والناس لايسمعون، وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة يستملي عليها، فبلغ المعتصم كثرة الخلق فأمر بحزرهم، فوجَّه بقطَّاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين ومائة ألف [١] .

فهذا مثال على كثرة طلاب العلم والمستمعين للدروس العلمية، وخاصة مايتعلق بالسنة النبوية ، حيث إن دروسها هي التي كانت تحظَى بالعدد الكبير من الطلاب والمستمعين .

وإذا نحن قارنا بين تلك العصور وعصرنا الحاضر نجد أن الله تعالى منَّ علينا في هذا العصر بالوسائل التي يستطيع بها أهل العلم أن يُبَلِّغوا العلم ومن ذلك مكبرات الصوت، بينما كان أهل العلم سابقا يضطرون إلى عدد من المبلغين إذا كثر طلاب العلم، وذلك يأخذ عليهم وقتا طويلا .

إضافة إلى ماتوفر في هذا العصر من الآلات الأخرى التي يتم بها نشر العلم بسرعة وحفظه كالمسجلات وآلات الطباعة والتصوير .

وإن من شكر هذه النعمة على أبناء هذا الجيل أن يستخدموا هذه الوسائل في تكثيف الإنتاج والاستفادة من الوقت الذي وفرته هذه الوسائل .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٣/٩ ، تاريخ بغداد ٢٤٨/١٢ .

من مواقف علي بن عاصم رحمه الله :

من ذلك ماذكره الإمام الذهبي عن الخضر بن أبان قال: سمعت علي بن عاصم يقول : خرجت من واسط أنا وهشيم إلى الكوفة لِلُقِيِّ منصور - يعني ابن المعتمر - فلما خرجت فراسخ لقيني أبو معاوية، فقلت: أين تريد؟ قال : أسعى في دين عليَّ، فقلت: ارجع معي فإن عندي أربعة آلاف أعطيك منها ألفين، فرجَّعته فأعطيته ألفين، ثم خرجت فدخل هشيم الكوفة غداة، ودخلتها العشي فذهب فسمع من منصور أربعين حديثا، ودخلت أنا الحمام، ثم أصبحت فأتيت باب منصور فإذا جنازته ، فقعدت أبكي ، فقال شيخ هناك : يافتى مايبكيك؟ قلت: قدمت لأسمع من هذا الشيخ فمات، قال: فأدلك على من شهد عرس أم ذا ؟ قلت: نعم ، قال: اكتب: حدثنا عكرمة عن ابن عباس، فجعلت أكتب شهرا، فقلت: من أنت؟ قال: أنا حصين بن عبد الرحمن ماكان بيني وبين أن ألقى ابن عباس إلا تسعة دراهم، وكان عكرمة يسمع منه ثم يجيء فيحدثني [1] .

ففي هذا الخبر مواقف عالية :

فالموقف الأول في رجوع علي بن عاصم الواسطي ليقضي دين أحد العلماء وهو أبو معاوية، وهذا مثل من الكرم المتأصل في النفس، حيث أجَّل سفره من أجل هذه المهمة ، ولم يطلب منه أبو معاوية وإنما ذكر فقط بأنه خرج من أجل طلب سداد دين عليه، وليس غريبا هذا الكرم على علماء الدين بل هو الغالب عليهم وخاصة فيما بينهم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/٢٥٣ .

ومع طلابهم لأنهم كانوا يريدون وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولأن مثل هذا الموقف يكون بعيداً عن الخيلاء والمباهاة ،وهم كانوا أحرص شيء على توقِّي أمراض القلوب .

والموقف الثاني: في بكاء علي بن عاصم حينما فاته السماع من منصور بن المعتمر، والبكاء أثر من آثار حرقة النفس وكمدها على فوات المحبوب، وقد كان العلم أعزَّ محبوب من المطالب عند أهل العلم .

وقد كان علي بن عاصم يستطيع سماع مافاته من مرويات منصور ابن المعتمر من تلامذته الذين سمعوا منه، ولكنه كان يريد علو الإسناد، وكان ذلك مطلبا عزيزاً عند أهل الحديث رحمهم الله تعالى، وقد عوَّضه الله سبحانه بما يشفي وَجْده ذلك بما سمع من حصين بن عبد الرحمن الذي لم يكن بينه وبين ابن عباس رضي الله عنهما إلا عكرمة.

والموقف الثالث: فيما قام به حصين بن عبد الرحمن من مواساة علي بن عاصم حينما رأى مصيبته بفقد منصور بن المعتمر، حيث جلس يحدثه شهراً، فعوضه عما فاته مما قدم الكوفة من أجله، وقد كان العلماء يقدِّرون طالب العلم الذي يلمسون منه إخلاصا في طلب العلم.

وإلى جانب حرص الطلاب في ذلك الزمن على تعلم العلم نجد الآباء يشجعون أبناءهم ويوجهونهم إلى العلماء ، ويبذلون في سبيل ذلك الكثير من أموالهم كما جاء عن عاصم بن علي أنه قال: دفع

إليَّ أبي مائة ألف درهم ، وقال : اذهب فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث [(١)] .

فهذا مثل من أمثلة اهتمام الآباء بتوجيه أبنائهم نحو العلم مع مايكلفهم ذلك من أموال ، فقد كانوا أسخياء بأموالهم في سبيل تعليم أبنائهم ، وإذا كان طلب العلم لايحصل إلا بهذا الجهد البدني والمالي فإنه أبقى له وأجدر بالانتفاع به .

موقف لعبد الله بن داود الخريبي رحمه الله :

ويشبه موقف علي بن عاصم مارواه الكديمي عن عبد الله بن داود الخُرَيْبي أنه قال : كان سبب دخولي البصرة لأنْ ألقى ابن عون فلما صرت إلى قناطر سردارا تلقاني نعيه، فدخلني ما الله به عليم [(٢)] .

موقف لابن المديني رحمه الله :

ومن أمثلة حرصهم على طلب العلم ماجاء عن إبراهيم بن المنذر الحزامي قال: قدمت البصرة فجاءني علي بن المديني فقال: أول شيء أطلب أن تخرج إليَّ حديث الوليد بن مسلم ، فقلت: ياابن أمَّ ، سبحان الله ! وأين سماعي من سماعك ؟ فجعلت آبَى ، ويلح ، فقلت له : أخبرني عن إلحاحك ماهو ؟ قال أُخبرُك : إن الوليد رجل أهل الشام ، وعنده علم كثير ، ولم استمكن منه، وقد حدثكم بالمدينة في المواسم ، وتقع عندكم الفوائد، لأن الحجاج يجتمعون بالمدينة من الآفاق فيكون مع هذا بعض فوائده ومع هذا شيء .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٥٢ ، تاريخ بغداد ١١/ ٤٤٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٤٨ ، تهذيب الكمال ٦٧٨ .

قال : فأخرجت إليه ، فتعجب من كتابه، كاد أن يكتبه على الوجه[1].

فهذا مثال لحرص العلماء على نوادر العلم ، كما أنه مثال لتواضعهم في الطلب فإن عليّ بن المديني أشهر من إبراهيم بن المنذر، ومع ذلك يذهب إليه ابن المديني ليأخذ منه الفوائد العلمية .

وهو إضافة إلى ذلك مثال لما كانت تعمر به مكة والمدينة في أيام المواسم من النشاط العلمي المترتب على وفود العلماء وطلاب العلم من الآفاق ،وهذه منفعة عظمى من المنافع التي ذكرها الله جل وعلا بقوله﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨].

من مواقف أبي حاتم وزملائه رحمهم الله :

من ذلك مارُوي عن أبي حاتم [2] أنه قال عن عبد الله بن مسلمة القعنبي : سألناه أن يقرأ علينا الموطأ، فقال: تعالوا بالغداة، فقلنا: لنا مجلس عند حجاج بن منهال ، قال: فإذا فرغتم من حجاج ، قلنا: نأتي مسلم بن إبراهيم ، قال: فإذا فرغتم ، قلنا: يكون وقت الظهر ونأتي أبا حذيفة النهدي ، قال: فبعد العصر ،قلنا : نأتي عارمًا أبا النعمان ، قال : فبعد المغرب ، فكنا نأتيه بالليل فيخرج علينا وعليه كبل [3] ماتحته شيء في الصيف في الحر الشديد ، فكان يقرأ علينا وعليه كساؤه ولو أراد لأعطى الكثير [4] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢١٤ .

(٢) هو الإمام الحافظ محمد بن إدريس التميمي الرازي .

(٣) أي فرو كبير .

(٤) الجرح والتعديل ٥/ ١٨١ ، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٠ .

فهذا مثل لعمران البلاد آنذاك بمجالس العلم ، فأبو حاتم وزملاؤه في طلب العلم يحضرون خمسة دروس في اليوم في الحديث، وإذا تذكرنا أنهم يحفظون مايسمعون عن ظهر قلب غالبا عرفنا الجهد الكبير الذي كان يبذله طلاب العلم آنذاك في حمل العلم .

ولقد كان بعض تلك الأحاديث من مسموعاتهم قديما ولكنهم يحبون أن يسمعوها من أكثر من شيخ زيادة في التثبت والتحري .

من مواقف سليمان بن حرب رحمه الله :

ومن أمثلة كثرة طلاب العلم في دروس الحديث النبوي ماأخرجه ابن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : لقد حضرت مجلس سليمان ابن حرب ببغداد ، فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل، وكان مجلسه عند قصر المأمون، فبُنِي له شبه منبر فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد[1] والمأمون فوق قصره، قد فتح باب القصر، وقد أُرسِل سترٌ يَشِفُّ وهو خلفه يكتب مايُملَى، فَسُئل أول شيء حديث حوشب بن عقيل، فلعله قد قال: حدثنا حوشب بن عقيل أكثر من عشر مرات وهم يقولون : لانسمع فقام مستملٍ ومستمليان وثلاثة ، كل ذلك يقولون : لانسمع ،حتى قالوا: ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي، فذهب جماعة فأحضروه، فلما حضر قال: من ذكرت ؟ فإذا صوته خلافُ الرعد، فسكتوا ،وقعد المستملون كلهم ، فاستملَى هارون، وكان - يعني سليمان بن حرب - لايُسأل عن حديث إلا حدث من حفظه، وسئل عن حديث فتح مكة

---

(١) أي لبس السواد وهو شعار العباسيين .

فحدثنا به من حفظه، فقمنا من مجلسه فأتينا عفان-يعني ابن مسلم – فقال: ماحدثكم أبو أيوب ؟وإذا وهو يعظمه [(١)] .

فهذا الخبر مثل لكثرة طلاب العلم في عصور الإسلام الزاهرة، فهذا الإمام الجليل سليمان بن حرب قد اجتمع في درسه أربعون ألف طالب، وهؤلاء يعادلون طلاب جامعة من أكبر جامعات الدنيا في العصر الحاضر .

وفي المقارنة بين الوسائل المتاحة للعلماء وطلاب العلم في هذا العصر ومأتيح لهم في العصور السابقة نجد فرقا كبيرا، فقد كانوا مضطرين سابقا إلى تكليف عدد من المبلغين لكثرة الحضور وعدم سماعهم صوت الشيخ ، وحينما يوجد رجل جهوري الصوت من أهل العلم فإنه يكون نعمة على الشيوخ والتلاميذ كما هو الحال في هارون المستملي الذي جاء ذكره في هذا الخبر .

وكان القادة يستفيدون أيضًا من أصحاب الأصوات الجهورية في إبلاغ البلاغات العسكرية ، ولهم في ذلك أسوة حسنة برسول الله ﷺ يوم حنين ، حيث كلف عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بنداء أفراد الجيش ، وكان جهوري الصوت .

أما أبناء هذا العصر فقد هيأ الله تعالى لهم مكبرات الصوت التي تحيل الصوت الخافت إلى صوت جهوري ، يصل إلى أبعاد طويلة، فاستفاد من ذلك العلماء والخطباء والقادة وغيرهم في اختصار الوقت الذي كان سابقا يذهب في التبليغ .

---

(١) الجرح والتعديل ٤/١٠٨ – ١٠٩ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٣٣١-٣٣٢ .

أما ماجاء في هذا الخبر من كون سليمان بن حرب لايُسأل عن حديث إلا حدث به من حفظه فهو مثل من أمثلة كثيرة تكشف عما كان يبذله العلماء من جهود كبيرة في حفظ السنة النبوية بأسانيدها .

وأخيرًا موقف كريم للعالم الجليل عفّان بن مسلم الذي كان معاصرا لسليمان بن حرب، ويساميه في الحفظ والعلم، فلما سأل عنه طلاب العلم الذين حضروا هذا المجلس وأخبروه عنه أثنى عليه وعظمه .

من مواقف يحيى بن معين رحمه الله :

من مواقف العلماء المشهور شدة تحريهم ودقة تثبتهم في رواية الحديث النبوي ، ومن أمثلة ذلك مارواه أحمد بن منصور الرمادي قال: خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما[١]. قال: فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى بن معين : أريد أن أختبر أبا نعيم[٢] فقال أحمد : لاتُرِدْ فالرجل ثقة ، قال يحيى : لابد لي، فأخذ ورقة فكتب فيها ثلاثين حديثا وجعل على رأس كل عشرة منها حديثا ليس من حديثه ، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم ، فخرج وجلس على دكان طين، وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه عن يمينه، ويحيى عن يساره، وجلست أسفل الدكان ، ثم أخرج يحيى الطبق فقرأ عليه عشرة أحاديث ، فلما قرأ الحادي عشر قال أبو نعيم : هذا ليس من

(١) يعني أن أحمد الرمادي خرج مع الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين من العراق إلى اليمن لسماع الحديث من محدث اليمن عبد الرزاق الصنعاني .

(٢) هو الحافظ الفضل بن دُكَين ، ودكين لقب اشتهر به أبوه عمرو بن حماد .

حديثي، اضرب عليـه ، ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم سـاكت، فقرأ الحديـث الثاني - يعني من الأحـاديث التي أدخلها في أحـاديث أبي نعيم- فـقال أبو نعيم : ليس هذا من حـديثي فاضرب عليـه، ثم قرأ العشر الثالث ، ثم قرأ الحديث الثالث ، فتغير وجه أبي نعيم وانقلبت عيناه ، ثم أقبل على يحيى فقال: أما هذا - وذراع أحمد بيده- فأورع من أن يعمل مثل هذا ، وأما هذا - يريدني - فأقل من أن يفعل ذلك ولكن هذا من فعلك يافاعل ، وأخرج رجله فرفس يحيى فرمى به من الدكان ، وقام فدخل داره ، فقال أحمد بن حنبل ليحيى : ألم أمْنَعْك وأقُلْ لك : إنه ثبت ، قال: والله لرَفْسَتُه أحب إلي من سفرتي[1].

فهذا الإمـام الكبير والحافظ الخبـير يحيى بن معين يقوم باخـتبار شيخـه أبي نعيم ، لا على سبيل التعنـت والإحراج وإنما ليصل بذلك إلى توثيق آلاف الأحـاديث التي رواها عنه، وقـد كان الإمـام أحمـد واثقا من شـيخه أبي نعـيم ويعتقـد أنه ثقة ، ولكن يحـيى أصر على الاختبار ليحصل على مزيد من الثقة .

ونجح الشيخ أبو نعيم رحمه اللـه تعالى في ذلك الاختبار، ولكنه غضب غضـبا شديداً ، وكَبُر عليه أن يحـصل ذلك من تلاميذه وهذا هو الذي كان يخشى منه أحمد بن حنبل

وتلقَّى يحيى ضريبـة عمله ذلك رفسة أطاحت به من قدم شـيخه ولكن هذه الرفسة كانت عند يحيى أحلى من فـرحة العودة من سفرته العلمية إلى اليمن .

---

(١) تاريخ بغداد ٣٥٣/١٢ - ٣٥٤ ، سير أعلام النبلاء ١٤٨/١٠ - ١٤٩ .

لقد استـقرت نفس يحيى واطمأن بعد ذلك الاختـبار لحديث أبي نعيم الكثـير فلِمَ لايكون ذلك أحلى عنده مما جـمعه من عـبد الرزاق الصنعاني في سفرته إلى اليمن ؟

إن سعادة هؤلاء العلمـاء النفسية ومتعـتهم الروحية تتحقق فـيما يقدمونه لسنة رسول الله ﷺ من خـدمة في جمعها وتنقيتـها ومعرفة درجات رواتها في القوة والضعف ، ومـن أجل هذه السعادة استحلى يحيى تلك الرفسة من أبي نعيم فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة .

ومن أمثلة اهتمامهم أنهم كانوا يكتـبون الحديث مرات عديدة كما رُوي عن يحيى بن مـعين أنه قال: لو لم نكتب الحديث خمـسين مرة ماعرفناه (١) .

ولعل ذلك بتـعدد الروايات عـن الشيـوخ حيث يروون الحـديث الواحد مرات عـديدة بأسانيد متعـدده ، وهذا دليل على الجد والمثابرة في جـمع العلم حيث لم يكتـفوا برواية واحـدة للحديث الـواحد أو روايات قليلة ، وكلـما تكـرر متن الحديـث زادوا به معـرفـة وإتقـانًا وضبطا، وبهذا نالوا مرتبة الحفظ التام والإتقان الكامل .

ومما روي عن توسع يحيى بن مـعين في العلم ماذكره أحـمد بن عقـبة قال: سألت يحـيى بن معين : كم كتبت من الحـديث ؟ قال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث .

قال الإمام الذهبي : يعني بالمكرر .

وقال صالح بـن أحمد الحافظ : سمـعت أبا عبد الله مـحمد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٤ .

عبد الله يقول : سمعت أبي يقول : خلَّف يحيى بن معين مائة قِمَطْر وأربعة عشر قمطرًا وأربعة حِبَاب شرابية مملوءة كتبا [1] .

وهذا يعني أن الحافظ يحيى بن معين قد استوعب أكثر السنة رواية ، وقد سبق عنه أنهم كانوا يروون الحديث الواحد بأسانيد متعددة فالمقصود هنا الأسانيد وليس المتون ، فالمتون تكون مكررة كما ذكر الذهبي .

وهذه الخزائن الكُتُبِيَّة التي خلَّفها ابن معين كلها من مروياته لأن الكتب إذا نُسبت إلى العالم فإنما يقصدون بذلك كتب الأحاديث التي رواها .

من مواقف الشقيقي رحمه الله :

من أمثلة تثبُّت العلماء - رحمهم الله تعالى - في رواية الحديث ماروُي عن أبي عمار الحسين بن حريث قال : قلت للشقيقي [2]: سمعتَ من أبي حمزة كتاب الصلاة ؟ قال: قد سمعت ولكن نهق حمار يوما فاشتبه حديثٌ فلا أدري أي حديث هو ، فتركت الكتاب كله[3].

من مواقف أبي رجاء قتيبة رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره أحمد بن سيار المروزي عن الحافظ أبي رجاء

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨١ ، [والقمطر هو وعاء يصنع من القصب، والحِبَاب الجرار الضخمة].

(٢) هو الحافظ علي بن الحسن بن شقيق المروزي .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٥١ - ٣٥٢ .

قتيبة مولى الحجاج بن يوسف حيث قال عن كثرة مروياته : وكان كثير الحديث، لقد قال لي : أقم عندي هذه الشَّتْوة حتى أخرج لك مائة ألف حديث عن خمسة أناسيّ ، فقلت: لعل أحدهم عمر بن هارون ؟ قال :لا ،كنت كتبت عن عمر بن هارون وحده أكثر من ثلاثين ألفا ،ولكن وكيع بن الجراح ، وعبد الوهاب الثقفي ، وجرير، ومحمد بن بكر البُرْسَاني، ونسيت الخامس [1] .

وإذا كانت روايات أبي رجاء مائة ألف حديث عن خمسة شيوخ فكيف برواياته عن بقية شيوخه !

من مواقف أحمد بن حنبل وأبي زرعة وإسحاق بن راهويه رحمهم الله :

لقد كان اهتمام العلماء بالعلم يصل أحيانًا إلى حد الانشغال به عن بعض نوافل العبادات ، ومن أمثلة ذلك ماارواه عبد الله بن الإمام أحمد قال : لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يوما يقول : ماصليت غير الفرض ، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي [2] .

وهذا يفيد بأن مذاكرة العلم والاشتغال به أفضل من نوافل العبادة والمقصود بذلك النوافل المطلقة ، أما المقيدة بأوقات محددة فلا ينبغي تركها، وإنما كان الاشتغال بالعلم أفضل من نوافل العبادة المطلقة لأن العلم يتعدى نفعه للمسلمين بخلاف نوافل العبادة فإن نفعها يقتصر على فاعلها، والمقصود بالعبادة هنا المعنى الاصطلاحي الشائع وهو

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٧ .

إطلاق ذلك على الشعائر التعبدية وإلا فإن العبادة تشمل جميع الأعمال الصالحة .

وقد يغلب على العلماء خاطر الاشتغال بالعلم فيشغلهم حتى عن نوافل الوقت المحددة كما جاء في خبر عن الحافظ إسحاق بن راهويه قال : كنا عند عبد الرزاق أنا وأحمد بن حنبل، فمضينا معه إلى المصلّى يوم عيد فلم يكبِّر هو ولاأنا ولاأحمد، فقال لنا: رأيتُ معمراً والثوريّ في هذا اليوم كبَّرا وإني رأيتكما لم تكبرا فلم أكبر فلِمَ لم تكبرا ؟ قلنا: نحن نرى التكبير ولكن شُغِلنَا بأي شيء نبتدئ من الكتب [1] .

وكون هذين الإمامين العابدين شغلا عن التكبير بالتفكير في العلم دليل على عظمة اهتمامهما بالسنة النبوية .

ولقد كانوا يروون الحديث الواحد من عدة طرق فلا يكتفون بإسناد واحد ، وقد كان هذا من أسباب ضبط السنة لأنه إذا اخطأ راو أو أكثر في بعض الحديث فيمكن تصحيحه من الطرق الأخرى، وفي بيان ذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه وسبعة لم نضبطه ، فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد ؟!

وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبو زرعة : أبوك يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل : ومايدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب [2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٧ .

فهذا مثال لاهتمام العلماء برواية السنة حيث يروونها من طرق متعددة ، وكثيرا مارحلوا مسافات طويلة من أجل زيادة هذه الطرق، وإن من مزايا ذلك ضبط ألفاظ الأحاديث وتقوية أسانيدها ، وقد يقتصر العالم عند تدوين السنة على طريق أو أكثر ويحذف بعض الطرق على سبيل الاختصار أو لكونها لاتخلوا من ضعف .

والمقصود بقول الحافظ أبي زرعة : « أبوك يحفظ ألف ألف حديث» الأسانيد وليس المتون ، فالحديث الواحد الذي يَرِدُ بعدة أسانيد يُحسب بعددها ، وقد كانوا يعدُّون الأحاديث بالأسانيد لشدة اهتمامهم بجمع الطرق الكثيرة للحديث الواحد .

ومن ذلك ماروه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: وسمعت أبي يقول : رأيت أحمد في المنام [1] ، فرأيته أضخم مما كان وأحسن وجها وسَحْنًا [2] مما كان ، فجعلت أسأله عن الحديث [3] .

ففي هذا الخبر بيان اهتمام العلماء بدراسة السنة النبوية ، حيث يتذاكرون في الحديث حتى في رُؤَى المنام ، فهذا يدل على أن هذا العلم هو أهم شيء عندهم .

ومن ذلك مارُوي عن صالح بن الإمام أحمد قال: عزم أبي علي الخروج إلى مكة ليقضي حجة الإسلام ، ورافق يحيى بن معين، فقال: نمضي إن شاء الله فنقضي حجتنا ونمضي إلى عبد الرزاق إلى

---

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) يعني الهيئة واللون .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٤٥ .

صنعاء نسمع منه ، وكان يحيى بن معين يعرف عبد الرزاق وقد سمع منه [قال: يحيى بن معين] فوردنا مكة وطفنا طواف الورود، فإذا عبد الرزاق في الطواف يطوف ، فطاف وخرج إلى المقام فصلى ركعتين وجلس ، فتممّْنا طوافنا أنا وأحمد وجئنا وعبد الرزاق جالس عند المقام ، فقلت لأحمد : هذا عبد الرزاق قد أراحك الله من مسيرة شهر ذاهبًا وجائيا ومن النفقة ، فقال: ماكان الله يراني وقد نويت له نية أُفسدها ولا أتمها (١) .

فهذا الخبر مثل من الحرص الشديد على العمل الصالح، فقد كان الإمام أحمد قد نوى السفر إلى اليمن للسماع من الإمام عبد الرزاق الصنعاني فأحب أن يَتِمَّ على نيته ولم يكتف بلقاء عبد الرزاق في مكة ليكتب الله تعالى له ذلك العمل الصالح الذي نواه، وحينما تَدْخل النية الصالحة في طلب العلم فإن الله جل وعلا يبارك في أي جهد يبذله المتعلم ، إضافة إلى تحول طلب العلم والسفر من أجله إلى عمل صالح يُرفع لصاحبه .

ومن أخبار العلماء في الشوق إلى العلم ماروُي عن عبد الله بن الإمام أحمد قال: سمعت أبي يقول : لما قدمت صنعاء اليمن - أنا ويحيى بن معين - في وقت صلاة العصر،فسألنا عن منزل عبد الرزاق فقيل لنا : بقرية يقال لها الرمادة ، فمضيت لشهوتي للقائه ، وتخلف يحيى بن معين ، وبينها وبين صنعاء قريب، حتى إذا سألت عن منزله قيل لي : هذا منزله ، فلما ذهبت أدقُّ الباب قال لي بقَّال تجاه داره ،

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٧٥ .

مَهْ ، لاتدق فإن الشيخ مهوب، فجلست حتى إذا كان قبل صلاة المغرب خرج للصلاة فوثبت إليه وفي يدي أحاديث قد انتقيتها، فقلت له :سلام عليكم ، تحدثني بهذه رحمك الله فإنني رجل غريب، فقال لي: ومن أنت ؟ قلت: أنا أحمد بن حنبل، فتقاصر ورجع وضمني إليه وقال: بالله أنت أبو عبد الله؟ ثم أخذ الأحاديث فلم يزل يقرؤها حتى أشكل عليه الظلام ، فقال للبقال: هلمَّ بالمصباح، حتى خرج وقت صلاة المغرب [1] وكان يؤخرها .

قال عبد الله :فكان أبي إذا ذكر أنه نُوِّه باسمه عند عبد الرزاق بكى[2].

فهذا الخبر فيه مثل من حرص الإمام أحمد على العلم، فمنذ أن وصل إلى اليمن بادر إلى سماع الأحاديث من الإمام عبد الرزاق الصنعاني ولم ينتظر حتى يستريح .

وفي الخبر مثل من تقدير أهل الفضل والتقدم في العلم والدين، فمنذ أن عرف عبد الرزاق أحمد بن حنبل ضمه وأكرمه وتواضع له.

وأخيرا مثل من الخشية والخوف من الله تعالى حيث كان الإمام أحمد يبكي كلما ذكر حفاوة عبد الرزاق الصنعاني به، المبنيَّة على سبق شهرته إليه .

ومن أمثلة ماروي عن الحافظ أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم

---

(١) أي خرج أول وقتها .

(٢) طبقات الحنابلة ١/١٨١ - ١٨٢ - .

الرازي رحمه الله تعالى أنه قال: كل شيء قال الحسن [يعني البصري] قال رسول الله ﷺ وجدت له أصلا إلا أربعة أحاديث (١) .

وهكذا فليكن العلم ! فقد قام أبو زرعة بحصر مرسلات الحسن البصري رحمه الله تعالى فوجد لها أصلا موصولا ماعدا أربعة أحاديث، وبهذا وأمثاله استحق أبو زرعة أن يكون من أبرز حفاظ زمانه، وجدير بهذا العالم الحافظ الناقد أن يحكم على الأحاديث وأن يعمل العلماء بحكمه.

ولقد كان رحمه الله تعالى محتفظا بحفظه حتى وهو يعاني من سكرات الموت كما قال أبو جعفر محمد بن علي ورَّاق أبي زرعة: حضرنا أبا زرعة بـ « ماشهران» وهو في السَّوق(٢) وعنده أبو حاتم وابن وارة والمنذر بن شاذان وغيرهم ، فذكروا حديث التلقين « لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله » واستحيَوا من أبي زرعة أن يلقنوه فقالوا : تعالوا نذكر الحديث، فقال ابن واره: حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد ابن جعفر عن صالح ، ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة وهو في السَّوق : حدثنا بندار حدثنا أبو عاصم حدثنا عبد الحميد عن صالح بن أبي عَريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» ، وتوفي رحمه الله تعالى (٣) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٦٩ .

(٢) يعني قد حضره الموت .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٧٧ ، تاريخ بغداد ١٠/ ٣٣٥ .

وهكذا كان أبو زرعة حافظا للأحاديث وهو في النزع الأخير مما يدل على أن علم السنة قد خالط روحه وهيمن على تفكيره، وكذلك كان الحفاظ الكبار رحمهم الله تعالى .

موقف للأصمعي رحمه الله :

ومن المواقف المذكورة في بيان أهمية علم النحو ماجاء عن أبي داود السنجي قال : سمعت الأصمعي[1] يقول: إن أخوف ماأخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله عليه السلام « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » [2] .

فالأصمعي رحمه الله تعالى يبين أهمية تعلم اللغة العربية وخاصة في رواية الحديث النبوي ، فالحديث لايكون مشكولا كالقرآن غالبا، فإذا نسبه روايه إلى رسول الله ﷺ ولحن فيه يكون كأنما نسب اللحن إلى رسول الله ﷺ ، فيكون كأنما كذب عليه حيث نسب إليه قولا لم يَقُلْه على نفس الوجه الذي أورده وإنما قاله باللغة العربية الفصحى .

ويكون الخطبُ أعظم حينما يخطئ القارئ خطأ يحيل المعنى لأنه بهذا يلبِّس الأمر على السامع ويوصله في الفهم إلى خلاف مقصود الحديث .

ولاشك أن هناك خطأ مشتركا في عدم العناية بالسنة النبوية من هذا الجانب، فدُور النشر لاتهتم كثيرا بتشكيل الأحاديث النبوية،

---

(١) هو العلامة الأديب أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب ، وهذا لقب ابيه عاصم .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧٨/١٠ .

والقراء لايهتمون بتعلم اللغة العربية، فيحصل بسبب ذلك اللحن البسيط واللحن الفاحش في رواية السنة، وخاصة من بعض الوعاظ الذين لم يتمكنوا من تعلم اللغة العربية .

موقف لأبي بكر أحمد الرمادي رحمه الله :

لقد بلغ من شدة اهتمام العلماء بحديث رسول الله ﷺ أنهم كانوا يستشفون بسماعه من المرض كماروُي عن الإمام أبي بكر أحمد ابن منصور الرمادي أنه كان إذا مرض يَستشفِي بأن يسمعوا عليه الحديث[1] .

فهل سمع طلاب العلم بأعجب وأجمل من هذا ؟!

متى كان الاشتغال بالعلم شفاء من الأمراض !

إنه كذلك بالنسبة لهؤلاء العظماء الذين كان العلم هو قضيتَهم الكبرى وشغلَهم الشاغل في حياتهم .

إن أعراض المرض تظهر على الجسم فتسبب أنواعًا من الآلام، ولكن حينما يُشغَل الفكر شغلا كاملا بشيء مَّا إلى حد الهيام به فإن تأثير ذلك على الأعصاب يكون أقوى من تأثير أعراض المرض، فينسى المريض تلك الآلام لأنه شُغل بشيء أكبر، كالمجاهد الذي يُجرح أو يقطع عضو من أعضائه فلا يحسّ بذلك كثيراً بل يستمر في الجهاد وينسى آلام الجراح حتى تهدأ المعركة فتعود بعد ذلك الآلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩٠ .

من مواقف محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله :

من ذلك ماروُي عن الإمام أبي عبد الله البخاري أنه قال: ماوضعت في كتابي « الصحيح» حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين [١] .

فهذا تعظيم من هذا الإمام لحديث رسول الله ﷺ ، وكونه يلتزم بأمر غير لازم شرعا دليل على مكانة السنة النبوية في قلبه، وعلى قدر هذا التعظيم يضع الله تعالى القبول للعمل في الأرض، وهكذا تبوأ صحيح الإمام البخاري أعلى منزلة بين كتب السنة .

فكم اغتسل هذا الإمام وصلى من ركعات من أجل تدوين هذا السفر العظيم ! وكم أفاده ذلك من عمل صالح زائد على ثواب العمل العلمي الكبير الذي قام به !

وكان لغزارة علمه ودقة فهمه يجتمع في درسه آلاف التلاميذ كما روى الحافظ الخطيب البغدادي من خبر محمد بن يوسف بن عاصم قال: رأيت لمحمد بن إسماعيل ثلاثة مستملين ببغداد ، وكان اجتمع في مجلسه زيادة على عشرين ألف رجل [٢] .

ومن أمثلة شهرة العلماء بكثرة الروايات ماذكره محمد بن أبي حاتم وراّق الإمام البخاري حيث يقول عن البخاري : سمعته يقول: دخلت بلْخ فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثا فأمليت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٢، تاريخ بغداد ٢/ ٩ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠ .

قال : وسمعته قبل موته بشهر يقول : كتبت عن ألف وثمانين شيخا ليس فيهم إلا صاحب حديثٍ، كانوا يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص [1] .

فهذان مثالان على توسع الإمام البخاري في الأخذ عن الشيوخ وهذا يدل على كثرة مروياته .

وقوله « كانوا يقولون الإيمان قول وعمل » أراد بذلك الرد على المرجئة الذين يقولون الإيمان اعتقاد فقط، وهذا مثل من اهتمام الإمام البخاري بأمور العقيدة .

وقد ورد عنه أنه انتخب كتابه الجامع الصحيح من ستمائة ألف حديث، وهذه الأحاديث كلها من مروياته .

وهذه نماذج يسيرة من أمثلة كثيرة تدل على توسُّع علماء الحديث في الرواية ، وأصحاب المئين عددهم كبير في مختلف العصور، فكم هو الجهد الذي بذله هؤلاء العلماء في جمع هذه الروايات وتحريرها وحفظها أو حفظ بعضها !

ومن أمثلة اهتمام الإمام البخاري بتدوين السنة النبوية ماذكره الإمام الذهبي عن محمد بن يوسف البخاري قال: كنت مع محمد بن إسماعيل - يعني الإمام البخاري - بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج - يعني أضاء السراج - يستذكر أشياء يعلِّقها في ليلةٍ ثمان عشرة مرة [2] .

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٩٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٤ .

فهذا دليل على اهتمام الإمام البخاري بالعلم حيث لايكاد ينام إلا ويوقظه تفكيرٌ في مسائل علمية فينهض لتسجيلها، وبهذا التفكير المتواصل بالعلم كان الإمام البخاري أحفظ أهل زمانه ، وعلى قدر اهتمام الإنسان بالعلم يكون حفظه واستيعابه والإبداع فيه .

ومن ذلك ماذكره هانئ بن النضر قال: كنا عند يوسف الفريابي بالشام، وكنا نتنزه فعل الشباب في أكل الفرصاد ونحوه[1] ، وكان محمد بن إسماعيل معنا وكان لايزاحمنا في شيء مما نحن فيه ويكبُّ على العلم [2] .

فهذا مثل للاهتمام بالعلم ، لأن التسلِّي بالأشياء المذكورة مضيعة للوقت ، والوقت عند أبي عبد الله البخاري ونحوه من أكابر العلماء أغلى من جميع جواهر الدنيا، وبهذا الجد والعمل الدائب صار عمر الواحد منهم كأعمار عدد من الذين يضيعون بعض أوقاتهم .

من مواقف عبد الرحمن بن أبي حاتم وزملائه رحمهم الله :

ومن الأمثلة الرائعة لحفظ العلماء لأوقاتهم مارواه علي بن أحمد الخوارزمي قال : سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مَرَقة ، كل نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل :النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا فاشتريناه، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلسٍ ، فلم يمكنا إصلاحه ومضينا إلى المجلس،

---

(١) يعني مايتسلى به عادة كحب البطيخ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٠٥/١٢ .

فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام ، وكاد أن يتغير فأكلناه نيِّئًا ، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لايُستطاع العلم براحة الجسد [1] .

فهذا مثل بليغ في الاجتهاد في طلب العلم وحفظ الوقت، فالأكل من الضرورات ومع ذلك لم يتركوا وقتا لإعداده لاشتغالهم طوال الوقت بالسماع على الشيوخ والنسخ من الكتب .

من مواقف مسلم بن الحجاج رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمام العلماء بالعلم مارواه الخطيب البغدادي من حديث أحمد بن سلمة قال: عُقِد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلسٌ للمذاكرة ، فذُكِرَ له حديثٌ لم يعرفه، فانصرف إلى منزله وأَوْقَد السراج وقال لمَن في الدار :لايدخلنَّ أحد منكم هذا البيت، فقيل له : أُهدِيتْ لنا سلة فيها تمر، فقال: قدِّموها لي، فقدموها إليه، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها، فأصبح وقد فني التمر ووَجد الحديث [2].

فهذا اهتمام كبير من الإمام مسلم بمعرفة السنة ، فقد شغله البحث عن هذا الحديث الذي لم يعرفه عن أموره الأخرى ليلة كاملة حتى وجده .

وبهذه الهمة العالية كان أثر هذا العالم الجليل وأمثاله واضحًا في حفظ السنة النبوية وتدوينها .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٦ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٠ .

(٢) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٣ .

من مواقف أبي مسلم الكجِّي رحمه الله :

من ذلك ماأخرجه الخطيب البغدادي من خبر أبي بكر أحمد بن جعفر بن سلم قال : لما قدم علينا أبو مسلم الكجِّي [(١)] أملى الحديث في رحبة غسان ، وكان في مجلسه سبعة مستملين يبلِّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه ، وكتب الناس عنه قياماً بأيديهم المحابر، وحُسِب من حضر بِمِحْبَرة فبلغ ذلك نيفا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة[(٢)] .

وذكرها الإمام الذهبي وقال : إسنادها صحيح [(٣)] .

وهذا عدد كبير يدل على عزة العلماء ومكانتهم وشدة إقبال الطلاب عليهم، ولو تمت المقارنة مع الدراسة في هذا العصر لكان هؤلاء الطلاب الذين يجتمعون في درس واحد يعادلون طلاب جامعة من أكبر الجامعات .

موقف لأبي حاتم الرازي رحمه الله :

كان العلماء يتدرجون في العلم، فالقرآن أولاً، ثم السنة ثم العلوم الأخرى، ومن أمثلة ذلك مارُوي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: لم يَدَعْني أبي أشتغل في الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان الرازي ، ثم كتبت الحديث [(٤)] .

---

(١) هو الإمام الحافظ إبراهيم بن عبد الله الكَجِّي صاحب السنن .

(٢) تاريخ بغداد ٦/ ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٢٤ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٥.

فهذا الحافظ عبد الرحمن بن الحافظ أبي حاتم الرازي أراد التوجه إلى تلقِّي الحديث وحفظه من صغره، وذلك لشهرة هذا العلم آنذاك، ولكن أباه منعه من ذلك حتى يتقن القرآن الكريم على الشيوخ .

ويشبه اندفاع ابن أبي حاتم نحو علم الحديث مايتوجه إليه بعض المبتدئين في هذا العصر من طلب دراسة مصطلح الحديث ، وبعضهم لايحسن قراءة القرآن، وإن أحسنوا ذلك فإنهم قد أهملوا المرحلة الثانية وهي قراءة كتب السنة على الشيوخ .

فهؤلاء المبتدؤون الذين يتوجهون أولاً لدراسة مصطلح الحديث إن كان هدفهم من هذه الدراسة أن يجعلوا من أنفسهم حكاما يحكمون على الأحاديث ويخَطِّئون العلماء فليعلموا أنهم ليسوا على منهج صحيح، وليدخلوا البيوت من أبوابها ، وليتدرجوا في التعلم كما سلك أهل العلم من قبلهم .

من مواقف علي بن أبي طاهر رحمه الله :

من الاهتمام بالعلم العناية بالكتب العلمية ، ومن أمثلة عنايتهم بذلك ماروُي عن سليمان بن يزيد : أن علي بن أبي طاهر لما رحل إلى الشام وكتب الحديث جعل كتبه في صندوق وقيَّره [(١)] وركب البحر، فاضطربت السفينة وماجت فأُلقي الصندوق في البحر، ثم سكنت السفينة ، فلما خرج منها أقام على الساحل ثلاثا يدعو الله ، ثم سجد في الليلة الثالثة وقال: إن كان طلبي ذلك لوجهك وحبِّ رسولك فأغثني بردِّ ذلك، فرفع رأسه فإذا الصندوق مُلْقًى عنده، فَقَدِم وأقام برهة ، ثم قصدوه لسماع الحديث فامتنع منه.

---

(١) يعني طلاه بالقار حتى لايصل إليه الماء .

قال : فرأيت النبي ﷺ في منامي ومعه علي رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ : ياعلي [1] من عاملَ اللهُ بما عاملك به على شط البحر؟ ! لاتمتنع من رواية أحاديثي ، قال: فقلت: قد تبت إلى الله، فدعا لي وحثني على الرواية [2] .

فهذا مثل من العناية بكتب العلم حيث حفظها علي بن أبي طاهر من وصول الماء إليها،وكان حفظه لها متقنًا حيث بقيت مدة في البحر ولم يتسرب الماء إليها ، وهو بهذا قد أخذ بجانب الحذر والاحتياط ولم يغتر بجانب السلامة التي هي الغالب وهذا دليل على الحزم وبعد النظر.

وقد حصل له بفقد كتبه حزن شديد جعله ينفرد من قافلته ويبقى على شط البحر ثلاثة أيام يدعو الله تعالى أن يمنَّ عليه بعودة صندوق كتبه،وكان في حال تلهف ورجاء بالغ ولم ييأس من رحمة الله تعالى،فأكرمه سبحانه واستجاب دعاءه وردَّ عليه كتبه سليمة لم يؤثر عليها البحر .

ولكنه رحمه الله تعالى غفل عن أهم مجال من مجالات شكر المنعم تبارك وتعالى على تلك النعمة ، حيث امتنع عن نشر العلم، فتداركه الله سبحانه برحمته وهيأ له تلك الرؤيا الصالحة التي غيَّر بسببها منهجه واهتم بنشر العلم .

من مواقف أبي بكر الإسماعيلي رحمه الله :

ومن أمثلة حرص العلماء الشديد على طلب العلم حتى في سن

(١) يعني علي بن أبي طاهر .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٨٨ .

مبكرة ماروُي عن أبي بكر الإسماعيلي أنه قال: لما ورد نعي محمد بن أيوب الرازي بكيت وصرخت ومزقت القميص ووضعت التراب على رأسي، فاجتمع عليَّ أهلي وقالوا : ماأصابك ؟ قلت: نُعِي إليَّ محمد بن أيوب ، منعتموني الارتحال إليه، فسلَّوني وأذنوا لي في الخروج إلى « نسا » إلى الحسن بن سفيان ، ولم يكن هاهنا شعرة- وأشار إلى وجهه - [1] .

فهذا مثل من الشوق البالغ والتلهف على لقاء الشيوخ، فقد كان أبو بكر الإسماعيلي يستأذن أهله ويلحُّ عليهم في السفر إلى محمد بن أيوب ويأبون عليه، ولما مات ابن أيوب اعتبر موته مصيبةكبرى حلت به حتى أفزع من حوله بصياحه عليه، وقد كان هذا المنظر المؤثر شافعا له ليأذن له أهله في السفر إلى الحسن بن سفيان، وقدكان كما ذكر الذهبي أقل من محمد بن أيوب الرازي في علو الإسناد، وكان أهل العلم يهتمون بذلك، لأنه كلما قل رجال الإسناد كان أكثر مظنة للسلامة.

وكون هذا الشوق الكبير يصدر من طلاب العلم وهم في أول سن الشباب دليل على ارتفاع مستوى التعليم في تلك العصور وسمو الأهداف عندهم، حيث إن المظنون في من كانوا في تلك السنّ الميل نحو متاع الدنيا ولهوها .

من مواقف محمد بن يعقوب السناني رحمه الله :

قال أبو عبد الله الحاكم : سمعت الأصم[2] وقد خرج ونحن في

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) هو الإمام محمد بن يعقوب السناني النيسابوري .

مسجده ، وقد امتلأت السكة من الناس في ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وكان يملي عشية كل يوم اثنين من أصوله، فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء وقد قاموا يُطَرِّقون له ، ويحملونه على عواتقهم من باب داره إلى مسجده، فجلس على جدار المسجد، وبكى طويلا ، ثم نظر إلى المستملي فقال: اكتب : سمعت محمد بن إسحاق الصَّغاني يقول : سمعت الأشجّ ، سمعت عبد الله بن إدريس يقول : أتيت يوما باب الأعمش بعد موته فدققت الباب، فأجابتني جارية عرفتني : هاي هاي ، تبكي : ياعبد الله ، مافعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب ؟ ثم بكى الكثير، ثم قال: كأني بهذه السكة لايدخلها أحد منكم، فإني لاأسمع وقد ضعف البصر، وحان الرحيل وانقضى الأجل [1] .

ففي هذا الخبر مثل على كثرة طلاب العلم وازدحامهم حول بيوت الشيوخ ومساجدهم ، كما أنه شاهد على ماكان يقوم به طلاب العلم من احترام العلماء وإعزازهم .

وماذا يريد ذلك الجم الغفير من الحافظ محمد بن يعقوب ؟ هل لديه مال يصيبون منه ؟ أو جاه دنيوي يتوصلون به إلى مايريدون من مناصب الدنيا ؟

بلى ، إن لديه كنز الدنيا والآخرة .

إن لديه ميراث النبي ﷺ ، فلا عجب أن ازدحم حول بيته ومسجده طلاب العلم الوافدون من الآفاق .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/٤٥٨ - ٤٥٩ .

من مواقف أبي علي النيسابوري رحمه الله :

ومن ذلك ماروُي عن أبي علي الحسين بن علي النيسابوري قال : قدمت بغداد على الفريابي وقد قطع الرواية فبكيت بن يديه ، فما حدثني، ورأيته حسرة[1].

فهذا مثل من الاهتمام العالي بالعلم إلى الحد الذي يصل إلى حد البكاء حسرة على فواته .

إن بكاء الرجال ليس بالأمر اليسير ، وإنما يدفع إليه في مثل هذه الأحوال تأثر نفسي ضاغط من الأسى والحزن على فوات شيء محبوب، وهذا دليل واضح على أهمية تحصيل العلم عند هذا العالم الجليل .

من مواقف أبي نعيم الأصبهاني رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره أحمد بن محمد بن مردويه عن الحافظ أبي نعيم الأصبهاني [2] قال : كان أبو نعيم في وقته مرحولا إليه، ولم يكن في أفق من الآفاق أسند ولا أحفظ منه، كان حُفَّاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، فكان كل يوم نوبة واحد منهم ، يقرأ مايريده إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره ربما كان يُقرأ عليه في الطريق جزء، وكان لايضجر ، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع [3] .

فهذا مثل من العز الذي كان فيه العلماء ، وإنما نالوا ذلك العز

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٥٦ .

(٢) هو الحافظ أحمد بن عبد الله الأصبهاني .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/٤٥٩ .

وأقبل طلاب العلم عليهم ذلك الإقبال الشديد لقيامهم بخدمة سنة رسول الله ﷺ تعلما وحفظا وتدوينا وتعليما، وكلما تأخرت وفاة العالم كان أكثر عزا وأقبل عليه الكبار والصغار لعلو إسناده، وقد جاء في رواية عن حمزة بن العباس العلوي قال: كان أصحاب الحديث يقولون: بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير لايوجد شرقا ولاغربا أعلى منه إسنادا ولا أحفظ منه (١).

وبهذا الحفظ القوي المتقن لدى العلماء حتى مع تقدم السن، وبالرغبة الشديدة في السماع من الشيوخ حُفِظت السنة النبوية، وأصبحت حية ماثلة في أفكار طلاب العلم، لمداومة التعلم والمذاكرة والتعليم.

من مواقف أبي الفضل محمد بن طاهر رحمه الله:

ومن الأخبار الجيدة في بيان شوق طلاب العلم وحرصهم الشديد على التحصيل العلمي ماروُي عن الإمام أبي الفضل محمد بن طاهر قال: كنت يوما أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءًا فجاءني رجل من أهل بلدي وأسرَّ إليّ كلاما قال فيه: إن أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس وقَتْل الناسِ بها، فأخذت في القراءة فاختلطت عليَّ السطور ولم يمكني أن أقرأ، فقال أبو إسحاق: مالك؟ قلت: خير، قال: لابد أن تخبرني، فأخبرته، فقال: وكم لك لم تر أخاك؟ قلت: سنين، قال: ولِمَ لاتذهب إليه؟ قلت: حتى أُتِمَّ الجزء، قال: ماأعظم حرصكم ياأهل الحديث! قد تمَّ

---

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٩.

المجلس، وصلى الله على محمد ، وانصرف [1] .

فهذا مثل من حرص طلاب العلم الشديد على العلم، فابن طاهر قد غلبت عليه الفرحة بقدوم أخيه الذي كأنما ولد من جديد، بسلامته من الحروب التي جرت آنذاك في الشام بين المسلمين وأعدائهم، وكان في شوق بالغ للقائه فغلب عليه ذلك حتى خلط في قراءته، ومع ذلك استمر في الدرس، وهذه الصورة الحية من الصور التي تبين لنا سبب تفوق طلاب العلم الظاهر في العصور السابقة في الحفظ والفهم، فهم غير مجبورين على التعلم، ولامسوقين إليه بحكم العادة أو خوف الملامة من الأهل والأقارب بتركه، وإنما أقبلوا عليه بشغف بالغ وشوق قاهر غلب على مشاعرهم حتى نَحْوَ والديهم وأقاربهم أحيانًا، فأنتجوا تلك المؤلفات العظيْمة، وعمروا عصورهم بالعلم الزاهر الحي.

وكان ابن طاهر كثير الرحلة في طلب الحديث حتى إنه سافر من أجل سماع حديث واحد كما قال عن نفسه : رحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي الذي أخرجه مسلم عنه، ذاكرني به بعض الرحالة بالليل، فلما أصبحت سرت إلى أصبهان ولم أحلل عني حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو، فقرأته عليه عن أبيه عن القطان عن أبيٰ زرعة ، ودفع إليَّ ثلاثة أرغفة وكُمَّثْراتين، فما كان لي قوت تلك الليلة غيره ، ثم لزمته إلى أن حصَّلت ماأريد، ثم خرجت إلى بغداد فلما عدت كان قد توفي [2] .

(1) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦٧ .

(2) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦٦ ، والحديث المذكور هو قول رسول الله ﷺ « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك» كما ذكر محقق الكتاب .

من مواقف أبي عبد الله محمد الحميدي رحمه الله :

من أمثلة اجتهاد العلماء في تدوين السنة ماذكره يحيى البناء قال: كان الحميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحر، فكان يجلس في إِجَّانةٍ (١) في ماء يتبرد به (٢) .

فهذا العالم الجليل أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي يكتب العلم في شدة الحر ويتّقي الحر بالجلوس في الماء، فكيف بأهل العلم اليوم الذين سُخِّرت لهم الوسائل التي تحيل الصيف ربيعًا ! ومع توفر هذه الوسائل وحصول الراحة الكبيرة فإن إنتاج علماء اليوم أقلّ بكثير من إنتاج علماء العصور السابقة، فلابد من دراسة الأسباب التي سببت انخفاض الإنتاج العلمي في هذا العصر .

موقف لأبي عبد الله محمد المازري رحمه الله :

مما يستحق الإعجاب والثناء ماقام به الإمام أبو عبد الله محمد بن علي المازري من دراسة علم الطب إلى جانب تفوقه في العلوم الدينية، قال الإمام الذهبي : قيل إنه مرض مَرْضَةً فلم يَجِدْ من يعالجه إلا يهودي ، فلما عوفي على يده قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدَمْتُك المسلمين ، فأثَّر هذا عند المازري فأقبل على تعلم الطب حتى فاق فيه ، وكان ممن يفتي فيه كما يفتي في الفقه (٣) .

وهذا الخبر يصور لنا حقد الأعداء على المسلمين وخاصة على

---

(١) الإجَّانه بتشديد الجيم إناء يغسل فيه الثياب .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/١٢٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/١٠٥ - ١٠٦ .

علماء الدين الذين يعتقدون أنهم سبب قوة المسلمين، وامتداد حيويتهم ووعيهم على مر الأجيال .

فمن منطلق هذا الحقد الدفين صرح ذلك الطبيب اليهودي أنه يود قتل ذلك العالم الجليل حتى يضر بقتله المسلمين .

وقد دفع ذلك هذا العالم إلى أن تعلم الطب حتى فاق فيه وأصبح مرجعا للأطباء ، وقد قيل عنه إنه أحد الأذكياء الموصوفين فساعده ذكاؤه على تعلم الطب والبراعة فيه، مع انشغاله بالعلوم الأخرى .

وإن في هذا الخبر درسًا بليغًا للمسلمين كي يصلوا إلى كفاية أنفسهم في مختلف العلوم حتى لايحتاجوا إلى غيرهم، بل إن المفترض فيهم أن يكونوا أئمة وهداة في كل علم نافع، وأن يسخّروا علمهم للدعوة إلى دينهم .

من مواقف أبي بكر محمد بن موسى الحازمي رحمه الله :

ومن أمثلة الاهتمام بالعلم ماروي عن ابن النجار قال: سمعت أبا القاسم المقرئ جارنا يقول - وكان صالحا - : كان الحازمي رحمه الله في رباط البديع فكان يدخل بيته في كل ليلة ويطالع ويكتب إلى طلوع الفجر ، فقال البديع للخادم : لاتدفع إليه الليلة بزرًا للسراج[1] لعله يستريح الليلة .

قال : فلما جنّ الليل اعتذر إليه الخادم لأجل انقطاع البزر،

(١) يعني الوقود .

فدخل بيته وصف قدميه يصلي ويتلو إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره فوجده يصلي (١) .

ففي هذا الخبر مثل من الاهتمام بالعلم وحفظ الوقت وعدم شغله إلا بالأمور الجدية ، فهذا العالم الجليل مشغول طول الليل بالكتابة في العلم ، ولما فقد المصباح لم يسترح في فراشه بل عدل إلى العبادة بالصلاة ، وكان يرى أن الاشتغال بالعلم أفضل لأن ذلك مما يتعدى نفعه للآخرين، فلما حيل بينه وبين الكتابة عدل إلى صلاة الليل، وكل ذلك عبادة وعمل صالح، وإنما تتفاوت درجات العمل بمقدار كثرة نفعه وإخلاص فاعله .

إن النفوس السامية التي شغلها الهمّ بالمطالب العالية لاتهنأ بلذيد النوم ، ولا تجد سعادتها في الراحة ، وإنما تجد سعادتها في مواصلة العمل الذي يدفع بها نحو الوصول إلى أهدافها العليا .

من مواقف أبي الوفاء ابن عقيل رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن رجب أن أبا الوفاء علي بن عقيل قال في فنونه : قال حنبلي-يعني نفسه -أنا أقْصُر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سَفَّ الكعك وتَحَسِّيه بالماء على الخبز لأجل مابينهما من تفاوت المضغ توفرًا على مطالعةٍ أو تسطير فائدة لم أدركها فيه (٢) .

فهذا مثل بليغ في حفظ الوقت وشغله بما ينفع،وإذا كان هذا العالم وأمثاله يفكرون في اختصار وقت الأكل فإنهم لن يضيعوا

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/١٦٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ٣/١٤٦ .

أوقـاتهم الأخرى بما لافـائدة فيـه ولاحاجـة إليه من نوم أو كـلام أو كسل .

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية :

اشتهر شـيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمـية بقوة الحفظ وسرعة التـذكر ، فكان وهو يتحدث كأنما يـقرأ من عدد من الكتب ، وكان يكتب النقول في كثير من مؤلفاته من ذاكرته .

وفي ذلك يقول الحافظ ابن رجب فيما نقله عن الحافظ الذهبي : وقد كتب الذهبي في تاريخه الكبير للشيخ ترجمة مطولة ، وقال فيها : وله خبرة تامـة بالرجال ، وجرحهم وتعـديلهم ، وطبقاتهم ، ومـعرفة بفنون الحـديث ، وبالعالي والنازل ، والصـحيح والسـقيم ، مع حـفظه لمتونه ، الذي انفرد به ، فـلا يبلغ أحد في العصر رتبـته ، ولايقاربه ، وهو عجيب في استحضاره ، واسـتخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب السـتة ، والمسند ، بحيث يصدق عليـه أن يقال : كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث .

وقال : ولما كان معتقـلا بالإسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده ، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر ، منها سبعة أحاديث بأسانـيدها ، والكلام على صحتـها ومعانيهـا ، وبحث وعمل ماإذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث . وذكر أسانيده في عدة كتب . ونَبَّه على العوالي . عمل ذلك كله من حفظه ، من غير أن يكون عنده ثَبَت أو من يراجعه .

ولقد كـان عجـيبًا في مـعرفـة علم الحديث . فأمـا حفظه مـتون

الصحاح وغالب متون السنن والمسند : فمارأيت من يُدانيه في ذلك أصلا .

قال: وأما التفسير فمسلَّم إليه . وله من استحضار الآيات من القرآن- وقت إقامة الدليل بها على المسألة- قوة عجيبة. وإذا رآه المقرئ تحير فيه . ولفرط إمامته في التفسير وعظم اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين. ويُوهى أقوالا عديدة. وينصر قولا واحدًا، موافقًا لما دل عليه القرآن والحديث. ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أومن الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد .

قلت : وقد كتب « الحموية» في قعدة واحدة . وهي أزيد من ذلك. وكتب في بعض الأحيان في اليوم مايبيض منه مجلد [1].

* * *

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٣٩١ .

مواقف وعبر

في

بذل الجهد في حفظ السنة

لقد حظِيَتْ السنة النبوية بجهود ضخمة من علماء الإسلام في حفظ متونها و أسانيدها على مَرِّ العصور، وقد دوَّن علماء التراجم أخبار أولئك العلماء في قوة الحفظ وسرعة التذكر .

والمقصود من عرض هذه الأخبار أمران :

الأول : الإشادة بالجهود الضخمة التي بذلها أولئك العلماء في الحفظ ، حيث يحتاج ذلك إلى وقت طويل، وإجهاد فكري ، ثم يحتاج الأمر إلى جهد متواصل في التذكر والمذاكرة حتى يستطيعوا الاحتفاظ بتلك الكمية الكبيرة من النصوص في ذاكرتهم .

والثاني : إبرار نماذج من عباقرة الأمة الإسلامية الذين ضربوا أروع الأمثال في التفوق العلمي المبني على حدة الذكاء وقوة الحافظة وسرعة الذاكرة .

وإن من أهم مايدفع إلى عرض هذه النماذج مايوجد في بعض الأوساط العلمية من التمثيل للأذكياء والعباقرة بمفكري بلاد الغرب.

وإن من الدوافع التي دفعت هؤلاء الكتاب إلى الاستشهاد بمفكري الغرب كونهم يجدون أسماءهم مدونة في الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، ويرجعون إليها بسهولة لِماَ حَظِيَتْ به من خدمة وتسهيل، بينما لايجدون ذلك بسهولة في الكتب الإسلامية.

وإنه ينبغي أن نستفتح هذه النماذج بذكر أمثلة من تفوق الصحابة رضي الله عنهم وعلماء القرون المفضلة بقوة الحافظة وسرعة التذكر.

من أخبار عائشة رضي الله عنها :

من ذلك مارُوي عن هشام بن عروة بن الزبير رحمه الله وأباه ورضي عن جده قال: لقد صحبت عائشة فمارأيت أحدا قط كان أعلم بآية نزلت ، ولابفريضة ولابسنة ولابشعر، ولاأروى له ولابيوم من أيام العرب ولابنسب ولابكذا ولابكذا ، ولابقضاء ولاطب منها، فقلت لها : ياخالة الطبُّ من أين عَلِمته؟ فقالت : كنت أُمْرض فَيُنعت لي الشيء، ويُمرَض المريض فينعتَ له ، وأسمع الناس يَنعت بعضهم لبعض فأحفظه (١) .

وكذلك قال عروة عنها : ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتا والمائة بيت (٢) .

ولهذا فإنه ليس غريبا أن تكون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من المكثرين من رواية الحديث النبوي بإتقان وضبط .

من أخبار زيد بن ثابت رضي الله عنه :

ومن أمثلة تفوق الصحابة رضي الله عنهم في هذا المجال ماأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث خارجة بن زيد قال قال زيد ابن ثابت رضي الله عنه : أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتابة اليهود ، وقال : إني والله ما آمن يهود على كتابي، فتعلمته، فلم يمر بي نصف شهر حتى حذقته، قال: إني كنت أكتب له إذا كتب وأقرأ له إذا كُتب إليه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٧٢ - ٧٣ .

وقال الحاكم هذا حديث صحيح وأقره الذهبي (١) .

وقد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري تعليقا (٢) .

وهذا الخبر يدل على حدة ذكاء زيد بـن ثابت وقوة حافظته حيث تعلم لغة اليهود في نصف شهر .

ومن مـواقفـه رضي الله عنه في ذلك قـيامـه بجمع القـرآن في المصحف بعـد أن كان متفرقـا، كما جاء في رواية الإمـام البخاري من حديث عبيد بـن السبَّاق « أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مـقتلَ أهل اليمـامة فإذا عـمر بن الخطاب عنده، قـال أبو بكر رضي الله عنه : إن عـمر بن الخـطاب أتاني فقـال: إن القتل قد اسـتحرَّ يوم اليمامـةِ بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يسـتحرَّ القتل بـالقراء بالمواطن فيـذهبَ كثـير من القـرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفـعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا و الله خير ، فلم يزل عـمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد قـال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لانتهـمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الـله ﷺ ، فتتبَّع القـرآن فاجمعـه [قال:] فوالله لو كلفـوني نقل جبل من الجبال ماكـان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قـال : هو والله خيـر ، فلم يزل أبو بكر يراجـعني حتى شـرح الله

(١) المستدرك ١/ ٧٥ .

(٢) صحيح البخاري ، الأحكام رقم ٧١٩٥ (١٣/ ١٨٥) .

صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتتبَّعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال » [(١)] .

وجمْع القرآن الكريم في مصحف كان من أعظم الأعمال الإسلامية التي تمت في عهد أبي بكر رضي الله عنه بأمره، وقد اشترك في هذا الموقف الكبير عمر بن الخطاب الذي أشار على أبي بكر بذلك وألح عليه فيه وزيد بن ثابت الذي قام بهذا العمل رضي الله عنهم أجمعين .

وفي قول أبي بكر لزيد : إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ أربعة أمور ترشح زيدًا لهذا التكليف الكبير : الأول أنه رجل شاب ، وسِنُّ الشباب أفضل مراحل العمر فيما يتعلق بالحفظ وقوة الذاكرة ، وهذا هو المؤهل الأكبر لجمع القرآن ، وإن كان سِنُّ الكهولة والشيخوخة أفضل فيما يتعلق بالفكر والتخطيط والإدارة .

الثاني : أنه عاقل ، وكمال العقل مؤهل مهم لجميع الأعمال الكبيرة .

الثالث : الأمانة وهي شرط أساسي لنجاح أي عامل وقد ذكر ذلك بقوله « لانتَّهمك » .

الرابع : الكفاءة والخبرة وهي أيضا شرط أساسي ، وقد ذكرها

---

(١) صحيح البخاري / فضائل القرآن / ب٣ (عمدة القاري ٢٠/١٦)، والعسُب جريد النخل والمراد الجزء العريض منه واللخاف الحجارة الرقيقة، وفي رواية أخرى للبخاري والرقاع وهي تكون من الورق أو الجلد ونحوه .

بقـوله « وقد كنت تكتب الوحـي لرسول الله ﷺ » يعني أنه خـبيـر بذلك، وقد ذكر الله سـبحانه هذين الأمرين على لسـان ابنة شعيب حينما وصـفَتْ موسى عليه السلام بذلـك بقولها ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] فالكفاءة في ذلك العمل تعني قوة البـدن وقد توفرت في موسى عليه السلام مع اتصـافه بالأمـانة ، كما ذكـرهما الله سـبحانـه على لسان يوسف عليه الـسلام حين قال لملك مـصر ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فالحفظ هو الأمانة ، والعلم هو الكفاءة والخبرة .

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

إن أبرز حفاظ الإسـلام أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه محدث الأمة الأكـبر وحافظهـا الأول ، حيث قد فَـرَّغ وقته لملازمـة رسول اللهﷺ وحفظ أحاديثه، ولم ينشغـل عن ذلك بمتابعة أمور الدنيا، بل كان يكـتفي من الطعـام بِلُقَيمـات يُقمْن صُلـبه، وفضَّل أن يبـقَى في الصفَّة مع المساكين ليـتفرغ لملازمة النبي ﷺ واستيعـاب أكبر قدر من أحاديثه ، فكان بذلك أكثر الصحابة حفظًا للسنة النبوية ولم يقاربه في ذلك أحد ، وبلغ عدد تلاميذه الذين رَوَوا عنه أكثر من ثمانمائة .

ومع كثرة روايتـه فإنه كان حافظا مـتقنا لم تتغيـر روايته على مرِّ السنين، ومن أدلة ذلك مـارُوي عن أبي الزعـيزعـة كاتب مـروان بن الحكم : أن مروان أرسل إلى أبي هريرة فجعل يسأله، قال: وأجلسني خلف السرير وأنا أكتب، حتى إذا كان رأس الحول دعا به، فأقعده من

وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فمازاد ولانقص ولاقدَّم ولاأخَّر .

ذكره الإمام الذهبي وقال : هكذا فليكن الحفظ [1] .

وإذا كان كذلك فلاعجب في أن يكون قد حفظ أكثر من خمسة آلاف حديث بمجرد سماعها، واحتفظ بها في ذاكرته إلى أن وافاه الأجل، مادام الله تعالى قد وهبه هذا الحفظ القوي وسرعة التذكر.

وكانت له مقدرة فائقة على سرد الأحاديث النبوية مما يدل على قوة حفظه وتمكنه من مروياته ، ومن أمثلة ذلك ماروواه مكحول الشامي قال: تواعد الناس ليلة إلى قبة من قباب معاوية، فاجتمعوا فيها فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح[2].

وقد كان لكثرة أحاديثه مثار إعجاب الصحابة والتابعين ، وإن كان بعض التابعين يستنكر كونه أكثر رواية من كبار الصحابة، ولقد دافع عنه في ذلك بعض كبار الصحابة ، كما جاء في خبر رواه ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن أبي أنس مالك بن عامر قال: كنت عند طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فدخل عليه رجل فقال: ياأبا محمد والله ماندري هذا اليماني أعلم برسول الله ﷺ أم أنتم ؟ أم هو يقول على رسول الله ﷺ مالم يقل ؟ - يعني أبا هريرة - فقال طلحة: والله مانشك أنه سمع من رسول الله ﷺ مالم نسمع وعلم مالم نعلم، إنا كنا قوما أغنياء لنا بيوت وأهلون، كنا نأتي نبي الله ﷺ

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٩ .

طرفي النهار ثم نرجع، وكان أبو هريرة رضي الله عنه مسكينا لامال له ولاأهل ولا ولد ، إنما كانت يده مع يد النبي ﷺ وكان يدور معه حيث دار ، ولانشك أنه قد علم مالم نعلم وسمع مالم نسمع، ولم يتهمه أحد منا أنه تَقَوَّل على رسول الله ﷺ مالم يقل .

أخرجه أبو عبد الله الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

ولقد اعترف له بعض الصحابة بأنه أعلم الناس بالسنة كما جاء في خبر رواه الوليد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه مرَّ بأبي هريرة رضي الله عنه وهو يحدث أن رسول الله ﷺ قال: « من تبع جنازة فله قيراط » فقال : انظر ماتحدث عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو هريرة فأخذ بيده إلى عائشة رضي الله عنها فقال لها : أنشدُك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من تبع جنازة . . . » الحديث فقالت : اللهم نعم .

فقال أبو هريرة : لم يكن يشغلني عن رسول الله ﷺ غرس الوَدِيِّ (٢) ولاصفقٌ بالأسواق ، وإنما كنت أطلب من رسول الله ﷺ كلمة يعلمُنيها أو أكلة يطعمُنيها .

فقال ابن عمر : كنتَ ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه .

ذكره الإمام الذهبي وقال : رواته ثقات (٣) .

---

(١) المستدرك ٣/٥١٢ .

(٢) يعني فراخ النخل .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٦١٦ .

فعبد الله بن عمر استغرب منه ذلك الحديث الذي لم يسمعه من غيره من الصحابة فأراد أن يتثبت منه ولم يكن في شك من حفظ أبي هريرة ولاأمانته ، فلما أيَّدَتْه في سماع ذلك الحديث عائشة اعترف لأبي هريرة بأنه أعلم الصحابة بالسنة .

ولقد جرت له قصة مع بعض مشيخة الصحابة دلَّت على سعة علمه وقوة حفظه وذاكرته ، وذلك فيما روى محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم أنه قعد في مجلسٍ فيه أبو هريرة وفيه مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ ، بضعة عشر رجلا ، فجعل أبو هريرة يحدثهم عن النبي ﷺ بالحديث فلايعرفه بعضهم، ثم يتراجعون فيه، فيعرفه بعضهم، ثم يحدثهم بالحديث فلايعرفه بعضهم ثم يعرفه، حتى فعل ذلك مرارا .

قال : فعرفت يومئذ أنه أحفظ الناس عن رسول الله ﷺ (١) .

ولقد كان حفظ أبي هريرة القوي وذاكرته الجيدة من بركة رسول الله ﷺ كما أخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله إني سمعت منك حديثا كثيرا فأنساه، قال: ابسط رداءك ، فبسطته فغرف بيده فيه ثم قال: ضمه، فضممته فما نسيت حديثا بعد (٢) .

من أخبار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ومن أخبار الصحابة رضي الله عنهم في سعة العلم وقوة الحفظ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦١٧/٢ .

(٢) صحيح البخاري رقم ٣٦٤٨ ، المناقب (٦/ ٦٣٣) .

ماروواه الحافظ أبو نعيم من حديث أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلسًا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخرا، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولاأن يذهب ، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي : ضع لي وَضوءًا ، قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم : من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وماأراد منه فليدخل.

قال : فخرجت فآذنتهم ، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ماسألوا عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج قل : من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل ، قال: فخرجت فآذنتهم ، فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ماسألوه أو أكثر ، ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل ، فخرجت فقلت لهم ، قال : فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال : إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخرج فقل : من أراد أن يسأل عن الفرائض وماأشبهها فليدخل ، قال: فخرجت فآذنتهم فدخلوا حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم ، فخرجوا .

ثم قال : اخـرج فقل : من أراد أن يـسأل عن العـربية والشـعر والغـريب من الكلام فليـدخل ، قـال : فدخلوا حـتى ملؤوا البـيت والحجرة ، فما سـألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، قال أبو صالح : فلو أن قريشا كلها فخـرت بذلك لكان فخرا، فما رأيت هذا لأحد من الناس (١) .

فهذا حبـر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنـهما الذي جمع بين هذه العلوم المتنوعة وتفوق فيهـا كلها ، مما يدل قوة حافظته وحدة ذكائه .

ومن شواهد سـعة علمه مـاأخرجه الحـاكم من حديث أبي وائل قال: حججت أنا وصاحب لي ، وابن عباس على الحج [يعني أميرا] فجعل يقـرأ سورة النور ويفسرها فـقال صاحبي : ياسبـحان الله ماذا يخرج من رأس هذا الرجل ، لـو سمعتْ هذا التـرك لأسلمِتْ . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي (٢) .

ومع سعـة علمه فـإنه كان غـوّاصا على دقائق المسـائل ولطائف المعاني، ومن شواهد ذلك ماأخرجه الإمام البخاري من حديث عكرمة أن عليا رضي الله عنه حرَّق قوما فبلغ ابن عباس فقال: لوكنت أنا لم أحرِّقهم لأن النبي ﷺ قـال : « لاتُعذِّبوا بعذاب الله » ولقتلتـهم كما قال النبي ﷺ « من بدّل دينه فاقتلوه » (٣) .

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٢٠ - ٣٢١ ، البداية والنهاية ٨/ ٣٠٢ .

(٢) المستدرك ٣/ ٥٣٧ .

(٣) صحيح البخاري / الجهاد رقم ٣٠١٧ .

وذكره الإمام الذهبي من طريق آخر عن عكرمة وزاد فيه : فبلغ ذلك عليًّا فقال : ويح ابن أم الفضل ، إنه لغواص على الهَنَات [1] .

وهذه كلمة تدل على إعجاب عليٍّ بدقة علم ابن عباس وعمقه، حيث يغوص على النوادر والغرائب من العلم .

ومما يشهد لغزارة علم ابن عباس مارُوي عن طاووس قال: أدركت نحواً من خمسمائة من الصحابة إذا ذاكروا ابن عباس فخالفوه لم يزل يُقَرِّرهم حتى ينتهوا إلى قوله [2] .

ولقد أشاد العلماء بعلم ابن عباس ، ومن ذلك كلمات صدرت من أحد كبار العلماء في المدينة وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حيث يقول : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال، بعلم ماسبق ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب ونائل ، ومارأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ ، ولابقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أعلم بما مضى ، ولاأثقب رأيا فيما احتيج إليه منه ، ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب ، والعشية كلها في الشعر [3] .

من أخبار ابن شهاب الزهري رحمه الله :

قال الإمام الليث بن سعد عن الإمام الزهري : كان ابن شهاب يقول: ماستودعت قلبي شيئًا قط فنسيته [4] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٦

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥١ .

(٣) سبر أعلام النبلاء ٣/ ٣٥ .

(٤) سبر أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٢ .

وكذلك مارواه الإمام مالك قال: حدثنا الزهري بحديث طويل فلم أحفظه فسألته عنه، فقال: أليس قد حدثتكم به ؟ قلنا: بلى، قلت: كنت تكتب ؟ قال : لا ، قلت: أما كنت تستعيد ؟ قال: لا [1].

وعن معمر بن راشد أن الزهري قال : ما قلت لأحد قط أعدْ عليّ [2].

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ ابن عساكر عن الإمام الزهري أنه قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت إلى دمشق ، وكان عندي عيال كثيرة، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة ، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك فقال: إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة ، وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئًا وقد شذ عنه في أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقلت : إني أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ، فأخذني فأدخلني على عبد الملك ، فسألني ممن أنت ؟ فانتسبت له وذكرت له حاجتي وعيالي ، فسألني ، هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم والفرائض والسنن ، فسألني عن ذلك كله فأجبته ، فقضى ديني وأمر لي بجائزة ، قال لي : اطلب العلم فإني أرى لك عينا حافظة وقلبا ذكيا، قال: فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتتبعه [3] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٣ .

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٤ .

وهكذا رأينا أن العلم قد أعز الله تعالى به أهله ورفعهم إلى منازل عالية ، فقد أوصل العلم الإمام الزهري وهو في شبابه إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ونال عنده وعند الخلفاء من بعده مكانة رفيعة .

وكان الزهري قوي الحافظة سريع التذكر ، ومن أخباره في ذلك ماذكره الحافظ عبد الرحمن بن مهدي قال : سمعت مالكًا يقول: حدَّث الزهري يوما بحديث فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال : أتستفهمني ؟ مااستفهمت عالمًا قط ولارددت على عالم قط، قال ابن مهدي : فتلك الطوال وتلك المغازي [1] .

وروى يعقوب بن سفيان بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز : أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبنيه شيئًا من حديثه، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ، ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها ، ثم إن هشاما قال للزهري : إن ذلك الكتاب ضاع، فقال: لاعليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث ، فأخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يغادر حرفا واحدا ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه[2].

فهذا الخبر وأمثاله فيها شاهد على قوة حفظ الإمام الزهري ودقته في الرواية ، وهذا يكسب مروياته ثقة وطمأنينه عند الرواة .

وكان شديد الاهتمام بالمذاكرة والتعليم وفي ذلك يقول : الحافظ

---

(١) البداية والنهاية ٩/٣٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ٩/٣٥٦ .

ابن كـثيـر : وكـان ابن شـهاب ينزل بالأعـراب يعلمـهم لئـلا ينسى العلم[1].

وذكر عن أبي إسحاق قـال : كان الزهري يرجع من عند عروة - يعني ابن الزبير - فيـقول لجارية عنده فيها لكنة : حـدثنا عروة حدثنا فلان، ويسرد عليهـا ماسمعه منه ، فتـقول له الجارية : والله ماأدري ماتقـول ، فيقـول لها : اسكتي لكاع [2] ، فـإنـي لاأريدك إنما أريد نفسي[3].

فهذا مثل من اهتمام الإمام الزهري باستذكار العلم وتأكيد الحفظ، فـإن أبلغ الوسائـل في ذلك تعليم العلم ، وحـيث إن الزهري آنذاك حديث السن ولم يـجتمع حـوله طلاب يأخذون عنه العلم فـإنه صار يحاول تثبيت حفظه بإلقائه على جاريته .

ولقد أثنى العلماء عـليه في حفظه وشدة اهتمـامه بالعلم ، فمن ذلك ماذكـره الحافظ ابن كثير من خبـر الإمام الليث بن سعـد قال: مارأيـت عالما قط أجـمع من ابن شهـاب ، ولو سمـعته يحـدث في الترغيب والترهيب لقلت مايحـسن غير هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتـاب قلت لايحـسن إلا هذا ، وإن حـدث عن الأعـراب والأنساب قلتَ لايحسن إلا هذا ، وإن حـدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعا [4] .

---

(١) البداية والنهاية ٣٥٦/٩ .

(٢) أي يالئيمة .

(٣) البداية والنهابة ٣٥٥/٩ .

(٤) البدابة والنهاية ٣٥٦/٩ .

وقال عنه أيضًا الإمام الليث ابن سعد : وُضِعَ الطست بين يدي ابن شهاب فتذكر حديثا فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر وصححه [1] .

وهذا يدل على استغراق فكره بالعلم إلى الحد الذي يُنسيه ماحوله، وبهذا الاهتمام الكبير حوى فكره علما عظيما .

ويقول الإمام الزهري عن نفسه في بيان شدة ملازمته العلماء: خدمت عبيد الله بن عتبة [2] حتى إن كان خادمه ليخرج فيقول: من بالباب ؟ فتقول الجارية : غلامك الأعيمش ، فتظن أني غلامه، وإن كنت لأخدمه حتى أستقي له وضوءه [3] .

من أخبار قتادة السدوسي رحمه الله :

من ذلك ماورواه معمر في قوة حفظ الحافظ قتادة بن دعامة السدوسي ، قال: سمعت قتادة يقول : مافي القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا ، وقال : ماسمعت شيئًا إلا وحفظته [4] .

وكذلك مارواه معمر في ذلك قال : قال قتادة لسعيد بن المسيب: ياآبا النضر : خذ المصحف فعرضَ عليه سورة البقرة فلم يُخْطِ فيها حرفا، فقال : ياأباالنضر أحكمتُ ؟ قال: نعم ، قال: لأنا لصحيفة

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٨ .

(٢) هو الإمام عبيد الله بن عتبة بن مسعود ابن أخي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان من أئمة التابعين .

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧١ .

جابر أحفظ مني لسورة البقرة ، قال : وكانت قرئت عليه الصحيفة التي يرويها سليمان اليشكري عن جابر (١) .

وروى الحافظ معمر عن قتادة قال : تكرير الحديث في المجلس يذهب نوره ، وماقلت لأحد قط : أَعِدْ عليّ (٢) .

من أخبار وكيع بن الجراح رحمه الله :

من الحفاظ الكبار الذين يحفظون آلاف الأحاديث عن ظهر قلب الإمام الحافظ وكيع بن الجرَّاح الرُّؤاسي ، قال عن نفسه: مانظرت في كتاب قط منذ خمس عشرة سنة إلا في صحيفةٍ يومًا ، فقال له ابن عمار : عَدُّوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث غلطت فيها، قال: وحدثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة ، أربعة أحاديث ليست بكثيرة في ذلك (٣) .

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل : كان وكيع حافظا حافظا ، مارأيت مثله (٤) .

وقال علي بن خشرم : مارأيت بيد وكيع كتابا قط ، إنما هو حفظ، فسألته عن أدوية الحفظ فقال : إن علمتك الدواء استعملته؟ قلت: إي والله ، قال : ترك المعاصي ، ماجربت مثله قط (٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٦ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٧ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٥١ .

وكذلك أرشد وكيعٌ الإمام الشافعي إلى ذلك كما سجله الشافعي في شعره المشهور :

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال : اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لايُؤتاه عاصي

وهكذا ألهم الله تعالى هذا الإمام الحافظ وكيعَ بن الجراح إلى هذا الجواب السديد الذي كان عن علم وتجربة ، فالمعاصي ظلمة في القلب ومشغلة للفكر ، فالمؤمن إذا صدرت منه المعصية يؤنبه ضميره المتيقظ بنور الإيمان، ويحاسب نفسه ، ويشغل قسطا من تفكيره في هذا المجال ، مما يؤثر على درجة حفظه للعلم، وأهم من ذلك أن العلم النافع توفيق وتسديد من الله تعالى ونور منه ، كما قال وكيع ، والله تعالى لايمنح نوره إلا للطائعين ، وهم الذين يوفقهم الله جل وعلا للتقدم في الحفظ ، والتفوق في العلم .

من أخبار أحمد بن حنبل رحمه الله :

هذا ومن الحفاظ الكبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، يقول الحافظ أبو زرعة : حزرت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني عشر حِمْلاً وعِدْلاً ، ماكان على ظهر كتاب منها « حديث فلان» ولا في بطنه « حدثنا فلان » كل ذلك كان يحفظه [1] .

وقال حسن بن مُنَبِّه : سمعت أبا زرعة يقول : أخرجَ إلي أبو عبد الله أجزاء كلها سفيان سفيان ، ليس على حديث منها «حدثنا فلان» ، فظننتها عن رجل واحد ، فانتخبت منها ، فلما قرأ ذلك عليّ جعل

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١٨٨ .

يقول: حدثنا وكيع ويحيى، حدثنا فلان، فعجبت ولم أقدر أنا على هذا[1].

وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبي : خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من المصنف ، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد ، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك أنا بالكلام [2] .

فهذه أمثلة من سعة علم أبي عبد الله الإمام أحمد بن حنبل وقوة حافظته وجودة ذاكرته .

وهذه الكمية الضخمة من المحفوظ لم تتم إلا بعد جهد كبير من التذكر المتواصل والمذاكرة مع الشيوخ والأقران .

من أخبار شعبة بن الحجاج رحمه الله :

كان بعض العلماء يمنعون طلابهم الذين وهبهم الله تعالى قوة في الحفظ من الكتابة كما جاء عن الإمام أبي الوليد الطيالسي أنه قال: بينا أنا أكتب عند شعبة إذ بَصُر بي فقال : وتكتب ؟ فوضعت الألواح وجعلت أنظر إليه .

قال الإمام الذهبي: كأنه كره الكتابة لأنه كان قادرًا على أن يحفظ[3].

وهذا توجيه سديد من الحافظ شعبة بن الحجاج لأن الحفظ ثم التذكر ومذاكرة العلماء أقرب إلى فهم السنة والتأثر بها ثم العمل بها،

---

(١) سبر أعلام النبلاء ١١/ ١٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٦ .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٤٣ .

فالنصوص التي تُكتب ولاتحفظ يقل تذكرها ومذاكرتها مع العلماء.

من أخبار علي بن المديني رحمه الله :

من ذلك ماأخرجه الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الفسوي قال : حدثني أبو بشر بكر بن خلف قال: قدمت مكة وبها شاب حافظ فكان يذاكرني المسند بطُرُقه ، فقلت له : من أين لك هذا؟ قال : أُخْبِرُك ، طلبت إلى علي [1] أيام سفيان أن يحدثني بالمسند[2] فقال : قد عرفتُ أنك إنما تريد بما تطلب المذاكرة فإن ضمنتَ لي أنك تذاكر ولاتسمِّيني فعلت ، قال : فضمنت له واختلفت إليه، فجعل يحدثني بذا الذي أذاكرك به حفظا .

قال أبو يوسف يعقوب : فذكرت هذا لبعض ولد جويرية بن أسماء ممن كان يلزم عليّا فقال : سمعت عليا يقول : غبت عن البصرة في مخرجي إلى اليمن - أظنه ذكر ثلاث سنين - وأمي حية، قال: فلما قدمت عليها جعلتْ تقول : يابُنيَّ فلان لك صديق وفلان لك عدو ، فقلت لها : من أين علمت ياأمه ؟ قالت : كان فلان وفلان - فذكرت فيهم يحيى بن سعيد - يجيئون مسلِّمين فيعزونني ويقولون : اصبري فلو قد قدم عليك سرَّك الله بما ترين، فعلمت أن هؤلاء محبوك وأصدقاؤك ، وفلان وفلان إذا جاؤوا يقولون لي : اكتبي إليه وضيِّقي عليه وحرِّجي عليه ليقدم عليك .

قال : فأخبرني العباس بن عبد العظيم ، أوهذا الذي من ولد

(١) يعني الإمام علي بن المديني .

(٢) هو مسند علي بن المديني كما يتبين من آخر هذا الخبر .

جويرية قال قال لي علي : كنت صنفت المسند على الطُّرق مستقصى، وكتبته في قراطيس وصيَّرته في قمطر كبيرة، وخلفته في المنزل وغبت هذه الغيبة ، فلما قدمت ذهبت يوما لأطالع ماكنت كتبت، قال: فحركت القمطر فإذا هي ثقيلة رزينة بخلاف ماكانت ففتحتها فإذا الأرضة قد خالطت الكتب فصارت طينا فلم أنشط بَعْدُ لجمعه [1] .

ففي هذا الخبر بيان قوة حفظ الإمام علي بن المديني وجودة ذاكرته ، حيث ألف مسندا في حديث رسول الله ﷺ وكتبه على الأوراق في الوقت الذي وعاه في ذاكرته، فلما سافر وأكلَتْ دابَّة الأرض كتابه لم يفقد مسنده لأنه قد اختزنه في ذاكرته، وقام بمذاكرة ذلك الشاب من حفظه ، وهذا يبين لنا الجهد الكبير الذي بذله في حفظ ذلك المسند والاحتفاظ به في ذاكرته ، حيث يحتاج ذلك إلى مراجعة دائمة .

وفي هذا الخبر مواقف :

أولاً : ماكان من الإمام علي بن المديني حينما اشترط على الشاب الذي طلب منه المذاكرة أن لايذكر اسمه، وهذا مثل في التواضع والتجرد من حظ النفس والبعد عن الرياء، حيث إن الحفظ القوي مزلة قدم نحو الإعجاب بالنفس والرياء .

ثانيًا : موقف جليل لأصحاب علي بن المديني الذين كانوا يعزُّون أمه في حال غيبته ويُشيدون بهدفه من تلك الرحلة ويبشرونها بالعاقبة الحسنى من سفره ، ومنهم الإمام يحيى بن سعيد القطان رحمهم الله

---

(١) تاريخ بغداد ٤٦٢/١١ .

تعالى، وهذا هو المظنون بالعلماء المتقين الذين يعملون بمقاصد علمهم.

ثالثًا: صبر جميل من تلك المرأة الصالحة والدة الإمام علي بن المديني، حيث صبرت على فراق ولدها تلك المدة الطويلة، وفهمٌ ثاقب منها حيث قدَّمت مصلحة ابنها ومصلحة المسلمين على مشاعرها وعواطفها نحو ابنها، وذلك حيث فهمت أن الذين يعزُّونها في سفر ابنها بما سيحصل عليه من العلم النافع هم الأصدقاء المخلصون لولدها، وأن الذين يضخمون مصيبتها ويحثونها على استقدام ولدها ليسوا له بأصدقاء وإن أظهروا النصح والإخلاص.

من أخبار إسحاق بن راهويه رحمه الله:

ومن العلماء الذين اشتهروا بجودة الحفظ وسرعة التذكر الإمام الحافظ إسحاق بن إبراهيم بن مَخْلَد الحنظلي التميمي المروزي المشهور بابن راهوَيه [1].

ذكر الإمام الذهبي عن أبي داود الخفاف أنه قال: سمعت إسحاق ابن راهويه يقول: لكأني أنظر إلى مئة ألف حديث في كتبي، وثلاثين ألفًا أسردها، قال: وأملى علينا إسحاق أحد عشر ألف حديث من حفظه، ثم قرأها علينا، فما زاد حرفًا ولانقص حرفا.

قال الذهبي: هذه الحكاية رواها الحافظ ابن عدي عن يحيى بن زكريا بن حيّوَيه، سمع أبا داود فذكرها، فهذا والله الحفظ[2].

---

(١) لُقِّب بذلك لأن أباه ولد في طريق مكة فقالت المراوزة راهويه لأنه ولد في الطريق.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣٧٣.

من أخبار أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من الحفاظ الذين قل أن يوجد لهم نظير الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى ، ومن أخباره في ذلك مارواه الحافظ الخطيب البغدادي من حديث أبي جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي قال قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث ؟ قال : أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب ، قال : وكم أتى عليك إذ ذاك ؟ قال : عشرُ سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، وقال يوما فيما يقرأ للناس : سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له : ياأبا فلان إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم ، فانتهرني فقلت له : ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال لي : كيف هو ياغلام ؟ قلت : هو الزبير بن عدي عن إبراهيم ، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه ، فقال : صدقت، فقال له بعض أصحابه : ابن كم كنت إذ رددت عليه ؟ فقال: ابن إحدى عشرة، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء (١) ، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة ، فلما حججت رجع أخي بها وتخلفت في طلب الحديث، فلما طعنت في ثماني عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلَهم، وذلك أيام عبيد الله بن موسى ، قال: وصنَّفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول ﷺ في الليالي المقمرة ، وقال: قلَّ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر · يعني أصحاب الرأي مقدمة الفتح / ٤٧٩ .

اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة إلا أني كرهت تطويل الكتاب[1].

ففي هذا الخبر بيان لعدد من مواقف أبي عبد الله البخاري العلمية وذلك في خدمة سنة رسول الله ﷺ .

ومما يبين قوة حفظه ودقة فهمه ماوراه الخطيب البغدادي من خبر أبي أحمد بن عدي قال : سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا الموعد للمجلس ، فحضر المجلس جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري : لاأعرفه، فسأله عن آخر فقال : لاأعرفه ، فما زال يلقي عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لاأعرفه ، فكان الفقهاء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : الرجل فهم، ومن كان منهم غيرَ ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم.

ثم انتدب رجل آخر من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال البخاري : لاأعرفه ، فسأله عن آخر فقال:

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٦ - ٧

لاأعرفه ، فلم يزل يلى عليه واحدا بعد آخر حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : لاأعرفه .

ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لايزيدهم على : لاأعرفه، فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال : أما حديثك الأول فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتم على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها ، وأسانيدها إلى متونها، فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل ، وكان ابن صاعد إذا ذكر محمد بن إسماعيل يقول : الكبش النطّاح (١) .

ومن المواقف التي تبين تفوق الإمام البخاري في الحفظ والفهم ماأخرجه الخطيب البغدادي من خبر حاشد بن إسماعيل قال: كان أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب ، حتى أتى على ذلك أيام ، وكنا نقول له : إنك تختلف معنا ولاتكتب فما معناك فيما تصنع ؟ فقال لنا بعد ستة عشر يوما : إنكما قد أكثرتما علي وألححتما فاعرضا علي ماكتبتما، فأخرجنا ماكان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب ، حتى جعلنا نُحكِم كُتُبَنَا على حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدراً وأضيع أيامي ؟ فعرفنا أنه لايتقدمه أحد .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠ - ٢١ ، سير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٨ - ٤٠٩ .

قال : وكان أهل المعـرفة من أهل البصرة يَعْـدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويُجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكـثرهم ممن يكتب عنه، قال : وكان أبو عبد الله عند ذلك شابا لم يخرج وجهه [١] .

فهذا حـافظ الدنيا وإمام أهل الحديث في عصره الإمـام البخاري يحفظ في أيام قلائل خمسة عشر ألف حديث ، ولقد كان إلى جانب ماوهبه الله سبـحانه من قوة الحافظة وسرعة التذكـر يشغل ليله ونهاره في استـذكار الأحاديث كـما جاء في روايـة أخرجهـا الحافظ الخطيب البغدادي من خبـر محمد بن يوسف الفِرَبْري قال : كنـت عند محمد ابن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج، يستذكر أشياء يعلقها في ليلةٍ ثمان عشرة مرة [٢] .

وقد ذكر أبو عـبد الله في رواية عنه أفضل طريقـة للحفظ وذلك فيمـا رواه محمد بـن أبي حاتم عن النجم بن الفضيل أنه قـال للإمام البـخاري : هل من دواء يشـربه الرجل فيـنتفع به للحـفظ ؟ فقـال: لاأعلم ، ثم أقبل علـيّ وقال : لاأعلم شيـئًا أنفع للحفظ من نهـمة الرجل ومداومة النظر .

قال : وذاك أنِّي كنت بنيـسابور مقيمـا فكان تَرِدُ إليّ من بخارى كُتُب ، وكنَّ قراباتٌ لي يُقرئن سلامـهن في الكتب فكنت أكتب كتابا إلى بخارى وأردت أن أقرئهن سلامي فذهب عليَّ أساميهن حين كتبت

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٤ - ١٥ ، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٨ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٤ ، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠٤ .

كتابي ولم أقرئهن سلامي ، ومأأقل مايذهب عني العلم [١] .

فقد تبين من كلام الإمام البخاري أن أهم أسباب النجاح في العلم أن يتوجه المتعلم إليه بكليته فيكون هو الذي يشغل باله فيفكر فيه حتى وهو على فراش النوم ، فبذلك يثبت في الذاكرة ، ويتفتّق الفكر عن المعاني الكثيرة التي تَرِد على الذهن من تركيز الفكر على القضايا العلمية .

وفي حفظ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى يقول أبو بكر الكلْوذاني : مارأيت مثل محمد بن إسماعيل ، كان يأخذ الكتاب من العلماء فيطلع اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة [٢] .

وقال سليم بن مجاهد : سمعت أبا الأزهر يقول : كان بسمرقند أربع مئة ممن يطلبون الحديث ، فاجتمعوا سبعة أيام وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل ، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق وإسناد اليمن في إسناد الحرمين، فما تعلقوا منه بسقطة لافي الإسناد ولافي المتن [٣] .

وهكذا فليكن العلم والحفظ ، وإلى علم هذا الإمام وأمثاله يرجع المحققون .

وأخرج الخطيب البغدادي بإسناده عن سليم بن مجاهد قال: كنت

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٠٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٤١٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٤١١

عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي : لو جئت قبلُ لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث قال: فخرجت في طلبه حتى لقيته فقلت: أنت الذي تقول : أنا أحفظ سبعين ألف حديث ؟ قال: نعم وأكثر منه، ولاأجيئك بحديث من الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروي حديثا من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظًا من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١].

وقال محمد بن أبي حاتم : سمعت محمد بن إسماعيل يقول: قال لي محمد بن سلام : انظر في كتبي فما وجدت فيها من خطإٍ فاضرب عليه ، كي لاأرويه ، ففعلت ذلك .

وكان محمد بن سلام كتب عند الأحاديث التي أحكمها محمد ابن إسماعيل : رضي الفتى، وفي الأحاديث الضعيفة، لم يرض الفتى ، فقال له بعض أصحابه : من هذا الفتى ؟ فقال: هو الذي ليس مثله ، محمد بن إسماعيل [٢] .

من أخبار أبي بكر الأثرم رحمه الله :

من ذلك ماذُكر عنه أنه كان قوي الحفظ سريع التذكر ، قال الخلال: وأخبرني أبو بكر بن صدقة : سمعت أبا القاسم بن الخُتَّلي قال: قام رجل فقال : أريد من يكتب لي من كتاب الصلاة ماليس في كتب أبي بكر بن أبي شيبة ، فقلنا له : ليس لك إلا أبو بكر الأثرم،

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٢٤ - ٢٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢٤ .

قال : فوجَّهوا إليه ورقا ، فكتب ستمائة ورقة من كتاب الصلاة، قال: فنظرنا فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء [1] .

فهذا مثل على البراعة الفائقة في الحفظ والتذكر، حيث حفظ الإمام أبوبكر أحمد بن محمد الأثرم هذه الكمية الكثيرة من الأحاديث في كتاب الصلاة وميَّزها عما رواه شيخه أبو بكر ابن أبي شيبة.

من أخبار إسحاق بن بهلول رحمه الله :

ومن الحفاظ الكبار الحافظ أبويعقوب إسحاق بن بهلول ومن أخبار حفظه ماذكر الخطيب البغدادي عن ابن الأزرق قال: حدثني القاضي أبوطالب محمد بن أحمد بن إسحاق بن البُهلول، قال : تذاكرت يوما أنا وأبومحمد بن صاعد ماحدَّث به جدِّي ببغداد -من حفظه- بأربعين ألف حديث، فقال لي أبومحمد بن صاعد: لايَدري أُنَيس ماقال: حدث إسحاق بن البهلول من حفظه ببغداد بأكثر من خمسين ألف حديث.

وقد ذكر في خبر آخر سبب ذلك وهو أنه لما خاف من الأتراك أن يكبسوا الأنبار انحدر إلى بغداد عَجِلاً ولم يحمل معه شيئًا مِنْ كتبه، فطالبه محمد بن عبد الله بن طاهر أن يحدث، فحدث ببغداد من حفظه بخمسين ألف حديث لم يخطئ في شيء منها [2].

فهذا مثل من الحفظ القوي والذاكرة الجيدة ، فقد أُلزِم هذا الإمام الحافظ أن يحدث بعيدا عن كتبه فحدَّث بخمسين ألف حديث من حفظه لم يخطئ في شيء منها .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٦٢٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٦/٣٦٨ .

من أخبار أبي عيسى الترمذي رحمه الله :

من الحفـاظ الكبار الإمام أبو عـيسى محـمد بن عـيسى السلمي الترمذي ، مصنف « الجامع » أحد الكتب الستة .

قـال الحافظ الذهبي : نقل أبو سـعـد الإدريسي بإسنادٍ له أن أبا عيـسى قال : كنت في طريق مكة فكتـبت جزأين من حـديث شيخ ، فوجدته فسـألته وأنا أظن أن الجزأين معي ، فسألته فـأجابني فإذا معي جزآن بياض ، فـبقي يقرأ عليَّ من لفظه ، فنظر فـرأى في يدي ورقا بياضا ، فـقال : أما تستـحي مني ؟ فأعلمته بأمـري وقلت : أحفظه كله ، قال : اقرأ ، فقرأته عليه فلم يصدقني وقال : استظهرت قبل أن تجيء ، فقلـت : حدثني بغيـره ، قال: فـحدثني بأربعين حـديثا ، ثم قال: هات ، فأعدتها عليه ماأخطأت في حرف [1] .

وقال أبو سـعد الإدريسي : كـان أبو عيسى يُضـرب به المثل في الحفظ .

وقال الحاكم : سمعت عمـر بن عَلَّك يقول : مات البخاري فلم يخلف بخـراسان مـثلَ أبي عيـسى في العلم والحـفظ والورع والزهد وبكى حتى عمي ، وبقي ضريراً سنين[2] .

وإذا علمنا ماكان علـيه الإمام الحافظ أبو عيـسى الترمذي من هذا المسـتوى الرفـيع من الحفظ فليس بمسـتغـرب منه أن يؤلف كتـابا في الحديث حاز على إعجاب علماء الحديث حتى جعلوه من الكتب الستة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٧٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٧٣ .

الأمهـات في هذا العلم ، وأن يؤلف كتـابًا مهـما في أعـقد باب من أبواب علوم الحديث ، ألا وهو علل الحديث .

من أخبار الحسن بن سفيان رحمه الله :

ممن اشتهر بالحفظ الإمام الحافظ الحسن بن سفيان الشيباني، ومن أخبار ذكـائه وحفظه الجيد ماذكـره أبو عبد الله الحاكم قـال: سمعت محمد بـن داود بن سليمان يقول : كنا عند الحسن بن سفـيان فدخل ابن خزيمة وأبو عمرو الحِيري وأحمد بن علي الرازي، وهم متوجهون إلى فُـراوة ، فقـال الرازي : كتـبت هذا الطبق من حديثك ، قـال: هات، فقرأ عليه ، ثم أدخل إسنادا في إسناد ، فردَّه الحسن ، ثم بعد قليل فعل ذلك فـردَّه الحسن ، فلما كـان في الثالثة قـال له الحسن : ماهذا ؟! قد احتملتك مرتين وأنا ابن تسعين سنة فاتق الله في المشايخ فربما استجيبَتْ فيك دعوة ، فقال له ابن خزيمة : مَهْ ، لاتؤذ الشيخ، قال : إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يعرف حديثه (١) .

من أخبار الحسين النيسابوري وأحمد بن جوصا رحمهما الله :

لقد كان العلمـاء الحفاظ لقوة حافظتهم وجودة ذاكـرتهم يعمرون مجـالسهم بالمـذاكرة من الذاكـرة ،ومن أمثلة ذلك مـاذكر أبو عـمرو النيسابوري الصغير قال:نزلنا خانا بدمشق العصر،ونحن على آن نبكِّر إلى ابن جـوصا (٢)،فـإذا الخاني يصـيح :أين أبو علي الحـافظ ؟(٣)

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/١٥٩ .

(٢) هو الإمام الحافظ أبو الحسن أحمد بن عمير بن يوسف ابن جوصا، محدث الشام.

(٣) يعني الإمام الحافظ أبا على الحسين بن علي النيسابوري .

فقلت : هاهنا ، قال : قد حضره الشيخ زائراً ، فإذا بأبي الحسن بن جوصا على بغلة فنزل عنها، ثم صعد إلى غرفتنا وسلم على أبي علي ورحب به ، وأخذ في المذاكرة معه إلى قرب العتمة [١] ، ثم قال: ياآبا علي جمعتَ حديث عبد الله بن دينار ؟ قال: نعم ، قال: آخرجْه إلي ، فأخرجه فأخذه الشيخ في كمه وقام .

فلما أصبحنا جاءنا رسوله وحملنا إلى منزله فذاكره آبو علي وانتخب عليه إلى المساء ، ثم انصرفنا إلى رحلنا، وجماعةٌ من الرحالة ينتظرون أبا علي فسلموا عليه، ثم ذكروا شأن ابن جوصا ومانقموا عليه من الأحاديث التي أنكروها، وأبو علي يسكِّتهم ويقول: لاتفعلوا ، هذا إمام من أئمة المسلمين، وقد جاز القنطرة[٢] .

فهذا اجتماع علمي مهم بين حافظين كبيرين ، ولاشك آن هذا الاجتماع وأمثاله يَنتُج عنه تثبيت المعلومات وإضافة معلومات جديدة.

ولقد كان اعتماد العلماء في تلك العصور على الحفظ عاملا في حصر الشهرة العلمية في النوابغ،الذين يشتهرون بقوة الحفظ وسرعة التذكر،كما كان عاملا على توجه المتفوقين في الذكاء نحو هذا العلم.

ونظرًا لكون العلماء يعتمدون على الحفظ والذاكرة كانت مجالسهم معمورة بالعلم الذي يُستخرج بالمذاكرة ، أما الذين يعتمدون على التدوين فقط فإنهم لايستطيعون أن يعمروا مجالس المذاكرة .

---

(١) أي صلاة العشاء .

(٢) سر أعلام النبلاء ١٥/١٧ .

من أخبار عبد الرحمن ابن الخُتَّلي رحمه الله :

ومن العلماء المشهورين بقوة الحفظ وجودة الذاكرة الإمام الحافظ أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد البغدادي ابن الخُتَّلِي، قال عن حفظه علي بن المحسن التنوخي : أخبرني أبي قال : دخل إلينا أبو عبد الله الختلي إلى البصرة ، وهو صاحب حديث جَلْد، وكان مشهورًا بالحفظ ، فجاء وليس معه شيء من كتبه فحدّث شهورًا إلى أن لحقته كتبه ، فسمعته يقول : حدثت بخمسين ألف حديث من حفظي إلى أن لحقتني كتبي (١) .

من أخبار محمد العقيلي رحمه الله :

ومن الحفاظ المشهورين الإمام الحافظ أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي ، يقول عن حفظه مسلمة بن القاسم الأندلسي : كان العقيلي جليل القدر عظيم الخطر ، مارأيت مثله، وكان كثير التصانيف، فكان من أتاه من المحدثين قال : اقرأ من كتابك ولايُخرجُ أصله، قال: فتكلمنا في ذلك وقلنا : إما أن يكون من أحفظ الناس وإما أن يكون من أكذب الناس ، فاجتمعنا فاتفقنا على أن نكتب له أحاديث من روايته ونزيدَ فيها وننقص ، فأتيناه لنمتحنه فقال لي : اقرأ فقرأتها عليه، فلما أتيت بالزيادة والنقص فطن لذلك فأخذ مني الكتاب وأخذ القلم فأصلحها من حفظه ، فانصرفنا عنه وقد طابت نفوسنا، وعلمنا أنه من أحفظ الناس (٢) .

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ٢٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٧ .

فهذا مثل من اهتمام طلاب العلم بضبط مايروونه من سنة رسول الله ﷺ ، وقد دفعهم ذلك الاهتمام إلى الجرأة على اختبار الحافظ الناقد أبي جعفر العقيلي فظهر من هذا الاختبار جودة حفظه وإتقانُه، وبهذا الحفظ القوي المتقن بلغ مابلغه من الشهرة العلمية في حظ السنة إلى جانب علمه الدقيق في رواة الحديث .

من أخبار محمد بن المظفر رحمه الله :

ومن الحفاظ المشهورين الحافظ أبو الحسن محمد بن المظفر قال أبو ذر الهروي : سمعت ابن أبي الفوارس يقول : سألت ابن المظفر عن حديث عن الباغندي عن ابن زيد المُنادي عن عمرو بن عاصم عن شعبة ، فقال : ليس هو عندي ، قلت : لعله عندك ؟ قال: لو كان عندي كنت أحفظه ، وعندي عن الباغندي مائة ألف حديث ليس عندي هذا [1] .

فهذا مثال على كثرة الحفظ والإتقان ، فالحافظ ابن المظفر يحفظ عن الباغندي مائة ألف حديث وهي معلومة لديه بدون رجوع إلى كتابه، فقد أنكر نسبة ذلك الحديث إليه عن الباغندي وبيّن أنه ليس من جملة مروياته عنه ، وهذا دليل على القدرة الفائقة على الحفظ والتذكر .

من أخبار أحمد ابن جوصا رحمه الله :

من الحفاظ محدث الشام أبو الحسن أحمد بن عمير ابنُ جوصا، قال عنه أبو ذر الهروي : سمعت أبا مسعود الدمشقي يقول: جاء

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٩/١٦ .

رجل بغدادي يحفظ إلى ابن جوصا (١) ، فقال له ابن جوصا : كلما أغربت عليَّ حديثا من حديث الشاميين أعطيتك درهما ، فلم يزل الرجل يلقى عليه ماشاء الله ولايغرب عليه ، فاغتمَّ ، فقال للرجل : لا تجزع ، وأعطاه لكل حديث ذاكره به درهما ، وكان ابن جوصا ذا مال كثير (٢) .

وهكذا كان الحافظ ابن جوصا يتمتع بالحفظ القوي والذاكرة السيالة والكرم البالغ ، فقد كانت كل تلك الأحاديث التي ألقاها ذلك العالم البغدادي معروفة عند الحافظ ابن جوصا ، فلم يكن البغدادي يستحق شيئا مما وعده به ، ولكنَّ كرم ابن جوصا الفياض أبى عليه أن يرد ذلك البغدادي منكسر النفس ، فأعطاه من الدراهم بعدد ماذاكره به من الأحاديث .

من أخبار علي بن عمر الدارقطني رحمه الله :

ومن الحفاظ الكبار الإمام أبو الحسن عليُّ بن عمر الدارقطني صاحبُ المؤلفات النافعة في السنة ، ومن أخبار حفظه ماذكر الخطيب البغدادي عن الأزهري قال : بلغني أن الدارقطني حضر في حداثته مجلس إسماعيل الصفار ، فجلس ينسخ جزءًا كان معه وإسماعيل يُملي ، فقال له بعض الحاضرين : لايصح سماعك وأنت تنسخ ، فقال له الدارقطني : فهمي للإملاء خلاف فهمك ، ثم قال : تحفظ كم أملى الشيخ من حديث إلى الآن ؟ فقال : لا ، فقال الدارقطني :

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن عمير بن يوسف ابن جوصا .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/١٥ .

أملى ثمانية عشر حديثا ، فعُدَّت الأحاديث فَوُجِدَت كما قال: ثم قال أبو الحسن : الحديث الأول منها عن فلان عن فلان ، ومتنه كذا، والحديث الثاني عن فلان عن فلان ، ومتنه كذا ، ولم يزل يذكر أسانيد الأحاديث ومتونها في الإملاء حتى أتى على آخرها [1] .

وهكذا كان حفظ هذا العالم الكبير الذي أصبح من أعلام علماء السنة ، فقد كان مشهورًا بقوة الحفظ وجودة الذاكرة ، وقد ذكر أبو بكر البرقاني أنه أملى عليه كتاب « العلل » من حفظه .

ذكره الإمام الذهبي وقال : إن كان كتاب « العلل » الموجود قد أملاه الدارقطنُّي من حفظه كما دلت عليه هذه الحكاية فهذا أمر عظيم يُقضَى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا ، وإن كان قد أملى بعضه من حفظه فهذا ممكن [2] .

خبر الحاكم مع بديع الزمان الهمذاني رحمهما الله :

هذا وإن حفظ الأحاديث بأسانيدها المتعددة ليس بالأمر اليسير بل هو من أشق المواد وأصعبها، ومما يبين صعوبة هذه المادة ماذكره الحافظ الذهبي عن سعد بن علي الزنجاني أنه سمع أبا نصر الوائليَّ يقول: لما ورد أبو الفضل الهمذاني نيسابور تعصبوا له ولقبوه بديع الزمان، فأعجب بنفسه إذ كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت مرة ، وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فأنكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث ، ثم قال : وحِفظُ الحديث مما يُذكر ؟! فسمع به الحاكم ابن

(١) تاريخ بغداد ٢/٣٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/٤٥٥

البَيِّع (١) فوجه إليه بجزء ، وأجَّل له جمعة في حفظه، فردَّ إليه الجزء بعد الجمعة وقال : من يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ؟ أسامي مختلفة وألفاظٌ متباينة ؟ فقال له الحاكم : فاعرف نفسك واعلم أن هذا الحديث أصعب مما أنت فيه (٢) .

فهذا دليل على أن حفظ الأسانيد صعب للغاية ، ولايماثله شيء في الصعوبة ، فبديع الزمان الهمذاني الذي يحفظ القصيدة المكوَّنة من مائة بيت بسماعها أول مرة ويعيدها مقلوبة لم يستطع أن يحفظ جزءًا في الحديث مع إمهال أبي عبد الله الحاكم له مدة أسبوع ، ولقد كان الحاكم خبيرًا بهذا العلم حينما تحدى ذلك الأديب الذي استهان بحفظ الأحاديث ، فأعلن بعد ذلك عجزه عن حفظ الأسانيد، وإذا كان قد عجز عن حفظ جزء واحد ، والجزء كما هو معروف في الغالب عشرون ورقة ، فكيف بالعلماء الذين يحفظون مئاتِ الأجزاء ومئات الألوف من الأحاديث ؟!

ولاشك أن حفظ الأحاديث بأسانيدها في غاية الصعوبة، ولكنه يسهل على طالب العلم بمعونة الله تعالى مع إخلاص النية وصدق التوجه نحو العلم .

من أخبار أبي نصر علي ابن ماكولا رحمه الله :

ومن الحفاظ الكبار الذين لهم إسهام في التأليف في علوم الحديث الأمير الحافظ أبو نصر علي بن هبة الله ابن ماكولا وقد ذكر في حفظه

(١) هو أبو عبد الله الحاكم صاحب المستدرك .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٧٣ .

هبة الله بن المبارك بن الدَّواتي قال : اجتمعتُ بالأمير ابن ماكولا فقال لي : خذ جزأين من الحديث فاجعل متون هذا لأسانيد هذا ومتون الثاني لأسانيد الأول ، حتى أردها إلى الحالة الأولى [1] .

وهذا دليل على التمكن في الحفظ وسرعة التذكر .

من أخبار القاسم الشاطبي رحمه الله :

ومن كبار الحفاظ الذين اشتهروا بالتأليف في العلوم الإسلامية المتنوعة الإمام سيد القراء القاسم الشاطبي وقد ذكروا من قوة حفظه وجودة ذاكرته أنه إذا قرئ عليه « الموطأ » و« الصحيحان » يصحح النسخ من حفظه، حتى كان يقال: إنه يحفظ وقر بعير من العلوم[2].

من أخبار أبي زرعة الرازي وسليمان الشاذكوني رحمهما الله :

من ذلك ماأخرجه الخطيب البغدادي من حديث أبي عثمان سعيد ابن عمرو قال : سمعت أبا زرعة الرازي يقول : دخلت البصرة فصرت إلى سليمان الشاذكونّي يوم الجمعة وهو يحدث، وهو أول مجلس جلست إليه ، فقال : حدثنا يزيد بن زريع عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر عن النبي ﷺ « مامن رجل يموت له ثلاثة من الولد فتمسَّه النار إلا تحلة القسم » فقلت للمستملي : ليس هذا من حديث عاصم بن عمر، إنما هذا رواه محمد بن إبراهيم ، فقال له ، فرجع إلى محمد بن إبراهيم.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٧٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٦٤ .

قال : وذكر في هذا المجلس أيضا فقال : حدثنا ابن أبي غنية عن أبيه عن سعد بن إبراهيم عن نافع بن جبير عن أبيه أنه قال: « لاحلف في الإسلام » قال : فقلت : هذا وهم ، وهم فيه إسحاق بن سليمان، وإنما هو سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبير ، قال: فغضب ثم قال لي : ماتقول فيمن جعل الأذان مكان الإقامة ؟ قلت: يعيد، قال : من قال هذا ؟ قلت : الشعبي ، قال : من عن الشعبي؟ قلت: حدثنا قبيصة عن سفيان عن جابر عن الشعبي ، قال: ومن غير هذا ؟ قلت : إبراهيم ، قال: من عن إبراهيم ؟ قلت: حدثنا أبو نعيم حدثنا منصور بن أبي الأسود عن مغيرة عن إبراهيم ، قال: أخطأت ، قلت : حدثنا أبو نعيم حدثنا جعفر الأحمر عن مغيرة عن إبراهيم ، قال : أخطأتَ ، قلت: حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو كدينة عن مغيرة عن إبراهيم ، قال : أصبت .

قال أبو زرعة : كتبت هذه الأحاديث الثلاثة عن أبي نعيم فما طالعتها منذ كتبتها فاشتبه عليَّ ، ثم قال: وأي شيء غير هذا؟ قلت: معاذ بن هشام عن أشعث عن الحسن ، قال: هذا سرقته مني - وصدق - كان ذاكرني به رجل ببغداد فحفظته عنه [1] .

فهذا مثال على غزارة العلم وقوة الحفظ ، وسرعة استحضار المعلومات عند البارزين من علماء السلف ، فقد كانوا يحفظون متون الأحاديث بأسانيدها المتعددة فإذا سمع الحافظ منهم المحدث وأخطأ في اسم راو من الرواة أدرك ذلك حالاً واستدركه عليه ، وعلى هذا جرت

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/٢٢٩ - ٢٣٠ .

هذه المحاورة العلمية بين هذين الحافظين أبي زرعة الرازي وسليمان الشاذكوني .

إن حفظ المتون وحدها يحتاج إلى جهد في الحفظ والاستذكار، فكيف بحفظ الأسانيد التي تتشابه كثيرا .

وبهذا الجهد العظيم حفظ العلماء رحمهم الله تعالى سنة رسول الله ﷺ وسيرته .

من أخبار محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

من ذلك ماذكره أبو العباس الدَّغولي سمعت صالح بن محمد الحافظ يقول: دخلت الريَّ ، وكان فَضْلَك[1] يذاكرني حديث شعبة، فألقى عليَّ لشعبة عن عبد الله بن صُبيح عن ابن سيرين عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « هذا خالي فَلْيُرني امرؤ خاله » [2]، فلم أحفظ[3]، فقال فضلك: أنا أفيدكه ،إذا دخلت نيسابور ترى شيخا حسن الشيب حسن الوجه راكبا حمارا مصريا حسن اللباس فإذا رأيته فاعلم أنه محمد بن يحيى فسلْه عن هذا، فهو عنده عن سعيد بن

---

(١) هو فضلك الصائغ واسمه الفضل بن العباس الرازي .

(٢) أخرجه الإمام الترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أقبل سعد فقال النبي ﷺ : « هذا خالي فليرني أمرؤ خاله » وقال: حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث مجالد - سنن الترمذي ، المناقب ، مناقب سعد بن أبي وقاص، رقم (٣٧٥٢) وقال الترمذي : وكان سعد بن أبي وقاص من بني زهرة، وكانت أم النبي ﷺ من بني زهرة ، ولذلك قال النبي ﷺ : « هذا خالي » .
وأخرجه الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه وصححه وأقره الذهبي - المستدرك٣/ ٤٩٨- .

(٣) يعني لم يحفظ إسناده .

واصل عن شعبة ، فلما دخلت نيسابور استقبلني شيخ بهذا الوصف، فقلت : يشبـه أن يكون ، فسألت عنه فقالوا : هو محـمد بن يحيى فتبـعته إلى أن نزل فسـلمت عليه وأخبرته بقـصدي إياه ، فنزلت في مسجده وكتبت مجلسا من أصوله ، فلما خرج وصلَّى قرأته عليه، ثم قلت : حدثكم سعيد بن عامر عن شعبة، فذكرت الحديث فقال لي: يافتى من ينتخب هـذا الانتخاب ويقرأ هذه القراءة يعلم أن سـعيد بن عامر لايحدث عن شعبـة بمثل هذا الحديث، فقلت : نعم أيها الشيخ حدثكم سعيد بن واصل ؟ فقال : نعم [1] .

فهـذا مثال على حفظ الإمـام محمد بـن يحيى الذهلي ومعرفـته برجال الحديث ، فقد أدرك ذلك الخطأ في إسناد الحديث . كما أورده السائل .

وهكذا فليكن الحفظ والعلم .

وفي هذا الخـبر بيان حـرص طلاب العلم على حفـظ الأحاديث بأسانيدها العالية ، فقد رحل صالح بن محمد الحافظ إلى نيسابور من أجل أن يسمع هذا الحديث عاليا عن محمد بن يحيى .

من أخبار عبد الله بن بكير رحمه الله :

ومن ذلك مـاأخرجـه الخطيب البغـدادي من حديث أبي القـاسم الأزهري قال : كنت أحـضر عند عـبد الله بن بكيـر وبين يديه أجزاء كبـار قد خرَّج فيـها أحاديث ، فأنظر في بعـضها، فيـقول لي : أيما أحب إليك تذكـر لي متن مـاتريد من هذه الأحـاديث حـتى أخبـرك

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٢٧٧ .

بإسناده أو تذكر إسناده حتى أخبرك بمتنه ؟ فكنت أذكر له المتون فيحدثني بالأسانيد من حفظه كما هي في كتابه ، وفعلت هذا معه مرارا كثيرة .

قال إسحاق بن يسار النصيبي : وقال لي الأزهري : كان أبو عبدالله بن بكير ثقة فحسدوه فتكلموا فيه (١) .

فهذا الخبر يدل على قوة حفظ الحافظ عبد الله بن بكير وجودة ذاكرته .

خبر في بيان أهمية المذاكرة :

ومن أسباب تمتع بعض العلماء بحفظهم واستمساكهم بما في ذاكرتهم كثرة مذاكرة العلم وتذكره ، وفي ذلك يقول الحافظ أبو زرعة : إذا مرضت شهراً أو شهرين تبين عليَّ في حفظ القرآن، وأما الحديث فإذا تركتَ أياما تبين عليك ، ثم قال أبو زرعة : نرى أقوامًا من أصحابنا كتبوا الحديث تركوا المجالسة منذ عشرين سنة أو أقل، إذا جلسوا اليوم مع الأحداث كأنهم لايعرفون أولا يحسنون الحديث (٢) .

فهذا خبر مهم في بيان سبب حفظ العلماء لعدد كبير من الأحاديث واحتفاظهم به طول عمرهم ، فقد كانوا يتعاهدون حفظهم للسنة كما يتعاهدون حفظهم للقرآن، وإذا تصورنا أن الواحد من هؤلاء الحفاظ يحفظ عشرات الألوف من الأحاديث مع القرآن فأي جهد كانوا يبذلونه في الحفظ والاستذكار لتثبيت حفظهم !

---

(١) تاريخ بغداد ٨/ ١٣-١٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٧٩ .

من أخبار أبي بكر الأنباري رحمه الله :

من أخبار سياسة العلماء أنفسهم بالحزم والجد حتى يبقوا على قوة الحفظ وجودة الذاكرة ماذكره القاضي أبو يعلى عن محمد بن جعفر التميمي النحوي قال: قال أبو الحسن العروضي : اجتمعت أنا وأبوبكر بن الأنباري[1] عند الراضي على الطعام، وكان قد عرف الطباخ مايأكل أبو بكر فكان يسوِّي له قليَّة يابسة، قال: فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطايبه وهو يعالج تلك القلية، ثم فرغنا وأُتِينا بحلواء فلم يأكل منها شيئًا ، وقام وقمنا إلى الخَيْس، وقمنا إلى حيس ماء نشربه، ولم يشرب إلى العصر فلما كان من العصر قال للغلام : الوظيفة، فجاءه بماء من الحِبّ[2]، وترك الماء المزمَّل بالثلج، فغاظني أمره فصحت صيحة ، فأمر أمير المؤمنين بإحضاري وقال: ماقصتك ؟ فأخبرته وقلت: هذا ياأمير المؤمنين يحتاج إلى أن يحال بينه وبين تدبير نفسه لأنه يقتلها ولايحسن عِشْرتَها، قال :فضحك وقال : له في هذا لذة وقد جرت به العادة فصار إلفا فلن يضره، ثم قلت: ياأبا بكر لِمَ تفعل هذا بنفسك ؟ قال: أُبقي على حفظي، فقلت له: قد أكثر الناس في حفظك فكم تحفظ ؟ قال: أحفظ ثلاثة عشر صندوقا، قال محمد ابن جعفر التميمي النحوي : وهذا مالا يحفظ لأحد قبله ولابعده ، وكان أحفظ الناس لِلُغة ونحو وشعر وتفسير وقرآن، فحُدِّثت أنه كان يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها[3] .

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد الأنباري .

(٢) الحبٌّ إناء من الفخار يبرد به الماء .

(٣) طبقات الحنابلة ٢/ ٧٠ .

ففي هذا الخبر دلالة على اهتمام العـلماء بحفظ العلم والاحتفاظ به في الذاكرة ، وإذا تـعارض ذلك - في نظرهم - مع التـمتع بأنواع الطعام فإنهم يقلّلون من الطعام من أجل الاحتفاظ بقوة الحفظ وجودة الذاكرة ، فهذا ابن الأنباري يتجنَّب أطايب الطعام والماء المثلج ليحتفظ بحفظه ، وهذه النتـيجة التي اسـتظهرها من تصرفـه هذا قد تكون مما نصح به بعض الأطباء وقد تكون مما عرفه العلماء بتجاربهم .

من أخبار أبي بكر بن أبي داود رحمه الله :

من ذلك مـاأخرجه الخطيب الـبغدادي عن أبي القـاسم الأزهري قال: سـمعت أحمـد بن إبراهيم بن شاذان يقـول - في المذاكرة - : خرج أبو بكر بـن أبي داود إلى سجسـتان في أيام عمـرو بن الليث، فاجتمع إليه أصحـاب الحديث، وسألوه أن يحدثهم فأبى وقال: ليس مـعي كتـاب ، فقـالوا له : ابن أبي داود وكـتاب ؟ قـال أبو بكر : فأثاروني ، فأمليت عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظي، فلما قدمت بغـداد قال البـغداديون : مـضى ابن أبي داود إلى سجـستـان ولعب بالناس ، ثم فيَّجوا فَيْجًا [1] اكتروه بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكُتِبت ، وجئ بها إلى بغـداد وعُرِضت على الحفاظ بها فخطَّئوني في ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدثت بها كما حُدِّثت وثلاثة أحاديث أخطأت فيها [2] .

فهذا مثل من الحفظ القوي والذاكـرة الحية، فقد أُلجِئ هذا الحافظ

---

(١) أي أرسلوا جماعة من الناس .

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٤٦٦ .

أبو بكر بن أبي داود إلى التحديث من حفظه فحدث بثلاثين ألف حديث، جاءت على الصواب ماعدا ثلاثة أحاديث أخطأ فيها وخالف كتابه.

وإذا نسبنا ثلاثة أحاديث إلى ثلاثين ألف حديث فإنها تعتبر لاشيء.

وماجاء في هذا الخبر من اهتمام الحفاظ ببغداد بهذا الأمر يدل على يقظة علماء الحديث وتحريهم البالغ للإتقان في أداء السنة النبوية، ورقابتهم الشديدة على معاصريهم حتى لايكون هناك تهاون في الأداء يحمل على كثرة الوقوع في الخطأ، فقد بذل هؤلاء العلماء من أموالهم، وأرسلوا وفدا من طلاب العلم لينسخوا الأحاديث التي أملاها الحافظ ابن أبي داود من حفظه حتى يعرضوها على كتابه الأصلي فيصححوا الخطأ للناس إن وجد، ولكن لم يوجد خطأ منه إلا في هذا العدد القليل جدا مع كثرة ماروى من حفظه، ونجح في الاختبار الصعب الذي فرضه عليه علماء الحديث.

إن هذا الاهتمام البالغ في ضمان الدقة في أداء الحديث النبوي يجعل ضعاف الإيمان يحجمون عن الدخول فيما لايحسنون، والتقول بلا علم، أو التهاون في ضبط ماعلموا، وهذا من أسباب ضبط السنة النبوية على مر العصور.

من أخبار أحمد بن عقدة رحمه الله:

من الحفاظ المشهورين الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد ابن

عقـدة الكوفي ، أخـرج الخطيب البغـدادي بإسناده عن أبي إسـحاق الطبري قال : سمعت ابن الجعابي يقول : دخل ابن عقدة بغداد ثلاث دفعـات ، فسمع في الدفـعة الأولى من إسـماعيل القـاضي ونحوه، ودخل الثانية في حياة ابن منيع ، وطلب مني شـيئًا من حديث يحيى ابن صاعد وسألتـه أن يدفع إليَّ شيئًا من حديثه لأحـمله لابن عقدة، فدفع إليَّ مـسند علي بن أبي طالب ، فـتعجـبت من ذلك وقلت في نفسي : كيف دفع إليّ هذا وابن عقـدة أعرف الناس به مع اتساعه في حديث الكوفيين !

وحملته إلى ابن عقدة فنظر فيه ثم ردَّه علي، فقلت : أيها الشيخ هل فيه شيء يُستغرب ؟ فقال :نعم فيه حديث خطأ، فقلت: أخبرني به ، فقال : والله لاأُعَرِّفنَّك ذلك حتى أجاوز قنطرة الياسرية ، وكان يخاف من أصـحاب ابن صاعد، فطـالت عليّ الأيام انتظارًا لوعده ، فلما خرج إلى الكوفة سرت معه ، فلما أردت مفارقته قلت: وعدَك؟ فقال : نعم الحديث عن أبي سعيد الأشج عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، ومتى سمع منه ؟ وإنما وُلد أبو سعيدٍ في الليلة التي مات فيها يحيى بن زكريا بن أبـي زائدة ، فودَّعته وجئت إلى ابن صـاعد فقلت له : وُلد أبو سعيد الأشج في الليلة التي مات فيها يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ؟ فقال : كذا يقولون : فـقلت له : في كتابك حديث عن الأشج عنه فما حاله ؟ فقال : عرَّفك ذلك ابن عقده ؟ فقلت: نعم.

قـال : ثم رجع يحيى إلى الأصـول فـوجد الحـديث عنده على الصواب، أو كما قال [1] .

---

(١) تاريخ بغداد ١٨/٥ - ١٩ .

فهذا مثل على قوة الحفظ وسرعة التذكر والخبرة الدقيقة في تاريخ الرجال وعلل الأسانيد، فالإسناد الذي انتقده ابن عقدة فيه علة خفية وهي استحالة سماع أبي سعيد الأشج من يحيى بن زكريا لكونه وُلد في الليلة التي توفي فيها يحيى ، ومثل هذه العلة الخفية لايدركها على البديهة إلا أفذاذ العلماء .

ولقد استفاد يحيى بن صاعد من هذا النقد الجيد فأصلح كتابه، وكمَّل النقص الذي كان في الإسناد .

ومما ذُكر من أخبار حفظ ابن عقدة ماأخرجه الخطيب البغدادي من حديث القاضي أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي - من حفظه- قال: سمعت أبا الحسن محمد بن عمر العلوي يقول : كانت الرئاسة بالكوفة في بني الفَدَان قبلنا ، ثم فشت رئاسة بني عبيد الله ، فعزم أبي على قتالهم وجمع الجموع ، فدخل إليه أبو العباس بن عقدة وقد جمع جزءاً فيه ست وثلاثون ورقة ، فيها حديث كثير لاأحفظ قدره في صلة الرحم عن النبي ﷺ وعن أهل البيت وعن أصحاب الحديث، فاستعظم أبي ذلك واستنكره ، فقال له : ياأبا العباس بلغني من حفظك للحديث مااستنكرته واستكثرته فكم تحفظ ؟ فقال له : أنا أحفظ منسَّقًا من الحديث بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث، وأذاكر بالأسانيد وبعض المتون والمراسيل والمقاطيع ستَّمائة ألف حديث (١) .

فهذا مثال على قوة الحفظ وسعته ، وقد قارب ابن عقدة كبار

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ١٧ .

الحفاظ المشهورين من أمثال سفيان الثوري وأحمد بن حنبل والبخاريِّ وإسحاق بن راهوَيه .

وقد استفاد هذا الحافظ من سعة حفظه وأفاد طلاب العلم كثيراً ، وكان ممن استفاد منه رئيس العلويين بالكوفة في زمنه ، حيث كان عازما على قتال الطائفة الذين نازعوهم رئاسة الكوفة، فتأثر بسماع الأحاديث والآثار الكثيرة التي أوردها عليه ابن عقدة في موضوع صلة الرحم ، فكف عن عزمه ذلك وحقن دماء المسلمين .

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون عنده في كل موضوع مادة كثيرة، وأن يحسن عرضها على من أراد دعوته ، فإن في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الشفاءَ من جميع أمراض القلوب .

من أخبار محمد بن عبد الواحد رحمه الله :

ممن اشتهروا بجودة الحفظ والذاكرة العلامة اللغوي المحدث أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد ، ومن أخباره في ذلك ماذكر الخطيب البغدادي : أنَّ أبا عمر الزاهد كان يؤدب ولد القاضي أبي عمر محمد بن يوسف ، فأملى يوما على الغلام نحواً من ثلاثين مسألةً في اللغة وذكر غريبها وختمها ببيتين من الشعر، وحضر أبو بكر بن دريد وأبو بكر بن الأنباري ، وأبو بكر بن مقسم عند أبي عمر القاضي ، فعرض عليهم تلك المسائل فما عرفوا منها شيئا وأنكروا الشعر فقال لهم القاضي : ماتقولون فيها ؟ فقال له ابن الأنباري : أنا مشغول بتصنيف مشكل القرآن ولست أقول شيئًا ، وقال ابن مقسم في ذلك ، واحتج باشتغاله بالقراءات، وقال ابن دريد : هذه المسائل من

موضوعات أبي عمر ولاأصل لشيء منها في اللغة ، وانصرفوا .

وبلغ أبا عمر ذلك فاجتمع مع القاضي وسأله إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عيَّنهم له، ففتح القاضي خزائنه وأخرج له تلك الدواوين، فلم يزل أبو عمر يعمد إلى كل مسألة ويخرج لها شاهدا من بعض تلك الدواوين ، ويعرضه على القاضي حتى استوفى جميعها، ثم قال : وهذان البيتان أنشدَناهما ثعلب بحضرة القاضي وكتبهما القاضي بخطه على ظهر الكتاب الفلاني، فأحضر القاضي الكتاب فوجد البيتين على ظهره بخطه كما ذكر أبو عمر ، فانتهت القصة إلى ابن دريد فلم يذكر أبا عمر بلفظة حتى مات [(١)] .

فهذا الخبر يدل على عمق أبي عمر الزاهد في اللغة والأدب وسرعة استحضار المعلومات، ومع ذلك لم يشتهر في التاريخ ! فما أكثر العظماء في مختلف الفنون الذين طواهم التاريخ فلم يكن لهم ذكر إلا في عصرهم .

من أخبار الحافظين أبي عبد الله الحاكم والخليل بن عبد الله رحمها الله :

من الحوار الجيد الذي يدل على اتساع المعرفة لدى الشيوخ والتلاميذ الحوار الذي جرى بين أبي عبد الله الحاكم وتلميذه الخليل بن عبد الله الحافظ ، قال الخليل بن عبد الله : وسألني - يعني شيخه الحاكم - في اليوم الثاني لما دخلت عليه ، ويُقرأ عليه في فوائد العراقيين فقال : سفيان الثوري عن أبي سلمة عن الزهري عن سهل . . . حديث الاستئذان ! فقال لي : من أبو سلمة هذا ؟فقلت

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣٥٨ .

من وقتى : المغيرة بن مسلم السـراج ، قال: وكيف يروي المغيرة عن الزهري ؟ فبقيت (١) ، ثم قال لي : قد أمهلتك أسـبوعا حتى تتفكر فيه، قال: فـتفكرت ليلتي حتى بقيت أكرر التـفكر، فلما وقعت إلى أصحاب الجزيرة مـن أصحاب الزهري تذكرت محمد بـن أبي حفصة فإذا كنيته أبو سلمة ، فلما أصبحت حـضرت مجلسه، ولـم أذكر شيئًا حتى قـرأت عليه نحو مائة حـديث، قال : هل تفكرت فيمـا جرى؟ فقلت: نعم هو محـمد بن أبي حفصة ، فتـعجب وقال لي : نظرت في حديث سـفيان لأبي عمـرو البحيري ؟ فـقلت : لا ، وذكرت له ماأممت في ذلك ، فتحير وأثنى علي (٢) .

فهذا الخبر يدل على علم أبي عبد الله الحاكم بالرواة ، وفيه تعليم جيد لتلميذه الخليل بن عبد الله حيث جرى الحوار بينهما في اسم أبي سلمة الراوي عن الزهري ، فأمهله أسبوعـا ليعرفه بالدراسة والتأمل، وقد عرفـه الخليل بن عبد الله بطريقـة تدل على ذكاء وخبرة علـمية، حيث بحث عن مواطن الشيوخ فحصر أسماء الرواة الذين يروون عن الإمام الزهري من أهل الجزيرة فوجد مـحمد بن أبي حفصة هو الذي يكنى بأبي سلمة فأخبر به شيخـه الحاكم ، وتعجب شيخه من مقدرته العلمـيـة ، حـيث عرف اسـم الراوي بدون رجـوع إلى الكتب التي صرَّحَتْ باسم صاحب الكنيـة ، وإنما عرف ذلك بتتبع أسمـاء تلاميذ الزهري من أصحـاب الجزيرة حتى عـثر على من يكنى بهـذه الكنية، وكان ذلك باستعراض الذاكرة ، كما يفهم من الخبر .

---

(١) أي انقطعت عن الكلام .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/١٦٦ - ١٦٧ .

من أخبار عبد الغني المقدسي رحمه الله :

ولقد كان العلماء حريصين على حفظ السنة النبوية ومعرفة محتويات كتبها ، ومن أخبارهم في ذلك ماذكره الحافظ ضياء الدين المقدسي في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي قال: وسمعت شيخنا الحافظ عبد الغني يقول :كنت يومًا بأصبهان عند الحافظ أبي موسى[(١)] فجرى بيني وبين بعض الحاضرين منازعة في حديث فقال: هو في صحيح البخاري فقلت : ليس هو فيه ، قال : فكتب الحديث في رقعة ورفعها إلى الحافظ أبي موسى يسأله عنه ، قال : فناولني الحافظ الرقعة وقال : ماتقول هل هذا الحديث في البخاري أم لا ، قلت: لا، قال : فخجل الرجل وسكت [(٢)] .

فهذا مثل لحفظ السنة والخبرة بكتبها،كما أنه مثل على تواضع العلماء لأهل العلم وإن كانوا بمنزلة التلاميذ،فالحافظ أبوموسى المديني لم يستنكف من أن يسأل تلميذه الحافظ عبد الغني عن الحديث المذكور،وفي سؤاله إياه أمام الناس رفع من شأن أهل التقدم في العلم،وقد كان يعلم تفوق الحافظ عبد الغني المقدسي في حفظ السنة.

ولقد كان الحافظ عبد الغني المقدسي يحفظ الأحاديث بأسانيدها ومتونها ، قال عنه الضياء المقدسي : وشاهدت الحافظ غير مرة بجامع دمشق يسأله بعض الحاضرين وهو على المنبر : اقرأ لنا أحاديث مَن غير أجزاء فيقرأ الأحاديث بأسانيدها عن ظهر قلبه .

---

(١) يعني الحافظ المديني .

(٢) ذكره الحافظ ابن رجب في طبقات الحنابلة ٤/٧ .

قال : وسمعت أبا طاهر ابن إسماعيل بن ظفر النابلسي يقول : جاء رجل إلى الحافظ - يعني عبد الغني - فقال : رجل حلف بالطلاق أنك تحفظ مائة ألف حديث ، قال : لو قال أكثر لصدق[1].

وكان يحدث أحيانا من حفظه، وأحيانًا يحدث من كتابه تورعا خشية مداخلة العجب لنفسه ، قال ابنه عبد الرحمن : سمعت بعض أهلنا يقول : إن الحافظ سئل: لم لاتقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب[2].

وهذا مثل من الحزم الرشيد في سياسة النفس وصيانتها عن مواطن الزلل ، فإن الإعجاب بالنفس والتطلع إلى الجاه العلمي الرفيع والسمعة العالية مرض وبيل يحيل العمل من الصلاح إلى الفساد، فكان هذا الإمام حصيف الرأي سديد الفكر حينما التزم بالقراءة من كتابه مع كونه يحفظ مافيه .

من أخبار محمد اليونيني رحمه الله :

ومن أمثلة استيعابهم دقائق مافي كتب السنة ماذكره الحافظ ابن رجب نقلا عن الحافظ الذهبي قال : ولما قدم الملك الكامل على أخيه الأشرف جعل الأشرف يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه [3] فقال: أشتهي أن أراه ، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة فاستحضره، فوصل إلى

---

(١) طبقات الحنابله ٧/٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٢١ .

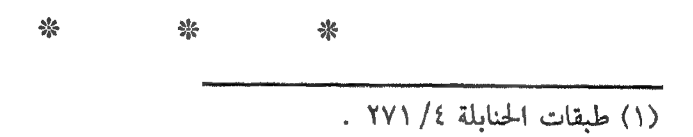
(٣) هو أبو عبد الله تقي الدين محمد بن أحمد اليونيني، والكامل هو محمد بن محمد الأيوبي ، والأشرف هو موسى بن محمد الأيوبي .

دمشق، فنزل الكامل إليه وتحادثا بدار السعادة وتذاكرا شيئًا من العلم .

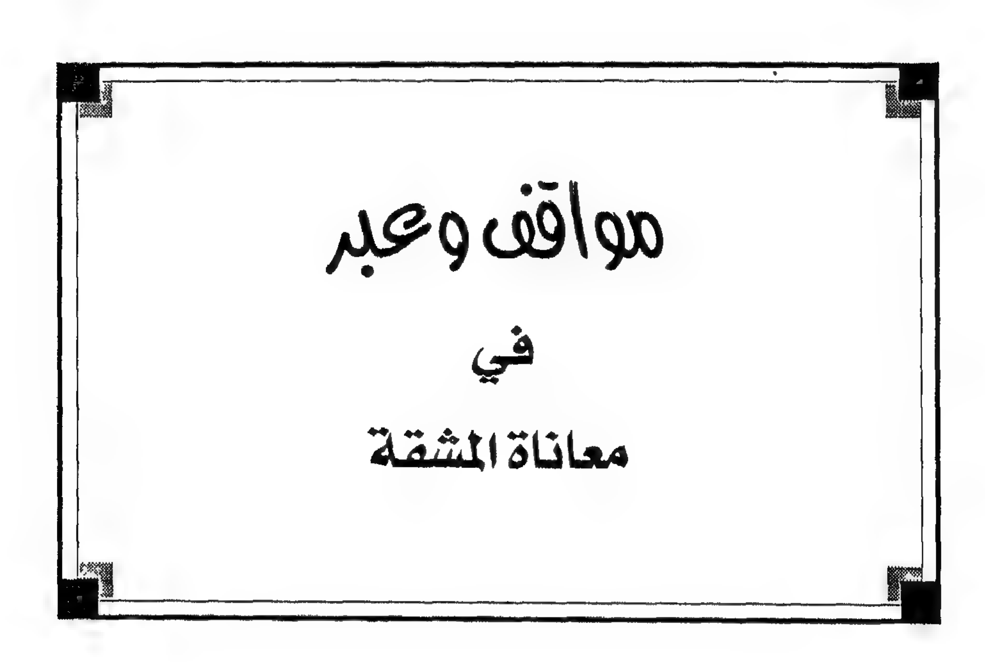
فذكروا مسألة القتل بالمثقَّل ، وجرى ذكر حديث الجارية التي قتلها اليهودي فرضَّ رأسها بين حجرين فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال الملك الكامل : إنه لم يعترف ، فقال الشيخ الفقيه : في صحيح مسلم « فاعترف » فقال الكامل : أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه ، فقال : بلى ، فأرسل الكامل فأحضر اختصاره لمسلم في خمسة مجلدات ، فأخذ الكامل مجلدا والأشرف آخر وعماد الدين بن موسك آخر ، وأخذ الشيخ الفقيه مجلدا ، فأول مافتحه وجد الحديث كما قال : فتعجب الكامل من سرعة استحضاره وسرعة كشفه ، وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية ، فأرسله الأشرف سريعا إلى بعلبك ، فقال الكامل : إنه لايؤثر ببعلبك شيئًا، فأرسل الكامل إليه ذهبا كثيرا [1] .

فهذا مثال على اهتمام العلماء الكبير بالسنة ، فقد كانوا يعلمون محتويات كتبها ومواضع الأحاديث فيها لكثرة اشتغالهم بها .

وموقف يُذكر للأمير الكامل وأخيه الأشرف لاهتمامهما بالعلماء، كما يُذكر للكامل اهتمامه بالسنة الذي دفعه إلى اختصار صحيح مسلم مما يدل على صلاحه .



(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٢٧١ .



مواقف وعبر

في

معاناة المشقة

هذا الموضوع يدور حول عرض صور من مواقف العلماء رحمهم الله تعالى في الصبر الجميل على ألوان الشدة والمعاناة التي واجهوها في أثناء طلب العلم .

موقف للحافظ أبي حاتم رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : بقيتُ بالبصرة في سنة أربع وعشرين ومائتين ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة ، فانقطعَتْ نفقتي فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة ، وأسمع منها إلى المساء ، فانصرف رفيقي ورجعت إلى بيت خال، فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحت من الغد وغدا عليَّ رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد ، فانصرف عني وانصرفت جائعا ، فلما كان من الغد غدا عليَّ فقال : مُرَّ بنا إلى المشايخ ، قلت : أنا ضعيف لايمكنني ، قال: ماضعفك ؟ قلت : لاأكتمك أمري قد مضى عليَّ يومان ماطعمت فيهما شيئًا ، فقال لي : قد بقي معي دينار فأنا أواسيك بنصفه ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار (١).

ففي هذا الخبر نجد أن الحافظ أبا حاتم محمد بن إدريس الرازي يصبر على حر الجوع من أجل طلب العلم ، وقد كان بإمكانه أن

---

(١) الجرح والتعديل ١/٣٦٣ - ٣٦٤ .

يعمل بعض الوقت في طلب الرزق ولكنه لايريد أن يصرف شيئًا من وقته في غير العلم.

ونجد في هذا الخبر صورة من التراحم والتعاطف والأخوّة الصادقة بين طلاب العلم ، فقد كان صاحبه لايملك غير دينار واحد فأعطاه نصفه وجعل النصف الآخر لأجرة انتقالهما إلى بغداد .

موقف آخر لأبي حاتم وصاحبيه رحمهما الله :

ومن صور هذه المعاناة ماذكر أيضًا عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى الجار [1]وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس،أبوزهير المرْوَرُّوذي - شيخ - وآخر نيسابوري ، فركبنا البحر وكانت الريح في وجوهنا فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا ، وفني ماكان معنا من الزاد ، وبقيَتْ بقية ، فخرجنا إلى البر فجعلنا نمشي أياما حتى فني ماكان معنا من الزاد والماء ، فمشينا يوما وليلة لم يأكل أحد منا شيئا ولاشربنا ، واليوم الثاني كمثل ، واليومَ الثالث ، كل يوم نمشي إلى الليل فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا ، وقد ضعفَتْ أبداننا من الجوع والعطش والعياء ، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيا عليه، فجئنا نحركه وهو لايعقل فتركناه ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخ أو فرسخين فضعفتُ وسقطتُ مغشيا علي، ومضى صاحبي وتركني ، فلم يزل هو يمشي إذ بصر من بعيد قوما قد قرَّبوا سفينتهم من البر، ونزلوا

---

(١) يعني ماقرب من المنازل من الساحل (اللسان) .

على بئر موسى ﷺ ، فلما عاينهم لوَّح بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء في إداوة فسقوه وأخذوا بيده فقال لهم : الحقوا رفيقين لي قد ألقيا بأنفسهما مغشيا عليهما .

فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي ففتحت عيني، فقلت: اسقني فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئًا يسيرا فشربت ورجعَتْ إليَّ نفسي ولم يُرْوِني ذلك القدر ، فقلت : اسقني فسقاني شيئا يسيرا وأخذ بيدي ، فقلت : وورائي شيخ مُلْقَى ، قال: قد ذهب إلى ذاك جماعة ، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي، ويسقيني شيئًا بعد شيء ، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا ، فبقينا أياما حتى رجعتْ إلينا أنفسنا .

ثم كتبوا لنا كتابا إلى مدينة يقال لها « رايه » إلى واليهم، وزودونا من الكعك والسويق والماء ، فلم نزل نمشي حتى نفد ماكان معنا من الماء والسويق والكعك ، فجعلنا نمشي جياعا عطاشا على شط البحر ، حتى وقعنا إلى سُلَحفاة قد رمى بها البحر مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهر السلحفاة فانفلق ظهرها، وإذا فيها مثل صفرة البيض ، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر ، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسَّاه حتى سكن عنا الجوع والعطش .

إلى أن ذكر وصولهم إلى مدينة الراية ، وإكرام عاملها إياهم ثم وصولهم إلى مصر (١) .

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٤ - ٣٦٦ .

وهكذا تعرَّض أبو حاتم وصاحباه للموت مرتين وتحملوا تلك الشدائد والأهوال من أجل طلب العلم ، وإن علمًا يحصل بسببه هذا البلاء الكبير لابد آن يرسخ في الأذهان ، وأن يهتمَّ به أصحابه اهتماما بالغا ، فقد كان ثمنه باهظا ، بخلاف العلم الذي تُيَسَّر أسبابه فقد يهون على أصحابه .

موقف لمحمد بن طاهر رحمه الله :

ومن أخبار المعاناة في طلب العلم ماروُي عن الإمام محمد بن طاهر أنه قال : أقمت بِتنِّيس مدة على أبي محمد بن الحداد ونظرائه[١] فضاق بي فلم يبق معي غيرُ درهم، وكنت أحتاج إلى حبر وكاغد[٢]، فترددت في صرفه في الحبر أو الكاغد أو الخبز ، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها ، فلما كان بكرة اليوم الرابع قلت في نفسي: لو كان لي اليوم كاغد لم يمكني أن أكتب من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي وخرجت لأشتري خبزا فبلعته ، ووقع عليَّ الضحك، فلقيني صديق وأنا أضحك ، فقال : ماأضحكك ؟ قلت : خير ، فألحَّ عليَّ وأبيت أن أخبره ، فحلف بالطلاق لتصدقنِّي ، فأخبرته فأدخلني منزله وتكلف أطعمة، فلما خرجنا لصلاة الظهر اجتمع به بعض وكلاء عامل تِنيِّس ابن قادوس ، فسأله عني ، فقال: هو هذا ، فقال: إن صاحبي منذ شهر أمر بي أن أوصل إليك كل يوم عشرة دراهم قيمتها ربع دينار ، وسهوت عنه ، فأخذ منه ثلاثَمائةٍ وجاء بها [٣] .

---

(١) يعني ليتعلم منهم العلم .

(٢) أي ورق .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٦٧.

فهذا مثل من المعاناة الشديدة من أجل مواصلة التعلم، وصورة مشرقة من التكافل بين الإخوة ، والشعور البالغ بمشاعر الأصدقاء والإسراع في نجدة المعوزين ممن أخذ العلم كل أوقاتهم وحال بينهم وبين القوت الضروري فضلا عن لذيذ العيش . وفيه صورة من صور الفرج بعد الشدة ، ومـاأحلى وقع ذلك على نفس المهموم الذي تنازع قلبَه طموحٌ مهيمن نحو بلوغ الكمال في العلم ، وضرورة ملحة نحو تلبية الاحتياجات الضرورية .

موقف للإمام أبي القاسم الطبراني رحمه الله :

ومن أمثلة المعاناة التي مر بها العلماء أثناء طلب العلم ماذكره أبو بكر بن أبي علي قال : سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه فقال : كنت أنام على البواري ثلاثين سنة (١) .

وهكذا يكون طلب العلم ، ثلاثون سنة ينام الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني على الحُصُر الصلبة بدون فراش ، ويجتزئ بالقليل من الطعام كما هو المعتاد في حياتهم.

وبهذا الصبر الطويل نالوا تلك الدرجة من الحفظ والإتقان والعلم الغزير .

من مواقف الحافظ ابن منده رحمه الله :

ومن الصعوبات التي كان يواجهها أهل العلم مشقة نقل كتبهم من بلد لآخر، ومما رُوي في هذا الموضوع ماذكره الحافظ يحيى بن عبد الوهاب قال: كنت مع عمي عبيد الله في طريق نيسابور، فلما بلغنا بئر

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٢٢ ، والبواري هي الحصر المنسوجة من القصب .

مَجَنَّة قال عمي : كنت ههنا مرة فعرض لي شيخ جمَّال ، فقال: كنت قافلا من خراسان مع أبي فلما وصلنا إلى هاهنا إذا نحن بأربعين وقرا من الأحمال، فظننا أنها منسوج الثياب، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ فإذا هو والدك[1]، فسأله بعضنا عن تلك الأحمال، فقال: هذا متاع قلَّ من يرغب فيه في هذا الزمان هذا حديث رسول الله ﷺ [2].

وهكذا كان العلماء في كل زمن يتكلفون حمل كتبهم من بلد لآخر، وإن مما يضاعف مسئوليتهم أن بضاعتهم ثقيلة المحمل، وتحتاج إلى صيانة دائمة من الماء والآفات .

ولقد كان غالب مايحمله العلماء هو من كتبهم التي جمعوا مادتها ورتبوها ، وليست من الكتب التي اقتنوها فقط كما هو الحال في العصور المتأخرة التي شغف بعض أهل العلم فيها بجمع الكتب واقتنائها ، وقلَّما يستوعبون القليل منها .

موقف للإمام أبي المظفر السمعاني رحمه الله :

ومن ذلك ماروُي عن الإمام أبي المظفر السمعاني أنه حج على البَرِّية أيام انقطع الركب ، فأُخِذ هو وجماعة ، فصبر إلى أن خلَّصه الله من الأعراب، وحج وصحب الزنجاني، كان يقول : أسرونا، فكنت أرعى جمالهم فاتَّفق أن أميرهم أراد أن يزوج بنته فقالوا: نحتاج إلى أن نرحل إلى الحضر لأجل من يعقد لنا ، فقال رجل منا: هذا الذي يرعى جمالكم فقيه خراسان ، فسألوني عن أشياء فأجبتهم

---

(١) يعني الحافظ محمد بن إسحاق ابن منده والد عبد الوهاب وعبيد الله .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٧ .

وكلمتهم بالعربية فخجلوا واعتذروا ، فعقدت لهم العقد وقلت الخطبة ففرحوا ، وسألوني أن أقبل منهم شيئًا فامتنعت ، فحملوني إلى مكة وسط العام (١) .

وهكذا تكون الأحوال العجيبة ، فأناس يهبون أنفسهم لنفع الأمة وإصلاحها بجمع العلم النافع ونشره .. وأناس يعتدون على هؤلاء المصلحين فيسترقُّونهم ويحولونهم إلى خدم لهم، ويَحُولُون بينهم وبين إكمال رسالة الإصلاح التي وهبوا أنفسهم لها وتحملوا من أجلها المشاقّ والأخطار والمهالك .. ولله في خلقه شئون .

ويشاء الله تعالى أن يُحوِجَ أولئك الأعراب إلى فقيه يعقد لهم الزواج .. ويكتشفون أن من ولَّوه رعي جمالهم هو فقيه خراسان أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني ويكون ذلك سبب خلاصه منهم بعدما صيَّروه عبدًا لهم وصبر واحتسب أجره عند الله تعالى .

موقف للإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

ومن هذه الأمثلة ماذكره محمد بن أبي حاتم قال : سمعت البخاري يقول : خرجت إلى آدم بن أبي إياس فتخلفَتْ عني نفقتي حتى جعلت أتناول الحشيش ، ولاأخبر بذلك أحدا، فلما كان اليوم الثالث أتاني آتٍ لم أعرفه فناولني صرة دنانير ، وقال : أنفق على نفسك (٢) .

لقد كان بإمكان أبي عبد الله البخاري أن يشغل نفسه بأمور

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٨ .

الدنيا، ولو فعل ذلك لبلغ فيها حد التفوق لفرط ذكائه وقوة حافظته، ولـم يضطر نفسه إلـى أكـل طـعـام البهائم لتـفـرغـه لطـلب العلم .

ولقد منَّ الـله تعالى عليـه بِمَنْ واساه من غيـر أن يعلم من هو، وهو خير ساقه الله سبحانه إليه ليستمر في طلب العلم .

من مواقف الإمام محمد بن يحيى الذهلي رحمه الله :

ولقد كان أهل اليـسار من طلاب العلم ينفقون أموالا كـثيرة على طلب العلم ، يقول الإمام محمـد بن يحيى الذهلي حافظ خراسان : ارتحلت ثلاث رحلات ، وأنفقت على العلم مائة وخمسين ألفا [(١)] .

وهكذا كانوا ينفقون أموالهم في طلب العلم لأنهم يعلمون أنهم- وهم في طلـب العلم - في عـمل صـالـح إذا صلحت النيـة، ثم يستمرون في اكتساب العمل الصالح عند نشر العلم .

من مواقف حجاج بن يوسف رحمه الله :

ومن أمثلة اكتفائهم بالقليل من الطعام والتفرغ لطلب العلم ماروي عن حجاج بن يوسف المعروف بابن الشاعر أنه قال : جمعَتْ لي أمي مائة رغيف فـجعلتُها في جراب ، وانحـدرتُ إلى " شبَّابة " بالمدائن فأقـمت ببـابه مائة يوم ، كل يوم أجيء برغـيف فأغـمسـه في دجلة فآكله، فلما نفد خرجت [(٢)] .

فهـذا الخبر يحكي لنا صورة مـن التقشف والزهد الذي كان فـيه طلاب العلم في العـصور الأولى، فـهذا العالم كـان طوال تلك المدة

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٢٨٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٠ .

التي كان يأخذ فيها الحديث في المدائن ليس له زاد إلا ذلك الخبز الذي يكتفي منه بمرة واحدة في اليوم ، وليس له إدام إلا ماء نهر دجلة .

إن هذا اللون من الزهد هو الذي منح أولئك العظماء فراغ البال وصفاء الذهن والاستعداد الجيد للاستيعاب وسرعة التذكر، فالواحد منهم لايفكر في أمر المعاش وإنما يحصر فكره كاملا فيما يتلقاه من علم.

وبهذا الفراغ الذهني الكبير حصل عظماء العلماء على ماحصلوا عليه من العلم الواسع والفهم الثاقب .

خبر المحمدين الأربعة في مصر رحمهم الله :

ومن الأمثلة الرائعة لصبر طلاب العلم على الشدائد ماروُي عن أبي العباس البكري قال : جمَعَتْ الرحلة بين محمد بن جرير، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الرويَّاني بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم مايقوتهم، وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يستهِموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لأصحابه : أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع، وخَصِيٌّ من قِبَل والي مصر يدقُّ الباب، ففتحوا الباب فنزل عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا : هو ذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا

فدفعها إليه ، ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقالوا : هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه ، ثم قال: أيكم محمد ابن إسحاق بن خزيمة ؟ فقالوا : هو ذا يصلي ، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون ديناراً .

ثم قال : إن الأمير كان قائلاً بالأمس فرأى في المنام خيَّالا قال: إن المحامد طوَوْا كشْحَهم جياعا، فأنفذ إليكم هذه الصِّرار، وأقسَم عليكم : إذا نفدَتْ فابعثوا إليَّ أمدّكم [1] .

وهكذا كانت حياة هؤلاء العلماء الكبار أيام الطلب، يجوعون مرة ويشبعون أخرى، ويكون آخر همِّهم الطعام، ولذلك لم يكونوا يدخرون منه ما يكفيهم لمدة طويلة .

ولقد كان اجتماع همهم على العلم من أكبر العوامل المساعدة في حصولهم على ذلك الكم الكبير من المرويات في العلم مع الإتقان.

ولقد اشتمل هذا الخبر على كرامة من الله تعالى لأولئك العلماء الأولياء حيث رأى أمير مصر في المنام من يخبره بشأنهم .

موقف لأبي الفضل العجلي رحمه الله :

ومن أمثلة ذلك ماذكره الخلاَّل قال :كان أبو الفضل[2] في طريق ومعه خبز وفانيذ [3] فأراد قُطَّاع الطريق أخذه منه فدفعهم بعصاه، فقيل له في ذلك ، فقال : لأنه كان حلالا وربما كنت لاأجد مثله .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) يعني الإمام عبد الرحمن بن أحمد العجلي (ابن بندار) .

(٣) نوع من الحلواء يعمل بالنشاء .

ودخل « كرمان » في هيئة رثّة وعليه أخلاق وأسمال[1]، فحُمِل إلى الملك ، وقالوا : جاسوس ، فقال الملك : ما الخبر ؟ قال: تسألني عن خبرِ الأرضِ أو خبرِ السماء ؟ فإن كنت تسألني عن خبر السماء فـ ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٩] وإن كنت تسألني عن خبر الأرض فـ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾[الرحمن: ٢٦] فتعجب الملك من كلامه وأكرمه وعرض عليه مالاً فلم يقبله [2] .

وهكذا تعرض أبو الفضل العجلي رحمه الله تعالى لهجوم اللصوص فدافع عمًّا معه من الطعام خشية أن لايجد طعاما خاليا من الشبهات ، وكانوا عادة يتزودون بالخبز اليابس من بلادهم، وهذا دليل على ورعه البالغ ، وقد لامه بعض من علم بذلك لأن دفاعه عن ذلك الطعام قد يوهم اللصوص بأنه شيء غالي الثمن، وربما لو علم اللصوص بحقيقة ذلك لزهدوا فيه كثيرا، ولكن هؤلاء جميعا لايدركون المعنى الكبير الذي أحال ذلك الطعام الذي لايلفت انتباههم إلى شيء ذا قيمة كبرى عند الشيخ وفي غاية الأهمية .

وقد جلب عليه زهده في اللباس بعض المتاعب،حيث اتُّهم بالجاسوسية وقُبض عليه، وتعرض لمساءلة ذلك الملك الذي كان عاقلا أريبا فعرف منزلة الشيخ فأكرمه .

وموقف أخير في العفة والقناعة حيث لم يقبل هذا الشيخ هبة ذلك الملك ،فأبان له ولغيره أن بساطة مظهره ليست لفقره وإنما هي لزهده في الدنيا .

---

(١) الأخلاق هنا الثياب القديمة ، والأسمال الثياب البالية .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/١٣٨ .

من مواقف الحافظ ابن عساكر رحمه الله :

ومن أمثلة الجد والدأب في طلب العلم وتحصيله ماذكره ابن القزويني عن والده مدرس النِّظَامية قال: حكى لنا الفَراويُّ قال: قدم علينا ابن عساكر فقرأ عليَّ في ثلاثة أيام فأكثر فأضجرني وآليت أن أغلق بابي وأمتنع ، جرى هذا الخاطر لي بالليل ، فقدم من الغد شخص فقال : أنا رسول رسول الله ﷺ إليك ، رأيته في النوم فقال: امض إلى الفَراوي وقل له : إنْ قَدِمَ بلدكم رجل من أهل الشام أسمر يطلب حديثي فلا يأخذْك منه ضجر ولاملل ، قال: فماكان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ أولا (١) .

فهذا مثل على جد الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر واجتهاده في تحصيل العلم وجمعه من أقطار الدنيا،فهو لايمل ولايسأم من طلب العلم وتدوينهْ لأنه وهب نفسه للعلم وجعله قضيته الكبرى التي تشغل باله ووقته، فهو لايستريح إلا إذا قرأ أو سمع أو كتب.

ولقد كانت تلك الرؤيا الصالحة أقوى مساعد لهذا الحافظ الكبير على استخراج ماعند شيخه الفراوي ، فما أعظم قدر الحافظ ابن عساكر الذي يوصي به رسول الله ﷺ !

وكان عظيم الفرح بإنتاجه العلمي في خدمة سنة رسول الله ﷺ وآثار السلف الصالح ، يقول ولده أبو محمد القاسم بعد أن ذكر رحلات أبيه ورحلات زملائه الذين اعتمد عليهم في تحصيل مالم يستطع الرحلة إليه . . يقول ولده : وأقبل على تلك الكتب فنسخ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٦٥ .

واستنسخ وقابل ، وبقي من مسموعاته أجزاء نحو الثلاثمائه فأعانه عليها أبو سعد السمعاني ، فنقل إليه منها جملة حتى لم يبق عليه أكثر من عشرين جزءاً ، وكان كلما حصل له جزء منها كأنه قد حصل على ملك الدنيا (١) .

وهكذا تكون فرحة العالم بالحصول على مايريده من العلم ومايقدمه من إنتاج علمي .

لقد ظل هذا العالم الجليل أكثر عمره يجمع العلم حتى استطاع أن يحدث به وأن يدونه في كتبه التي أبرزها « تاريخ دمشق » الذي يعتبر من أعظم دواوين الإسلام .

موقف لحنبل بن عبد الله رحمه الله :

ومن أمثلة تضحيات العلماء في سبيل العلم ابتغاء وجه الله تعالى ماذكره ابن الأنماطي من أنه لما سمع مسند الإمام أحمد من الشيخ حنبل بن عبد الله أشار عليه (٢) بالسفر إلى الشام وقال له : يحصل لك مال ويُقبل عليك وجوه الناس ورؤساؤهم، فقال : دعني، فو الله ماأسافر لأجلهم ولا لما يحصل منهم ، وإنما أسافر خدمة لرسول اللهﷺ أروي أحاديثه في بلد لاتُروَى فيه .

وكان حنبل فقيراً جداً كما ذكر أبو شامة (٣) .

وهكذا أَبْدَى هذا العالم الجليل استعداده للسفر من العراق إلى

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٦٦ .

(٢) أي أشار ابن الأنماطي على حنبل .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٣٢ - ٤٣٣ .

الشـام من أجل رواية سنة رسـول الله ﷺ وهو لايريد من وراء ذلك مالا ولاجاها مع شدة فقره ، وإن هذا لهو شرف الدنيا والآخرة .

وكان حنبل قد سمع مسند الإمام أحمد كاملا ، يقول عن نفسه : لما وُلِدْتُ مضى أبي إلى الشيخ عبد القادر الجِيلِيّ وقال له: قد ولد لي ابن ماأسمـيه ؟ قال : سمِّه حنبل ، وإذا كـبر سمِّعْه مـسند أحمد بن حنبل ، قال : فسمَّـاني كما أمره ، فلما كبـرت سمَّعني المسند وكان هذا من بركة مشورة الشيخ [1] .

ومن هذا نستفيد أنه ينبغي إعداد الأبناء منذ صغرهم للطموح نحو معالي الأمور ، والإيحاء إليهم بذلك شيئًا فشيئًا حتى يستقر ذلك في أذهانهم .

فهذا عبد الله والد حنبل قد أخذ بمشورة العالم الرباني عبد القادر الجيلاني فـسمى ابنه حنبلا ، وحمل في ذهنه الوصيـة الثانية وهي أن يسمِّعه إذا كبر مسند الإمام أحمد بن حنبل .

ومن الطبيـعي أنه كلما سئل عن سبب التـسمية ذكر ذلك حتى استقر في ذهن الغلام ومن حوله أنه سيصل إلى ذلك الشرف الكبير ، وقد كان ذلك دافعا قويا له للوصول إلى هذا الهدف العالي .

ومما هو غني عن البيـان أن الوصول إلى هذا الهدف يحـتاج إلى المقدمات المعروفة من إتقان القرآن واللغة العربية ، والدخول في سلك أهل العلم والتخلق بأخلاقهم .

وهكذا ينبغي اختيـار التسمية بأسماء العظماء المشـاهير ، وتركيز

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٣٢ .

التربية من الصغر على الاقتداء بهم ، ومحاولة القيام بوجوه الإصلاح التي قاموا بها .

من مواقف أبي الوقت عبد الأول السجزي رحمه الله :

من ذلك ماذكره يوسف بن أحمد الشيرازي قال: لما رحلت إلى شيخنا رَحْلَةِ الدنيا (١) ومسندِ العصر أبي الوقت (٢) قَدَّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان فسلمت عليه وقبَّلته وجلست بين يديه، فقال لي : ماأقدمك هذه البلاد ؟ قلت : كان قصدي إليك، ومُعَوَّلي بعد الله عليك وقد كتبت ماوقع إليَّ من حديثك بقلمي ، وسعيت إليك بقدمي لأدرك بركة أنفاسك ، وأُحْظَى بعلو إسنادك .

فقال : وفقك الله وإيانا لمرضاته وجعل سعينا له وقصْدَنا إليه، لو كنتَ عرفتني حق معرفتي لما سلَّمت عليّ ، ولاجلست بين يدي، ثم بكى بكاء طويلا ، وأبكى من حضر، ثم قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ماترضى به عنا، ياولدي تَعْلَمُ أني رحلت أيضا لسماع الصحيح ماشيا مع والدي من " هراة " إلى الداوودي ببوشنج ولي دون عشر سنين، فكان والدي يضع على يديَّ حجرين، ويقول : احملهما ، فكنت من خوفه أحفظهما بيديّ، وأمشي وهو يتأملني فإذا رآني قد عييت أمرني أن ألقي حجرًا واحدا، فألقي ويخفُّ عني، فأمشي إلى أن يتبين له تعبي فيقول لي : هل عييت؟ فأخافه وأقولا : لا ، فيقول : لِمَ تقصِّر في المشي؟ فأسرع بين يديه

---

(١) يعني كثير الرحلات .

(٢) هو الإمام الزاهد عبد الأول بن المحدث أبي عبد الله عيسى السجزي .

ساعة ثم أعجز ، فيأخذ الآخر فيلقيه ، فأمشي حتى أعطب، فحينئذ كان يأخذني ويحملني،وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرَهم فيقولون: ياشيخ عيسى ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ ، بل نمشي وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالا لحديث رسول الله ﷺ ورجاء ثوابه، فكان ثمرة ذلك من حسن نيته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أَقراني أحد سواي حتى صارت الوفود ترحل إلي من الأمصار.

ثم أشار إلى صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أن يُقدِّم لي حلواء فقلت: ياسيدي قراءتي لجزء أبي الجهم أحب إليَّ من أكل الحلواء، فتبسم وقال : إذا دخل الطعام خرج الكلام وقدم لنا صحنا فيه حلواء الفانيذ ، فأكلنا .

وأخرجت الجزء وسألته إحضار الأصل فأحضره وقال: لاتَخَفْ ولاتحرص فإني قد قبَرتُ ممن سمع عليَّ خلقًا كثيرا، فسلِ الله السلامة، فقرأت الجزء وسررت به ، ويسَّر الله سماع الصحيح وغيره مرارا ، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة ودفناه بالشونيزية ، قال لي : تدفنني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية .

ولما احتُضر سندته إلى صدري وكان مُستَهْتَرًا بالذكر (١) فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي ، وأكبَّ عليه وقال: ياسيدي قال

---

(١) أي مولعًا به .

النبي ﷺ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » فرفع طرفه إليه وتلا ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧] فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب ، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة ، وقال : الله الله الله، وتوفي وهو جالس على السجادة (١) .

في هذا الخبر الجليل مواقف :

أولها : ذلك الإحساس المرهف من هذا العالم الرباني ، فحينما أثنى عليه يوسف الشيرازي وأظهر له الاحترام البالغ والتقدير الكبير بكى من خشية الله تعالى وأظهر التواضع بلوم النفس وتحقيرها.

إن العبد الذي يرزقه الله تعالى البصيرة واليقين يتذكر حال سماع الثناء عليه ورؤية مظاهر احترامه عظمة الله سبحانه ، ووقوف العباد بين يديه يوم القيامة ، وعرض الأعمال عليه ، فيتجسَّمُ في خاطره مايُخَيَّل إليه أنه جنوح نحو معصية أو تقصير في طاعة، وتتضاءل لديه كل أعماله الصالحة ، فيعبِّر عن ذلك بالبكاء الذي يعتبر مظهراً للضغوط الداخلية ، التي مبعثها الخوف من الله تعالى وخشيته .

وهكذا بكى هذا الشيخ الجليل وأبكى من حوله ، وأعطى ببكائه درسا بليغا في التواضع واتهام النفس وحضور القلب مع الله تعالى وتعظيمه وتقديره حق قدره .

وقد ذكر أبو الوقت شيئًا مما مر عليه من المعاناة أثناء طلب العلم، وكيف كان أبوه يأخذه بذلك التدريب الرياضي الصعب، وقد كان أبوه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٠٧ - ٣٠٩ .

الشيخ عيسى السجزي مربيا حكيما صارما في تربيته، وكان من آثار تلك التربية الرياضية الصارمة أن أبنه تعوَّد من صغره على الخشونة وتحمُّل الشدائد ، كما أنه قد شعر بأهمية ذلك الأمر العظيم الذي توجه إليه، ألا وهو تعلم السنة النبوية ، لأنه إنما حمل هذه السنة الشريفة بألوان من المشقة والمعاناة ، ومايحصل للإنسان بصعوبة بالغة فإنه جديرٌ به أن يحتفظ به ، حتى لو كان من أمر الدنيا ، فكيف به وهو من أمر الآخرة .

ولفته كريمة من الشيخ عيسى السجزي حيث استعاذ بالله تعالى من أن يركب وهو ذاهب لسماع حديث رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على اهتمامه البالغ بتعظيم السنة النبوية وتقدير قيمتها، وبهذا الشعور القوي استفاد هو أمثاله من السنة النبوية فوائد عظيمة، في سلامة الفكر والاستقامة في العمل .

من مواقف ابن طاهر القيسراني رحمه الله :

ومن أمثلة المعاناة في طلب العلم ماذكره أبو مسعود عبد الرحيم الحاجي قال : سمعت ابن طاهر يقول : بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين ، مرةً ببغداد ومرة بمكة ، كنت أمشي حافيا في الحر فلحقني ذلك ، وماركبتُ دابة قط في طلب الحديث وكنت أحمل كتبي على ظهري ، وماسألت في حال الطلب أحدًا ، كنت أعيش على مايأتي(١) .

فهذا مثل من التضحية بالراحة وأخذ النفس بركوب الصعاب

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٢٤٣ ج ٤ .

وتحمل الشدائد من أجل طلب العلم ، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .

فلقد أصبح محمد بن طاهر ابن القَيْسراني من كبار العلماء المحدثين .

من مواقف الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله :

ومن أخبار المعاناة التي مر بها العلماء في مرحلة طلب العلم ماذكره ابن النجار قال : قرأت بخط أبي بكر عبد الله بن نصر بن حمزة التيمي : سمعت الشيخ عبد القادر [1] يقول : بلغَتْ بي الضائقة في الغلاء إلى أن بقيت أياما لاآكل طعاما ، بل اتبع المنبوذات، فخرجت يوما إلى الشط فوجدت قد سبقني الفقراء، فضعفت وعجزت عن التماسك فدخلت مسجدا وقعدت وكدت أصافح الموت، ودخل شاب أعجمي ومعه خبز وشواء وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع لقمة أن أفتح فمي ، فالتفت فرآني فقال : بسم الله ، فأبيت ، فأقسم علي ، فأكلت مقصِّرا ، وأخذ يسألني، ماشُغْلك ومن أين أنت؟ فقلت : متفقِّه من جيلان ، قال: وأنا من جيلان، فهل تعرف لي شابا جيلانيا اسمه عبد القادر يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد ؟ فقلت : أنا هو ، فاضطرب لذلك وتغير وجهه، وقال: والله ياأخي لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد إلى أن نفدَتْ نفقتي ، وبقيت بعدها ثلاثة أيام لاأجد ثمن قوتي إلا من مالك ، فلما كان هذا اليوم

---

(١) هو الإمام أبو محمد عبد القادر الجيلاني .

الرابع قلت: قد تجاوزتني ثلاثة أيام وحلَّت لي الميتة ، فأخذت من وديعتك ثم هذا الخبز والشواء ، فكل طيبا فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن، فقلت: وماذاك ؟ قال : أمك وجَّهَتْ معي ثمانية دنانير والله ماخنتك فيها إلى اليوم ، فسكَّنته وطيَّبتُ نفسه ، ودفعت إليه شيئًا منها (١) .

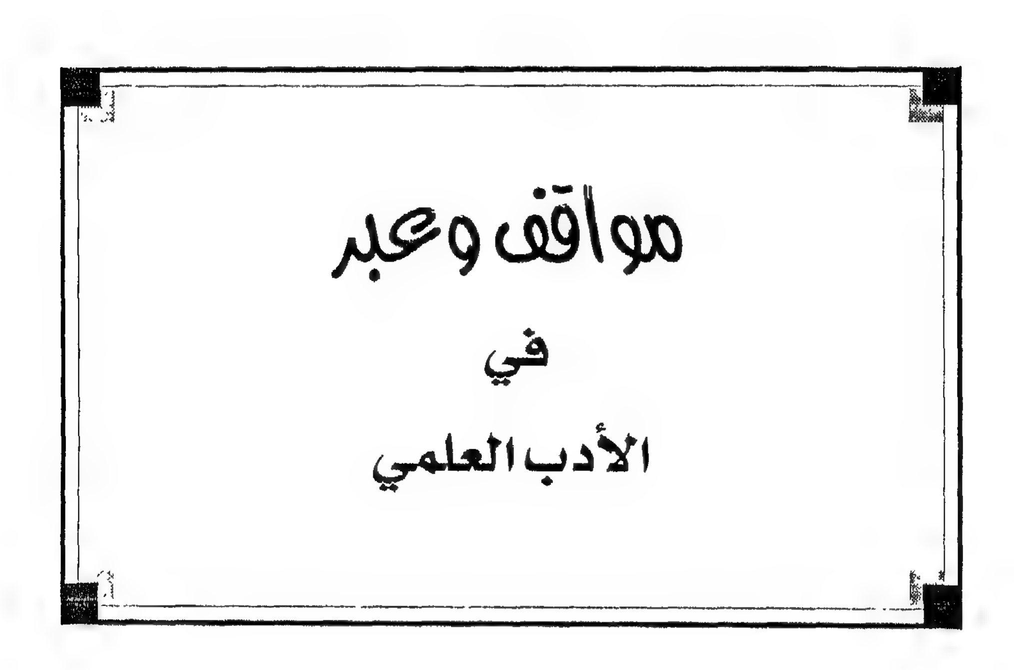
وهكذا تَعَرَّض هذا العالم الرباني للجوع الشديد أثناء طلب العلم، وحصلَتْ له هذه القصة العجيبة مع ذلك الشاب الجيلاني الذي ساقه الله تعالى إليه في وقت اشتداد الأزمة ، وكان ذلك الشاب أمينا حينما صبر على الجوع ثلاثة أيام ولم ينفق من الأمانة التي معه، كما كان الشيخ عبد القادر الجيلاني كريما سمحا حينما طيَّب نفس ذلك الشاب الذي حمل له تلك الأمانة وأعطاه منها .

وفي هذا الخبر مثل من لطف الله تعالى بعباده الصالحين حيث قدَّر وصول ذلك المبلغ بعدما أشرف صاحبه على الموت من غير أن يعلم به ولا أن يبحث عنه .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٤٤ - ٤٤٥ .



مواقف وعبر

في

الأدب العلمي

لقد بلغ علماء الإسلام القمة في الأدب العلمي، وذلك في المعاملة بين العلماء أنفسهم ، وبين العلماء وتلاميذهم .

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم قدوة الأمة في هذا الجانب وغيره من معالي الأمور .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

من مواقف الصحابة رضي الله عنهم في الأدب العلمي ماكان من حبر الأمة وعالمها المدقق المفسر الفقيه المحدث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وذلك في موقفه مع النبي ﷺ حينما صلى خلفه في الليل، يقول رضي الله عنه : صليت خلف النبي ﷺ من آخر الليل، فجعلني حذاءه ، فلما انصرف قلت : وينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعا الله أن يزيدني فهما وعلما [١] .

وهذا مثل من الأدب الذي كان يتصف به ابن عباس، حيث وصل بهذا الأدب إلى مراحل عالية من العلم بعد ذلك .

من أخبار طلاب العلم من التابعين رحمهم الله :

وكان العلماء يحافظون على آداب العلم ويهتمون بالتربية الخلقية، فكانوا يعلمون العلم والتربية في وقت و احد، فكان طلاب العلم آنذاك في غاية الأدب والأخلاق الحميدة .

ومن الأخبار في ذلك ماروُي عن أبي حازم الأعرج سلمة بن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٣٨ .

دينار المدني قال: لقــد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقــيها ، أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا ، ومارأيت في مجلسه متماريين ولامتنازعين في حديث لاينفعنا [1] .

وإذا كان أدنى خصلة في هؤلاء الفقهاء أنهم قد ترفَّعوا عن الدنيا فأصبحوا متــواسين بما في أيديهم منها فكيف بالخصال التي هي أعلى من هذه الخصلة العظيمة ؟

إنها ثمــرات العلم النافع تظهر في التــربية القــويمة على الأخلاق الحميدة .

من مواقف القاسم بن محمد رحمه الله :

من ذلك مــاروَى يونس بن بكيــر عن ابن إســحــاق قــال: رأيت القاسم بن محمد يصلي فجاء أعرابي فقال: أيما أعلم أنت أم سالم؟[2]

فقال : سبــحان الله كل سيخبرك بما علم ، فــقال: أيكما أعلم؟ قال: سبــحان الله ، فأعاد ، فــقال : ذاك سالم، انطلق فسَــلْه، فقام عنه، قال ابن إســحاق : كره أن يقــول : أنا أعلم ، فيكون تزكــية، وكره أن يقول : سالم أعلم مني فيكذب ، وكان القاسم أعلمهما[3] .

والقاسم هو ابن محمد بن أبي بكر الصديق من أكابر العلماء في عصره، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٦ .

(٢) يعني سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهمــا أحد الفقهاء السبعة في المدينة .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٦ .

وهذا الخبر يدل على ورعه وتواضعه وأدبه العلمي رحمه الله تعالى.

من مواقف الإمام مالك رحمه الله :

فالإمام مالك بن أنس رحمه الله على عظمته وشهرته الواسعة في العلم يرفض ماعرضه عليه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور من حمل الناس على مذهبه ، وفي ذلك يقول محمد بن عمر الواقدي رحمه الله : سمعت مالكًا يقول : لما حج المنصور دعاني فدخلت عليه فحادثته ، وسألني فأجبته ، فقال : عزمت على أن آمر بكتبك هذه- يعني الموطأ - فتنسخ نسخا ، ثم أبعثَ إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة ، وآمرَهم أن يعملوا بما فيها ويدَعوا ماسوى ذلك من العلم المحدث، فإني ر أيت أنَّ أصلَ العلم روايةُ أهل المدينة وعلمُهم، قلت : ياأمير المؤمنين لاتفعل فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به ودانوا به ، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنَّ ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وماهم عليه ومااختار أهل كل بلد لأنفسهم ، فقال : لعمري لو طاوعتني لأمرت بذلك (١) .

وهذا دليل على فقه مالك الدقيق ومعرفته البالغة بطبائع النفوس وماجبلت عليه من القناعة بما نشأت عليه من المفاهيم العلمية، كما يدل على سعة نظره في تقدير آراء العلماء الاجتهادية وإن خالفت ماتقرر عنده .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٠ .

ولسَعة إدراكه وتجرده من حظ النفس لم يسارع إلى اغتنام فرصة إقبال السلطان عليه ليحمل الناس على مذهبه، بل أبدى العذر لمخالفيه بما سبق من اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الاجتهاد وانتشار فتاويهم في بلاد الإسلام .

ومن الوصايا النافعة في آداب العلم مارواه ابن وهب رحمه الله تعالى قال : سمعت مالكا يقول : حقٌّ على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلم حسن لمن رُزِق خيره، وهو قَسْم من الله تعالى ، ولكن انظر مايلزمك حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه، ولاتمكِّن الناس من نفسك ، فإن مِنْ سعادة المرء أن يوفَّق للخير، وإن مِنْ شقوة المرء أن لايزال يخطئ، وذلٌّ وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لايطيعه (١) .

وهذا تنبيه من الإمام مالك إلى ثمرة العلم في الدنيا، وهي أن يكون طالب العلم متميزا بسلوكه القويم الذي يقوم على خشية الله تعالى في السر والعلن، ويَظهرُ في تعامله مع الناس بمظهر الوقار والسكينة . . يتكلم حينما يحتاج الناس إلى كلامه ، ويزن كلماته قبل أن ينطق بها ، ويصمت حينما يكون الخير في الصمت، لايتسرع مع المتسرعين ،ولاتستهويه الإشاعات والغرائب، إذا سمع خبرا وزنه بميزان علمه الذي تعلمه قبل أن يشيعه أو يبني عليه الأحكام التي تلابسه، وأصبح بثمرات علمه نورا يَهتدِي به أفراد مجتمعه ممن لم يبلغوا علمه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٦ ، ترتيب المدارك ١/ ١٨٥ .

فالعلم خير لمن رُزق الإخلاص لله تعالى، وأصبح مدركا أن العلم نور يضيئ لصاحبه دربه في هذه الحياة ، ويقوده لسعادة الآخرة.

والمرء العاقل قد يخطئ، ولكن الوقوع في الخطأ يدفعه إلى الندامة، وأخذ العبرة ، وتلمُّس مواقع الخطو قبل أن يخطو على الطريق، ولكنه حينما يتابع الخطأ ولايَعتبر فإن ذلك من علامات الشقاء .

ومن كلام الإمام مالك يتبين لنا أن من الأدب العلمي إظهار عزة العلم ، وذلك بأن لايضعه صاحبه إلا عند من يقدره ويستفيد منه .

فهذه كلمات رصينة ، وتوجيهات حكيمة من هذا الإمام الجليل، ولله در مصعب بن عبد الله حينما قال في الإمام مالك :

يدَعُ الجواب فلا يراجَع هيبةً والسائلون نواكس الأذقان
عِزُّ الوقار ونور سلطان التُّقَى فهو المَهيبُ وليس ذا سلطان[1]

موقف للإمام ابن عيينة رحمه الله :

ومن أمثلة الأدب العلمي الرفيع ماروُي عن سفيان بن عيينة رحمه الله أنه ذُكِر له حديث فقالوا : يخالفك فيه مالك ، قال: أتقرنني بمالك؟ ماأنا وهو إلا كما قال جرير :

وابن اللَّبون إذا مالُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البُزْل القناعيس[2]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٦ .

يعني أنه ليس بمنزلة مالك في العلم كما أن البعير الصغير إذا قرن بالجمل الكبير الشديد القوة فلن يستطيع مسايرته .

موقف للحافظ يحيى بن معين رحمه الله :

ومن مواقف العلماء العلمية تواضعهم لمن يرونه أعلم منهم، ومن أمثلة ذلك ماروواه أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت يحيى بن معين يقول : مارأيت منذ خرجت من بلادي أحدًا أشبه بالمشيخة الذين أدركت من أبي مسهر ، والذي يحدث وفي البلاد من هو أولى بالتحديث منه فهو أحمق (١) .

فهذا مثال على التواضع والأدب المتبادل بين العلماء، حيث بين يحيى بن معين أن من الأدب تقديم من هو أولى بالتعليم في البلد وعدم التقدم عليه .

ولابد أن يقيد ذلك فيما إذا لم تَدْعُ الحاجة إلى مشاركة أكثر من عالم في التعليم ، أو كان لدى بعض العلماء من العلم ماليس عند الآخرين الذين هم أقدم منهم في علوم أخرى ، فإنه والحالة هذه لابد من تعدد المعلمين ، وإن كان بعضهم آقل علما، ولكن مع مراعاة الأدب مع العلماء الكبار والتواضع لهم وأخذ رأيهم في الأمور المشكلة أو الجديدة .

موقف لأبي عبيد بن سلاّم رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمام العلماء بالآداب والفوائد العلمية ماروواه أبو بكر ابن أبي الدنيا قال قال أبو عبيد القاسم بن سلام : زرت أحمد بن

(١) الجرح والتعديل ٦/ ٢٩ ، تاريخ بغداد ١١/ ٧٤ .

حنبل فلما دخلت عليه بيته قام فاعتنقني وأجلسني في صدر مجلسه، فقلت : ياأبا عبد الله أليس يقال : صاحب البيت - أو المجلس- أحق بصدر بيته - أو مجلسه - ؟ قال : نعم يقعُد ويُقعِد من يريد، قال: فقلت في نفسي : خذ إليك أبا عبيد فائدة ، ثم قلت: يا أبا عبد الله لو كنتُ آتيك على حق ماتستحق لأتيتك كل يوم، فقال: لاتقل ذاك فإن لي إخوانا ماألقاهم في كل سنة إلا مرة ، أنا أوثق في مودتهم ممن ألقى كل يوم ، قال : قلت : هذه أخرى ياأبا عبيد، فلما أردت القيام قام معي ، قلت : لاتفعل ياأبا عبد الله ، قال فقال: قال الشعبي : مِنْ تمام زيارة الزائر أن يُمشَى معه إلى باب الدار ويؤخذَ بركابه ، قال قلت : ياأبا عبد الله مَن عن الشعبي ؟ قال: ابن أبي زائدة عن مجالد عن الشعبي ، قال قلت : ياأبا عبيد هذه ثالثة [1] .

فهذا مثل من الآداب المرعية عند العلماء والاحترام المتبادل بينهم، وحرصهم على الفوائد العلمية والتربوية .

من مواقف الإمامين عبد الله الأنصاري وناصر المروزي رحمهما الله :

ومن ذلك ماروُي عن الإمام أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري قال: دخلت على الإمام ناصر المروزي بنيسابور ، وكان مجلسه غاصا بتلامذته ، واحتفَّ به الفقهاء وكان يُدرِّس ويقول : روُي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقرأ في الركعة الثالثة من صلاة المغرب ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤] - قال : فقلت - أيَّد الله

(١) طبقات الحنابلة ٢٥٩/١ .

الشيخ الإمـام - أحديثُ عهـد أنت بهذا الحـديث وهو على ذُكْرِك ؟ فقـال : لا ، فقلت : كان يقرأ في الركـعة الثالثة من صـلاة المغرب ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] ، فقال : صـدقت ورجع إلى قولي ، وحث القوم على إثباته وتعليقه ، ثم بكَّرت إليه من غد هذا اليوم فرحب بي وأعلى محلِّي ، وأجلسني فـوق جماعة زهاء سـبعين ، كنت بالأمس جـالسًا دونهم ، ومـدحتـه بقصـيدة، وواظبت على الاخـتلاف إليـه وأخذت الفقه عنه مدة (١) .

ففي هذا الخبر مثل من الأدب العلمي يقـدمه الإمام أبو إسماعيل الأنصاري يوم أن كـان طالبا ، فـحينمـا أنكر على شيـخه ذلك الأثر تلطَّف في تنبيهه بهذا الأسلوب المهذب .

وفي هذا الخبر تواضعٌ جليل من شيخه الإمام ناصرِ المروزي حيث رجع إلى كـلام تلميـذه ولم يتـعصب لـرأيه، وهذا مثل من صـلاح الشيوخ والتلاميذ ودليل على سمـو التربية التي كانوا يتلقونَها في أيام دراستهم .

من مواقف الإمامين عبد الله بن المبارك وحماد بن زيد رحمهما الله :

من ذلك مارواه إسماعيل الخطِبي قال : بلغني عن ابن المبارك أنه حضـر عند حماد بن زيد ، فقـال أصحاب الحديث لحـماد : سَلْ أبا عبد الرحمن أن يحدثنا ، فقال : ياأبا عبد الرحمن، تحدثهم فإنهم قد سألوني قال: سبـحان الله ياأبا إسماعيل أُحـدِّث وأنت حاضر؟ قال:

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٦١ - ٦٢ .

أقسمت عليك لتفعلَنّ ، فقال : خذوا ، حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد ، فما حدَّث بحرف إلا عن حماد (١) .

فهـذا مثل من أمثلة الأدب العلمي الرفـيع بين الشيوخ والتلامـيذ حيث يحترم التلاميذ شيوخهم ويسـتصغرون أنفسهم أمامهم وإن بلغوا مرتبة عالية من العلم .

موقف للإمام عطاء بن أبي رباح رحمه الله :

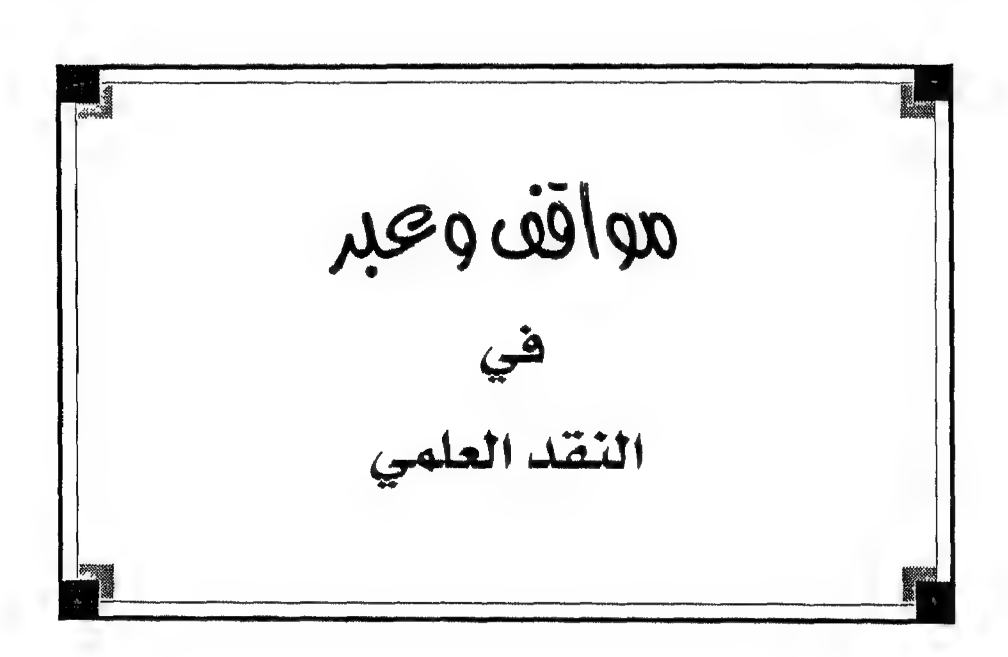
ومن آداب علمـاء السلـف التي كـانوا يراعـونهـا الإنصـات إلى المحدث وإن كـان أصغـر من السامع ، وفي ذلك يقـول عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى : إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه وقد سمعته قبل أن يولد (٢) .

* * *

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٣٣٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٨٦ .


مواقف وعبر
في
النقد العلمي

النقد العلمي فَنٌّ رفيع لاينبغي الإقدام عليه إلا من المتقدمين في العلم، لأن الناقد يتعرض بفكره لفكر الآخرين لنصر قضايا وإبطال قضايا أخرى ، فإذا لم يكن متمكنا في العلم فشل في أثناء الطريق وأحدث آثارًا سيئة في الحياة العلمية، لكنه إذا كان متمكنا في العلم مخلصا في مقصده وأحسن العرض في نصر القضية التي يريد نجاحها فإنه يسهم في تصحيح المفاهيم الفكرية التي قد يداخلها شيء من الخطأ ، وبالتالي يسهم في تقويم التوجهات السياسية والاجتماعية .

وإن من أهم مجالات النقد العلمي مجال المناظرات، ولقد كان للمناظرات أثر كبير في تقريب وجهات النظر بين المختلفين، وإقرار الصواب وإزالة الخطأ، ونصر الحق وخذلان الباطل، لأنها مواجهة صريحة أمام الملأ، فلايمكن معها استغفال العقول ولاتلبيس الحق بالباطل.

من مواقف حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

إن من أبرز المناظرات في المجال العلمي والسياسي ماقام به حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج، وقد أخرج خبر ذلك الإمام عبد الرزاق الصنعاني عن عكرمة بن عمار قال: حدثنا أبو زمَيل الحنفي قال: حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما اعتزلت الحرورية [1] فكانوا في دار على حِدَتِهم قلت

(١) الحرورية هم الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه .

لعلي :ياأمير المؤمنين أبْرِدْ عن الصلاة [١] لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم ، قال : إني أتخوفهم عليك ، قلت: كلا إن شاء الله .

قال : فلبست أحسن ماأقدر عليه من هذه اليمانية، قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، قال: فدخلت على قوم لم أر قط أشد اجتهادا منهم ، أيديهم كأنها ثَفَن الإبل[٢] ووجوههم مُعْلَمة من آثار السجود .

قال : فدخلت فقالوا : مرحبا بك ياابن عباس : ماجاء بك؟ قلت: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ، عليهم نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لاتحدثوه ، وقال بعضهم : والله لنحدثنَّه .

قال : قلت : أخبروني ماتنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه [٣] وأول من آمن به ، وأصحابُ رسول الله ﷺ معه ؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثا ، قال : قلت وماهن ؟ قالوا : أولهن أنه حكَّم الرجال في دين الله وقد قال الله ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [٤] قال: قلت وماذا ؟ قالوا : وقاتل ولم يسْبِ ولم يغنم ، لئن كانوا كفارا لقد حلَّت له أموالهم ، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال: قلت وماذا ؟ قالوا : مَحَا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

---

(١) أي أخر صلاة الظهر .

(٢) أي كأنها رُكب الإبل من الخشونة .

(٣) أي زوج بنته .

(٤) الأنعام / ٥٧ ، يوسف / ٤٠ ، ٦٧ .

قــال : قلت : أرأيتم إن قــرأت عليكم من كــتــاب الله المحْكَم، وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ مالاتنكرون أترجعون ؟ قالوا : نعم .

قال قلت : أما قولكم حكَّم الرجــال في دين الله فإن الله تعالى يقول ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ** ﴾ (١) وقال في المرأة وزوجــها ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا** ﴾ (٢) أنشــدكم الله أحكم الرجــال في حــقن دمــائهم وأنفــسهم وإصــلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنهــا ربع درهم ؟ قــالوا : اللهم بل فــي حقــن دمــائهم وإصــلاح ذات بينهم ، قــال: أخرَجْتُ من هذه؟ قالوا : اللهم نعم .

قال : وأمــا قولكم إنه قاتل ولـم يَسْب ولـم يغنم، أتَسْبُون أمكم عائشة ؟ أم تستحلون منها ما تســتحلون من غيرها فقد كفرتكم؟ وإن زعمتم أنهــا ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخــرجتم من الإسلام ، إن الله يقول ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ (٣) فأنتم مترددون بين ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم ، أَخرَجْتُ من هذه؟ قالوا : اللهم نعم .

---

(١) المائدة / ٩٥ .

(٢) النساء / ٣٥ .

(٣) الأحزاب / ٦ .

قال : وأما قولكم مَحَا نفسه من أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ، فقال: اكتب هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولاقاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقا وإن كذّبتموني، اكتب ياعلي محمد بن عبد الله » فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم، فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقُتِلوا (١) .

فهذا الخبر العظيم يدل أولا على جرأة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الفائقة وشجاعته الفذة ، فقد أقدم على الخروج إلى الخوارج ومناظرتهم وحده ، مع أن هناك احتمال أن يعتدوا عليه بالقتل أو بما دون ذلك ، ولقد بلغ منتهى الشجاعة والإقدام حينما وصفهم أثناء المناظرة بالضلال .

ثم إن هذا الخبر دليل على غزارة علم ابن عباس وعمق فهمه، فقد أدرك من عرض الخوارج لعقيدتهم أنهم على ضلال ، واستحضر حالاً من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ماينقض قولهم، ويبطل

(١) مصنف عبد الرزاق ١٠/١٥٧ رقم ١٨٦٧٨ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني وأحمد ببعضه ورجالهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/٢٣٩ - . وماجاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة ، والصواب ما جاء في روايات أخرى من أن عددهم كان أربعة آلاف ثم زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف كما تقدم في موضوع الخوارج .

رأيهم، وكان موفقا في عرض تلك الأدلة وإلزام المخاصمين بما يترتب عليها من أحكام .

ولما كان ابن عباس يعرض الحق الذي لايمكن نقضه فإن المخدوعين من الخوارج الذين كانوا يظنون أنهم على الحق وليس لهم هَوًى في الشذوذ والانحراف لما سمعوا ذلك الحق رجعوا إليه وعرفوا أنهم على باطل ، وكان عددهم كبيرا حيث بلغوا عشرين ألفا ، ولعل هذا الرقم هو أكبر عدد استطاع فرد واحد أن يحوِّلهم عن معتقدهم في جلسة واحدة ، فلله در حبر الأمة ماأبلغ حجته ، وماأنصع بيانه، وماأقوى جنانه !!

وبهذا الحوار الناجح رجع أكثر الخوارج ولم يبق منهم إلا أربعة آلاف وهم الذين قتلوا يوم النهروان ، وكانوا بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي .

فكم وفَّر ابن عباس على الأمة من جهد ! وكم حقن لها من دماء! إن أولئك العشرين ألفا لو ظلوا على ضلالهم وعلى تبعية رؤسائهم لتسلَّط على الأمة عشرون ألف سيف، وإن قتل هؤلاء أو هزيمتهم لابد أن يقدِّم فيها أهل الحق عددا كبيرا من الشهداء، إضافة إلى أن هلاكهم وهم على ضلالتهم يُقدِّمهم إلى النار ، فبذلك يكون ابن عباس سببا في إنقاذهم من النار ، وفي إنقاذ الأمة من شرهم وبلائهم .

ولقد كانت محاورة ابن عباس مع قادتهم ، لأنه لن يتمكن من حوار أربعة وعشرين ألفا ، ولقد انقسم قادتهم على أنفسهم قبل بدء

الحوار فتميز أصحاب الهوى المنحرف بمشورتهم على بقية القادة أن لايحاوروه ، وتميز المضلَّلُون الذين يريدون اتباع الحق واخطئوا طريقه بإصرارهم على الحوار ، فكان مجرد وصول ابن عباس إليهم سببا في تفرق رأيهم ، مما يدل على ضحالة معتقدهم وغلبة العواطف عليهم.

ومن براعة ابن عباس التي ظهرت في ذلك الحوار أنه لم يُجبْ على كل سؤال لهم بمفرده ، بل استوعب اعتراضاتهم الثلاثة، ثم قام بنقضها ، ولو أنه أجاب على الاعتراض الأول لربما توقفوا وأمسكوا عن بيان الاعتراضين الأخيرين ، ولم يتوصل إلى إقناعهم بمايريد .

وهكذا كان دور العلم بارزا ورائدا في ذلك الصراع الذي نشب بين الخوارج من جهة والخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه من جهة أخرى ، فكان العلم النافع الذي حمله ابن عباس ومَثَّله أبلغ تمثيل أمضى في الأعداء من جميع الأسلحة ، وأهدى للحيارى المخدوعين من طلاسم الجهل وشعارات أنصاف المتعلمين .

ومن مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في سداد الرأي والنظر إلى النتائج مارواه يزيد بن الأصم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قدم على عمر رجل فجعل عمر يسأله عن الناس ، فقال : ياأمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا ، فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة .

قال : فزبرني عمر [1] ، ثم قال : مه ، فانطلقت إلى منزلي مكتئبا حزينا ، فقلت : قد كنت نزلت من هذا الرجل منزلة،

---

(١) يعني نهرني .

فـلاأراني إلا قـد سقطـت من نفســه ، قـال: فـرجـعت إلى منزلي فاضطجعت عـلى فراشي حتى عادني نسوة أهلـي ومابي وجع وماهو إلا الذي تقبَّلني به عمر .

قال: فبينما أنا على ذلك أتاني رجل فقال : أجب أمير المؤمنين، قال: فخرجت فإذا هو قائم ينتظرني ، قال: فأخذ بيدي، ثم خلا بي فقـال : ما الذي كرهت مما قال الرجـل آنفا ؟ قال : فقلت : ياأمـير المؤمنين إن كنت أسـأت فإني اسـتغـفـر الله وأتوب إليه وأنزل حـيث أحبـبت ، قال : لتـحدثني بالذي كـرهت مما قال الرجل : فـقلت: ياأميـر المؤمنين متى تسارعـوا هذه المسارعة يحـيفوا ومـتى مايحيـفوا يختصمـوا ، ومتى مايختصمـوا يختلفوا ، ومتى مايختلفـوا يقتتلوا، فقال عمر : لله أبوك لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها [1] .

ففي هذا الخبر بيان دقة فقه ابن عباس وسداد رأيه حيث وافق رأيه ماكـان يجول في خاطر أمـير المؤمنين عمـر وهو الرجل الملهم ، فإن مسارعة الناس في أخذ القـرآن من غير تفهم لأحكامه ولاتأثر بمواعظه وعِبَره يبعث على التنافس في مبلغ ماحفظوه من القرآن من غير تدبر ولاوعي بمقاصده، فينمو في أفكارهم مقـدار الحفظ بسرعة بينما ينمو في قلوبهم مـقدار الإيمان والتـقـوى ببطء ، فعند ذلك تبـرز حظوظ النفس ويكثر التفاخر ، وتتعدد الآراء التي لاترتبط بأصول من الكتاب والسنة، فـيقع الاخـتلاف لكـثرة الآراء وقلة الورع مما قـد يؤدي إلى حدوث القتال بين طلاب العلم .

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١ رقم ٢٠٣٦٨ .

أما أهل الفقه الذين يسيرون على الأصول المرعية في أخذ القرآن فإنهم كانوا لايتجاوزون آية في الحفظ حتى يفقهوا مقاصدها كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يعلموننا القرآن أنهم ماكانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يفقهوا معانيها ويعملوا بها ، قال: فتعلمنا العلم والعمل ، أو كما قال : وكما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه بقي في حفظ سورة البقرة عدة سنوات ، وإنما ظل هذه المدة الطويلة لاشتغاله بفهم مقاصد القرآن وتطبيق أحكامه ومواعظه .

من مواقف الإمام الشافعي رحمه الله :

من ذلك مارواه أبو العباس الأصم عن الربيع بن سليمان قال: دخلت على الشافعي وهو مريض فسألني عن أصحابنا ، فقلت: إنهم يتكلمون ، فقال : ماناظرت أحدًا على الغلبة، وبودِّي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب - يعني كتبه - على أن لايُنسب إليّ منه شيء [١] .

فهذا مثال لما كان يتصف به الإمام الشافعي من الإخلاص لله تعالى والتجرد من حظ النفس ، والعمل من أجل الوصول إلى الحق وخدمة الإسلام ، فهو حينما يناظر مخالفيه لايحمل في فكره حب الغلبة والانتصار عليهم ، وإنما الذي يكون ماثلا أمامه هو الرغبة في ظهور الحق سواء كان معه أو مع مخالفه .

ولاشك أن هذا الإخلاص والتجرد كان له الأثر البالغ في تفوقه في مجال المناظرة ، لأنه قد أحضر قلبه مع الله تعالى، واستصحب

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧٦/١٠ .

رقابته عليه ، فهو بذلك يكون مؤيَّدًا بتوفيق الله سبحانه وإلهامه .

وأبلغ من ذلك ماروُي عنه أنه قال : « ماناظرت أحدًا إلا أحببت أن تكون الحجة معه » فإن هذا يبين تجرده الكامل للحق ورغبته في الوصول إليه ولو على لسان المخالفين ، فهو قد بذل وسعه في معرفة الحق عن طريق العلم ، والمناظراتُ طريق من طرق العلم ، فإذا أوصلَتْه إلى معرفة الحق الذي كان يجهله فهذا عنده مكسب كبير .

فهذا الفرق كبير بين من يناظر ليعرف الحق ثم يلزمه سواء كان معه أو مع مخالفه ، ومن يناظر للانتصار لرأيه أو رأي إمامه أو مذهبه سواء كان ذلك صوابا أو خطأ .

وفي بيان آداب المناظرة يقول يونس الصدفي : مارأيت أعقل من الشافعي ، ناظرته يوما في مسألة ، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال : ياأبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة؟!

ذكره الذهبي وقال :هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه ، فمازال النظراء يختلفون (١) .

ففي هذا الخبر يبين لنا الإمام الشافعي أمرا مهما، وهو أن لايكون الخلاف في الرأي والمناظرةُ على ذلك سببا في إضعاف الأخوة الإسلامية بين المختلفين، فالأخوة الإسلامية ثابتة بأدلتها الشرعية، ولايجوز أن يؤثر عليها الخلاف في القضايا العلمية، فالدافع إلى الخلاف هو الاجتهاد للوصول إلى الصواب، فإذا كان كل واحد من

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٦ .

المتناظرين يريد حقا الوصول إلى الصواب ، فإن عثوره على ذلك عن طريق مُناظِرِه يزيده حبًّا له ، وبالتالي فإن الأخوة الإسلامية لاتتأثر مع الخلاف والمناظرة إلا إذا كان المختلفون أو بعضهم من أصحاب الهوى المنحرف .

موقف للحافظ يحيى القطان رحمه الله :

إن من المواقف العلمية ماكان في مجال النقد الهادف الذي يدل على سعة العلم وإرادة تنقية سنة رسول الله ﷺ من الخطأ والتحريف .

فمن ذلك ماكان بين عفان بن مسلم ويحيى بن سعيد القطان وقد أخرج خبر ذلك محمد بن الحسن بن علي بن بحر قال: حدثنا الفلاس قال : رأيت يحيى يوما حدث بحديث فقال له عفان: ليس هو هكذا ، فلما كان من الغد أتيت يحيى ، فقال : هو كما قال عفان، ولقد سألت الله أن لايكون عندي على خلاف ماقال عفان.

قال الإمام الذهبي : قلت : هكذا كان العلماء فانظر يامسكين كيف أنت عنهم بمعزل [1] .

فهذا موقف جليل من يحيى القطان يدل على تجرده من حظ النفس وتخلقه بخلق الإيثار ، فالإيثار كما أنه يكون في المال ومتاع الدنيا فإنه يكون في السمعة والجاه ، وقد يسخو الإنسان بالمال ويؤثر به على نفسه ، ولكنه لايسخو بالجاه ولايؤثر غيره به على نفسه، لأن تعلق نفوس البارزين به أقوى من تعلقهم بالمال .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٢٤٨ - ٢٤٩ ، تاريخ بغداد ١٢/٢٧٥ .

وفي هذا الخبر نجد يحيى القطان قد آثر الحفاظ على جاه عفان بن مسلم أن يُخدش وعلى سمعته العلمية أن تُثلم ، فسأل الله تعالى أن يكون الحديث المختلف عليه على ماقاله عفان ، فكان على ماأحب يحيى ، وحصل بذلك على أجر هذه النية الصادقة والإيثار الجميل.

ولقد كان إعجاب الإمام الذهبي بهذا الخبر كبيرا حيث قال: «هكذا كان العلماء فانظر يامسكين كيف أنت عنهم بمعزل» وهو بهذا يُنحي باللائمة على من لم يبلغوا هذا المستوى الرفيع من العلماء الذين يخالفون الصواب وقد يلبِّسون الحق حفاظًا على سمعتهم العلمية وجاههم المكتسب من العلم .

من مواقف يحيى بن معين ونعيم بن حماد رحمهما الله :

من ذلك مارواه الحسين بن عُلَيل قال: حدثنا يحيى بن معين قال: أخطأ عفان في نيف وعشرين حديثا، ماأعلمت بها أحدا وأعلمته سرّا.

وكذلك قال : مارأيت على رجل خطأ إلا سترته وأحببت أن أزين أمره ، وما استقبلت رجلا في وجهه بأمر يكرهه ولكن أبين له خطأه فيما بيني وبينه فإن قبل ذلك وإلا تركته [1] .

فهذا دليل على غزارة علم يحيى بن معين ، فهو قد أحصى مرويات شيخه عفان بن مسلم فصوَّبه فيها ماعدا عشرين موضعا خطأه فيها ، فكيف بإحاطته بمرويات الشيوخ الآخرين !

ثم إن هذا الخبر مثل من أمثلة الأخلاق النبيلة ، فقد أعلم يحيى بن معين شيخه بتلك الأخطاء سرا ولم ينشرها على الناس وكذلك في

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٣ .

نقده الشيوخ الآخرين كما ذكر ، وهذا دليل على إخلاصه، وأنه لم يُرد الجاه والسمعة العلمية ، وإنما أراد وجه الله تعالى ، ولعله قال هذا الكلام بعد موت شيخه عفان رحمهما الله تعالى .

ولكن يحيى بن معين قد ينتقد بعض الشيوخ علنًا، وذلك فيما إذا كان في حلقة علمية والطلاب يكتبون عن الشيخ فإنه والحال هذه يكون مضطرًا إلى إعلان النقد حتى لايكتب التلاميذ خطأ، ومن أمثلة ذلك ماذكره الحافظ الذهبي من رواية ابن عباس الدوري قال: حدثنا يحيى بن معين قال : حضرت نعيم بن حماد بمصر، فجعل يقرأ كتابا صنَّفه ، فقال : حدثنا ابن المبارك عن ابن عون ، وذكر أحاديث ، فقلت: ليس ذا عن ابن المبارك ، فغضب وقال : تردُّ علي؟ قلت: إي والله أريد زينك، فأبى أن يرجع ، فلما رأيته لايرجع قلت : لا والله ماسمعت هذه من ابن المبارك ولاسمعها هو من ابن عون : فغضب وغضب من كان عنده ، وقام فدخل ، فأخرج صحائف فجعل يقول وهي في يده : أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث ؟ نعم ياأبا زكريا غلطت ، وإنما هذه الأحاديث عن غير ابن المبارك عن ابن عون (1) .

وهذا الخبر يعتبر مثلاً على علم يحيى بن معين وخبرته بالأسانيد فقد ردَّ على البديهة على نعيم بن حماد وخطَّأه في تلك الأسانيد، وكان واثقًا من علمه كثيرا ، فلهذا أقسم على أن تلك الأحاديث لم يروها نعيم عن ابن المبارك ولارواها ابن المبارك عن ابن عون .

---

(1) سير أعلام النبلاء ١١/٨٩ - ٩٠ .

وموقف جليل من نعيم بن حماد لما رجع إلى أصوله فأعلن خطأه وصواب ابن معين على الملأ ، وأشاد بابن معين بإنكاره على من لم يعترف له بالإمارة في الحديث .

من مواقف الحافظين أبي حاتم وأبي زرعة رحمهما الله :

من المواقف العلمية الرائعة التي تبين عمق البارزين من علماء الحديث ومقدرتهم الفائقة على الحكم على النصوص وتمييز مقبولها من مردودها ماأخرجه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي رحمه الله يقول : جاءني رجل من جلة أصحاب الرأي[1] من أهل الفهم منهم ، ومعه دفتر فعرضه علي فقلت في بعضها: هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث ، وقلت في بعضه: هذا حديث باطل ، وقلت في بعضه : هذا حديث منكر، وقلت في بعضه : هذا حديث كذب ، وسائر ذلك صحيح ، فقال لي : من أين علمت أن هذا خطأ وأن هذا باطل وأن هذا كذب ؟ أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا ؟ فقلت: لا ، مأأدري هذا الجزء من رواية من هو ؟ غير أني أعلم أن هذا خطأ وأن هذا باطل ، وأن هذا الحديث كذب ، فقال : تدَّعي الغيب ؟ قال قلت : ماهذا ادعاء الغيب ، قال : فما الدليل على ما تقول؟ قلت: سل عما قلت من يحسن مثلما أحسن ، فإن اتفقنا علمتَ أنا لم نجازف ولم نقلْه إلا بفهم .

قال : من هو الذي يحسن مثلما تحسن ؟ قلت: أبو زرعة ،

(١) يعني من الفقهاء الذين ليس لهم اهتمام برواية الحديث وكانوا يسمونهم أهل الرأي.

قال: ويقول أبو زرعة مثلما قلت ؟ قلت :نعم ، قال: هذا عجب، فأخذ فكتب في كاغد ألفاظي في تلك الأحاديث ثم رجع إليّ وقد كتب ألفاظ ماتكلم به أبو زرعة : هو كذب قلت: الكذب والباطل واحد، وماقلت أنه كذب قال أبو زرعة : إنه باطل، وماقلت إنه منكر قال أبو زرعة : هو منكر كما قلت ، وماقلت إنه صحاح قال أبو زرعة : هو صحاح .

فقال : ماأعجب هذا تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما ، فقلت: فقد عملتَ عند ذلك أنا لم نجازف وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتيناهما ، والدليل على صحة مانقوله أن ديناراً بَهْرجًا يُحمل إلى الناقد فيقول : هذا دينار بَهْرج ، ويقول لدينار : هو جيد، فإن قيل له من أين قلت إن هذا بهرج ؟ هل كنت حاضرا حين بُهْرج هذا الدينار ؟ قال : لا ، فإن قيل له : فأخبرك الرجل الذي بهرجه أني بهرجت هذا الدينار ؟ قال :لا ، قيل : فمن أين قلت إن هذا بهرج؟ قال : علمًا رُزقت ، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك .

وقلت له : فتحمل فص ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين فيقول : هذا زجاج ، ويقول لمثله : هذا ياقوت ، فإن قيل له : من أين علمت أن هذا زجاج وهذا ياقوت ؟ هل حضرت الموضع الذي صنع فيه هذا الزجاج ؟ قال : لا ، قيل له : فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجا ؟ قال : لا ، قال : فمن أين علمت؟ قال: هذا علم رُزقت ، وكذلك نحن رُزقنا علما، لايتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا منكر إلا بما نعرفه.

قال أبو محمد - يعني ابن أبي حاتم - : تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء عُلم أنه مغشوش، ويُعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج ، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه ، وأن يكون كلاما يصلح أن يكون من كلام النبوة ، ويُعلَم سقمه وإنكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته والله أعلم (١) .

فهذا الحوار العلمي الرفيع يدل على تفوق البارزين من علماء الحديث في معرفة الأحاديث ، أسانيد ومتون ، والحكم عليها، فهذان الحافظان أبو حاتم وأبو زرعة يحكمان على مجموعة من الأحاديث على البديهة ثم يتفق حكمهما ، وهذه النتيجة كما أذهلت ذلك العالم الفقيه فإنها تذهل الكثيرين ممن لم يخبروا هذا العلم، لكنها نتيجة طبيعية عند أرباب هذا الشأن .

وقد بين ابن أبي حاتم أن النقد يكون للإسناد ويكون للمتن، فيكون للإسناد بمعرفة عدالة ناقليه وتفردهم بروايته ،ويكون في المتن بعدم صلاحيته أن يكون من كلام النبوة ، وهذا هو الذي يحكمون عليه بالنكارة في المتن .

وأمثال هؤلاء العلماء المتبحرين في هذا العلم هم الذين يستحقون حقا أهلية الحكم على الأحاديث، وإذا حكموا على حديث فلا ينبغي لمن جاء بعدهم أن يخالفهم إلا إذا كان في مستواهم العلمي وحصل له بالدراسة علم زائد عما عندهم .

---

(١) الجرح والتعديل ١/٣٤٩ - ٣٥١ ، سير أعلام النبلاء ١٣/٢٥٣ - ٢٥٤ .

ومن النماذج الجيدة التي جرت بين هذين الحافظين الكبيرين أبي حاتم وأبي زرعة ماأخرجه ابن أبي حاتم قال : سمعت أبي يقول : جرى بيني وبين أبي زرعة يوما تمييز الحديث ومعرفته فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها ، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ ، فقال لي : ياأبا حاتم قلَّ من يفهم هذا ، ماأعز هذا، إذا رفعت هذا من واحد أو اثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا، وربما أشك في شيء أو يتخالجني شيء في حديث فإلى أن ألتقي معك لا أجد من يشفيني منه ، قال أبي : وكذلك كان أمري (١) .

فهذا مثال على ندرة المتأهلين للحكم على الأحاديث مع كثرة الحفاظ في ذلك الزمن ، وإذا كان المتأهلون للحكم على الأحاديث قليلا في ذلك الزمن الذي بلغ فيه الاتجاه نحو جمع السنة ودراستها أقصى حد بلغه فكيف بالعصور المتأخرة التي ضعف نشاط طلاب العلم فيها في مجال جمع السنة ودراستها !

وإن في هذا المثل مع الأمثلة السابقة بيان خطورة الإقدام على الحكم على الأحاديث ، وأن ذلك ليس من شأن الطلاب المبتدئين في هذا العلم ، وإنما هو من اختصاص العلماء المنتهين الذين جمعوا أكبر قدر ممكن من السنة وأحاطوا بطرق الروايات المتعددة ، وعرفوا مرويات الرواة الذين اتهموا بالخطأ والوهم بحيث يميزون بين رواياتهم السليمة ورواياتهم المنتقده ، وأدركوا علل الأحاديث التي بيَّنها جهابذة العلماء ، فَلْيخش الله تعالى طلاب العلم الذين اتجهوا لدراسة علوم

---

(١) الجرح والتعديل ٢٥٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٢٥٢/١٣ .

الحديث وليعرفوا قدرهم ، وليقتصروا على الموازنة بين حكم العلماء على الأحاديث لا على رجال الأسانيد ، وليتركوا الحكم على الأحاديث المبني على دراسة الأسانيد حتى يصلوا من العلم إلى مستوى أولئك العلماء الجهابذة المتبحرين في هذا العلم .

من مواقف الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن صالح رحمهما الله :

من النماذج الجيدة في الحوار العلمي ماأخرجه الخطيب البغدادي عن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : سمعت أبا بكر بن زنجويَه يقول : قدمت مصر وأتيت أحمد بن صالح، فسألني من أين أنت ؟ قلت :من بغداد ، قال : منزلك من منزل أحمد بن حنبل؟ قلت . أنا من أصحابه . قال : تكتب لي موضع منزلك فإني أريد أوافي العراق حتى تجمع بيني وبين أحمد بن حنبل: فكتبت له فوافى أحمد بن صالح سنة اثنتي عشرة إلى عفان فسأل عني ، فلقيني . فقال : الموعد الذي بيني وبينك ؟

فذهبت به إلى أحمد بن حنبل واستأذنت له فقلت: أحمد بن صالح بالباب ، فأذن له ، فقام إليه ورحّب به وقربه وقال له : بلغني أنك جمعت حديث الزهري ، فتعال نذاكر ماروى الزهري عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعلا يتذاكران ولايُغرب أحدهما عن الآخر حتى فرغا ، قال ومارأيتُ أحسن من مذاكرتهما. ثم قال أحمد ابن حنبل لأحمد بن صالح : تعال حتى نذاكر ماروى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله ﷺ ، فجعلا يتذاكران أحدهما على الآخر إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح : عند الزهري عن

محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال النبي ﷺ : « مايسرني أن لي حُمْر النعم وأن لي حلف المطَّيِّبين »(١). فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل : أنت الأستاذ وتذكر مثل هذا؟ فجعل أحمد بن حنبل يبتسم ويقول : رواه عن الزهري رجل مقبول، أو صالح - عبد الرحمن بن إسحاق - فقال: من رواه عن عبد الرحمن ؟ فقال: حدثناه رجلان تقيان - إسماعيل بن علية، وبشر بن الفضل - فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل: سألتك بالله إلا أمليته عليّ ، فقال أحمد من الكتاب، فقام ودخل وأخرج الكتاب وأملى عليه ، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل: لو لم أستفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيرا، ثم ودعه وخرج (٢) .

فهذا مجلس علمي مفيد بين الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن صالح المقرئ،تذاكرا فيه أحاديث كثيرةمن أحاديث الإمام الزهري،وفي هذا الخبر تظهر فرحة أحمد بن صالح لمااستفاد حديثا ليس عنده بذلك السند الذي رضيه أحمد بن حنبل فطلب في الحال أن يحدثه به.

وفيه موقف من مواقف الورع والاحتياط للدين ، فحينما كانا يتذاكران كانت المذاكرة من حفظهما ، ولما أراد الإمام أحمد بن حنبل أن يحدث حديثا يُكتب عنه قام وجاء بكتابه .

ومن ذلك مارُوي عن الحسين بن إسماعيل عن أبيه قال: كان

---

(١) هو حلف تحالف فيه بعض قريش على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم وسمي بذلك لأنهم غمسوا أيديهم في جفنة فيها طيب .

(٢) تاريخ بغداد ١٩٧/٤ .

يجتمع في مجلس أحمد [1] زهاء خمسة آلاف أو يزيدون ، نحوُ خمسمائة يكتبون والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت [2] .

ويقول أبو بكر بن المُطَّوِّعي : اختلفت إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت عنه حديثا واحدا، إنما كنت انظر إلى هديه وأخلاقه [3] .

في هذين الخبرين مثل من اهتمام أهل العلم بتعلم الأخلاق والأدب، وتلقي التربية الدينية من العلماء الربانيين .

وهكذا ينبغي لطلاب العلم أن يهتموا بتعلم الأدب ومكارم الأخلاق من العلماء كاهتمامهم بجمع العلم وتحصيله .

من مواقف ابن المنادي رحمه الله :

من أخبار العلماء في المجال التربوي ماذكره القاضي أبو يعلى في ترجمة أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي حيث ذكر عن أبي الفضل عبد الله بن أحمد الصيرفي قال: وقال لي أبو الحسين بن الصلت : كنا نمضي مع ابن قاج الوراق إلى ابن المنادي لنسمع منه، فإذا وقفنا ببابه خرجت إلينا جارية له وقالت : كم أنتم ؟ فنخبرها بعَدَدِنا ويؤذن لنا في الدخول فيحدثُنا ، فدخل معنا مرة إنسان علوي وغلام له ، فلما استأذنا قالت الجارية : كم أنتم ؟ فقلنا: نحو ثلاثة عشر، وماكنا حسبنا العلوي ولاغلامه في العدد، فدخلنا عليه، فلما

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣١٦ .

(٣) المصدر السابق ١/٣١٦ .

رآنا خمسة عشر نفسا قال : انصرفوا اليوم فلست أحدثكم، فانصرفنا وظننا أنه عرض له شغل، ثم عدنا إليه مجلسا ثانيا فصرَفَنا ولم يحدثنا ، فسألناه بعد ذلك عن السبب الذي أوجب ترك الحديث لنا فقال : كنتم تذكرون عددكم في كل مرة للجارية وتصدقون، ثم كذبتم في المرة الأخيرة، ومن كذب في هذا المقدار لم يؤمن من أن يكذب فيما هو أكبر منه ، فاعتذرنا إليه وقلنا : نحن نتحفَّظ فيما بعد، فحدَّثَنا ، أو كما قال [1] .

فهذا مثل من حرص العلماء على تقويم أخلاق طلابهم وحملهم على الالتزام بالسلوك القويم والأخلاق الكريمة، فحينما لاحظ هذا الشيخ اختلاف كلام أولئك التلاميذ عن واقعهم الفعلي رفض أن يحدثهم لأن من يستهين بالكذب في الأمور الصغيرة يُخشى منه أن يكذب فيما هو أكبر من ذلك، ومن أجل هذا المنهج التربوي الجاد أصبح مجتمع العلماء يكاد يكون نزيها من النفعيين والفساق .

موقف للحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله :

للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي موقف علمي جيد رد فيه تزييف بعض اليهود ، وذلك فيما ذكره محمد بن عبد الملك الهَمذاني في تاريخه قال: وأظهر بعض اليهود كتابا ادَّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة رضي الله عنهم ، وذكروا أنه خط علي رضي الله عنه، وحُمِل الكتاب إلى رئيس الرؤساء فعرضه على الخطيب فتأمله وقال: هذا

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/ ٣ - ٤ .

مزورّ ، قيل : من أين قلت ؟ قال: فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح وفُتِحَتْ خيبر سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين ، فاستُحْسِنَ ذلك منه [1] .

فهذا مثل من غزارة علم الحافظ الخطيب البغدادي ومعرفته بالتاريخ الإسلامي حيث أبطل ذلك الكتاب المزور بمعرفته الدقيقة بتاريخ إسلام الصحابة رضي الله عنهم وتاريخ وفياتهم .

موقف للإمام موفق الدين بن قدامة رحمه الله :

ومن أمثلة اهتمام العلماء بأمر العدالة والحِفاظ على سمعة العلماء ماجرى من الإمام موفّق الدين ابن قدامة وهو يجيب على أحد العلماء الذين ردوا عليه حيث قال : إلى أن رأيت له فتاوى غيرُه فيها أسدُّ جوابًا وأكثر صوابا ، وظننت أنه ابتلي بذلك لمحبته تخطئة الناس واتباعه عيوبهم ولايبعد أن يعاقب الله العبد بجنس ذنبه . . . ثم قال عن هذا العالم : وقد شغل كثيرا من زمانه بالرد على الناس في تصانيفهم وكشف ما استتر من خطاياهم ومحبة بيان سقطاتهم، ولايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس مايحب لنفسه، أفَتَراهُ يحب لنفسه بعد موته من ينتصب لكشف سقطاته وعيب تصانيفه وإظهار أخطائه ؟ وكما لايحب ذلك لنفسه ينبغي له أن لايحبه لغيره، سيما الأئمة المتقدمين والعلماء المبرِّزين [2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٨٠ .

(٢) طبقات الحنابلة ٤/١٩٥ - ١٩٦ .

فهـذه الكلمات من الإمام الموفـق تحتوي على توجـيه جيـد نحو ماينبغي أن يتحلى به أهل العلم من الأدب العلمي ، فليس من الأدب أن يسـارع أهل العـلم في نقـد العلمـاء ، ولا أن يجـعلوا ذلك من مقاصدهم التي يهتمون بها .

والمراد بهـذا النقد المذمـوم ماقُـصِدَ به النقـد لذاته، أما إذا كـان المقصود منه بيان الحق ولم يتمكن الناقد من البـيان بغير ذلك فهو من النصيحة للمسلمين وليس من النقد المذموم .

من مواقف الشيخ محمد بن محمد الطيب المالكي رحمه الله :

قال عنه الشيخ محمـد خليل المرادي وُلد بالمغرب الأقصى وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ثم اشتغل في حفظ المتون على والده وقرأ عليه الآجـرومية وعـلى الشيخ محـمد السعـديّ الجزائريّ السنوسـيّة ومنظومة في العبادات مـختصة في المسائل الفقهـية، ودرّس السنوسيّة للطلاب قـبل أوان الاحـتـلام ورحل من بلاده في البـر إلى طرابلس الغرب وما وجـبت عليه صلاة ولاصيام ، ومن طـرابلس ركب البحر إلى الجامع الأزهر فطلب العلم بمصر سنتين وثمانية أشهر .

ثم سافـر لزيارة والدته في البـحر فـأسره الفرنج وذهبـوا به إلى مالطة مركـز الكفر ثم نجاه الله تعالى بعـد سنتين وأيام وناظرته رهبان النصارى مناظرة واسـعة وكان فـيهم راهب له دراية بالمسائل المنطقـية والعربيـة ويزعم أن همتـه بارعة وكانت مـدة المناظرة نحو ثمـانية أيام فـأخرسـهم الله وأكبـتـهم ووقعـوا في حَيْـصَ بَيْص ، فمن جـملة

مناظرتهم معه في ألوهية عيسى أن قال كبيرهم يامحمديّ : إن حقيقة عيسى امتزجت مع حقيقة الإله فصارتا حقيقة واحدة .

قال: فقلت له : لايخلو الأمر فيهما قبل امتزاجهما أن تكونا قديمتين أو حادثتين أو إحداهما قديمة والأخرى حادثة وكل الاحتمالات باطلة فالامتزاج على كل الاحتمالات باطل أما على الأول فإن الامتزاج مُفْضٍ للحدوث قطعًا لأنه تركيب بعد إفراد وكل تركيب كذلك لا محالة حادث والحادث لايصلح للألوهية، وأما الثاني فظاهر البطلان، وأما الثالث بوجهيه فباطل أيضا لأن القديمة منهما بعد الامتزاج يلزم حدوثها والحادثة منهما بعده يلزم قدمها فيؤدي إلى قلب الحقائق وقلبها محال، ويلزم أيضا اجتماع الضدّين وهو باطل باتفاق العقول .

ولما سُقط في أيديهم ورأوْا أنهم قد ضلوا في هذا الطريق قال لي كبيرهم : عقولنا لاتصل لهذا الأمر الدقيق فقلت له : هذا عندنا من علوم أهل البداية لا من علوم أهل النهاية فبهت الذي كفر وعبس واكفهرّ ، قلت لكبيرهم : بالله عليك: أعيسى كان يعبد الصليب؟ قال: لا وإنما ظهر الصليب بعد قتله- على زعمهم- ونحن نعبد شبيه الإله فقلت له: بالله عليك ألله شبيه؟ قال: لا، فقلت له: يجب عليكم حرق هذه الصلبان بالزفت والقطران فاستشاط غيظًا وقال لي: كنت أوقعك في المهالك وأجعلك عبرة لكن الله أمرنا بحب الأعداء، فقلت له : لكن الله أمرنا ببغض الأعداء، فقال لي: إذًا شريعتنا كاملة فقلت له على طريقة الاستهزاء : شريعتكم كاملة لأنها تعبد

الأصنام والصلبان وشريعتنا ناقصة لأنها تعبد الله وحده لاشريك له فاشتد غضبه حتى كاد أن يبطش بي ولكن الله سلم لمزيد اللطف بي.

ثم إن كبيرهم قال لي : يامحمديّ إني رأيت في كتبكم الحديثة أن نبيكم انشق له القمر نصفين فدخل نصفه من كم والنصفه من الكم الآخر وخرج تامًّا من جيب صدره ومساحة البدر مثل الدنيا ثلاث مرات وثلث وهي ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة وثلث فما هذه الخرافات؟ فقلت له : أما ورد أن إبليس جاء لسيدنا إدريس وهو يخيط بالإبرة وبيده قشرة بيضة وقال له: أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في قشرة هذه البيضة ؟ فقال لي : نعم ورد ذلك، فقلت له: كيف يقدر ؟ فقال: إما أن يكبر القشرة أو يصغر الدنيا، فقلت له: سبحان الله تحلونه عامًا وتحرّمونه عامًا وإذا سلمت هذا فلم لا تسلمه لنبينا فغص بريقه واصفر وعبس وتولّى فقتل كيف قدّر، وهذا الجواب مني من باب إرخاء العنان للإلزام وإلا فدخول نصفَي البدر في الكمين باطل عند جميع المحدّثين الأعلام لكن كبيرهم لايعرف اصطلاح علمائنا ذوي المقام العالي فلو أجبته ببطلانه لقال لي : رأيته في كتبكم فلا يصغي لمقالي فلذلك دافعته بالبرهان القطعيّ العقلي لأنه لايمتثل بعد ما رآه للدليل النقليّ .

ثم إن كبيرهم في ميدان البحث أنكر نبوّة نبينا السيد الكامل وقال: إنه عندنا ملك عادل ، فقلت له: ما المانع من نبوّته؟ فقال: نحن لانقول بها وإنما نقول بشدّة صولته، فقلت له: أليس النبيّ الذي أتى بالمعجزات وأخبر بالمغيبات ؟ فقال كبيرهم: أيّ معجزة أتى بها

وأيّ مغيبات أخبر بها فسردت له بعض المعجزات وأعظمها القرآن وذكرت له بعض المغيبات ، فقال لي : رأيت البخاريّ من علمائكم ذكر بعضها، ثم قال لي : إنّما علّمه ذلك الغلام يشير لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[1] فقلت له : بالله عليك لسان ذلك الغلام ماذا؟ قال: أعجميّ ، فقلت له : بالله عليك لسان نبينا ماذا؟ قال: عربيّ، قلت له :بالله عليك نبينا يقرأ ويكتب أم أمي؟ قال: أمي لايقرأ ولايكتب ، فقلت له : بالله عليك هل سمعت عربيًا يتعلم من عجمي، قال: لا، فأفحم في الجواب وانقطع عن الخطاب .

ثم قال لي : كيف يقول قرآنكم : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ ؟ وبينه وبينها ألف من السنين؟ فقلت له : أنت أعجميّ لاتعرف لغة العرب كيف مبناها، فقال لي : وكيف ذلك؟ فقلت له : يُطلق الأخ في لغتهم على الأخ النِّسبيّ وعلى الأخ الوصفيّ والمراد هنا الثاني ومعنى الآية يا أيتها المتصفة عندنا بالعفة والديانة والعبودية مثل هارون الموصوف بتلك الصفات الكاملة وهذا المعنى في لسان العرب شائع وفي مجاراتهم ومجاري أساليبهم ذائع، فوقف حمار الشيخ في الطين.

ولما رآني صغير السن وكان سني إذ ذاك نحو تسع عشرة سنة، قال لي : تصلح أن تكون مثل ولد ولدي فمن أين جاءتك هذه المعرفة التامة ؟ فقلت له : جميع ما سألتني عنه هو من علوم البداية ولو خضت معي في مقام النهاية لأسمعتك مايصم أذنيك وفي هذا القدر

(١) سورة النحل : الآية ١٠٣ .

كفايــة ، فترك المناظرة ورجع القهــقري، وشاع صيــتي في مالطة بين الرهبان والكبــراء وكنت إذا مررت في السوق يحــترموني ومــاخدمت كافرًا قط وكــان سبب خلاصي رؤيا مبــشرة، من يومها ركــبت سفينة النجاة متوجهًا لإسكندرية ثم منها لمصر القاهرة .

ثم سافرت للحجاز مرارًا ودخلت اليمن وعمان البحرين والبصرة وحلب ودمــشق وتوجهت للروم ثم ألــقيت عــصا التــسيــار في بيت المقدس، وجاءتني الفتيا وأنا لها كاره. ومراسلاته وأشعاره كثيرة .

وكانت وفاته في القدس سنة إحــدى وتسعين ومائة وألف، رحمه الله تعالى [1] .

فهــذا الشاب الذي لم يبــلغ العشريــن من عمره جــرت منه هذه المناظرة القوية العميقة ، وهي تدل على نبوغ مبكر، كما تدل على قوة الحركة العلميــة في ذلك العصر، حيث إن هذه المقدرة العلمــية الفائقة كانت نتاج المدارس الإسلامية المنتشرة آنذاك في المساجد ودور العلم .

لقــد أعز هذا الشــاب الصغــير الإســلام ، ورفع من ذكر علمــاء المسلمين ، حيث أصبح أحبار النصارى حيارى مخذولين معه، ولسان حالهم يقــول : إذا كان هذا موقــفنا مع هذا التلميــذ فكيف لو ناظرنا شيوخه الذين تلقى عنهم العلم .

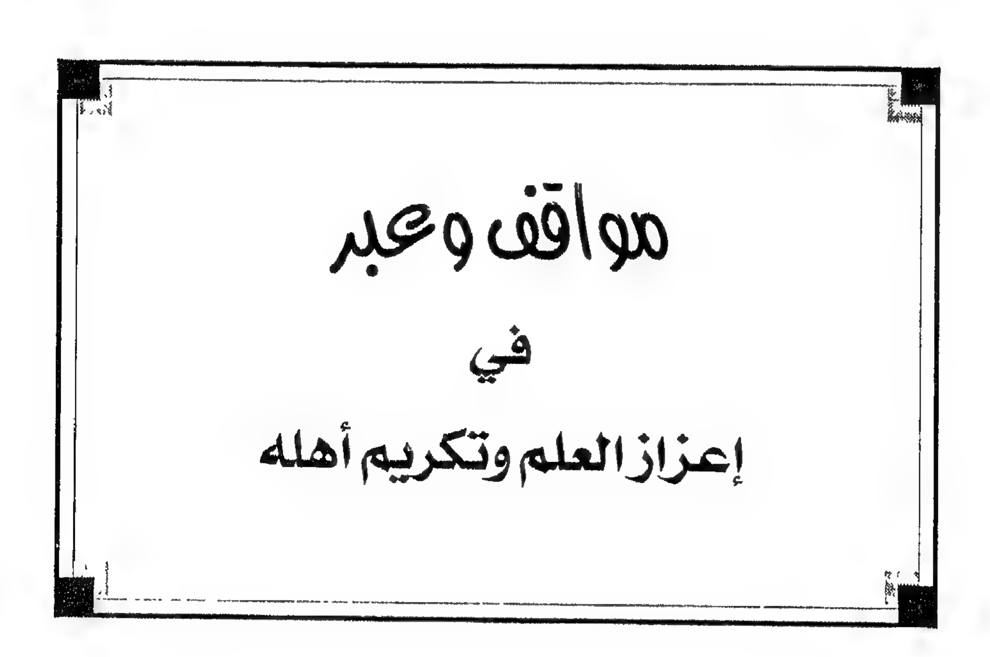
ولقد كان جريئا حينمــا خاطبهم بذلك الأسلوب القوي الهجومي مع أنه كان في موقف الضعف وكانوا في موقف القوة، وألغى التفكير

---

(١) المختار المصون للدكتور محــمد بن حسن بن عقيل /١٣٤٨ - ١٣٥١ نقلا عن سلك الدرر للشيخ محمد المرادي .

في كل الاحتمالات الممكنة التي منها أن يتعرض للقتل من أجل إعزاز الإسلام والدفاع عنه، وهذا يدل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

* * *



مواقف وعبر

في

إعزاز العلم وتكريم أهله

لقد كان لأعيان السلف - رحمهم الله تعالى - مواقف مشرفة في إعزاز العلم وتكريم أهله ، سواء من العلماء أو الأمراء .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

ذكر الإمام الذهبي من خبر أبي العالية قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما يرفعني على السرير وقريش أسفل من السرير، فتغامزَتْ بي قريش فقال ابن عباس : هكذا العلم يزيد الشريف شرفًا ويُجلس المملوك على الأسرة .

قال الإمام الذهبي : هذا كان سرير دار الإمرة لما كان ابن عباس متوليها لعلي رضي الله عنهم [1] .

فهذا موقف كريم من عالم الأمة الكبير في تكريم حملة العلم الشرعي ، وتكريمُ العلماء يعتبر إعزازاً للعلم .

فلقد كان أبو العالية رُفَيْع بن مهران الرياحي رحمه الله تعالى من الموالي ، فاستكثر العرب من قريش أن يرفعه ابن عباس فوقهم وهم أصحاب النسب الرفيع ، فأبان لهم أن مؤهل الكرامة والرفعة ليس في شرف النسب، وإنما هو في العلم الذي يوصل صاحبه إلى التقوى ، وينفع الله به الأمة .

وعلى هذا المنهج ينبغي أن يسير المسلمون في تكريم أهل العلم ورفع مكانتهم بغض النظر عن انسابهم ومواطنهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٢٠٨ ، وذلك حينما كان ابن عباس أميرا على البصرة .

موقف من الإمام مكحول رحمه الله :

من ذلك مارواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : أقبل يزيد بن عبد الملك إلى " مكحول" في أصحابه ، فلما رأيناه هممنا بالتوسعة له، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع (١) .

فهذه ملاحظة مهمة من أبي عبد الله مكحول الشامي رحمه الله في آداب التعلم، فمن أهم آدابه التواضع، وقد كان العلماء يحرصون على لزوم تحلِّي طالب العلم بالتواضع، ويرون أن تميز بعض الطلاب بمزايا خاصة قد يفسدهم بما يتولد عن ذلك من اتصافهم بالكبرياء والغرور ، وقد يفسد بعض الطلاب الآخرين بما يتربَّى في نفوسهم من الحقد والضغينة على هؤلاء الطلاب المميَّزين ، كما أن ذلك يضعف من مكانة الشيخ عندهم ومن قوة ارتباطهم به ، وبالتالي يضعف المستوى العلمي عند هؤلاء وهؤلاء.

من مواقف الإمام مالك رحمه الله :

من أمثلة مواقف العلماء في إعزاز العلم مارواه عمر بن المحبِّر الرُّعَيني قال : قدم المهدي المدينة فبعث إلى مالك فأتاه، فقال لهارون وموسى (٢) : اسمعا منه ، فبعث إليه فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمه فقال : ياأمير المؤمنين العلم يُؤتَى أهله، فقال: صدق مالك، صيرا إليه ،فلما صارا إليه قال له مؤدبهما : إقرأ علينا، فقال: إن أهل المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦٢ .

(٢) يعني قال المهدي لابنيه هارون وموسى .

أخطأ أفتاهم ، فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فكلمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول : جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال وهم يا أمير المؤمنين سعيد بن المسيب وأبو سلمة ، وعروة، والقاسم، وسالم ، وخارجة بن يزيد ، وسليمان بن يسار، ونافع ، وابن هرمز. [قال مالك :] ومِن بعدهم : أبو الزناد ، وربيعة ، ويحيى ابن سعيد ، وابن شهاب ، كل هؤلاء يُقرأ عليهم ولايقرؤون ، فقال: في هؤلاء قدوة ، صيروا إليه فاقرؤوا ، ففعلوا [1] .

وهكذا أصر الإمام مالك بن أنس على الالتزام بالمنهج التعليمي الذي تعلمه من شيوخه لأن هذا المنهج يحمل طالب العلم على التواضع للعلماء واحترام العلم، فالعلم ليس مجرد معلومات يُحشَى بها الفكر والذاكرة، وإنما هو منهج حياة وعمل صالح وسلوك قويم يترتب على العلم النافع، فإذا أُخِذ العلم بالتعالي والترفع واعتبار المنزلة الاجتماعية فإنه يورث الكبر والغرور فيضر صاحبه أكثر مما ينفعه .

فالعلماء الربانيون كانوا يحرصون دائمًا مع نشر العلم على تربية الطلاب وتقويم سلوكهم ، فإذا تهيأت الظروف المناسبة لطلب العلم عند الطالب قبلوه في حلقتهم لثقتهم بأن غرسهم الطيب سيؤتي بإذن الله تعالى ثمراته الطيبة ، أما إذا كانت بداية الطالب لاتناسب كونه طالب علم فإنهم يرفضونه من أول الأمر حتى لايكون طلبه للعلم وبالاً عليه وعلى مجتمعه .

ونجد الإمام مالكا يركز على ملاحظة سلامة الآثار المترتبة على

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٣ .

التعلم حيث يحرص على تهيئة الجو المناسب للانتفاع بالعلم قبل نشره، ومن أمثلة ذلك مارواه هارون بن موسى الفروي قال: سمعت مصعبا الزبيري يقول : سأل هارون الرشيد مالكا وهو في منزله ومعه بنوه أن يقرأ عليهم ، قال: ماقرأت على أحد منذ زمان وإنما يُقرأ عليّ، فقال : أَخرِج الناس حتى أقرأ أنا عليك، فقال: إذا مُنِع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص ،. وأمر معنَ بن عيسى فقرأ عليه[1] .

فهذه كانت فرصة ثمينة أمام الإمام مالك ليقرأ على أمير المؤمنين وبنيه لعلهم يتأثرون بمواعظه، خاصة إذا اختار الموضوعات المناسبة للمقام ، ولكن مالكا كان يشدد على ضمان الانتفاع بهذا العلم ويرى أن التواضع بين يدي المعلم عامل أساسي في حصول هذا النفع، ويرى أن أهم أسباب هذا التواضع أن يقوم الطالب بالقراءة بين يدي الشيخ.

وفي كلامه مايدل على أن تميز بعض الطلاب بخصائص معينة يحرمهم من الاستفادة ، لأن التميز مدخل من مداخل الكبرياء وإذا دخل في النفس شيء من ذلك حرم الطالب من التوفيق إلى الانتفاع، لأن القلوب بيد الرحمن جل وعلا فإذا علم من عبده أن قلبه متجرد للعلم مشتاق إلى الانتفاع بما تعلم لِيُتبعَه بالعمل الصالح وفقه إلى العلم النافع وسدد خطاه نحو العمل الصالح ، وإذا علم أن قلب عبده قد تسربت إليه اعتبارات أخرى دفعته إلى التعلم حال بينه وبين العلم النافع ، فلم يثمر علمه عملا صالحا .

ومن ذلك مارُوي عن الإمام مالك رحمه الله من تعظيمه حديث

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٦ .

رسول الله ﷺ ، وفي ذلك يقول ابن أبي أويس : كان مالك إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على فراشه ، وسرح لحيته، وتمكن من الجلوس بوقار وهيبة ، ثم حدَّث ، فقيل له في ذلك ، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا ، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم أو يستعجل، فقال: أحب أن أتفهم ماأحدث به عن رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثل من تعظيم الإمام مالك لحديث رسول الله ﷺ واهتمامه به ، فهو لايحدث به إلا على طهارة مع أن ذلك ليس واجبا عليه، ويكون متمكنا من جلوسه بوقار وهيبة ، ولايحدث به قائما أو ماشيا.

وهذا الاهتمام يدل على مبلغ توقيره لرسول الله ﷺ وتعظيمه للإسلام .

وقد ذكر من حكمة ذلك أن يكون مستجمعا لفكره حتى يحدث بفهم واستيعاب لما يحدث به ، ومن أجل ذلك نفع الله تعالى بعلمه، وطار صيته في مشارق الأرض ومغاربها ، لأنه كان يحدث من قلبه، فكل من سمعه وصل حديثه إلى قلبه .

وإذا تصورنا أنه يعيد الحديث الواحد عشرات المرات كلما جاءه من يطلب سماعه منه كما فعل في الموطأ ،وفي كل مرة يستجمع فكره ويتأمل معاني الأحاديث . . إذا تصورنا ذلك فما أعمق الفهم الذي سيخرج به ! وما أغزر العلم الذي سيستنبطه من تلك الأحاديث!

---

(١) حلية الأولياء ٣١٨/٦ .

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، قال : وقد كان المنصور في شبيبته يطلب العلم من مظانِّه والحديث والفقه ، فنال جانبا جيدا وطرفًا صالحا، وقد قيل له يوما : ياأمير المؤمنين هل بقي شيء من اللَّذات لم تَنَلْه ؟ قال : شيء واحد ، قالوا : وماهو ؟ قال : قول المحدث للشيخ من ذكَرْتَ رحمك الله ، فاجتمع وزراؤه وكتَّابه حوله وقالوا : لِيُمْلِ علينا أمير المؤمنين شيئًا من الحديث ، قال : لستم بهم ، إنما هم الدَّنسَة ثيابهم المتشققة أرجلهم الطويلة شعورهم ، رُوَّاد الآفاق وقُطَّاع المسافات، تارة بالعراق وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام وتارة باليمن ، فهؤلاء نقلة الحديث [(1)] .

فهذا تقدير عظيم من أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور للعلم وأهله، ولايقدِّر الأمور العظيمة إلا العظماء ، فهو يرى أن كل ماهو فيه من متاع الدنيا . . من المال والجاه والسلطان لايعادل متعة الشيخ العالم حينما يقول له تلميذه : مَنْ ذكَرْتَ رحمك الله . . وذلك لأن الاحترام الصادر من التلميذ لشيخه لايعادله أي احترام من أحد لأحد.

وأبو جعفر المنصور كان يفكِّر بالاحترام القلبي من التلاميذ لشيخهم، الذي تعبِّر عنه قَسَمَاتُ وجوههم ونظرات التلهُّف والشوق إلى المزيد من السماع منه ، فيرى أن هذا المشهد المؤثر لايتكرر وجوده في غير ذلك الجو الروحي المحيط بحلقات العلم .

---

(1) البداية و النهاية ١٢٩/١٠ .

وحينما عرض عليه وزراؤه وكتَّابه أن يوفروا له هذه المتعة بتحوُّلهم إلى طلاب علم وقيامه بتحديثهم أبان لهم أن هذه الصورة المصطنعة لاتُكَوِّن تلك المتعة الروحية لأن أبطال هذا الميدان ليسوا هم، وإنما هم طلاب العلم الحقيقيون الذين ذكر صفتهم .

موقف للقاضي شريك النخعي رحمه الله :

مما كان يلاحظه العلماء أن يكون الطالب على هيئة تضمن اتصافه بخلق التواضع وبُعدَه تماما عن مداخل الكبر ، يدل على ذلك مارواه حمدان بن الأصبهاني قال : كنت عند شَريك فأتاه بعض ولد المهدي فاستند ، فسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ، ثم أعاد فعاد بمثل ذلك ، فقال : كأنك تستخف بأولاد الخليفة ، قال: لا ولكن العلم أزْيَن عند آهله من أن تضيعوه ، قال : فجثا على ركبتيه، ثم سأله ، فقال شريك : هكذا يطلب العلم [1] .

وهذه لفتة جليلة من القاضي شريك بن عبد الله النخعي رحمه الله تعالى ، يعلِّم بها طلاب العلم التواضع قبل أن يعلمهم العلم، وذلك لضمان انتفاعهم بالعلم ، وعدم حصول القدوة السيئة بهم من الطلاب الآخرين .

موقف للإمام ابن المبارك رحمه الله :

من مواقف الإمام عبد الله بن المبارك ، مارواه أحمد بن الحواري قال: جاء رجل من بني هاشم إلى عبد الله بن المبارك ليسمع منه، فأبى أن يحدثه ، فقال الشريف لغلامه : قم فإن أبا عبد الله لايرى

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٠٧ .

أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: ياأبا عبد الرحمن تفعل هذا ولاترى أن تحدثني ! فقال: أُذِلُّ لك بدني ولا أذل لك الحديث (١) .

فهذا الرجل الشريف قد أتى بهيئة تتسم بالترفع والكبرياء فتحرَّج الإمام ابن المبارك من أن يحدثه وهو على تلك الحال حتى لايُذِلَّ حديث رسول الله ﷺ .

وهذه النظرة الجليلة وأمثالها كان فيها حمايةٌ للعلم من أن يحمله من ليسوا من أهله ، ومع هذا فإن ابن المبارك كان داعية ناجحًا حينما تواضع لذلك الرجل وقام ليخدمه فأذل له نفسه في الوقت الذي أعز فيه علمه ، فلله دره من إمام حكيم يضع الأمور في مواضعها .

من مواقف أمير المؤمنين المأمون رحمه الله :

من مواقف الخلفاء في تقدير العلماء واحترامهم ماروُي عن المأمون أنه قد وكل الفراء يُلقِّن ابنيه النحو ، فلما كان يوما أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا، فقدماها .

وكان المأمون له على كل شيء صاحب ، فرفع ذلك إليه الخبر، فوجه إلى الفراء فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس؟ قال: ماأعرف أعز من أمير المؤمنين ، قال : بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين ، حتى رضى كل واحد أن يقدم

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٤ .

له فردا ، قال : ياأمير المؤمنين لقد أردت منعهما من ذلك ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها ، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين ركابهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابهما وأنت أسنُّ منهما ؟ قال له : اسكت ياجاهل ، لايعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

قال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا وألزمتك ذنبا ، وماوَضع مافعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما، وبيَّن عن جوهرهما، وقد ثبتت لي مَخِيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل - وإن كان كبيرا - عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه، ووالده ، ومعلمه العلم ، وقد عوضتهما عما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما (١) .

فهذا مثل من أدب التلاميذ مع المعلمين يقدمه ولدا الخليفة المأمون، وإن هذا السلوك العالي لايأتي عفوا وإنما هو نتاج تربية قويمة جادة تلقياها في البيت ، وهذا مثل على عقل المأمون وحزمه وأدبه حيث ربَّى أولاده هذه التربية ، وهو دليل على المستوى الرفيع الذي بلغه بعض الخلفاء في تربية أبنائهم على الأخلاق العالية ، وإذا كان أبناء الكبراء يتصفون بهذا الخلق الرفيع فإن من دونهم سيتأسَّون بهم، وبهذا يصلح أبناء الأمة ، ويتكوَّن منهم مستقبلاً المجتمعُ الصالح .

وجميل من أمير المؤمنين المأمون أن خاطب الفراء بذلك الخطاب

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ١٥٠ - ١٥١ . والفرَّاء هو يحيى بن زياد عالم اللغة .

الذي لفت انتباهه ، حيث أورد المساءلة مورد المعاتبة وهو يريد في قرارة نفسه الإعزاز والإكبار ، فإن صياغة المساءلة بقالب المعاتبة أنتجت ذلك الجواب التربوي الحكيم من الفراء ، الذي أبان به عدم ارتياحه نفسيا لما حدث من ولدي الخليفة ، ولكنه أقرهما على ذلك الاحترام مخافة أن يصدهما عن فضيلة تنافسا عليها، وخليقة كريمة تسابقا إليها .

وبراعة علمية من الفراء أن استحضر حالاً خبر ابن عباس مع الحسن والحسين رضي الله عنهم ، فإن ذلك الخبر يدل على أن تواضع الكبير الشهير بالعلم لمن هم دونه في السنِّ والعلم لايحط من قدره، بل يرفع من ذكره ويدل على رجاحة عقله ، فكذلك تواضعُ من نشئوا في بيوت العز والشرف وانتسبوا إلى أعلى مسئول في الأمة لمعلميهم لايحط من قدرهم بل يُعلي من شأنهم ويدل على أصالة معدنهم.

وموقف تربوي رفيع للمأمون يدل على رجاحة عقله وحلمه وأدبه حيث أيَّد الفراء على سلوكه التربوي مع ولديه بأسلوب يدل على عمق تأثره وفرط إعجابه بما حدث، ولايقدر الفضائل إلا أهلها، ولايعتز بالمكارم إلا من نشأ عليها .

موقفان للأميرين طاهربن الحسين وابنه عبد الله رحمهما الله :

ومن مواقف الأمراء في تقدير العلماء وتكريمهم مارواه الخطيب البغدادي بإسناده عن محمد بن جعفر بن هارون التميمي النحوي قال: كان طاهر بن الحسين - حين مضى إلى خراسان - نزل بمرو فطلب رجلا يحدثه ليلة ، فقيل : ماههنا إلا رجل مؤدب فأُدخل عليه

أبوعبيد القاسم بن سلام فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقه ، فقال له : مِنَ المظالم تركك أنت بهذا البلد، فدفع إليه ألف دينار ، وقال له : أنا متوجه إلى خراسان إلى حرب، وليس أحب استصحابك شفقا عليك ، فأنفق هذا إلى أن أعود إليك، فألَّف أبوعبيد « غريب المصنف » إلى أن عاد طاهر بن الحسين من خراسان، فحمله معه إلى « سرَّ من رأى » وكان أبو عبيد دينا ورعا جوادا [1].

وكذلك قام بإكرامه وتقديره الأمير عبد الله بن طاهر، كما أخرج البغدادي من خبر حارث بن محمد بن أبي أسامة قال: حُمِل غريب حديث أبي عبيد إلى عبد الله بن طاهر فلما نظر فيه قال: هذا رجل عاقل دقيق النظر ، فكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بأن يجري عليه في كل شهر خمسمائة درهم [2] .

ففي هذين الخبرين مثل من اهتمام الولاة بإكرام العلماء وتقديرهم، وإن ما يُحْظَى به العلماء من تقدير الأمراء وإكرامهم يعتبر أبلغ مشجع لهم على الإنتاج العلمي ونفع المسلمين، فهذا العالم الجليل أبو عبيد القاسم بن سلام لما يسر الله له من يفرغه من طلب الرزق تفرغ لتأليف الكتب النافعة التي استفاد منها طلاب العلم قرونا عديدة .

وهذا التقدير من الأميرين طاهر بن الحسين وابنه عبد الله يدل على ارتفاع مستواهما في العلم والعقل والأدب .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/٤٠٥ - ٤٠٦ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/٤٠٦ ، سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩٥ .

من مواقف الوزير يحيى بن هبيرة رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن رجب عن صاحب سيرة الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة قال : وكنا يوما عنده والمجلس غاصٌّ بوُلاة الدين والدنيا ، والأعيان الأماثل، وابنُ شافع يقرأ عليه الحديث إذ فجأنا من باب الستر وراء ظهر الوزير صراخ بَشِع وصياح يرتفع، فاضطرب المجلس وارتاع الحاضرون، والوزير ساكن ساكت، حتى أنهى ابن شافع قراءة الإسناد ومتنَه ، ثم أشار الوزير إلى الجماعة: علَى رسلكم ،ثم قام ودخل إلى الستر ولم يلبث أن خرج، فجلس وتقدم بالقراءة ،فدعا له ابن شافع والحاضرون وقالوا : قد أزعَجنا ذلك الصياح ،فإن رأى مولانا أن يعرِّفنا سببه ، فقال الوزير: حتى ينتهي المجلس ،وعاد ابن شافع إلى القراءة حتى غابت الشمس وقلوب الجماعة متعلقة بمعرفة الحال ، فعاودوه فقال : كان لي ابن صغير مات حين سمعتم الصياح ولولا تعين الأمر بالمعروف في الإنكار عليهم ذلك الصياح لما قمت عن مجلس رسول الله ﷺ ، فعجب الحاضرون من صبره (١) .

فهذا مثل في الصبر القوي الجميل يقدمه الوزير ابن هبيرة، فقد صبر على موت ابنه ولم يظهر منه شيء من الجزع، وهذا يدل على قوة إيمانه بقضاء الله تعالى وقدره، وصبره على بلائه .

وفي هذا الخبر موقف جليل لهذا الوزير في احترام السنة النبوية وتعظيمها، فقد أبى أن يخبر الحاضرين بما حدث من موت ولده حتى

---

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦٣ .

انتهى ذلك المجلس العلمي المخصص لأحاديث رسول الله ﷺ ، وفي ذلك إعزاز للعلم الشرعي واحترام كبير له .

* * *

مواقف وعبر

في

الحكمة والفراسة وسرعة البديهة

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

أخرج المؤرخ عمر بن شبة من خبر سعيد بن عبد العزيز: أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أغزى جيشا فغزا فيهم فتًى كانوا يدنو من عمر رضي الله عنه ويألفه، فأوصى به عمر صاحب البعث خيرًا، فكان معه، فراودَتْه جارية لصاحب الجيش أو لرفيق له عن نفسها فامتنع منها، فأخذت نفقةً لسيدها فجعلتها في عيبة الفتى، فافتقدها صاحبها فوجدها في عيبة الفتى، فقطع يده ، ثم أراد حسمها بالنار فامتنع عليهم فمات .

فلما قفل الجيش سأل عمر رضي الله عنه عن الفتى، فأخبروه بأمره ، قال: وبِيَد عمر رضي الله عنه عصا، فجعل ينكت بها الأرض ويقول : والله مازنى وماسرق، والله مازنى وماسرق! هل كانت معكم جارية ؟ قالوا : نعم ، قال : إيتوني بها، فأتوه بها فسألها فاعترفت ، فأمر بها عمر رضي الله عنه فقُتِلت به .

قال سعيد : فمِن يومئذ قال عمر رضي الله عنه: لايقطع إلا إمام.

قال سعيد : وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من استعملناه منكم فليجعل الرفق - يعني العدل والأمانة - [1] .

فهذه فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أدرك أوَّلاً أن دين ذلك الفتى يمنعه من ارتكاب الفواحش ، ثم أدرك ثانيًا أنه قد وقع في حبائل امرأة شيطانة فكادت له حتى أوقعته في تهمة هو بريءٌ منها .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٢٠ - ٨٢١ .

وهكذا ظهرت لنا صفة من صفات أمير المؤمنين عمر التي تميز بها، فكم هي الصفات السامية والأخلاق العالية التي تفوق فيها !!

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس قال: ماسمع الناس بمثل عمر بن الخطاب في باب الدين والدنيا، كان منور القلب فطنا بجميع الأمور، بيناه يطوف ذات ليلة سمع امرأة تقول في الطواف وهي تنشد:

فمنهن من يسقى بعذب مبرد ... نقاخ فتلكم عند ذلك قرّتِ

ومنهن من تسقى بأخضر آجن ... أجاج ولولا خشية الله فرَّتِ

ففطن رحمه الله إلى ماتشكو، فبعث إلى زوجها، فقال لرجل: استنكه فمه، فوجده متغير الفم فخيره بين خمسمائة درهم وجارية من الفيء على أن يطلقها، فاختار خمسمائة والجارية فطلقها [1].

فهذا أسلوب بليغ في الشكوى من تلك المرأة، وفكر لماح وعاطفة جياشة ونظرة رحيمة حانية من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فقد فهم مشكلة تلك المرأة التي عبرت عنها بالتلميح، وحل مشكلتها بعدل وحزم، وهكذا تكون سياسة العدل والرحمة والشعور بالمسئولية.

مثل من حكمته في علاج المشكلات:

من مواقف أمير المؤمنين حُسْن تصرفه في مواجهة المفاجآت والنوائب، ومن أمثلة ذلك ماأخرجه الإمام البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد- أبو

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٥٥.

عبيدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس : فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين- فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر ولانرى أن نرجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولانرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني ، ثم قال: ادع ليْ من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان: فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولاتقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: أني مُصْبِح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله ؟ فقال عمر: لو غيرك قالها ياأبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطَتْ واديًا له عُدوتان : إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف- وكان متغيبًا في بعض حاجته- فقال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به بأرض فلاتقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا منها فرارًا منه.

قال : فحمد الله عمر ، ثم انصرف [1].

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٩ (الفتح ١٠/١٧٩) .
صحيح مسلم ، كتاب السلام رقم ٢٢١٩ .
تاريخ الطبري ٤/ ٥٧ .

ويمكن تلخيص المواقف التي تتجلى في هذا النص فيما يلي :

١ - اهتمام عمر رضي الله عنه بتطبيق مبدإ الشورى في الأمور المهمة، ونجد أنه بدأ بالمهاجرين الأولين، ثم بالأنصار ، ثم بالمهاجرين بعد فتح مكة، وذلك أن من كان في الإسلام أقدم كان به أعلم فهو أولى بأن يقدَّم في المشورة، فأمْر الشورى في الإسلام يدور دائما على العلماء بهذا الدين .

وقد أخذ عمر رضي الله عنه برأي الكثرة من أهل الرأي، قال الحافظ ابن حجر في بيان فوائد الحديث: وفيه الترجيح بالأكثر عدداً والأكثر تجربة لرجوع عمر لقول مشيخة قريش مع ما انضم إليهم ممن وافق رأيهم من المهاجرين و الأنصار، فإن مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار [١].

وهذا يفيد بأن الكثرة أمر ملحوظ في المشورة إذا كان المستشارون من أهل الدين والرأي السديد .

٢ - فقه عمر وسعة تفكيره حينما قال: أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، قال الحافظ ابن حجر في بيان كلام عمر هذا: وأطلق عليه فرارا لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فراراً شرعيا، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهي عنه، ولو فعل لكان من قدر الله، وتجنبه مايؤذيه مشروع وقد يقدر الله وقوعه فيما فرَّ منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله، فهما مقامان : مقام التوكل ومقام التمسك بالأسباب [٢].

---

(١) الفتح ١٠/ ١٩٠ .

(٢) الفتح ١٠/ ١٨٥ .

وقد أكد عمر رضي الله عنه بيان اجتهاده هذا بضرب هذا المثل المقنع فيمن هبط بماشيته واديًا له عُدوتان، يعني جانبان مرتفعان، أحدهما خصيب والآخر جدب، فهو إن ساق ماشيته نحو الخصب ساقها بقدر الله، وإن ساقها نحو الجدب ساقها بقدر الله، وإذا كان راعي الماشية مسئولا عن أن يرتاد لها ماينفعها وأن يحوزها عما يضرها فإن مسئولية الولاية في الأمة أعظم من ذلك بكثير .

وقد كان من تمام التوفيق أن وافق اجتهاد عمر وماعزم عليه من الرجوع أمرَ النبي ﷺ الذي كان محفوظا عند عبد الرحمن بن عوف وهو قوله في هذا الوباء « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فرارا منه » .

أما بيان هذا الحديث فقد أفاض فيه الحافظ ابن حجر حيث نقل عن الإمام الطحاوي قوله : والذي يظهر والله أعلم أن حكمة النهي عن القدوم عليه لئلا يصيب من قدم عليه بتقدير الله فيقول: لولا أني قدمت هذه الأرض لما أصابني، ولعله لو أقام في الموضع الذي كان فيه لأصابه، فأُمِر أن لايقدم عليه حسما للمادة، ونُهي من وقع وهو بها أن يخرج من الأرض التي نزل بها لئلا يسلم فيقول مثلا: لو أقمت في تلك الأرض لأصابني ماأصاب أهلها، ولعله لوكان أقام بها ماأصابه من ذلك شيء أ.هـ

قال الحافظ : ويؤيده ماأخرجه الهيثم بن كليب والطحاوي والبيهقي بسند حسن عن أبي موسى - يعني الأشعري رضي الله عنه- أنه قال : « إن هذا الطاعون قد وقع، فمن أراد أن يتنزه عنه فليفعل،

واحذروا اثنتين، أن يقـول قائل: خرج خارج فـسلم، وجلس جالس فأصيب فلو كنت خرجت لسلمت كما سلم فلان، أولو كنت جلست أُصبت كما أصيب فـلان » قال: لكن أبا موسى حمل النهي على من قصد الفرار محضا، ولاشك أن الصور ثلاث، من خرج لقصد الفرار محـضًا فهذا يتناوله النهي لامـحالة، ومن خرج لحاجـة متمحـضة لا لقصد الفرار أصلا، ويتصور ذلك فـيمن تهيأ للرحيل من بلد كان بها إلى بلد إقـامتـه مثـلا ولم يكن الطاعون وقع فـاتفق وقوعـه في أثناء تجهيزه فـهذا لم يقصد الفرار أصـلا فلايدخل في النهي، والثالث من عرضَتْ له حاجة فأراد الخروج إليـها وانضم إلى ذلك أنه قصد الراحة من الإقامة بالبلد التي وقع بها الطاعون فهذا محل النزاع، ومن جملة هذه الصورة الأخيرة أن تكون الأرض الـتي وقع بها وخمة، والأرض التي يريد التوجه إليها صـحيحة فيتوجه بهذا القـصد، فهذا جاء النقل فيه عن السلف مـختلفا، فمن منع نظر إلى صـورة الفرار في الجملة، ومن أجـاز نظر إلى أنه مـستثـنى من عـموم الخـروج فـرارًا لأنه لـم يتمحض للفرار وإنما هو لقصد التداوي، وعلى ذلك يحمل ماوقع في أثر أبي موسى المذكـور« أن عمر كـتب إلى أبي عبـيدة : إنَّ لي إليك حاجة فـلا تضع كتابي من يدك حتى تقبل إلـي، فكتب إليه: إني قد عـرفت حاجـتك، وإني في جند من المسلمين لا أجـد بنفـسي رغبـة عنهم، فكتب إليـه : أمـا بعد فـإنك نزلت بالمسلمين أرضـا غمـيقـة فارفـعهم إلى أرض نزهة، فدعـا أبو عبيـدة أبا موسى فقـال: اخرج فارتَدْ للمسلمين منزلا حتى انتقل بهم .

قال : فذكر القصة في اشتغال أبي موسى بأهله [يعني لما اصيبت

بالطاعـون] ووقوع الطاعـون بأبي عبـيدة لما وضع رجله في الـركاب متوجها، وأنه نزل بالناس في مكان آخر فارتفع الطاعون .

قال: وقوله « غميقـة » أي قريبة من المياه والنزوز وذلك مما يَفسد غالبا به الهواء لفساد المياه ، والنَّزِهة الفسيحة البعيدة عن الوخم .

قال: فـهذا يدل على أن عمـر رأى أن النهي عن الخروج إنما هو لمن قصد الفرار متمحضـا، ولعله كانت له حاجة بأبي عبيدة في نفس الأمر فلذلك استـدعاه، وظن أبو عبيدة أنه إنما طلبـه ليسلم من وقوع الطاعون به فاعتـذر عن إجابته لذلك، وقد كان أمْر عمـر لأبي عبيدة بذلك بعد سماعهما للحديث المذكور من عبد الرحمن بن عوف فتأول عمر فيه ماتأول، واستمر أبو عبيدة على الأخذ بظاهره.

قال: وأيد الطحاوي صنيع عمر بقـصة العرنيين فإن خروجهم من المدينة كان للعلاج لا للفرار (١).

هذا وقصة العرنيين كانت في عهد النبي ﷺ وكانوا قد وفدوا إلى المدينة فاستـوخموها فأمرهم أن يخرجـوا خارج المدينة وأن يشربوا من ألبان الأبل وأبوالها، كما جاء في رواية الإمام البخاري (٢).

ونقل عن الشـيخ تقي الدين بن دقيق العـبد قوله: الـذي يترجح عندي في الجـمع بينهمـا- يعني عدم القـدوم وعدم الخـروج- أن في الإقدام عليه تعريض النفس للبلاء ولعلها لاتصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التـوكل فَمُنِع ذلك حذراً من اغترار

---

(١) فتح الباري ١٠/١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٧ .

النفس ودعواها مالا تثبت عليه عند الاختبار، وأما الفرار فقد يكون داخلاً في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة بما قدر عليه، فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين، ومن هذه المادة قوله ﷺ «لاتتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا» فأمر بترك التمني لما فيه من التعرض للبلاء وخوف اغترار النفس إذ لايُؤمن غدرها عند الوقوع، ثم أمرهم بالصبر عند الوقوع تسليما لأمر الله تعالى (١).

عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه :

من صفات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه التي تميز بها مقدرته على الخروج من الشدائد، وسياسة الأمور في زمن النكبات والجوائح.

ومن أبرز الأمثلة في ذلك ماجرى في عام الرمادة حيث كان في العام الثامن عشر جدب شديد عم أرض الحجاز .

قال الحافظ ابن كثير : وسميت - يعني تلك السنة- عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيها بالرماد وقيل: لأنها تسفي الريح ترابا كالرماد ويمكن أن تكون سميت لكل منهما والله أعلم (٢).

وأخرج ابن جرير الطبري بإسناده عن عدد من الشيوخ قالوا: أصابت الناس في إمارة عمر رضي الله عنه سَنَةٌ بالمدينة وماحولها، فكانت تسفى إذا ريحت(٣) ترابًا كالرماد، فسمّي ذلك العام عام

(١) فتح الباري ١٠/ ١٩٠ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٩٠ .

(٣) ريحت : أصابتها الريح .

الرمادة، فآلى عمر ألا يذوق سمنًا ولا لبنًا ولا لحمًا حتى يحيى الناس من أوّل الحيا، فكان بذلك حتى أحيا الناس من أول الحيا، فقدمت السوق عُكة من سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين، ثم أتى عمر، فقال: ياأمير المؤمنين، قد أبر الله يمينك، وعظّم أجرك، قدم السوق وطب من لبن وعُكة من سمن، فابتعتهما بأربعين، فقال عمر: أغليت بهما، فتصدق بهما، فإني أكره أن آكل إسرافًا. وقال عمر: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني مامسهم! [1].

وأخرج محمد بنِ سعد من خبر عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كان عمر يصوم الدهر[2] قال: فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتي بخبز قد ثرد بالزيت إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورًا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها فأتي به فإذا فدرٌ من سنامٍ ومن كبدٍ، فقال: أنّى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنا اليومَ، قال: بَخْ بَخْ بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيبها وأطعمتُ الناس كراديسها، ارفَعْ هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال فأُتي بخبز وزيت، قال فجعل يكسر بيده وَيَثْرِدُ ذلك الخبز ثم قال: ويحك يايرفأ! احملْ هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثَمْغ فإني لم آتِهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مُقفرين، فضعها بين أيديهم [3].

كما أخرج أيضا من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٩٨ .

(٢) صوم الدهر غير مشروع ولم يعرف هذا عن عمر، فلعل المراد أنه يكثر من سرد الصوم.

(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٢ .

كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمرًا ماكان يفعله، لقد كان يصلي بالناس العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته فلايزال يصلي حتى يكون آخر الليل، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول: اللهُم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدي (١).

وأخرج الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كانت في آخر سنة سبع عشرة وأول سنة ثمان عشرة، وكانت الرمادة جوعا أصاب الناس بالمدينة وماحولها فأهلكهم حتى جعلت الوحش تأوي إلى الأنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وإنه لمقفر (٢).

وقال الحافظ ابن كثير: وقد روينا أن عمر عَسَّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحدا يضحك، ولايتحدث الناس في منازلهم على العادة ، ولم ير سائلا يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: ياأمير المؤمنين إن السؤَّال سألوا فلم يعطوا فقطعوا السؤال، والناس في همٍّ وضيق فهم لايتحدثون ولايضحكون، فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة : أن ياغوثاه لأمة محمد، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر: أن ياغوثاه لأمة محمد ، فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الأطعمات، ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة ومن جدة إلى مكة .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٩٨ .

قال الحافظ : وهذا الأثر جيد الإسناد ، لكن ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فإن مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة ، فإما أن يكون عام الرمادة بعد سنة ثماني عشرة ، أو يكون ذكر عمرو بن العاص في عام الرمادة وهما والله أعلم [(١)].

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب قال: كان ذلك - يعني حادث الرمادة - وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار[(٢)] ، حتى أقبل بلال بن الحارث المزني فاستأذن عليه فقال: أنا رسول رسول الله إليك، يقول لك رسول الله ﷺ : لقد عهدتك كَيِّسًا ومازلت على ذلك [(٣)] فما شأنك ؟فقال : متى رأيت هذا؟ قال: البارحة، فخرج فنادي في الناس فصلى بهم ركعتين، ثم قام فقال: أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمرًا غيرُه خير منه؟ قالوا: اللهم لا، قال: فإن بلال بن الحارث يزعم ذَيَّةَ وذية- يعني كذا وكذا- قالوا: صدق بلال فاستغث بالله ثم بالمسلمين، فبعث إليهم- وكان عمر عن ذلك محصورا- فقال عمر : الله أكبر بلغ البلاء مدته فانكشف، ماأُذِنَ لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء ، فكتب إلى أمراء الأمصار : أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فإنه قد بلغ جهدهم.

وأخرج الناس إلى الاستسقاء ، فخرج وخرج معه العباس ماشيا،

---

(١) البداية ٧/ ٩٠ .

(٢) يعني أنه لم يطلب المدد منهم رجاء انكشاف الغمة .

(٣) جاء في الطبري : « ومازلت على رجل » والتصويب من البداية والنهاية .

فخطب فأوجز ثم صلى، ثم جثا لركبتيه وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا، ثم انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا في الغدران [1].

وجاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إليه أمَرَ له بأربعة آلاف درهم، فقال: لاحاجة لي فيها ياأمير المؤمنين، إنما أردت الله وماقِبَله، فلا تُدْخل عليَّ الدنيا، فقال: خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه، فأبى، فقال: خذها فإني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل هذا فقال لي مثل ماقلت لك، فقلت له كما قلت لي، فأعطاني، فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله [2].

وقد استمر هذا الحال بالناس تسعة أشهر ، ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة، وانشمر الناس عن المدينة إلى أماكنهم[3] .

قال الإمام الشافعي : بلغني أن رجلا من العرب قال لعمر حين ترحَّلَت الأحياء عن المدينة: لقد انجلَتْ عنك وَلأِنَّك لابنُ حرة، أي واسيت الناس وأنصفتهم وأحسنت إليهم [4].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٩٨ - ٩٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٠٠ .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ٩٠ .

(٤) البداية والنهاية ٧/ ٩٠ .

وأخرج ابن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما كان عام الرمـادة تجلبت العرب من كل ناحـية فـقدمـوا المدينة فكان عمـر بن الخطاب قد أمـر رجالاً يقـومون عليهم ويقـسمون عليـهم أطعمـتهم وإدامهم فكان يزيد ابن أخت النمـر، وكان المسور بن مخـرمة، وكان عبد الرحـمن بن عبد القاريّ ، وكان عـبد الله بن عتبة بن مـسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمـعوا عند عمر فيخبرونه بكل مـاكانوا فيه، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة، وكان الأعـراب حلولاً فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حـارثة إلى بني عبد الأشهل إلى الـبقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحيـة بني سلمة هم مُحدقون بالمدينة، فسمـعتُ عمر يقول لـيلةً وقد تعشى الناس عنده: أحْصـوا من تعشى عندنا، فأحـصوهم من القابلة فـوجدوهم سبعـة آلاف رجل، وقال: أحـصوا الـعيـالات الذين لايأتون والمرضى والـصبيـان، فـأحصـوا فوجدوهم أربعين ألفًا . ثم مكثنا ليالي فـزاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجـدوا من تعشى عنده عشرة آلاف والآخـرين خمسين ألفًا ، فـما برحوا حتى أرسل الـله السماء، فلما مطرت رأيتُ عـمر قد وكل كل قوم من هؤلاء النفر بناحـيتهم يخرجونهم إلى الـبادية ويعطونهم قوتًا وحُملانًا إلى باديتهم (١).

كمـا أخرج من خبـر نافع مولى الزبيـر قال: سمـعت أبا هريرة يقول: يرحم الله ابن حنتمة(٢) لقد رأيته عام الرمادة وإنه ليحمل على

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣١٦ - ٣١٧ .

(٢) يعني عمر بن الخطاب نسبة لأمه .

ظهره جرابين وعكة زيت في يده، وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رآني قال: من أين ياأبا هريرة؟ قلت: قريبًا، قال فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار فإذا صرم نحو من عشرين بيتًا من مُحارب فقال عمر: ما أقدمكم ؟ قالوا: الجهدُ، قال: فأخرجوا لنا جلد الميتة مشويًا كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقة كانوا يسفونها فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة، ثم كساهم. وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك [1].

· ومن روائع أقوال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في ذلك العام ماأخرجه ابن سعد من خبر سليمان ين يسار قال: خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة فقال: أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم ، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي فما أدري ألسُّخْطةُ عليّ دونكم أو عليكم دوني أو قد عمّتْني وعمّتْكم ، فهلمّوا فندعُ الله يُصلح قلوبنا وأن يرحمنا وأن يرفع عنّا المحل. قال فرُئي عمر يومئذ رافعًا يديه يدعو الله، ودعا الناس وبكى وبكى الناس مَليّا ، ثم نزل .

وذكر ابن سعد عدة أخبار في استسقاء عمر والمسلمين منها ماأخرجه من خبر عبد الله بن نيار الأسلمي عن أبيه قال: لماأجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس كتب إلى عمّاله أن يخرجوا يوم كذا وكذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣١٤ .

عنهم، قال وخرج لذلك اليوم عليه بُرْدُ رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى المصلى فخطب الناس وتضرع، وجعل الناس يُلحون فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدّاً وحول رداءه وجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين، ثمّ مدّ يديه وجعل يُلح في الدعاء، وبكى عمر بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته (١).

وكذلك ما أخرجه من خبر السائب بن يزيد قال: نظرتُ إلى عمر ابن الخطاب يومًا في الرمادة غدا متبذلاً متضرعًا عليه برد لايبلغ ركبتيه ، يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تهراقان على خديه، وعن يمينه العباس بن عبد المطلب. فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافعًا يديه إلى السماء وعَجّ إلى ربه، فدعا ودعا الناس معه، ثم أخذ بيد العباس فقال: اللهم إنا نستشفع بعمّ رسولك إليك. فما زال العباس قائما إلى جنبه مليًا والعباس يدعو وعيناه تهمُلان (٢).

فهذه الأخبار فيها مواقف وعبر منها :

١ - ماقام به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من السياسة الحكيمة الحازمة في احتواء تلك الأزمة الكبيرة، حيث تولى الإنفاق على القبائل العربية التي لجأت إلى المدينة، ورتب لهذا الأمر رجالا يحصون الناس ويقسمون الأرزاق بينهم .

ومع ماذكر في الروايات المذكورة من شدة تلك الأزمة وضراوتها فإنه لم يذكر حدوث وفيات من الجوع، وذلك راجع إلى السياسة

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٢١ .

الحازمة الحكيمة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وإلى قوة الإيمان عند المسلمين آنذاك، حيث ترتب عليه التراحم والمواساة بينهم .

وإن نجاح الصحابة بقيادة أمير المؤمنين رضي الله عنهم في علاج تلك الأزمة والخروج منها بنجاح ليعتبر درسا بليغا في الأعمال الإغاثية، حيث تجمع في المدينة وماحولها ستون ألفا من العرب وبقوا عدة شهور ليس لهم طعام إلا مايقدم لهم من مالية الدولة ومن أهل المدينة ، إضافة إلى الأعراب الذين لم يصلوا إلى المدينة وكانت تصل إليهم الإمدادات .

٢ - أمثلة رائعة من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ومواساته للفقراء من رعيته في المعيشة، مع ماحصل له من ضرر في بدنه ، لكن أمر النظر إلى البدن عنده ثانوي ، فهو يريد أن يمسه مايمس الفقراء من الجوع وشظف العيش حتى يكون على ذكر دائم لهم، وقد تأسى به المسلمون من أهل المدينة، حيث اقتصروا على الطعام الضروري وانفقوا على إخوانهم القادمين .

٣ - مثل من تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث يحمل المؤونة على ظهره ليوصلها إلى الأعراب، ثم لايكتفي بذلك بل يتولى الطبخ لهم حتى يشبعوا، ثم يتردد على القبائل العربية بنفسه يتفقد أحوالهم، فما الذي دفع أعلى حاكم في الأرض آنذاك إلى أن يجعل من نفسه حمالا للمتاع طباخا للناس؟!

إنه الإيمان القوي، والعقل الكبير، حيث كان يشعر بمسئوليته عن الأمة ويخشى أن لاتؤدى كما يريد إذا وكل غيره بذلك .

٤ - أمثلة من خشية الله تعالى، حيث كان عمر يقول: اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدي، وحيث يتساءل عن سبب البلاء الذي نزل بالمسلمين، فيخشى أن يكون عقوبة على تقصير منه أو من المسلمين، وهذا من العلم الراسخ بأسباب المصائب التي تصيب الأمم، وقد أمر المسلمين بدعاء الله تعالى أن يصلح قلوبهم لتنزل رحمته بهم فيرفع عنهم البلاء، وقد نفع الله تعالى المسلمين بعلم عمر والصحابة معه رضي الله عنهم ودعائهم لله تعالى بعد صلاح قلوبهم وأعمالهم، فارتفع عنهم البلاء .

وحين يكون في الأمة علماء راسخون ربانيون فإنهم يذكِّرون الناس بأن من أهم أسباب المصائب وقوع بعض أفراد الأمة بالمعاصي، كما جاء في قول الله تعالى ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وإذا عُرفت أسباب المصائب فإن انكشاف البلاء بها يكون بمعالجة أسبابها، وذلك بالاستقامة على طاعة الله تعالى واجتناب معاصيه، وشدة اللجوء إليه ودعائه ليكشف البلاء عن الأمة .

٥ - في قول عمر : أيها الناس أنشدكم الله هل تعلمون مني أمرا غيره خير منه؟ قالوا : اللهم لا . . في هذا شهادة عليا في العدل تصدر من قوم لايعرفون النفاق ولا المداهنة، وإنها لأعلى مثال لعاجل بشرى المؤمن وذلك بثناء الصالحين وتزكيتهم .

٦ - الإشادة بموقف أبي عبيدة بن الجراح الزاهد حيث رفض قبول المال الذي أعطاه إياه الخليفة عمر مقابل عمله في الدولة ولم

يقبل إلا بعد الإلحـاح والاستشهاد بموقف النبي ﷺ مع عـمر المشابه، وهذا نموذج فريد للعناصـر الزكية من البشر التي ارتفـعت عن ضغوط المطالب الدنيوية ، وتجردت للعمل الأخروي .

موقف لكعب بن سور الأسدي رضي الله عنه :

ذكـر أبو الحـسن الماوردي من رواية الزبيـر بن بـكار عن إبراهيم الحرمي بن مـحمـد بن معن الفغـاري أن امرأة أتت عـمر بن الخطاب رضي الله عنه فقـالت: ياأمير المؤمنين إن زوجي يصوم النـهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله، فقال لها: نعم الزوج زوجك، فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر علـيها الجواب، فقال له كعب بن سور الأسدي : ياأميـر المؤمنين هذه إمرأة تشكو زوجها في مبـاعدته إياها في فراشـه، فقال له عمـر رضي الله عنه كما فـهمت كلامها فـاقض بينهما، فقال كعب: عليَّ بزوجهـا فأتي به، فقال: إن امرأتك تشكوك فقـال أفي طعام أو شراب؟ قال لا في واحـد منهما، فقالت المرأة :

يا أيها القاضي الحكيم رشده   ألهى خليلي عن فراشي مسجده

زهَّـده فـي مضجعي تعبده   نـهاره ولـيلهُ مـا يـرقـده

فلستُ في أمر النساء أحمدهُ   فـاقض القضا ياكعب لاتُـردده

فقال الزوج :

زهـدني فـي فـرشها وفـي الحجـل   أنِّي امـرؤ أذهلني مـاقد نزل

في سورة النحل وفي السبع الطول   وفي كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب .

إن لها حقا عليك يارجل   نصيبها في أربع لمن عقل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال له: إن الله قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك ولها يوم وليلة، فقال عمر لكعب رضي الله عنه: والله ماأدري من أي أمريك أعجب أمن فهمك أمرهما ؟أم من حكمك بينهما ؟إذهب فقد وليتك القضاء بالبصرة[1].

ففي هذا الخبر فراسة جيدة من كعب بن سور الأسدي رضي الله عنه ونباهة عالية ، حيث إن المرأة قد عرضت مشكلتها بأسلوب الكناية، وذلك من اللباقة وحسن الأدب، ففهم مرادها لأن تلك الأمور التي ذكرتها مما يمدح بها الرجال لا مما يعابون بها، وقضى لها بقضاء عادل بتكليف من أمير المؤمنين .

وعمر رضي الله عنه مشهور بالفراسة والنباهة ، وقد تقدم لنا أمثلة على ذلك ، ولكن ربما كان فكره مشغولا بشيء من الأمور العامة والمرأة تكلمه .

ولقد كان متجردا للحق بريئا من حظ النفس حينما أثنى على كعب بن سور وولاه القضاء في تلك القضية .

من مواقف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه أيضا المؤرخ ابن شبة النميري من خبر الليث

---

(١) الأحكام السلطانية /١١٦ .

ابن سعد: أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه خرج إلى العمرة في خلافة عثمان رضي الله عنه، فاشتكى عثمان بعده[1] حتى خاف على نفسه، وأوصى ودعا مولاه حمران فكتب عهده في الناس، واستخلف عبد الرحمن بن عوف في عهده، وأمر حمران أن لايذكر لبَشَر، فلم يرجع عبد الرحمن من العمرة حتى عُوفي عثمان رضي الله عنه، فانطلق حمران إلى ابن عوف حين قدم فرحب به، ثم أخبره بالذي كان من استخلافه إياه على الأمة واستكتمه، فقال عبدالرحمن: مايسعني أن أكتم ذلك عنه، ومالي بُدٌّ أن أخبره إياه ليحذرك، قال: أهلكتني، قال: إني لن أفعل حتى أستأمن لك منه، فأتاه عبد الرحمن مسلِّما ودعا له فيما رزقه الله من العافية، ثم قال: إن لبعض الناس ذنبا لا إثم عليك في العفو عنه فهب ذلك لي، قال: ما أنا بفاعل حتى تخبرني ماهو، قال: ماأنا بمخبرك ولكن أعطني ذلك، فلم يزل به حتى فعل، فقال: قد عفوت عنه إذا كان شيئا لا إثم فيه، فذكر له أمر حمران، فقال: أُخيِّره في العقوبة أو فراقي، فقال حمران: أفشيتَ سري ! قال: قد كان ذلك، قال: [يعني عثمان] فاختر أيَّ ذلك شئت، إن شئت أن أجلدك مائة سوط، وإن شئت أن تخرج فلا أراك ولاتراني، فاختار الخروج إلى العراق، فأصاب هناك- لمكانته من عثمان- مالا وولدا، فلهم بالعراق عدد وشرف وأموال [2].

---

(١) أي مرض .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ١٠٢٩ - ١٠٣٠ .

فهذا مثل من التصرف الحكيم من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، حيث لم يجامل حمران الذي أخبره بأمر كان يتوقع أنه يسرُّه ، بل عزم على أن يخبر بذلك أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، ليكون على حذر من مولاه الذي أفشى سرَّه، لأن مصلحة الأمة الإسلامية وحماية دولتهم مما يجب تقديمه على المصالح الفردية، ومع عزمه ذلك فإنه سعى لحماية حمران الذي ماأراد بعمله ذلك إلا خيرا، حيث طلب من عثمان أن لايعاقب حمران على ماقام به .

ولكن مع تدخُّل عبد الرحمن بن عوف ووساطته لحمران فإن أمير المؤمنين عثمان لم يعْفُ عن مولاه الذي أفشى سره، بل عاقبه وإن كان قد خفف عنه العقوبة، وهذا مثل من حزم عثمان رضي الله عنه وحياطته الشديدة لأمور الأمة .

من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

من ذلك ماروي عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر استعمل المغيرة ابن شعبة على البحرين، فكرهوه ، فعزله عمر، فخافوا أن يرده فقال دِهقانهم (١) : إن فعلتم ماآمركم لم يردَّه علينا، قالوا : مُرْنا ، قال: تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر ، فأقول إن المغيرة اختان هذا فدفعه إليّ قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر ، فقال ذلك ، فدعا المغيرة فسأله ، قال : كذب أصلحك الله إنما كانت مئتي ألف، قال: فما حملك على هذا ؟ قال: العيال والحاجة ، فقال عمر للعلج: ماتقول ؟ قال: لا والله لأصدقنَّك مادفع إليّ قليلا ولاكثيراً،

(١) يعني رئيسهم والمقدَّم فيهم .

فقــال عمر للمــغيرة : مــاأردت إلى هذا ؟ قال : الخبـيث كذب علي فأحببت أن أخزيه [١] .

فهذا مثل على سرعة البديهة ، وحسن التخلص من المآزق ، فقد أراد أهل البحرين أن يوقـعوا المغيرة في مشكلة مالية ليـتخلصوا منه، وهم يعلمون صرامـة عمر وشدته في هذا الجانب، ولكن المغـيرة كان أدهى منهم، مع أنهم قد خططوا لهذا الأمر وكان هو على البديهة .

وقد صدق في وصفه قبيصة بن جـابر حينما قال: صحبت المغيرة ابن شعبة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب ، لايُخرَج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلِّها [٢] .

من مواقف معاوية رضي الله عنه في سرعة البديهة :

من أخبار مـعاوية رضي الله عنه في الدهاء وحسن البـديهة، أنه لما قدم أمير المؤمنين عمر الشام تلقـاه معاوية في موكب عظيم وهيئة، فلما دنا منه قـال: أنت صاحب الموكب العظيم ؟ قـال : نعم، قال: مع مابلغني عنك من طول وقوف ذوي الحـاجات ببابك ، قال: نعم، قال: ولِمَ تفـعل ذلك ؟ قال: نحن بأرضٍ جواسـيسُ العدو بها كثـير فيجب أن نُظهر لهم من عِزِّ السلطان مايرهبـهم ، فإذا نهيتني انتهيت، قـال: يامعـاوية ، مـاأسألك عن شيء إلا تركـتني في مـثل رواجب الضَّرِس[٣] ، لئن كان ماقلت حقا ، إنه لرأي أريب ، وإن كان باطلا

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٠ .

(٣) الرواجب هي مفاصل أصـول الأصابع ، والضَّرِس الغضبـان والصعب الخلق، ويفهم من السياق أن المقصود أنه يتركه في حال من الغضب المبني على الحيرة في أمره .

فإنه لخدعة أديب ، قال : فمرني ، قال: لا آمرك ولا أنهاك، فقيل : ياأمير المؤمنين ماأحسن ماصدر عما أوردته ، قال: لِحُسنِ مصادره وموارده جشَّمناه ماجشمناه [1] .

وهكذا كان معاوية بمجاورته لدولة عظمى آنذاك وهي دولة الروم ولكون جواسيسها قد خالطوا مجتمع المسلمين في الشام ، فإنه رأى في مظاهر الأبهة والعظمة مايخدم المسلمين في حربهم مع الأعداء حيث ينقل أولئك الجواسيس صورة عن المسلمين ترهب أعداءهم ، ولذلك لم يُصِرَّ عمر على إنكاره عليه بل ترك الأمر لاختياره نظراً لخبرته بأعدائه المجاورين له .

ويفهم من هذا الخبر وأخبار أخرى أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان معجبا بمعاوية رضي الله عنه ، وأهم شيء كان يقوم به معاوية ويرى عمر أن أحدا لايسدُّ فيه مَسدَّه أنه كان درعا واقيا للأمة الإسلامية من دولة الروم التي كانت ماتزال قوية، وكان حكامها ينتظرون أي فرصة ضعف في دولة الإسلام ليغيروا عليها، فكانوا بحاجة إلى أن يكون الوالي الذي يجاورهم داهية يقظا ذا رأي سديد وسياسة دقيقة وطاعة في جنده، فكان عمر ينكر على معاوية بعض الأمور التي تخالف سياسته كالظهور بشيء من الأبهة والمظاهر السلطانية ، ولكنه كان يغض الطرف عن ذلك لعظم غنائه في دولة الإسلام وعدم وجود من يجمع الصفات التي حازها مع الظهور بمظهر الزهد والتواضع .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٣٣ .

ومما يدل على أنه كـان يسد بابا يشكِّل خطرًا علـى دولة الإسلام ماكان من ملك الروم حينمـا أراد غزو بلاد المسلمين في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير : وطمع في مـعاويـة ملك الروم بعـد أن كان قـد أخـشاه وأذله وقـهـر جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فـيه ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفَّ ، وبعث يطلب الهدنة (1) .

ومن أخبـار معاوية رضي الله عنـه في الحكمة وحسن التـصرف ماأخـرجه الخـطيب البغـدادي من خبـر عن عبـد الله بن عمـارة بن القداح. قال: كان ثابت بن قيس بن الخطيم، شديد النفس، وكان له بلاء مع علي بـن أبي طالب، واسـتـعـمله علي بن أبـي طالب على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقي مكانه. انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فيجـد الأنصار مجتمعة في مسجد بني ظفر يريدون أن يكتبـوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما استخلف، وذاك أنه حـبسهم سنتين أو ثلاثا لم يعطهم شيئـا. فقال: ماهذا ؟ فـقالوا : نريد أن نكتب إلى معـاوية. فقال: مـاتصنعون أن يكتب إليه جماعة ؟! يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعًا وتقع أسماؤكم عنده.

---

(1) البداية والنهاية ٨/١١٩ .

فقالوا : فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها : نصرة النبي ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا، واعتديت علينا وظلمتنا، ومالنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبي ﷺ ، فلما قدم كتابه على معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأي، فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، وماذكرت النبي ﷺ ، وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلي وماكنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك، فأنظرني ثلاثا، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء في اليوم الرابع [1].

وبعد فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه في الحكمة والسياسة ، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضي الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس رضي الله عنه على شدة اللهجة في كتابه إليه ، وهو بهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئا بل كسب ولاء الأنصار له وولاء غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام .

---

(١) تاريخ بغداد ١/ ١٧٦ ، وثابت بن قيس بن الخطيم خزرجي أنصاري رضي الله عنه.

وفي هذا الخبر موقف يذكر لثابت بن قيس في الجرأة والتضحية، حيث فدى قومه بنفسه فيما إذا كان هناك ضرر عليهم، وهو وإن كان أمرا بعيدًا من أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه فإنه أمر محتمل الوقوع، ومواقف الجرأة والفداء تدل على اتصاف صاحبها بالإيثار وتجرده من الأنانية، وتلك من أخلاق الكُمَّل من الرجال .

ومن أخبار معاوية رضي الله عنه أيضا في الحكمة والمقدرة على الاقناع ماأخرجه الخطيب البغدادي من خبر عروة بن الزبير: أن المسور ابن مخرمة أخبره أنه قدم وافدًا على معاوية بن أبي سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور مافعل طعنك على الأئمة؟ فقال: المسور دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنّ بذات نفسك، والذي تعيب عليّ. قال المسور: فلم أترك شيئا أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية : لابريء من الذنب، فهل تعدُّ يامسور مالي من الاصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات . قال المسور: لا والله ماندكر إلا ماترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فانا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يامسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور : نعم ! قال معاوية : فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني ؟ فو الله لما ألي من الإصلاح أكثر مماتَلِي ولكن والله لا أُخيَّر بين أمرين، بين الله وبين غيره إلا اخترت الله تعالى على ماسواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب، إلا أن يعفو عمن يشاء ، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها ، وأوازي أمورًا عظاما لا أحصيها

ولاتحصيها، مِنْ عملٍ الله في إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التي لست تحصيها وإن عددتها لك ، فتفكَّرْ في ذلك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ماذكر .

قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له[1].

في هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع، ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضي الله عنه بسياسته التي يسير عليها، وعاد مادحا داعيا له بعدما كان منتقدا مهاجما له.

وفي هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان بأن من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه قبل أن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لاتعد أخطاؤه إلى جانبها شيئا مذكورا .

موقف لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمه الله :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن أحسن الفراسة فراسة عبدالملك بن مروان لما بعث الشعبي إلى ملك الروم فحسد المسلمين عليه، فبعث معه ورقة لطيفة إلى عبد الملك، فلما قرأها قال: تدري مافيها ؟ قال : لا، قال: حسدني بك فأراد أني أقتلك، فقال

(١) تاريخ بغداد ١/٢٠٨ - ٢٠٩ .

الشعبي: لو رآك ياأمير المؤمنين ما استكثرني، فبلغ ذلك ملك الروم فقال: والله ما أخطأ ماكان في نفسي [١].

وبهذا فوت أمير المؤمنين عبد الملك على ملك الروم مراده، وهكذا يكون الرجال العظماء الذين هم أهل لقيادة المسلمين وإدارة أمورهم .

من مواقف القاضي إياس رحمه الله :

ومن المشهورين بالحكمة وسرعة البديهة القاضي إياس بن معاوية رحمه الله تعالى قال الحافظ ابن كثير في ترجمته : وقال: بعضهم: سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال : هو حرام، فقال الرجل : فأخبرني عن الماء ، فقال: حلال ، قال: فالكسور، قال: حلال ، قال: فالتمر، قال: حلال ، قال: فما باله إذا اجتمع حرم؟ فقال إياس: أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التِّبْن ؟ قال: لاتوجعني ، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لاتوجعني شيئا ، قال: أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طينا ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك ؟ قال: إي والله وتقتلني ، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت [٢].

وهذا تشبيه بليغ من القاضي إياس أقنع به ذلك الرجل المعترض، وماله لايقتنع وقد مثل له بشيء يقتنع به جميع العقلاء وبهذا يكون القاضي إياس من الدعاة الموفقين إلى هداية الناس والتأثير عليهم

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٤ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠ .

بتوفيق الله تعالى ثم بذكائه الخارق وموهبته العالية وبلاغته الفائقة .

وذكر الحافظ ابن كثير أن رجلا قال للقاضي إياس بن معاوية : إن فيك خصالاً لاتعجبني ، فقال: ماهي ؟ فقال: تحكم قبل أن تفهم، ولاتجالس كل أحد، وتلبس الثياب الغليظة ، فقال له: أيها أكثر الثلاثة أو الإثنان ؟ قال: الثلاثة ، فقال: ماأسرع مافهمت وأجبتُ، فقال: أوَ يجهل هذا أحد ؟ فقال: وكذلك ماأحكم أنابه ، وأما عدم مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدري أحب إليّ من أن أجلس مع من لايعرف لي قدري، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا (١) .

فهذا الجواب من القاضي إياس يدل على عقل رصين ودين متين وسرعة بديهة .

قال الحافظ ابن كثير : قالوا وتحاكم إليه اثنان فادَّعى أحدهما عند الآخر مالا وجحده الآخر ، فقال إياس للمودِع : أين أودعته ؟ قال: عند شجرة في بستان، فقال: انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر، وفي رواية أنه قال له: هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتي بورق منها؟ قال: نعم ، قال: فانطلق، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه ، ثم استدعاه فقال له: أوَصَل صاحبك بَعْدُ إلى المكان؟ قال: لا بَعْدُ أصلحك الله، فقال له: قم ياعدو الله فأدِّ إليه حقه وإلا جعلتك نكالا، وجاء ذلك فقام معه فدفع إليه وديعته بكمالها(٢).

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥١ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣٥١ .

وهكذا استخدم القاضي إياس ذكاءه الحاد وفراسته الدقيقة في كشف المعتدين الظالمين، والفراسة موهبة عالية يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده .

وقال الحافظ ابن كثير أيضا : وجاء آخر فقال له : إني أودعت عند فلان مالا وقد جحدني ، فقال له : اذهب الآن وائتني غدا، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا مال فلم نَرَ له أمينا نضعه عنده إلا أنت ، فضعه عندك في مكان حريز ، فقال له : سمعا وطاعة ، فقال له : اذهب الآن وائتني غدا، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليه فقل له : أعطني حقي وإلا رفعتك إلى القاضي، فقال له ذلك فخاف أن لايودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليه ماله بكماله، فجاء إلى إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رَجَاءَ أن يودع عنده فانتهره إياس وطرده وقال له : أنت خائن (١) .

ففي هذا الخبر مقدرة فائقة من القاضي إياس على تخليص حقوق المسلمين بعضهم من بعض،وهذا مثل على ذكائه الحاد وسرعة بديهته .

وللقاضي إياس أخبار أخرى في الذكاء وسرعة البديهة وقد انتشرت هذه الأخبار حتى أصبح يضرب به المثل في الذكاء، كما قال أبو تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إياس

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥١ .

يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي وحاتم الطائي والأحنف بن قيس التميمي وإياس بن معاوية .

من مواقف يحيى بن يحيى الليثي رحمه الله :

هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المصمودي ، أحد علماء الأندلس الكبار، من قبيلة مصمودة البربرية وينتسب إلى بني الليث بالولاء .

ذكره ابن خلكان وذكر أنه رحل إلى الإمام مالك بن أنس في المدينة النبوية وسمع منه الموطأ ، وشك في سماعه لأبواب في كتاب الاعتكاف فكان يرويها عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي وكان سمع منه الموطأ قبل رحيله من الأندلس، وهذا يعتبر من ورعه ودقة تحريه في نشر العلم .

وذكر أن الإمام مالكا كان يسميه عاقل الأندلس،وسبب ذلك فيما روي أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه فقال قائل: قد حضر الفيل،فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ولم يخرج يحيى فقال له مالك: مالك لاتخرج فتراه لأنه لايكون بالأندلس؟ فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك،ولم أجيء لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به ما لك وسماه عاقل أهل الأندلس[1] .

وهكذا حاز يحيى بن يحيى على هذا اللقب الكريم من كبير علماء الحجاز في عصره لإكباره للعلم والعلماء وعدم اشتغاله عن ذلك بشيء من أمور الدنيا .

---

(١) وفيات الأعيان ٦/١٤٤ .

ومن مواقفه العالية ماذكره ابن خلكان من خبر أحمد بن أبي الفياض قال: كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي المعروف بالربضي صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه، فأتوا إلى القصر، وكان عبد الرحمن المذكور قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حبا شديدًا فعبث بها ، ولم يملك نفسه أن وقع عليها، ثم ندم ندمًا شديدًا ، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته، فقال يحيى بن يحيى : تكفر ذلك بصوم شهرين ، فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء حتى خرجوا من عنده ، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى : مالك لم تفته بمذهب مالك فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام ؟ فقال : لو فتحت له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود[1].

فهذه نباهة من هذا العالم الجليل، حيث تنبه لملاحظة مقاصد التشريع ، فإن من مقاصد شرعية الكفارات أن تكون روادع تمنع من الوقوع في المعاصي، وحيث إن العتق والإطعام سهلان ميسران للأغنياء فإن هذا العالم قد قصر ذلك الأمير في فتواه على الصيام لمشقته عليه، فبه وحده - والحال هذه - تحصل مقاصد التشريع، وهذا يعتبر من الفقه في الدين ، فإن الفقيه لاينبغي له أن يقتصر نظره على ظواهر النصوص، وإنما يقتضي منه الفقه أن ينظر إلى مقاصد التشريع.

وفي سكوت أولئك الفقهاء حينما تكلم يحيى بن يحيى مع إنكارهم فتواه حسن أدب منهم، وتقيد بآداب العلم المرعية، من

---

(١) وفيات الأعيان ٦/ ١٤٥ .

احترام كبار أهل العلم وعدم إظهـار الاختلاف أمام غيرهم، لأن ذلك يوهن من أحكامهم وفتاويهم .

وكان رحمه الله مـتواضعًا في خدمة شـيوخه، قال ابن خلكان: وحكي عنه أنه قال : أخـذت ركاب الليث بن سعد، فـأراد غلامه أن يمنعني فقال : دعه ، ثم قال لي الليث : خذمك أهل العلم، فلم تزل بي الأيام حتى رأيت ذلك [1] .

من مواقف أمير المؤمنين المنصور رحمه الله :

قال ابن القيم رحـمه الله تعالى : ومن دقيق الفـراسة أن المنصور جاءه رجل فـأخبره أنه خرج من تجـارة فكسب مالا فدفعـه إلى امرأته فذكرت أنه سرق من البيت ولم ير نقبا ولا أمارة، فقال المنصور : منذ كم تزوجتها قال: منذ سنة قال : بكرًا أو ثيبا قال: ثيبا قال: فلها ولد من غيـرك قال: لا فدعا له المنصـور بقارورة طيب يتخذه حـادّ الرائحة غريب النوع فـدفعهـا إليه وقال له تطيب من هذا الـطيب فإنه يذهب غمـك، فلما خـرج الرجل من عنده قال المنصـور لأربعة من ثقـاته: ليـقعـد على كل باب من أبواب المدينة واحـد منكم فـمن شم منكم رائحة هذا الطيـب من أحد فليأت به، وخـرج الرجل بالطيب فدفـعه إلى امرأته فلما شمته بعثت منه إلى رجل كانت تحبه وقد كانت دفعت إليـه المال فتطيب منه ومـر مجـتازًا بـبعض أبواب المدينة فـشم الموكل بالباب رائحـة طيبة فـأتى به المنصور فسـأله: من أين لك هذا الطيب فلجلج في كلامه فبعث به إلى والي الشرطة فقال: إن أحضر لك كذا

---

(١) وفيات الأعيان ٦/١٤٦ .

وكذا من المال فخل عنه وإلا فاضربه ألف سوط فلما جرد للضرب أحضر المال على هيئته، فدعا المنصور صاحب المال فقال: إن رددت إليك المال تحكِّمني في امرأتك قال: نعم قال: هذا مالك وقد طلقت المرأة منك (١) .

فهذا مثل للنباهة الدقيقة والتخطيط المحكم، وقد كان أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور مشهورًا بالذكاء الحاد والفطنة اللطيفة، ولقد قام في حل هذه القضية بدور القضاة مع شغله الكبير بإدارة شئون الدولة الإسلامية ، مما يدل على تمتعه بطاقة قوية ومقدرة فكرية عالية .

من مواقف الأمير أحمد بن طولون رحمه الله (٢):

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن عجيب الفراسة ماذكر عن أحمد بن طولون أنه بينما هو في مجلس له يتنزه فيه إذ رأى سائلا في ثوب خلق فوضع دجاجة على رغيف وحلوى وأمر بعض الغلمان فدفعه إليه، فلما وقع في يده لم يهش له ولم يعبأ به فقال للغلام: جئني به، فلما وقف قدامه استنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته فقال: هات الكتب التي معك واصدقني، من بعثك؟ فقد صح عندي أنك صاحب خبر، وأحضر السياط فاعترف فقال بعض جلسائه: هذا والله السحر قال: ماهو بسحر ولكن فراسة صادقة، رأيت سوء حاله فوجهت بطعام يشره بأكله الشبعان فما هش له ولا مد يده إليه،

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٤ .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن طولون أمير الشام ثم مصر في عهد العباسيين توفي في عام سبعين ومائتين .

فأحـضرته فتلـقاني بقوة جـأش، فلما رأيت وثاقـة حاله وقوة جـأشه علمت أنه صاحب خبر فكان كذلك.

قال: ورأى يوما حمالا يحمل صنّا[1] وهو يضطرب تحته فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال وأنا أرى عنقه بارزة وماأرى هذا الأمر إلا من خوف، فـأمر بحط الصن فإذا فيه جارية مقتولة وقد قطعت فقال: اصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة فضربه وقتل الأربعة .

قال: وكـان يتفكر ويطوف يسمع قراءة الأئمـة فدعا ثقتـه وقال: خذ هذه الدنانير وأعطهـا إمام مسجد كـذا فإنه فقير مـشغول القلب، ففعل وجلس معـه وباسطه فوجد زوجته قد ضربـها الطلق وليس معه مـايحتـاج إليه، فـقال: صـدق عرف شـغل قلبـه في كثـرة غلطه في القراءة[2] .

فهـذه ثلاثة مواقف في الفـراسة للأمـير أبي العـباس أحـمد بن طولون رحمه الله تعالى، وهي تدل على مهـارة فائقة في إدارك حقائق الأمور من أماراتها وأطرافها .

والفراسة تجتمع في تكوينهـا أمور منها : أولا توفيق الله تعالى، وذلك مبني على استقامة الإنسان وحبه للعدل والإصلاح .

---

(١) الصن كما جاء في القاموس شبه السلة المطبقة يجعل فيها الخبز .

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٨ - ٥٩ .

ثانيا: موهبة ذاتية يهبها الله جل وعلا للإنسان كما يهبه الذكاء وقوة الحافظة .

ثالثًا : اهتمام دائب وتفكير متواصل بالقضايا التي يتوجه الإنسان إليها، ولاشك أن من أعمل فكره في أمر من الأمور طويلا سيصل إلى نتائج لايصل إليها خالي الذهن من ذلك الأمر .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد رحمه الله :

قال الحافظ الذهبي : قال أبو علي المحسن التنوخي: بلغني عن المعتضد (١) أنه كان جالسا في بيت يبنى له، فرأى فيهم أسود منكر الخلقة يصعد السلالم درجتين درجتين ويحمل ضِعْف مايحمله غيره، فأنكر ذلك وطلبه، وسأله عن سبب ذلك فتلجلج، فكلمه ابن حمدون فيه وقال : من هذا حتى صرفت فكرك إليه؟ قال: قد وقع في خَلَدي أمر ما أحسبه باطلا، ثم أمر به فضُرب مئة ، وتهدده بالقتل، ودعا بالنِّطع والسيف، فقال: الأمان أنا أعمل في أتون الآجُرّ، فدخل من شهور رجل في وسطه هميان(٢)، فأخرج دنانير، فوثبت عليه وسددت فاه وكتفته وألقيته في الأتون، والذهب معي يقوى به قلبي، فاستحضرها ، فإذا على الهميان اسم صاحبه، فنودي في البلد، فجاءت امرأة فقالت: هو زوجي ولي منه طفل، فسلم الذهب إليها وقتله (٣).

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي توفي عام تسعة وثمانين ومائتين .

(٢) الهميان حزام يشد في الوسط توضع به النقود .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٥ - ٤٦٦ .

فهذا مثل عـجيب في الفراسة ، فقد قرأ المعـتضد في وجه ذلك الرجل أنه له شأنا ، وأنه قد ارتكب جريمة، فهـو حينما رأى المعتضد أدركه الخوف لِمَا شاع من قوة المعتضد وبطشه بالمجرمين ، فصار يسير بغير اتزان، ويعمل بسرعة غير معتادة ، فلفت نظر المعتضد.

وهذه الفراسة التي تميز بها المعتضد عمن حوله قد وفقه الله تعالى إليهـا لما كان يتصف به من الـعدل والحرص الشـديد على الأخذ على أيدي الظالمين ، إلى جانب أن الإنسان إذا فكر في شيء تفكيـراً عميقا فإنه يصل إلى اكتشاف متـعلقات هذا الشيء إلى مالا يصل إليه غيره، ولما كان المعتضد مستغـرق الفكر في معرفة المجرمين وإقرار العدل فإنه يكون عنده من الفراسـة في الرجال مالا يكـون عند خالي الذهن من هذا الأمر .

ومن ذلك ماذكـره ابن القيم رحمه الله تعـالى : أنه رُفع إليه أن صياداً ألقى شبكته في دجلة فوقع فيها جراب فيه كف مخضوبة بحناء وأحـضر بين يديه فـهـاله ذلك وأمر الصـيـاد أن يعاود طرح الشـبكة هنالك، ففعل فأخرج جرابًا آخر فيـه رِجْل فاغتم المعتضد، وقال معي في البلد من يفعل هذا ولا أعـرفه، ثم أحضر ثقـة له وأعطاه الجراب وقال: طف به على كل من يعمل الجرب ببغـداد فإن عرفه أحد منهم فاسأله عمن باعه منه فإذا دلك عليه فاسأل المشتري عن ذلك ونقِّر عن خبره، فـغاب الرجل ثلاثة أيام ثم عاد فقال: لازلت أسـأل عن خبره حتى انتهى إلى فـلان الهاشمي اشتراه مع عشـرة جرب وشكى البائع شره وفساده ومن جملة ماقال أنه كان يعـشق فلانة المغنية، وأنه غيبها

فلا يُعرف لها خبر وادعى أنها هربت والجيران يقولون قتلها، فبعث المعتضد من كبس منزل الهاشمي وأحضره وأحضر اليد والرجل وأراه إياهما فلما رآهما انتقع لونه وأيقن الهلاك واعترف فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاها وحبس الهاشمي حتى مات في الحبس(١).

في هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين المعتضد بالله بأمور رعيته، حيث انزعج من تلك الجريمة التي اطلع عليها، وأبدى اهتمامه الشديد في الأمر وأعمل فكره من أجل الوصول إلى مصدر الجريمة، ولما وقع في يده خيط من خيوطها وهو الجراب بدأ البحث عن صاحب الجريمة، ومن طريق صانعي الجرب توصل إلى الرجل المتهم، فأجرى حكم العدالة عليه.

وهذه نباهة قوية وفراسة جيدة حيث توصل بمعرفة طرف من القضية إلى إدراك حقيقتها .

موقف للقاضي أبي حازم رحمه الله (٢):

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : قال مكرم بن أحمد كنت في مجلس القاضي أبي حازم فتقدم رجل شيخ ومعه غلام حدث فادعى الشيخ عليه ألف دينار دينا فقال: ماتقول ؟ قال: نعم فقال القاضي للشيخ : ماتشاء ؟ قال: حبسه قال: لا فقال الشيخ : إن رأى القاضي أن يحبسه فهو أرجى لحصول مالي، فتفرس أبو حازم فيهما ساعة ثم

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / ٥٦ .

(٢) هو أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز تولى القضاء في عهد المعتضد بالله العباسي وابنه المكتفي .

قال: تلازما حتى أنظر في أمركما في مجلس آخر فقلت: له لمَ أخَّرت حبسه؟ فقال: ويحك إني أعرف في أكثر الأحوال في وجوه الخصوم وجه المحق من المبطل وقد صارت لي بذلك دراية لاتكاد تخطيء وقد وقع لي أن سماحة هذا بالإقرار عين كذبه ولعله ينكشف لي من أمرهما ماأكون معه على بصيرة، أما رأيت قلة تعاصيهما في المناكرة وقلة اختلافهما وسكون طباعهما مع عظم المال وماجرت عادة الأحداث بفرط التورع، حتى يقر مثل هذا طوعا عجلا منشرح الصدر على هذا المال، قال : فنحن كذلك نتحدث إذ أتى الآذن يستأذن على القاضي لبعض التجار فأذن له فلما دخل قال: أصلح الله القاضي إني بليت بولد لي حدث يتلف كل مال يظفر به من مالي في القيان عند فلان فإذا منعته احتال بحيل تضطرني إلى التزام الغرم عنه وقد نصب اليوم صاحب القيان يطالب بألف دينار حالا وبلغني أنه تقدم إلى القاضي ليقر له فيسجنه وأقع مع أمه فيما ينكد عيشنا إلى أن أقضي عنه، فلما سمعت بذلك بادرت إلى القاضي لأشرح له أمره، فتبسم القاضي وقال له: كيف رأيت؟ فقلت: هذا من فضل الله على القاضي فقال عليَّ بالغلام والشيخ فأرهب أبو حازم الشيخ ووعظ الغلام فأقر فأخذ الرجل ابنه وانصرفا (١) .

فهذه فراسة جيدة من القاضي أبي حازم من ناحية قراءة مافي الوجوه من تأثرات وانفعالات ، فلم يتسرع في الحكم بالظاهر المبني على إقرار المدعى عليه لينكشف له من أمور الباطن مايهديه إلى

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٤٠ .

الوصول إلى الحق، وليس القاضي ملزما بالحكم الفوري، فإذا كان في شك من القضية فإن في تأجيلها فسحة للتأمل والمقارنة، أو حصول أمر خارجي يكشف الوضع الحقيقي كما هو الحال في هذه القضية .

موقف لصاحب شرطة أمير المؤمنين المكتفي بالله رحمهما الله(١) :

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اللصوص أخذوا في زمن المكتفي بالله مالا عظيما فألزم المكتفي صاحب الشرطة بإخراج اللصوص أو غرامة المال، فكان يركب وحده ويطوف ليلا ونهاراً إلى أن اجتاز يومًا في زقاق خال في بعض أطراف البلد فدخله مُنَكَّرا ووجده لاينفذ، فرأى على بعض أبوابه شوك سمك كثير وعظام الصلب، فقال لشخص: كم يقوم التقدير ثمن هذا السمك الذي هذا عظامه؟ قال: دينار، قال: أهل الزقاق لاتحتمل أحوالهم مشترى مثل هذا لأنه زقاق بيِّن الاختلال إلى جانب الصحراء لاينزله من معه شيء يخاف عليه أو له مال ينفق منه هذه النفقة، وماهي إلا بلية ينبغي أن يكشف عنها فاستبعد الرجل هذا وقال: هذا فكر بعيد فقال: اطلبوا ليْ امرأة من الدرب أكلمها فدق بابا غير الذي عليه الشوك واستسقى ماء فخرجت عجوز ضعيفة فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي تسقيه وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك، إلى أن قال لها: وهذه الدار من يسكنها وأومأ إلى التي عليها عظام السمك؟ فقالت: فيها خمسة شبان أعفار (٢)كأنهم تجار وقد نزلوا

---

(١) هو أمير المؤمنين علي بن أحمد العباسي وأبوه المعتضد بالله ولقبه المكتفي بالله توفي في عام خمسة وتسعين ومائتين .

(٢) أي بيض الوجوه .

منذ شهر لانراهم نهاراً إلا في كل مدة طويلة، ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا وهم في طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج والنرد ولهم صبي يخدمهم، فإذا كان الليل صدروا إلى دار لهم بالكرخ ويدَعون الصبي في الدار يحفظها ، فإذا كان سحرا جاؤوا ونحن نيام لانشعر بهم فقال للرجل : هذه صفة لصوص أم لا؟ قال: بلى ، فأنفذ في الحال فاستدعى عشرة من الشرط وأدخلهم إلى أسطحة الجيران ودق هو الباب فجاء الصبي ففتح فدخل الشرط معه فما فاته من القوم أحد فكانوا هم أصحاب الجناية بعينهم (١) .

فهذا الخبر فيه موقفان : الأول موقف حزم وقوة وعدالة من أمير المؤمنين المكتفي بالله، حيث استعظم تلك السرقة الكبيرة فجعل رئيس الشرطة بين خيارين : العثور على اللصوص ، أو غرامة ذلك المال المسروق، فكان هذا الحزم الشديد دافعا لرئيس الشرطة كي يبذل قصارى جهده في العثور على اللصوص .

والثاني : موقف لرئيس الشرطة حيث بذل جهده وأعمل فكره في البحث عن اللصوص إلى أن اهتدى إليهم بتوفيق الله تعالى ثم بدهائه ونباهته وحسن فراسته .

موقف للوزير محمد بن السَّلم رحمه الله :

من أخبار عبد الرحمن بن الحكم(٢) أنه تكررت الشكوى عليه

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٩ - ٦٠ .

(٢) هو أحد أمراء الأندلس .

بولاة المدينة واحد بعد واحد، فأقسم ألاَّ يُوَلي المدينة رجلاً من أهل قرطبة فكشف عن من يستحق هذا من سُكَّان الكُورَ من مواليه فأُشير له إلى محمد بن السلم، ووُصفَ عنده بالحجّ وحُسن العقل والتواضُع فبعث فيه وولاه المدينة ، فلما ركب أوَّل يوم وُلّي فيه المدينة إلى القصر، قيل له قتيل بالقصَّابين في شيرة[1] فقال نُوتى به، فلما صار بين يديه أمر بانزال القتيل في الرصيف لعله يمرُّ به أحدٌ ممن يعرفه، وأمر بتقديم الشيرة إليه فنظر إلى شيرة جديدة فقال عليَّ بالحصَّارين كلهم، تجارهم وعمَّال الأيدي. فلما أُتي بهم، قدَّم إلى نفسه وجوههم فقال لهم: « عمل الشيرات والقفاف مشتبه أو يعرف بعضهم عمل بعض». فقالوا له : « بل يعرف بعضنا أعمال بعض، ونعرف أعمال أهل الكور من أعمالنا بقرطبة» فأمر بإبراز الشيرة إليهم فقالوا: « هذه من عمل فلان وهو في الجماعة واقف » . فأمر بتقديمه فقدم إليه فقال: نعم هذه الشيرة اشتراها مني بالأمس فتى عليه هيئة خدمة السلطان ووصفه كذا، فقال الشرطُ والمشترون : هذه صفة فلان الأخْرَس الساكن برُصافة ، فنهض إليه وفُتِش عليه فوُجدت ثيابُ القتيل عنده فلما بلغ الخبر عبد الرحمن أمر بتوليته الوزارة مع المدينة، فلما دخل البيت صاروا له كلهم تبعًا في الرأي [2].

فهذا الأمير كان حاذقًا في معرفة صاحب الجريمة من متعلقاتها ، فكان الخيط الذي عرف به القاتل ذلك الوعاء الذي وُضع فيه القتيل،

---

(١) الشيرة كالقفة وعاء توضع به الأشياء .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطيه / ١١٤ .

فقاده ذلك إلى معرفة صانع الوعاء، ثم إلى معرفة من اشتراه حتى انكشفت الجريمة .

وفي الخبر موقف يذكر للأمير عبد الرحمن الحكم في حسن اختيار الولاة ، وتقدير أهل النبوغ والتفوق، فحينما نجح هذا الوالي في كشف تلك الجريمة الخفية كافأه الأمير عبد الرحمن بإسناد الوزارة إليه مع إمارة قرطبة .

موقف للقاضي ابن العديم رحمه الله تعالى :

ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة القاضي إبراهيم بن محمد بن عمر العقيلى ابن العديم: أن ابن العديم ادعى عنده مُدَّعٍ على آخر بمبلغ فأنكر، فأخرج المدعي وثيقة فيها « أقر فلان بن فلان » فأنكر المدعى عليه أن الاسم المذكور في الوثيقة اسم ابيه، قال له: فما اسمك أنت ؟ قال: فلان، قال: واسم أبيك، قال: فلان، فسكت عنه القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى طال ذلك، وكان القارئ يقرأ عليه في صحيح البخاري، فلما فرغ المجلس صاح القاضي: يا ابن فلان، فأجابه المدعى عليه مبادرا، فقال له: ادفع لغريمك حقه، فاستحسن من حضر هذه الحيلة التي استغفل بها المدعى عليه حتى التجأ إلى الاعتراف [1].

فهذا من فراسة القاضي ابن العديم ونباهته، فقد اضطر المدعى عليه إلى الاعتراف بالاسم الذي ذكره المدعي بالحيلة، ثم حكم عليه بإقراره، واختصر القضية التي قد تطول بسبب إنكار المدعى عليه .

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٦٤ - ٦٥ .

موقف للقاضي مصطفى التركي رحمه الله :

هو أحد القضاة في عهد الدولة العثمانية ويعرف« كوجك مصطفى» وقد تولى قضاء الشام سنة إحدى بعد الألف، وقد سلك في قضائه مسلكا حسنا، وكان يتحرى في أحكامه ويحررها خصوصا فيما يتعلق بالجند ومداينتهم .

وكان يحط على المرابين، وقد دخل عليه خصمان أحدهما جندي، فحرر عليه ولم يسع الجندي إلا الترك لرباه، ولما فاته مايحصل له من المربا أنكر رهنا كان عنده للمدين، فقال للراهن: أقم عليه البينة، فقال: إنه لايتجرأ أحد على الشهادة عليه، فقال للجندي: ادن مني ، فدنا منه، فأخذ خاتمه منه وأعطاه للمدعي عليه وقال له: خذ هذا الخاتم واذهب إلى بيت هذا الرجل وقل لهم: أعطوني الرهن الذي صفته كذا وكذا وخذوا هذا الخاتم أمارة، فذهب وجاء بالرهن كما صفه الراهن فاعترف به .

وكان له من قبيل هذه الفراسة أشياء كثيرة فتهارع الناس إليه في طلب الحقوق، وكان إذا مر في أسواق دمشق دعا له أهلها [1].

وهكذا استخرج هذا القاضي القوي الفطن الرهن من ذلك الجندي الجاحد بهذه الحيلة الناجحة ، وبغير هذا التصرف فقد كان من الصعب استخراج الحق منه لعدم جرأة الناس على الشهادة عليه .

وكذلك يكون القضاة الذين نور الله تعالى بصائرهم ووفقهم لحل

---

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١١٦٢ عن خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للشيخ فضل الله المحبي .

قضايا المسلمين، والفراسة نور يلقيه الله تعالى في قلب المؤمن فيكون عونا له على حل المشكلات وتجلية الأمور الخفية، ويساعد على ذلك اهتمام الإنسان بهذا الأمر واستدامة التفكير فيه ، فإن من وجه تفكيره لشيء برع فيه .

* * *

فهرس الجزأين السابع عشر والثامن عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- مثل من حكمته في علاج المشكلات	٥١٤
- عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه	٥٢٠
- موقف لكعب بن سور رضي الله عنه	٥٣٠
- من مواقف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه	٥٣١
- من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه	٥٣٣
- من مواقف معاوية رضي الله عنه	٥٣٤
- موقف لعبد الملك بن مروان	٥٣٩
- من مواقف القاضي إياس	٥٤٠
- من مواقف يحيى الليثي	٥٤٣
- من مواقف المنصور العباسي	٥٤٥
- من مواقف أحمد بن طولون	٥٤٦
- من مواقف المعتضد العباسي	٥٤٨
- موقف للقاضي أبي حازم	٥٥٠
- موقف لصاحب شرطه المكتفي بالله	٥٥٢
- موقف لمحمد بن السَّلم	٥٥٣
- موقف للقاضي ابن العديم	٥٥٥
- موقف للقاضي مصطفى التركي	٥٥٦